مختارات مريمية

طبعة أولى

٢٠٠٩

❊

جميع الحقوق محفوظة

❊

منشورات المكتبة البولسيّة
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب : ١٢٥
هاتف : ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

مختارات مريمية

جمعها وترجمها وقدّم لها

أديب مصلح

تمهيد

مريم العذراء حَدَثٌ فريدٌ مذهلٌ في تاريخ البشريّة، فهي المرأة الوحيدة التي اختارها خالقها لتكون له أُمًّا، وزيّنها بكل جمالٍ، وكمالٍ، ونقاءٍ، ونعمةٍ، وبجميع الفضائل التي تليق بهذه الأمومة.

لقد اصطفاها كي يستمدّ جسدًا بشريًّا يفتدي به الجنس البشريّ، من جسدها الذي وقاه من كلّ لوثةٍ يرثها البشريّون من خطيئة الأبوين الأوّلين، ولكي يحقّق، من خلالها، مشروعه الخلاصيّ الذي غيّر مجرى تاريخ الكون.

اختارها الله، ولكنّه أبى أن تكون أداةً صمّاء، لا إرادة لها ولا حَوْل، ولم يتجسّد فيها إلاّ بملء رضاها، بعد أن ضمن صون بتوليّتها، فكانت الأمّ العذراء الوحيدة، وكانت، وحدها، أُمّ الله الذي سكن في أحشائها، ونما فيها جنينًا، ثمّ رقد بين ذراعيها رضيعًا، تُرضعه وتعنى به ابنًا، وتعبده إلهًا هو جوهر كيانها، ومصدر وجودها وحياتها.

معها عُقدت علاقةٌ فذّةٌ بين الله والبشر في الحرّيّة، والاحترام المتبادل، علاقةٌ تبدو وهمًا في نظر حكمة البشر، ولكنّها واقعٌ هزّ الكون، وحوّله تحوّلاً جذريًّا.

والمدهش هو أنّ هذه المرأة الأرفع شأنًا في التاريخ، قد عاشت هذا الامتياز في التجرّد التامّ، والبساطة المطلقة، والخدمة السمحاء بلا حدودٍ. وقد انتدبها ابنها الإلهيّ، وهو يغادر عالمنا الجائر، لتكون أُمًّا للكنيسة ولكلّ مؤمنٍ، وهي ما فتئت تضطلع بهذه المهمّة بعطف الأُمّ وحنانها، وسهرها الدؤوب، والتماسها الخير الأسمى لبنيها، بعد أن انتقلت نفسًا وجسدًا إلى السماء، حيث تنعم، لدى ابنها، بأبلغ نفوذٍ، وبشفاعةٍ مستجابةٍ بلا تحفّظٍ.

فهي، منذئذٍ، ما برحت حاضرةً في عالمنا، تمارس أمومتها الشاملة الرقيقة، فتشيع في نفس كلّ مؤمنٍ شعورًا عذبًا بالطمأنينة والعزيمة، كلّما أعاقت دروبه عقباتٌ

كأداء، وبالعزاء كلّما انقضّت عليه أرزاء وفواجع تبدو قاتلةً، وبالرجاء، كلّما تراكمت، في داخل نفسه الواهية، وفي محيطه القاسي، بواعث القنوط.

وهي، بظهوراتها المتلاحقة، ورسائلها الخلاصيّة، لا تني تذكّر أبناءها، في كلّ جيلٍ، وفي كلّ بقعةٍ، بأنّها إلى جانبهم، ساهرةٌ، مواكبةٌ، مغدقةٌ عونها، تساعدهم على تخطّي عثرات الدنيا، وتشرع لهم أبواب السماء، طالما ظلّوا يسألونها أن «صلّي من أجلنا، نحن الخطأة المساكين، الآن، وفي ساعة موتنا».

وهي، بقدوة حياتها العابقة بالطهر والمحبّة، الزاخرة بالتواضع والتجرّد، الطافحة بالبساطة والشفافيّة، المبذولة خدمةً مجّانيّةً صامتةً، الذائبة في الله إمعانًا في تأمّل كلمته، وغيرةً في تنفيذ مشيئته، تنهض نموذجًا أكمل للحياة المسيحيّة، وأُسوةً لا تُضاهى للقداسة والكمال.

إنّ مريم، بما خُصّت به من اختيار الله، ومن إنعاماتٍ فائقةٍ، ومن قداسة سيرتها على الأرض، ومن مشاركةٍ لابنها في رسالته، وفي عمله الخلاصيّ، من العظمة بحيث قيل إنّها، هي نفسها، لا تحيط بأبعاد هذه العظمة التي تكرّس فرادة المباركة بين النساء.

بيد أنّ هذه العظمة لا تمتّ بسببٍ إلى أنماط العظمة التي تثير إعجاب العالم. فابنها الذي بُشّرت بأنّه سيكون ملكًا لا انتهاء لملكه، لم يلقَ، على الأرض، نجاحًا سياسيًّا أو اجتماعيًّا، فلم يكن له جيشٌ، ولا قصرٌ، لا أُبّهةٌ، ولم تنعم أُمّه بشيءٍ ممّا تنعم به أمّهات الملوك والأباطرة، فلا تاجٌ، ولا أمجادٌ، ولا مالٌ وبذخٌ، ولا سطوةٌ ونفوذٌ. فمن المذود الذي وضعته فيه وليدًا، حتّى صليب المهانة الذي عُلّق عليه، كان فقيرًا بين ظهراني فقراء، عاملاً بين ظهراني كادحين، محرومًا من كلّ يُسرٍ وبحبوحةٍ. وهكذا كانت أُمّه.

ولئن كانت الكتب المقدّسة قد احترمت تواضع العذراء، وامّحاءها، وصمتها فلم تذكر عن سيرتها الأرضيّة سوى الزهيد، إلاّ أنّ هذا الزهيد قد انطوى على الجوهريّ الذي شغل تأمّلات المؤمنين في كلّ جيلٍ، فتوغّلت في استقرائه وتقصّيه أذهانهم، واضطرمت بنار حبّه أفئدتهم، واغتنت بثراء كنوزه نفوسهم، وأبدعت في الإشادة به قرائحهم.

فمنذ فجر المسيحيّة أدرك المسيحيّون، بحدْسهم الثاقب، وبمحبّتهم الخالصة، أنّ يسوع وأمّه يفوقان الخلائق كلّها، واستشفّوا القيمة الجُلّى لتعاليمهما وقدوة حياتهما، فعبّروا عن إيمانهم وحبّهم بأقوالٍ نيّرةٍ، ما برحت نبراسًا لعقولنا، وجذوةً تدفئ قلوبنا، وتنعش تقوانا.

وإنّها لمفارقةٌ مدهشةٌ أنّ الزهيد المقتضب الذي أوردته الكتب المقدّسة قد ألهم فيضًا دفّاقًا من الأقوال والكتابات التي استفاضت في تفصيل مزايا أمّ الله.

ولطالما كان الشرق، مهبط الوحي، ومسرح الروح، سبّاقًا إلى التعبير عن إيمانه وحبّه، فوسم أباءُ الكنيسة الشرقيّون، سحابة القرون العشرة الميلاديّة الأولى، بألوان عبقريّاتهم، وبعصارة عقولهم وقلوبهم، وبنيران غيرتهم، كلّ ما يمتّ بصلةٍ إلى العذراء مريم، قبل أن ينكبّ لاهوتيّو الغرب على هذا الإرث الثرّ، ويتمثّلوه، ويشبعوه بحثًا وتنقيبًا، ويُغنوه بإبداعاتهم.

وباكرًا تجلّت للآباء الشرقيّين الحقائق المريميّة الأساسيّة، ولا سيّما:

– بتوليّة مريم الدائمة، في حبلها، وولادتها، وبعد ولادتها.

– قداستها المطلقة وعصمتها من الخطيئة، منذ لحظة تكوينها الأولى، تمهيدًا لاختيارها أداةً لأمومة الله، وللتجسّد.

– كونها حوّاء الجديدة، التي محت آثار خطيئة حوّاء الأولى، وأبطلت لعنتها.

– كونها صورة الكنيسة ونموذجها.

– انتقالها جسدًا ونفسًا إلى جوار ابنها في السماء.

منذ عام **٤٣١** أُعلنت في أفسس عقيدة أمومة مريم لله. وإن تلكّأ، حتّى القرنين المنصرمين، إعلان العقائد المريميّة الأساسيّة الأُخرى، مثل الحبَل بها بلا دنسٍ، وانتقالها نفسًا وجسدًا إلى السماء، فلم يكن هذا الإعلان سوى تأكيدٍ لتقليدٍ قديمٍ راسخٍ، واحتفالٍ فرِحٍ بالنعم الفائقة التي خُصّت بها، منذ البدء، مريم العذراء.

من فيض ما كُتب عن أُمّنا السماويّة، في مختلف الحقب المسيحيّة، انتقينا هذه النصوص المختارة التي تمثّل طيفًا رحبًا يضمّ زبدة تأمّلات لاهوتيّين، وومضات جوى صوفيّين، وعصارة أبحاث مفكرّين، وتنهّدات هوى شعراء، وتمتمات صلوات قومٍ

بسطاء؛ أدعية قدّيسين، واعترافات ملحدين ومضت لهم، في لحظاتٍ مباركةٍ من حياتهم، أنوار تلك الأُمّ التي يصبو إلى حنانها كلٌّ منّا. فجمالها ألهم عظماء الفنّانين من شعراء ورسّامين، ونحّاتين، وموسيقيّين، وكمالها فتن قلوب فئاتٍ متباينة النزعات والمشارب، وهكذا اجتمعت، إلى جانب تجلّيات مريميّين كبارٍ أمثال القدّيسين يوحنّا الدمشقيّ، وبيرنار، وغرينيون دي مونفور، نجاوى مؤثّرة لأمثال من تاهت بهم الدروب نظراء ڤرلين، وبودلير، وجان پول سارتر؛ وجاورت عبارات إعجاب مارتن لوثير تعابير تقوى البابوين بولس السادس ويوحنّا بولس الثاني.

من المحقّق أنّه مهما قيل عن أمّ الله، فما من قولٍ وفاها، قطّ، حقّها، ولن يفيها، يومًا، قولٌ حقّها من التمجيد الذي تستأهله. ومع ذلك، نرجو أن تسهم الأقوال التي أملاها الحبّ والإيمان على الكثيرين، في إيقاظ ما غفا في أغوار وجداننا، وفي نفخ الرماد عن جذوات حبّنا الهامدة لأُمّ إلهنا وأمّنا، فنؤوب إليها بقلوبٍ متعطّشةٍ إلى حنانها، مؤمنةٍ بمن جعل الأجيال تغبطها.

ولا ريب أنّ التحدّث إلى تلك الأُمّ، هو، أبدًا، خيرٌ من التحدّث عنها.

أَديب مصلح

العذراء في العهد القديم

لقد تبيّن آباء الكنيسة، في ثنايا أسفار العهد القديم نوعين من الإشارات إلى أمّ الله: أحدهما مباشر انطوت عليه نبوءات، والآخر نصوصٌ مختلفة توسّموا فيها أوصافًا للعذراء الفائقة القداسة.

من النبوءات، اثنتان بليغتان:

أشعيا (٧: ١٤):

«يؤتيكم السيّد نفسه آيةً. ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا، وتدعو اسمه عمّانوئيل»

ميخا (٥: ٢):

«وأنت، يا بيت لحم أفراته، إنّك صغيرةٌ في ألوف يهوذا، ولكن منك يخرج لي من يكون متسلّطًا على إسرائيل، ومخارجه منذ القدم، منذ أيّام الأزل. لذلك يتركهم إلى حين تلد الوالدة».

أمّا النصوص الأُخرى فكثيرةٌ، نجتزئ بأهمّها:

سفر التكوين (٣: ١٣ - ١٦)

«فقال الله للحيّة... وأجعل عداوةً بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، فهو يسحق رأسكِ، وأنت ترصدين عقبه».

هذا القول ينطوي، على حدّ قول الأب «باشيليه» على «مخطّط انتقامٍ من إبليس، مخطّطٍ يضع، مقابل فريق الخاسرين: آدم وحوّاء، فريق المنتصرين: يسوع وأمّه». وإن لم تُذكر، صراحةً، المنزّهة من الدنس، إلاّ أنّها هي المقصودة. فقد تستأنف حوّاء الأولى، بعد أن تتوب وتنهض، صراعها ضدّ الحيّة، ولكن ما دامت لم تستعد براءتها الأصليّة، لن يكون انتقامها إلاّ جزئيًّا ونسبيًّا، ولن يصبح كاملاً ومطلقًا، إلاّ يوم تظهر مريم، وهي زهرة نسل آدم وحوّاء، مثلما كانت قد ظهرت حوّاء الأولى، كلّيّة الطهر، من يد الله، كي تشنّ على الشرّير الحرب الحاسمة.

سفر الأمثال
جاء على لسان الحكمة (٨: ١٧ – ٣٦)

«أنا أحبّ الذين يحبّونني، والمبتكرون إليّ يجدونني، معي الغنى والمجد والأموال الثابتة والبرّ. ثمري خيرٌ من الذهب الإبريز، وغلّتي أفضل من الفضّة الخالصة. أسير في طريق البرّ، في وسط سُبُل العدل، لكي أورث الذين يحبّونني الخير، وأملأ خزائنهم. الربّ خلقني أُولى طُرقه، قبل أعماله منذ البدء. من الأزل أقمتُ، من الأوّل، قبل أن كانت الأرض. وُلدت حين لم تكن الغمار والينابيع الغزيرة المياه، قبل أن غُرست الجبال، وقبل التلال وُلدتُ، إذ لم يكن قد صنع الأرض، والحقول وأوّل عناصر العالم. حين ثبّت السماوات كنت هناك، وحين رسم دائرةً على وجه الغمر، حين جمّد الغيوم في العلاء، وحبس ينابيع الغمر، حين وضع للبحر حدّه – فالمياه لا تتعدّى أمره – وحين رسم أسس الأرض. وكنت عنده طفلاً، وكنت في نعيمٍ يومًا فيومًا، ألعب أمامه في كلّ حينٍ، ألعب على وجه أرضه، ونعيمي مع بني البشر.

فاسمعوا لي أيّها البنون، فطوبى للذين يحفظون طُرُقي. اسمعوا التأديب، وكونوا حكماء، ولا تهملوه. طوبى للإنسان الذي يسمع لي، ساهرًا عند مصاريعي، يومًا فيومًا، حافظًا عضائد أبوابي، فإنّه من وجدني وجد الحياة، ونال رضًى من الربّ، ومن أخطأ إليّ ظلم نفسه. كلّ من يبغضني يحبّ الموت.

وقد استشفّ الآباء في وصف المرأة الفاضلة، أو المرأة القديرة (٣١: ١٠ – ٣١) صورةً للسيّدة العذراء، حيث جاء:

«من يجد المرأة الفاضلة؟ إنّ قيمتها تفوق اللآلئ. قلب زوجها يثق بها، فلا تعوزه الغنيمة. تأتيه بالخير دون الشرّ، جميع أيّام حياتها. تلتمس صوفًا وكتّانًا، وتعمل بحذق كفّيها. فتكون كسفُن التاجر تجلب طعامها من بعيدٍ. تقوم والليل مخيّمٌ، وتعطي طعامها لبيتها، ولجواريها أعمالهنّ. تتأمّل حقلاً فتشتريه، وبثمر كفّيها تغرس كرمًا. تشدّ وسطها بالقوّة، وتشدّد ذراعيها. تذوق ما أنجح تجارتها، فلا ينطفئ في الليل سراجها. تلقي يديها على المِكَبّ، وأناملها تمسك المغزل. تبسط كفّيها إلى البائس، وتمدّ يديها إلى المسكين. لا تخاف على بيتها من الثلج، لأنّ أهل بيتها جميعهم لابسون ثيابًا مضاعفةً...

لباسها العزّ والبهاء، وهي تضحك لليوم الآتي. تفتح فمها بالحكمة، وعلى لسانها تعليم الرحمة. تراقب طُرُق بيتها، ولا تأكل خبز الكسل. يقوم بنوها ويهنّئونها، ويقوم زوجها فيمدحها: «بناتٌ كثيراتٌ قمنَ بالمآثر، أمّا أنت ففقتهنّ جميعًا». الحسن غرورٌ، والجمال باطلٌ، والمرأة المتّقية للربّ هي التي تُمدَح. أعطوها من ثمر يديها، ولتمدحها في الأبواب أعمالها».

سفر الحكمة

وشُبّهت العذراء بالحكمة التي قيل فيها (٧: ٢٦– ٣٠):

إنّها نفحة مجد العليّ الخالصة الطهر،
فلا يشوبها أيّ نجسٍ.
إنّها انعكاس نوره الأزليّ،
ومرآة عمله الصافية،
وإيقونة بهائه.
إنّها أبهى من الشمس، وأسمى من كلّ مجموعات النجوم،
وإذا قيست بالنور تقدّمت عليه،
لأنّ النور يعقبه الليل، أمّا الحكمة فلا يغلبها الشرّ.

وفي سفر ابن سيراخ (الفصل ٢٤) جاء، أيضًا، على لسان الحكمة التي رأى فيها الآباء رمزًا لمريم:

«إنّي خرجتُ من فم العليّ بكرًا قبل كلّ خليقةٍ، وجعلتُ النور يشرق في السماوات على الدوام، وغشيتُ الأرض كلّها بمثل الضباب، وسكنتُ في الأعالي وجعلتُ عرشي في عمود الغمام... ووطئتُ بقدرتي قلوب الكبار والصغار... حينئذٍ أوصاني خالق الجميع والذي حازني عيّن مقرّ مسكني... قبل الدهر، من الأوّل حازني، وإلى الدهر لا أزول. وقد خدمتُ أمامه في المسكن المقدّس... ارتفعتُ كالأرز في لبنان، وكالسرو في جبال حرمون... فاح عرفي كالدارصينيّ والقندول العطر، وانتشرت رائحتي كالمرّ المنتقى... أنا كالكرمة المنبتةِ النعمة، وأزهاري ثمار مجدٍ وغنًى. أنا أُمّ المحبّة البهيّة والمخافة والعلم والرجاء الطاهر، في كلّ نعمة الطريق والحقّ، وكلّ رجاء الحياة والفضيلة. تعالوا إليّ أيّها الراغبون فيّ واشبعوا من ثماري. فإنّ روحي أحلى من العسل، وميراثي ألذّ من شهد العسل، وذكري يبقى في أجيال الدهور. مَنْ أكلني عاد إليّ جائعًا، ومن شربني عاد ظامئًا. من سمع لي فلا يخزى، ومن عمل بإرشادي فلا يخطأ. من شرحني فله الحياة الأبديّة... أنا كساقيةٍ من النهر، وكقناةٍ خرجت إلى الفردوس. قلتُ أسقي جنّتي، وأروي روضتي، فإذا بساقيتي قد صارت نهرًا، وبنهري قد صار بحرًا. فإنّي أُضيء بالتأديب مثل الفجر وأذيعه إلى الأقاصي، أنفذ إلى جميع أعماق الأرض، وأنظر إلى جميع الراقدين، وأنير لجميع الذين يرجون الربّ. إنّي أفيض التعليم مثل نبوّةٍ، وأخلّفه لأجيال الدهور..»

لطالما رأى الآباء والشرّاح في بعض مقاطع هذا النشيد رموزًا إلى مريم العذراء، وإلى الكنيسة المقدّسة. ومن هذه المقاطع:

(٢:٢) كالسوسنة بين الشوك، كذلك خليلتي بين البنات.

(٣:٦) مَنْ هذه الطالعة من البرّيّة كأعمدةٍ من دخانٍ معطّرٍ بالمرّ والبخور، وبجميع مساحيق التاجر؟

(٤:٧) كلُّك جميلةٌ يا خليلتي، ولا عيب فيكِ.

(٤:١٢- ١٣) أُختي العروس جنّةٌ مقفلةٌ، جنّةٌ مقفلةٌ وينبوعٌ مختومٌ.

قنواتك فردوس رمّانٍ، مع كلّ ثمرٍ لذيذٍ، وحنّاءٌ مع ناردين.

(٥:٢) إنّي نائمةٌ، وقلبي مستيقظٌ، وإذا بصوت حبيبي قارعًا أن افتحي لي، يا أُختي، يا خليلتي، يا حمامتي، يا كاملتي، فإنّ رأسي قد امتلأ من الندى، وخصائلي من قطرات الليل.

(٦:٧-٩) الأبكار لا عدد لهنّ. لكنّ حمامتي كاملتي وحيدةٌ. هي وحيدةٌ لأمّها، مختارةٌ لوالدتها. رأتها البنات فغبطنَها. رأتها الملكات والسراريّ فأثنينَ عليها. مَن هذه المشرفة كالصبح، الجميلة كالقمر، المختارة كالشمس، المرهوبة كصفوفٍ تحت الرايات؟

وجديرٌ بالتنويه أنّ صلواتنا الطقسيّة حافلةٌ بالإشارات والرموز المستقاة من مختلف أسفار العهد القديم، حيث تظهر العذراء:

فردوس النعيم الذي نبتت فيه شجرة الحياة، وفلك نوحٍ الذي به نجونا من طوفان الخطيئة، والحمامة التي حملت الرحيم، وسلّم يعقوب التي تربط الأرض بالسماء، بها انحدر الله إلينا، وبها نحن ارتقينا من الأرض إلى السماء، والعلّيقة الملتهبة التي لا تحترق رمزًا إلى مريم التي أصبحت أُمًّا ولم تفقد بتوليّتها، وتابوت العهد المصنوع من خشبٍ لا يفسد، والحاوي قارورة المنّ، الطعام الهابط من السماء، وبرج داود الذي لا يُرام، وحصنه المنيع الذي يلوذ به شعب الله كي يحمي نفسه من سهام الأعداء، وقوس الغمام، علامة المصالحة بين الله والبشر، وعصا هارون المورقة، وجرّة المنّ، وجزّة جدعون المندّاة، والجبل الذي انقطع منه الحجر، أي المسيح، وهيكلاً مقدّسًا، ومنارةً، وكتابًا حيًّا، وسحابةً حاملةً النور، والباب السماويّ،...

مريم في العهد الجديد

لا جَرمَ أنّ أجمل ما كُتِبَ عن العذراء هو ما دوّنته اليمين الإلهيّة، في بساطةٍ سماويّةٍ، حيثُ تجلّت رهافة الروح القدس، واحترامه لسرّ مريم التي، بإلهامٍ منه، كرّست كلّ ذاتها لله، بمنأًى عن عيون البشر.

فالإنجيل لا يعرض لتأمّلنا سوى الضروريّ الكفيل باستجلاء عظمة مريم ودورها المنقطع النظير في تدبير الخلاص الإلهيّ، مغفلاً ملامحها الشخصيّة، إذ إنّها، هي ذاتها، آثرت التواري في الله، وفي مهمّتها الأموميّة التي نستشفّ، من خلالها، كلّ ما هو جوهريّ.

أكثر نصوص العهد الجديد إشارةً إلى مريم هي:

رسائل القدّيس بولس إلى الغلاطيّين (٤: ٤)

قبل الأناجيل كان الرسول بولس، في هذه الرسالة، قد أشار إلى أُمّ الله، مغفلاً ذكر اسمها، في الفقرة التالية:

«لمّا بلغ ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولودًا من امرأةٍ، مولودًا تحت الناموس، كي يفتدي الذين تحت الناموس، وننال نحن التبنّي».

إنجيل مرقس

الإنجيليّ مرقس هو الأقلّ ذكرًا لمريم، وفي المرّات القليلة التي أشار إليها كانت إشاراته شبه سلبيّة، فهو، تارةً، يظهر إيلاء يسوع الإيمان به، والعمل بالمشيئة الإلهيّة، من الشأن، أكثر من إيلائه أواصر اللحم والدم، كما جاء في النصّ التالي:

«فجاءت إذن أُمُّه وإخوته. فوقفوا خارجًا وأرسلوا إليه يدعونه. وكان الجمعُ جلوسًا حوله.

فقيل له: «ها إنّ أمّك وإخوتك خارجًا يطلُبونك». فأجابهم قائلاً: «مَن أُمّي؟ ومن إخوتي؟» وأجال نظره في المُتحلّقين حوله وقال: «هؤلاء هم أُمّي وإخوتي. فإنّ من يعمل بمشيئة اللّه هو أخي وأُختي وأُمّي». (مرقس ٣:٣١ – ٣٥)

وقد أكّد الإنجيليّ لوقا هذه النظرة في:

«وفيما هو يتكلّم بهذا رفعت امرأةٌ في الجمع صوتها وقالت له: «طوبى للبطن الذي حملك، وللثديّين اللّذين رضعتهما!» فقال «بل طوبى للّذين يسمعون كلمة اللّه ويحفظونها». (لوقا ١١:٢٧ – ٢٨)

وتارةً أخرى يظهر مرقس ازدراء الناصريّين لمحتد مواطنهم الوضيع:

«وخرج يسوعُ من هناك ومضى إلى وطنه يتبعه تلاميذُه. ولمّا كان السَّبت شرع يُعلّم في المَجمع. فقال كثيرٌ من مستمعيه وقد دهشوا: «من أين له هذا؟ وما هذه الحكمةُ التي أوتيها؟ وهذه المعجزات التي تُجرى على يده؟ أليس هو النجّار ابن مريم؟». (مرقس ٦: ١–٣)

إنجيل متّى

الإنجيليّان متّى ولوقا هما اللّذان أوردا نصوصًا تضيء أحداث مولد يسوع وطفولته. وقد تميّز متّى بإبراز دور يوسف فوصفه بالبارّ، وأكّد نسبه الداوديّ، ورعايته ليسوع الطفل. فهو الذي كان يتلقّى الرسائل الإلهيّة الخاصّة به، وهو الذي كان «يأخذ الصبيّ وأُمّه»، ويمضي بهما إلى حيث يشير له الملاك.

ولكنّه لم يغفل دور مريم الجوهريّ. ففي معرض كشفه عن نَسَب يسوع، وبعد ذكره الأجداد ودورهم في إنجاب الأبناء المتعاقبين، ولمّا انتهى إلى يوسف، قطع السلسلة وقال:

«ويعقوب ولد يوسف، رجل مريم، التي منها وُلد يسوع الذي يقال له المسيح (١: ١٦)

ثمّ يبيّن ولادة مريم لابن اللّه ولادةً عجيبةً، لا دور ليوسف فيها، فيقول: **«أمّا مولدُ يسوع، المسيح، فكان هكذا: لمّا كانت مريم أُمّه مخطوبةً ليوسف، وُجِدتْ، من قبل أن يسكنا معًا، حُبلى من الروح القدس. وإذ كان يوسف رجُلُها صدّيقًا، ولم يُرِدْ أن يشهرها، عَزَمَ على تسريحها سرًّا. وفيما هو مُفكّرٌ في ذلك، إذ ملاكُ الربّ قد تراءى له في الحُلم قائلاً: «يا يوسف، ابن داود، لا تَخَف أن تأخذ إليك مريم، زوجتك: فإنّ**

المولود فيها إنّما هو من الروح القدس. وستلِدُ ابنًا فتسمّيه يسوع لأنّه هو الذي يُخلّصُ شعبه من خطاياهم». وكان هذا كلُّه ليتمّ ما قال الربُّ بالنبيّ القائل: «ها إنّ العذراء تحبَلُ وتلدُ ابنًا، ويُدعى اسمُه عمّانوئيل» أي، اللّه معنا.

فلمّا نهضَ يوسفُ من النوم، فعَل كما أمره ملاكُ الربّ، فأخذ إليه امرأته. ولم يعرفها حتّى ولَدَت ابنًا، فسمّاه يسوع».

«ولمّا وُلِدَ يسوعُ في بيت لحم اليهوديّة، في أيّام هيرودُس المَلِك، إذا مجوسٌ من المشرق قد قدموا أورشليم، قائلين: «أين المولود، ملكُ اليهود؟ فإنّا قد رأينا نجمَهُ في المشرق فوافَينا لنسجُد له». فلمّا سمع هيرودُسُ المَلكُ اضطرب هو وكلّ أورشليم معه. فجمع كلّ رؤساء الكهنة وكتبة الشعب، واستخبرهم أين يولدُ المسيح. فقالوا له: «في بيت لحم اليهوديّة، إذ هكذا كُتِبَ بالنبيّ: وأنتِ، يا بيت لحمُ، أرض يهوذا، لست الصُغرى في قصبات يهوذا، لأنّه منك يخرجُ الرئيس الذي يرعى شعبي إسرائيل».

حينئذٍ دعا هيرودُس المجوس سرًّا، وتحقّقَ منهم زمان ظُهور النجم لهم. ثمّ أرسلهم إلى بيت لحم قائلاً: «اذهبوا وابحثوا عن الصبيّ مُدقّقين. فإذا وجدتموه فأخبروني لكي أمضي، أنا أيضًا، وأسجد له». فلمّا سمعوا ذلك من الملك انطلقوا. وإذا النجمُ الذي كانوا قد رأوهُ في المشرق يتقدّمهُم حتّى جاء ووقفَ فوق الموضع الذي كان فيه الصبيّ. فلمّا رأوا النجم فرحوا فرحًا عظيمًا جدًّا. ودخَلوا البيت فأبصروا الصبيّ مع مريم أُمّه. فخرّوا وسجدوا له. وفتحوا كنوزهم وقدّموا له هدايا ذهبًا ولُبانًا ومرًّا. وإذ أُوحِيَ إليهم في الحُلْم ألاّ يرجعوا إلى هيرودُس، قفلوا في طريقٍ أُخرى عائدينَ إلى بلادهم.

ولمّا انصرفوا إذا ملاكُ الربّ قد تراءى ليوسف في الحُلْم وقال له: «قُم فخُذ معك الصبيّ وأُمّه واهرُب إلى مصر. وأَقِمْ هناك حتّى أقول لك، فإنّ هيرودُس مُزمِعٌ أن يطلُب الصبيّ ليهلكه» فقام فأخذ معهُ الصبيّ وأُمّه ليلاً، وانصرف إلى مصر. وأقام هناك حتّى تُوفّي هيرودُس، لكي يتمّ ما قال الربُّ بالنبيّ القائل: «من مصر دعوتُ ابني». (متّى ٢: ١- ١٥)

إنجيل لوقا

القدّيس لوقا هو أكثر الإنجيليّين «مريميّةً». يُعتقد أنّه قابل العذراء، وتلقّى بوح أسرارها. وما تكراره لعبارة «كانت مريم تحفظ تلك الأقوال وتتأمّلها في قلبها»، سوى توقيع العذراء على ما باحت به له، وانفرد هو بذكره.

وقد طوى هذا الإنجيليّ الفصلين الأوّلين من إنجيله على أروع الصفحات التي تناولت فترة طفولة يسوع، وعلى أثمن التفاصيل المريميّة.

بشارة الملاك لمريم

«وفي الشهر السادس أُرسِلَ جبرائيل من لَدُن اللّه إلى مدينةٍ في الجليل تُسمّى ناصرة، إلى فتاةٍ مخطوبةٍ لرجل من بيْت داود، اسمُه يوسف. واسمُ الفتاة مريم. فدخل الملاك إليها وقال: «افرحي، أيّتها المنعَم عليها. الربُّ معكِ». فاضطربَتْ لهذا الكلام وتساءلت ما عسى أن يكون هذا السلام. فقال لها الملاكُ: «لا تخافي، يا مريم. فإنّك قد نِلتِ حظوةً عند اللّه. وها أنت تحبلين وتلِدين ابنًا، وتسمّينه يسوع. إنّه سيكون عظيمًا، وابن العليّ يُدعى. ويعطيه الربُّ الإلهُ عرشَ داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب أبد الدهر، ولا يكون لمُلكه انقضاء».

فقالت مريمُ للملاك: «كيف يكون هذا وأنا لا أعرفُ رجلاً؟» فأجاب الملاكُ وقال لها: «هو الروح القدس يحلُّ عليكِ وقدرة العليّ تظلّلُك. لذلك فالمولود قدّوسٌ وابن العليّ يُدعى. وها هي إليصابات نسيبتُك قد حَبلتْ هي أيضًا بابن في شيخوختها. وهذا الشهر هو السادس لتلك التي كانت تُدعى عاقرًا. فإنّه ليس على اللّه أمرٌ عسير». فقالت مريم: «إنّي أَمَةُ الربّ فليكنْ لي كما قلت». وانصرف الملاكُ من عندها. (لوقا ١:٢٦ – ٣٨)

زيارة مريم لإليصابات

«وفي تلك الأيّام قامتْ مريم وذهبتْ مسرعةً إلى البلد العالي، إلى مدينةٍ في يهوذا. ودخلتْ بيت زكريّا وسلّمت على إليصابات. فلمّا سَمِعَت إليصاباتُ سلام مريم ارتكض الجنينُ في بطنها. وامتلأت إليصابات من الروح القدس، وصاحت بصوتٍ عظيمٍ فقالت: «مباركةٌ أنتِ في النساء، ومباركٌ ثمرةُ بطنكِ. ألا كيف أوتيتُ أن تأتي أُمُّ ربّي إليّ؟ فإنّه ما إن وقع صوتُ سلامكِ في أُذنيَّ حتّى ارتكضَ الجنينُ من الابتهاج في بطني. فطوبى للتي آمنتْ بأنّه سيتمُّ ما قيل لها من لَدُنِ الربّ».

فقالت مريم:

«تُعظِّمُ نفسيَ الربّ وتبتهج روحي باللّه مخلّصي، لأنّه نظَر إلى حقارةِ أمتهِ.

«أجل، إنّه، بعد اليوم، تطوّبني جميعُ الأجيال لأنّ القدير صنعَ فيَّ عظائم.

«قدّوسٌ هو اسمُه. وإنّ رحمته جيلاً بعد جيلٍ للذّين يتّقونَهُ. بسط قدرةَ ساعده: فشتّت المتغطرسين بأفكارِ قلوبهم. حطَّ الأعزّاء عن عروشهم. ورفعَ المتواضعين. أفاضَ على الجياع الشِبْعَ، وصرفَ الأغنياء فارغين.

«عَضَد إسرائيلَ فتاه متذكّرًا، كما قال لآبائِنا، رحمتَه لإبراهيم ونسلِه إلى الأبد».

ومكثت مريمُ عندها نحو ثلاثة أشهرٍ ثمّ عادَتْ إلى بيتها». (لوقا ١: ٣٩– ٥٦)

مولد يسوع

«وفي تلك الأيّام صدَرَ أمرٌ من أغسطُس قيصَر بإحصاء المسكونة كلّها. وقد جرى هذا الإحصاء الأوّل إذ كان كيرينيوسُ واليًا على سوريّة. فكان الجميع يذهبونَ ليكتتبوا كلٌّ في مدينته. فصعدَ يوسفُ أيضًا من الجليل، من مدينة الناصرة إلى اليهوديّة، إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، لأنّه كان من بيت داودَ وذُرّيّته، لكي يكتَتب مع مريم خطيبته التي كانت حُبْلى.

وبينما كان هناك تمَّتْ أيّام وضعِها فولَدَت ابنها البكر. فقمَّطَتْه وأضجعتْه في مذودٍ لأنّه لم يكن لهما موضعٌ في النَّزْل.

وكان في تلك الناحية رعاةٌ متبدّون يحرسُون قُطعانهم في هجعات الليل. وإذا ملاكُ الربّ قد وقف بهم ومجدُ الربّ قد أشرق حولهم فاستولى عليهم خوفٌ شديد. فقال لهم الملاكُ: «لا تخافوا. فها أنا أُبشّرُكم بفرحٍ عظيمٍ يكونُ للشعب كلّه: فاليوم، في مدينة داود، وُلد لكم مخلّصٌ، وهو المسيحُ الربّ. والعلامةُ لكم أنّكم تجدون طفلاً في قُمُطٍ مُضْجعًا في مذودٍ» وانضمّ إلى الملاك، بغتةً، جمهورٌ من الجُند السماويّين يُسبّحون اللّه ويقولون: «المجد للّه في العُلى، وعلى الأرض السلام للناس الذين بهم المسرَّة».

فلمّا انصرفَ الملائكة عنهم إلى السماء قال الرُّعاة بعضُهم لبعض: «لِنَأتِ بيت لحم وننظُر هذا الأمر الواقع الذي أعْلَمَنا به الربّ» وخفّوا إليها فوجدوا مريم ويوسف، والطفل مضْجعًا في المذود. فلمّا شاهدوا ذلك أخبروا بما قيل لهم في هذا الطفل. فكان كلُّ الذين سَمِعُوا الرُّعاة يتعجّبون ممّا قالوه لهم. وأمّا مريمُ فكانت تحفظُ تلك الأقوال كلّها، وتتأمّل فيها في قلبها.

ورجع الرُّعاةُ وهم يُمجّدون اللّه ويُسبّحونَهُ على كلّ ما سَمِعُوا ورأوا، كما قيل لهم. (لوقا ٢: ١– ٢٠)

تقدمة يسوع إلى الهيكل

«وبعد ثمانية أيّامٍ حان وقتُ ختانتِه فسُمّيَ يسوع كما سمّاهُ الملاكُ قبل أن يُحبَلَ به. ولمّا تمَّتْ أيّامُ تطهيرِهم، بحسب شريعة موسى صعدا به إلى أورشليم ليقدّماه للربّ على حَسَب ما هوِ مكتوبٌ في شريعة الربّ من أنّ كلَّ ذكرٍ فاتح رَحِمٍ يكونُ مقدَّسًا للربّ، وليقرّبا ذبيحةً، كما تقتضي شريعةُ الربّ، زوجيْ يمامٍ أو فرخَي حمام.

وكان في أورشليم رجلٌ اسمُه سمعان. وهو رجلٌ صدّيقٌ وتقيٌّ كان ينتظرُ تعزيةَ إسرائيل، والرُّوح القدسُ كان عليه. وكان الروحُ القدسُ قد أوحى إليه أنّه لا يرى الموت ما لم يُعايِنْ مسيحَ الربّ. فأقبل بإلهام الروح إلى الهيكل. ولمّا دخل بالطفل يسوع أبواه ليُجريا عليه ما تقضي به الشريعة أخذه هو على ذراعيْه وبارك اللّه وقال:

«الآن، أيّها السيّد، تُطلِقُ عبدَك بسلامٍ، على حَسَبِ قولك. «فإنّ عينيّ قد شاهدتا خلاصَك الذي أعددته، على وجه الشعوب كلِّها: نورًا لهداية الأُمم، ومجدًا لشعبك إسرائيل». وكان أبوه وأمّه يتعجّبان ممّا يقالُ فيه. وباركهما سمعانُ وقال لمريم أُمّه: «إنّ هذا قد جُعل لسقوط كثيرين في إسرئيل أو نهوضهم، وليكون آية مُقاومةٍ. وأنتِ أيضًا سيجوز سيفٌ في نفسك. وهكذا تنكشِفُ الأفكارُ المتحرّكةُ في قلوبٍ كثيرةٍ».

وكان هناك أيضًا نبيّةٌ، حنّةُ بنتُ فنُوئِلَ من سِبْطِ أشير. كانت قد طعنت كثيرًا في أيّامها. وبعدما عاشتْ في الزواج سبعَ سنين مع رجُلها، ظلَّتْ أرملةً، وبلغتْ من العمر أربعًا وثمانين سنة. وكانت لا تُفارِقُ الهيكلَ متعبّدةً ليلَ نهارَ بالأصوام والصَّلوات. ففي تلك الساعة حضرتْ وأخذتْ تُسبّح بحمد اللّه، وتُحدِّثُ بأمرِ الولد كلّ من كان ينتظرُ الفداء لأورشليم.

ولمّا أتمّوا كلّ ما تقضي به شريعةُ الربّ رجعوا إلى الجليل، إلى مدينتهم الناصرة، وكان الولدُ ينمو ويتقوّى، ممتلئًا حكمةً. وكانت نعمةُ اللّه عليه». (لوقا ٢: ٢١– ٤٠)

غياب يسوع في الهيكل

«وكان أبواه يذهبان كلَّ سنةٍ، في عيد الفصح، إلى أورشليم. فلمّا بلغَ اثنتي عشرةَ سنةً صعدوا إليها جريًا على سُنَّةِ العيد. ولمّا انقضت أيّامُ العيد وأخذوا طريق العودة بقيَ الصبيُّ يسوعُ في الهيكل وأبواه لا يعْلَمان. وإذ كانا يظُنّان أنّه مع الرِّفقةِ سافرا مسيرةَ يومٍ قبل أن يطلُباه بين الأقارب والمعارف. فلمّا لم يجداه رجعا أدراجهما إلى أورشليم يبحثان عنه. وبعد ثلاثة أيّام وجداه في الهيكل جالسًا بين المعلّمين يسمَعُهم ويسألهم. فكان كلُّ الذين يسمعونه يذهَلون من ذكائه في أجوبته. فلمّا أبصراه بُهتا. فقالت له أُمّه:

«لِمَ صنعتَ بنا هكذا، يا بُنيّ؟ فها أنا وأبوك نبحث عنك متألّمين؟» فقال لهما: «تبحثان عنّي؟ أما تعْلَمان أنّه عند أبي يجب عليَّ أن أكون؟» فلم يفهما ما قال لهما.

ونزلَ معها وأتى الناصرة. وكان خاضعًا لهما. وكانت أُمُّه تحفظُ جميع هذه الأمور في قلبها. وكان يسوعُ يتقدّمُ في الحكمة والبِنْية، وفي الحُظوةِ عند الله وعند الناس». (لوقا ٢: ٤١: ٥٢)

إنجيل يوحنّا

إلى يوحنّا، تلميذه الحبيب، أوكل يسوع أُمّه، قبل مغادرته أرض البشر. وفي جوار مريم، وبالإصغاء إلى نجاواها، توغّل يوحنّا في تمعّن أسرار الخلاص، وقد أورد، في إنجيله، أحداثًا كان عليها شاهد عيانٍ، وأغفلها سائر الإنجيليّين، ولا سيّما عرس قانا، حيث، بناءً على طلب مريم، أجرى يسوع معجزته الأولى الغنيّة بالرموز، معجزةً أثبتت قدراته الإلهيّة، ورسّخت إيمان تلاميذه الأوائل فيه، ويوحنّا أحدهم.

الحدث الآخر الخطير الذي أورده يوحنّا هو وقوف مريم، وهو إلى جانبها، عند أقدام الصليب، حيث أوكل إليه يسوع أُمّه، وأوكله، هو، إلى أُمّه، وفي الحالتين كان يوحنّا يمثّل جميع المؤمنين في كلّ جيلٍ. وبذلك أقام يسوع أمّه، أُمًّا شاملةً أبديّةً للكنيسة ولكلّ مؤمنٍ.

وفضلاً عن ذلك، أشار يوحنّا، في مقدّمة إنجيله، إلى حبل العذراء بعملٍ فريدٍ من الروح القدس، وفق الترجمة التالية التي بات كثيرون يعتمدونها:

(يوحنّا ١: ١ – ١٤)

«في البدء كان الكلمة، والكلمة كان مع الله، وكان الكلمة الله...
كان هو النور الحقّ الذي، بمجيئه إلى العالم، أنار كلّ إنسانٍ.
به كان العالم، والعالم لم يعرفه.
جاء إلى ذويه، وذووه لم يعرفوه.
غير أنّه آتى جميع من قبلوه أن يصيروا أبناء الله،
أولئك الذين آمنوا باسمه،
وبأنّه لم يولد من دمٍ، ولا من رغبة جسدٍ، ولا من إرادة رجل،
بل من الله.

وصار الكلمة بشرًا، وأقام بيننا.
وقد رأينا مجده، مجدٍ ابنٍ وحيدٍ، آتٍ من الآب،
ممتلئٍ نعمةً وحقًّا.

عرس قانا

وفي اليوم الثالث كان عُرْسٌ في قانا الجليل. وكانت أُمّ يسوع هناك ودُعيَ يسوعُ أيضًا إلى العرس، وكذلك تلاميذُه. وإذ نفِدت الخمرُ قالتْ أمُّ يسوع له: «لم يبقَ عندهم خمْرٌ» فقال لها يسوع: «ما لي ولكِ، أيّتها المرأة؟ إنّ ساعتي لم تأتِ بعد»، فقالت أُمّه للخُدّام: «افعلوا ما يقولُ لكم».

وكان هناك سِتُّ أجاجين من حَجَرٍ وُضعتْ لتطهُّرِ اليهود، تَسَع كلُّ واحدةٍ منها مِتْرتين أو ثلاثًا. فقال لهم يسوع: «املأوا الأجاجين ماءً» فملأوها إلى فوْق. فقال لهم: «استقوا الآن وقدِّموا لرئيس الوليمة». فقدّموا. فلمّا ذاقَ رئيسُ الوليمة الماء المحوَّلَ خمرًا – ولم يكُنْ يعلمُ من أين أتت، أمّا الخدّام الذين استقوا الماءَ فكانوا يعلمون – دعا العريس وقال له: «كلُّ امرئ يأتي بالخمر الجيّدة أوّلاً، فإذا أخذ منهمُ الشَّراب جاء بالدُّون. أمّا أنت فقد أبقيتَ الخمرَ الجيّدة إلى الآن!»

تلك كانت أُولى آيات يسوع، صنعها في قانا الجليل وأظهر مجده فآمنَ به تلاميذه. وبعد ذلك انحدَر إلى كفرناحوم ومعه أُمّه وإخوته وتلاميذه. ولكنّهم لم يُقيموا فيها إلاّ أيّامًا قليلةً». (يوحنّا ٢: ١–١٢)

عند أقدام الصليب

«وكانت أمُّ يسوع، وأختُ أُمّه مريمُ التي لكلوبا، ومريمُ المجدليّة واقفاتٍ عند صليبه. فلمّا رأى يسوع أُمّه وبقربها التلميذُ الذي كان يحبُّه قال لأُمّه: «أيّتها المرأة، هوذا ابنُكِ» ثمّ قال للتلميذ: «ها هي ذي أُمّك». ومن تلك الساعة أخذَها إلى بيته». (يوحنّا ١٩: ٢٥– ٢٧)

رؤيا يوحنّا

شرّاحٌ كُثُرٌ رأوا في الفصل الثاني عشر من هذه الرؤيا إشارةً إلى مريم، وآثر آخرون

أن يروا فيها رمزًا للكنيسة. وفي الواقع، لا تناقض بين النظرتين. فلطالما عُدَّت العذراء صورةً للكنيسة ورمزًا لها.

وإن نهضت آلام ولادة امرأة الرؤيا عقبةً دون توسّم صورة مريم فيها، إلاّ أنّه من المحقّق أنّ مريم التي ولدت ابن الله بلا وجعٍ، لا تني تلد روحيًّا جسده السرّيّ، أي المؤمنين الذين أوكلهم يسوع إلى أُمومتها، ولا سيّما الخطأة منهم، في جمٍّ من الآلام، هي الآلام التي قاساها ابنها من أجل افتدائهم، والتي سحقت قلبها الأموميّ، وهي الآلام التي يلحقها بيسوع وبأمّه سيل الآثام التي لا تنفكّ تُقتَرف، وتهين المخلّص، وتودي إلى التهلكة بمن بذل يسوع دمه في سبيل خلاصهم.

«ثمّ ظهرت في السماء آيةٌ عظيمةٌ، امرأةٌ مُلتحِفةٌ بالشمس، وتحت قدميها القمرُ، وعلى رأسها إكليلٌ من اثنيْ عشر كوكبًا. وهي حُبْلى، وتصيحُ وقد اعتراها المَخاض ومشاقُّ الولادة.

وظهرت آيةٌ أخرى في السماء، فإذا تنّينٌ عظيمٌ، بلَونِ النار، له سَبعةُ أرؤسٍ، وعشرة قرونٍ؛ وعلى أرؤسهِ سبعةُ أكاليل، وذنبهُ يجرّ ثلث كواكب السماء، وألقاها على الأرض، ووقف التنّين قُبالة المرأة المُشرفةِ على الولادة، ليفترس ولَدَها عندما تلده، فولدت ولدًا ذكرًا، هو المُزمِعُ أن يرعى جميع الأُمم بعَصًا من حديد؛ فاختُطف الولد إلى الله وإلى عرشه، وهربت المرأة إلى البرّيّةِ حيثُ أعدّ الله خَلوةً، تُعال فيها ألفًا ومئتين وستّين يومًا».
(رؤيا يوحنا ١٢:١ – ٦)

أعمال الرسل

إن انطوى الفصل الثاني عشر من رؤيا يوحنّا على رمزٍ إلى العذراء، فالقدّيس لوقا قد أدلى، في أعمال الرسل، بمعلومةٍ تاريخيّةٍ تفيد أنّ مريم كانت في العلّيّة، حيث التأم مئةٌ وعشرون نفرًا يمثّلون نواة الكنيسة الوليدة، ويصلّون بنفسٍ واحدةٍ، منتظرين حلول الروح القدس، وانطلاقة الكنيسة، وكانت مريم روح تلك الجماعة، ورباط وحدتهم، حول يسوع وروحه.

«ثمّ إنّه فيما كان يأكلُ معهم أوصَاهم بألاّ يبرحوا أُورشليم قائلاً: «بل انتظروا فيها موعد الآب الذي سمعتُموه منّي: فإنّ يوحنّا عمّدَ بالماء وأمّا أنتم فستعمَّدون بالروح القدس بعد أيّامٍ قليلةٍ». (أعمال الرسل ١: ٤–٥)

«عندئذٍ رجعوا إلى أورشليم من الجبل المدعوّ جبل الزيتون وهو بقُرب أورشليم على نحو مسيرة سبتٍ. ولمّا دخلوها صَعِدوا إلى العُلّيّة التي كانوا يُقيمون فيها. وهم بُطرس ويوحنّا ويعقوبُ وأندراوُس، فيلبّسُ وتُوما، برتُلمايُ ومتّى، يعقوبُ بنُ حَلْفى وسمعانُ الغيُور، ويهوذا أخو يعقوب. وكانوا كلّهم مُواظبين على الصلاة بنفسٍ واحدة. وكان معهم بعضُ النسوة، ومريمُ أُمُّ يسوعَ، وإخوتُه». (أعمال الرسل ١: ١٢- ١٤)

مريم في الأناجيل المنحولة

هذه الأناجيل هي محاولةٌ لإشباع فضول المؤمنين حول منشإ مريم وطفولتها. وقد روت حكاياتٍ فتنت الأجيال الأولى وأجيال القرون الوسطى. ومع أنّ الكنيسة رفضتها، منذ البدء، بسبب ما انطوت عليه من مبالغاتٍ، وبسبب عدم تحرّيها الدقّة، إلاّ أنّها احتفظت منها ببعض المعلومات، مثل أسماء والدَي العذراء، وطفولتها، وخطوبتها. ونحن، مع التزامنا بعدم الإيمان بكلّ ما جاء فيها، نرى فيها تعبيرًا عن تقوًى شعبيّةٍ، وحبٍّ للعذراء.

أمّا عن مولد العذراء، فقد جاء في إنجيل يعقوب المنحول أنّ والدي العذراء بلغا سنًّا متقدّمةً، ولم ينجبا، وكان العقم يُعَدّ لعنةً إلهيّةً، فاختلى والدها يواكيم في الصحراء يجترّ يأسه، فيما لبثت أمّها حنّة في المنزل تنتحب، وتنعي مصيرها، بعد أن حُرمت الزوج والولد. وهنا يقول إنجيل يعقوب المنحول:

«وإذا بملاك الربّ يمثل أمامها قائلاً: «حنّة، حنّة، لقد استجاب الربّ لدعائك. فستحبلين، وستدلين، وستتحدّث المسكونة كلّها عن ذرّيّتك. وقالت حنّة: «مثلما أنّ الربّ إلهي هو حيٌّ، أُقسم أنّني إن وضعت ولدًا، ذكرًا كان أو أُنثى، سأقدّمه هديّةً للربّ إلهي، كي يكون في خدمته كلّ أيّام حياته». وإذ برسولين يقدمان ويقولان: «ها إنّ يواكيم، زوجك، قادمٌ بقطعان ماشيته. فإنّ ملاك الربّ قد انحدر إليه وقال: «يواكيم، يواكيم، لقد استجاب الربّ لدعائك. انزل من هنا، وها إنّ زوجتك، حنّة، ستحمل في أحشائها». ونزل يواكيم، واستدعى رعاته، وقال لهم: «إليّ بعشرة حملانٍ لا عيب فيها، كي تكون للربّ إلهي؛ وإليّ باثني عشر عجلاً مسمّنًا، للكهنة وللسنهدرين، وبمئة جدي للشعب». ووصل يواكيم بقطعانه، وكانت حنّة عند الباب، ولمّا رأته خفّت إليه راكضةً، وطوّقت عنقه، قائلةً: «الآن أيقنت أنّ الربّ إلهي قد أغدق عليّ بركاته. فها إنّ الأرملة انعتقت من ترمّلها، وأنا التي كانت عاقرًا، سأحمل في أحشائي». ومضى يواكيم، في ذلك اليوم الأوّل، وارتاح في بيته».

(وعن تقدمة مريم إلى الهيكل، جاء):

«ولمّا بلغت الفتاة الثالثة من عمرها، قال يواكيم: «ادعوا من الفتيات العبرانيّات، مَن هنّ بلا عيبٍ، ولتأخذ كلٌّ منهنّ شمعةً تشعلها، خشية أن تلتفت الابنة إلى الوراء، وأن يظلّ قلبها سجينًا خارج هيكل الربّ». وقد تمّ ذلك إلى أن صعد الجميع إلى هيكل الربّ. ورحّب الكاهن بالفتاة، وقبّلها، وباركها قائلاً: «لقد مجّد اللّه اسمك في كلّ الأجيال. وبك، في آخر الأيّام، سيُظهر الربّ افتداءه». وأجلسها على درجة الهيكل الثالثة، وأنزل الربّ عليها نعمته...

«وعاد أبواها مفعمْين إعجابًا، ومسبّحيْن اللّه القدير، لأنّ الفتاة لم تلتفت إلى الوراء. ومكثت العذراء في الهيكل مثل حمامةٍ، وكانت تتلقّى طعامها من يد الملاك. ولّما بلغت الثانية عشرة، التأم مجمع الكهنة الذين قالوا: «ها إنّ مريم قد بلغت الثانية عشرة، وهي في هيكل الربّ. فما عسانا نفعل لكي لا تدنّسه؟» وقالوا لرئيس الكهنة: «إنّك تقيم في محراب الربّ. فادخل وصلِّ من أجلها، وما سيظهره لك الربّ سنفعله». ودخل رئيس الكهنة بزيّه ذي الاثني عشر جرسًا، إلى قدس الأقداس، وصلّى لأجلها. وإذ بملاك الربّ يمثل أمامه ويقول: زكريّا، زكريّا، اخرج واجمع الرجال الأرامل بين الشعب، وليأتِ كلٌّ منهم بعصًا. ومن يُظهر له الربّ إشارةً، ستكون له زوجةً». وخرج المنادون وانتشروا في كلّ بلاد اليهوديّة، ودوّى بوق الربّ، فهرع الجميع.

«وألقى يوسف فأسه جانبًا وانضمّ إليهم. ووافوا إلى رئيس الكهنة ومعهم عصيّهم، فأخذها كلّها، ودخل إلى المحراب وصلّى، ولمّا فرغ من صلاته خرج، وأعاد لكلٍّ عصاه، ولم تظهر علامةٌ على أيٍّ منها. وكانت العصا الأخيرة هي التي استلمها يوسف. وإذ بحمامةٍ تخرج منها وتحلّق فوق رأس يوسف. فقال له الكاهن: «إنّك أنت من عيّنتك القرعة، لكي تأخذ عذراء الربّ تحت حمايتك».

وأخذ يوسف مريم تحت حمايته، مرتعدًا، وقال لها: «ها إنّني قد استلمتك من هيكل الربّ، والآن سأدعك في بيتي، وسأمضي لأشيد أبنيتي، ثمّ سأعود إليك. وفي هذه الأثناء سيكون الربّ حارسك».

الأدب المريميّ حتّى القرن العاشر

المسيحيّون الأوّلون، ومعظمهم خارجون من الوثنيّة، آمنوا، بكلّ أوتار قلوبهم بتجسّد ابن الله، وبولادة العذراء له ولادةً بتوليّةً إلهيّةً فريدةً، وكان يحدوهم إيمانٌ من المنعة بحيث ما كانوا يرهبون الاستشهاد ذودًا عنه.

ومع صعوبة الإحاطة بالأسرار المسيحيّة، ولا سيّما سرّ الثالوث الأقدس، وسرّ اتّحاد الألوهة والبشريّة في شخص يسوع الواحد، فقد قاوم أولئك المؤمنون، ببسالةٍ وصلابةٍ، شتّى الهرطقات التي كانت تطلّ بين حينٍ وحينٍ، حتّى أدان مجمع نيقية الآريوسيّة، عام **٣٢٥**، وأقرّ مجمع أفسس، عام **٤٣١**، أُمومة مريم لله، في غمرة انتصارٍ وابتهاجٍ عارمةٍ.

وقد شاعت، في تلك الحقبة المقارنة بين حوّاء الأولى التي سبّبت تعاسة الجنس البشريّ، ومريم، حوّاء الجديدة التي آتت البشريّة، مع يسوع، حياةً جديدةً، وأعادت إليها نقاءَها الأوّل. وبذلك تجلّى دور مريم في مسيرة الفداء الإلهيّ، وأهليّتها لتكون محامية المؤمنين وشفيعتهم، ومثالاً أسمى للإيمان.

ومع أنّ الأدب المسيحيّ بدا في القرن الثاني واهيًا، إلاّ أنّ العذراء كانت تتبوّأ فيه مكانةً مرموقةً. وسرعان ما اشتدّ عوده، وبرز مريميّون كبارٌ ألهمهم حبّهم المتّقد للعذراء آثارًا خالدةً، ما برحت تفتننا حتّى اليوم، ومن أبرزهم، في القرن الرابع، القدّيسون أفرام السريانيّ، وأمبروسيُس، وأثناسيُوس الإسكندريّ، وأوغسطينُس، الذي، مع تحفّظه حيال بعض العقائد المريميّة، ترك لنا ومضاتٍ متألّقةً نابعةً من حدْسه الثاقب.

القرن الخامس كان قرن مجمع أفسُس، وما واكبه من اندفاعٍ في تكريم «أُمّ الله»، والإشادة بإنعاماتها الفريدة. وقد لمعت، في سمائه، أسماءٌ شرقيّةٌ شهيرةٌ منها يوحنّا الذهبيّ الفم وكيرلّس الإسكندريّ، وتلاه عهد ازدهارٍ في تاريخ الأدب المريميّ امتدّ

حتّى القرن الثامن، وتألّقت فيه أسماء شرقيّين كبار نظراء يوحنّا الدمشقيّ، ورومانُس المنشد. وبرز في الغرب اسم إيلديفُنْس الطليطليّ.

القدّيس أَغناطيُس الأَنطاكيّ (استشهد عام ١٠٧)

«السابق للزمن وُلد في الزمن... الإله المتجسّد هو حياةٌ حقّةٌ في صميم الموت. وقد وُلد حقًّا من العذراء.

«إنّ أمير هذا العالم يجهل بتوليّة مريم، وولادتها، وموت الربّ، أي الأسرار الثلاثة المدوّية التي تحقّقت في صمت الله».

القدّيس يوستينُس (١٠٠– ١٦٥)

في أَجيال الكنيسة الأولى، شاعت مقارنة العذراء مريم بالأمّ الأولى، حوّاء. وقد جاء في حوار القدّيس يوستينُس مع اليهوديّ تريفون:

«إنّنا ندرك أنّ المسيح تأنّس بواسطة العذراء، لكي توضع نهايةٌ للعصيان الذي أحدثته الحيّة بالأسلوب عينه الذي ابتدأ به. فحوّاء، العذراء الطاهرة، التي حملت كلمة الحيّة، ولدت العصيان والموت، في حين أنّ مريم العذراء، التي حملت في الإيمان والفرح، عندما بشّرها الملاك بأنّ روح الربّ سيأتي عليها، وأنّ قوّة العليّ ستظلّلها، وبأنّ الكائن القدّوس المولود منها سيكون ابن الله، أجابت: «فليكن لي بحسب قولك». لقد وُلد، إذن، منها، ذاك الذي تحدّثت عنه الكتب... وبه دمّر الله مملكة الحيّة، وجميع الذين تمثّلوا بها، من ملائكةٍ وبشرٍ، وأعتق من الموت جميع من تابوا عن خطاياهم، وآمنوا به».

القدّيس إيريناوُس (المتوفّى حوالي العام ٢٠٢)

هذا القدّيس يمثّل مدرسة الإنجيليّ يوحنّا، فهو تلميذ القدّيس بوليكربُس الذي كان تلميذًا مباشرًا للإنجيليّ. هو أيضًا يقيم مقارنةً بين حوّاء الأولى، وحوّاء الجديدة، فيقول:

«إنّ مريم العذراء عبّرت عن طاعتها بقولها: «ها أنذا أمَتك، يا ربّ. فليكن لي بحسب قولك». أمّا حوّاء فأظهرت عصيانها: عصت وهي ما برحت عذراء. ومثلما عصت حوّاء، زوجة آدم وهي ما زالت عذراء، وبعصيانها جلبت الموت لنفسها ولكلّ الجنس البشريّ، كذلك مريم المخطوبة، التي ما برحت عذراء، بطاعتها ظفرت بالخلاص لنفسها، ولكلّ الجنس البشريّ... إنّ العقدة التي ربطها عصيان حوّاء، لم تُحَلّ إلاّ بطاعة مريم. وما عقدته حوّاء العذراء بعدم إيمانها، فكّت مريم العذراء عقدته بإيمانها».

أوريجنُس (١٨٥– ٢٥٣)

في تعليقه على إنجيل يوحنّا، بين العام ٢٤٠ والعام ٢٥٠، أشاد بأمومة العذراء:

«فلنجرؤ على إعلان أنّ زهرة الكتب المقدّسة هي الأناجيل، وأنّ إنجيل يوحنّا هو زهرة الأناجيل، الذي لا يقوى أحدٌ على استيعاب فحواه، ما لم يُتكئ رأسه على صدر يسوع، وما لم يَنَلْ من يسوع مريم، التي أصبحت، أيضًا، أُمّه. ولكن، لكي يكون المرء يوحنّا آخر، ينبغي أن يكون يسوع قد أشار إليه بصفته يسوع. فبما أنّ مريم، حسب من يلقون عليها نظرةً مقدّسةً، لم تلد سوى يسوع، وبما أنّ يسوع قال لأمّه: «هذا هو ابنك»، ولم يقل: «هذا هو، أيضًا، ابنٌ لك»، فلكأنّه كان يقول لها: «هذا هو يسوع الذي ولدته». فإنّ كلّ من ذاب في المسيح، لا يحيا بعد، بل إنّ المسيح هو من يحيا فيه. وبما أنّ المسيح يحيا فيه، قال يسوع لمريم: «هوذا ابنك، هوذا المسيح».

القدّيس أَفرام (السريانيّ) (٣٠٦– ٣٧٣)

في القرنين الرابع والخامس كان الأدب المريميّ ما انفكّ هزيلاً. فالمعلّمون الكبار هم أَبطال الإيمان، ومنهمكون في معركة سلامته، دفاعًا عن العقائد الكبرى المتعلّقة بالثالوث، والمسيح، والنعمة، وهم، أوّلاً، معلّمو أخلاقٍ ونسّاكٌ. وكانت الطقوس مقتصرةً على الزهيد في ما يتعلّق بتكريم العذراء، وقليلةً كانت العظات المكرّسة لأمّ الله.

غير أنّ النبع الغنائيّ تفجّر من سوريّا، على يد القدّيس أَفرام، المولود في نصيبين، قرب الموصل، حوالي العام ٣٠٦. كان في مطلع شبابه شمّاسًا إنجيليًّا، واكتفى بهذه الرتبة حتّى مماته. وقد مارس الحياة النسكيّة، غير أنّ أسقف نصيبين أُعجب بعلمه وتقواه، فأوكل إليه التعليم المسيحيّ، فكان له إشعاعٌ رحبٌ في كلّ العالم المسيحيّ الشرقيّ.

وفي أعقاب غزو الفرس لبلاده، عام ٣٦٣، لجأ إلى الرها، واعتزل مدى عشر سنوات، مع تلاميذه، على جبلٍ، في خلوة خشوعٍ وتعبّدٍ، حتّى وفاته عام ٣٧٣. وقد نظم باللغة السريانيّة آلاف الأَبيات.

لا ريب أنّه منشد العذراء الأوّل، وما برح من أعظمهم. لديه يتجلّى شعورٌ عميقٌ بعمل العذراء في حياتنا، وهذا ما يضمن له الشعبيّة والمعاصرة، ولا سيّما أنّ التجربة هي التي، لديه، تصلّي وتنشد. وكان السبّاق في لجوئه المتواضع، الوجيع، الرقيق، والواثق، إلى مريم.

وفي ما يلي صلوات وأناشيد من تأليفه:

١ – صلاة لأمّ الله القدّوسة.

أيّتها السيّدة القدّوسة، يا أمّ الله، يا من هي وحدها فائقة الطهر نفسًا وجسدًا، يا من تفوق كلّ طهرٍ، وكلّ عفّةٍ، وكلّ بتوليّةٍ، المسكن الوحيد لكلّ نعمة الروح القدس، متخطّيةً، بذلك، وبلا قياسٍ، حتّى القوى الروحيّة، طهرًا، وقداسة نفسٍ وجسدٍ؛ ألقي أنظارك عليّ أنا الخاطئ، الدنِس، الملطّخ في نفسي وفي جسدي، بلوثات حياتي الصاخبة الشهوانيّة؛ طهّري فكري من أهوائه، قدّسي أفكاري الضالّة، العمياء، وقوّميها؛ نظّمي حواسّي وقوديها؛ أعتقيني من الطغيان المقيت والدنيء الذي تمارسه عليّ ميولي وأهوائي النجسة. قوِّضي، فيّ، سلطان الخطيئة؛ وهبي فكري البائس الذي غشيته الظلمات، الحكمة والتمييز، من أجل إصلاح أخطائي وكبواتي، عساني أُصبح جديرًا بتمجيدك، بعد أن أتحرّر من ظلمات الخطيئة، وأن أُنشد لك بحرّيّةٍ، أنت الأمّ الحقّة للنور الحقّ، المسيح إلهنا. فأنت وحدكِ، معه وبه، تباركك كلّ خليقةٍ مرئيّةٍ، وغير مرئيّةٍ، الآن وأبدًا، وإلى دهر الدهور. آمين.

٢ – صلاة إلى مريم الشفيعة، والوسيطة

للمرَّة الأولى، نشهد، هنا، مريم في صورة الوسيطة والشفيعة. فالقدّيس أَفرام تجرّأ فطلب من العذراء أن تمارس ضغطًا على رحمة ابنها.

بين العقيدة والتقوى ثمّة مسافةٌ لا يبادر الملافنة إلى اجتيازها، عادةً، فهم قد يدركون عظمة مريم، ولكنّهم يمسكون عن استخلاص التبعات العمليّة. بيد أنّ نفوسًا بسيطةً، كان أفرام ترجمانها، أجبرتهم على تعميق تفكيرهم في امتيازات العذراء، وفي عمل أمّ اللّه، بصفتها أمّ النعمة. ومن ثمّ هذه الصلوات:

«فيكِ، يا سيّدتنا وشفيعتنا لدى اللّه، ابنك، يضع الجنس البشريّ فرحه كلّه، منتظرًا حمايتكِ؛ فيك، وحدكِ، يجد ملجأه، ولديكِ، وحدكِ، يرجو أن يجد من يدافع عنه! وها أَنذا، أيضًا، آتي إليكِ، بنفسٍ مضطرمةٍ، إذ إنّني لا أجرؤ على الدنوّ من ابنكِ، ملتمسًا شفاعتكِ للظفر بالخلاص... فيا أيّتها الرحيمة، يا أمّ إله الرحمة، ارأفي بخادمك.

«يا سيّدتنا الكلّيّة القداسة، يا أمّ اللّه الممتلئة نعمةً، يا مجد طبيعتنا الشاملة، يا قناة كلّ الخيرات، ويا ملكة كلّ الأشياء، بعد الثالوث... يا وسيطة العالم لدى الوسيط، أيّها الجسر السرّيّ الذي يربط الأرض بالسماء، يا مفتاح باب الفردوس، يا محاميتنا، ووسيطتنا، انظري إلى إيماني، ورغباتي التقويّة، واذكري رحمتكِ وقدرتك. يا أُمّ من هو، وحده، رحيمٌ وعطوفٌ، تقبّلي نفسي، مع بؤسها، وبوساطتكِ، أهّليها، من جديدٍ، للجلوس إلى يمين ابنك الوحيد».

٣ – نشيد للعذراء مريم

«العذراء تدعوني إلى إِنشاد السرّ الذي أتأمّله بكلّ إعجابٍ. فيا ابن اللّه، أَعطِني موهبتك الرائعة، كي أُحكم إيقاع قيثارتي، وكي أرسم صورةً رائعة الجمال لأمّك الحبيبة.

إنّ العذراء تضع ابنها وهي بتولٌ، وترضع من يُطعم الأمم، وتمسك في حضنها الطاهر من يسند الكون كلّه. إنّها عذراء، وإنّها أمٌّ، إنّها كلّ شيءٍ.

قدّيسةٌ في جسدها، بهيّةٌ في نفسها، طاهرةٌ في روحها، صادقةٌ في ذهنها، كاملةٌ في شعورها، عفيفةٌ، وفيّةٌ، نقيّة القلب، مفعمةٌ بكلّ الفضائل.

فليبتهج، في مريم، كلّ جنس العذارى، إذ إنّ إحداهنّ قد ولدت البطل الذي يسند الخليقة كلّها، والذي حرّر الجنس البشريّ الذي كان يئنّ في عبوديّته.

وليبتهج، في مريم، آدم القديم الذي جرحته الحيّة. فمريم وهبته ذرّيّةً كفيلةً بسحق الحيّة الملعونة، وشفته من جرحه المميت.

وليبتهج الكهنة في العذراء المباركة. فقد ولدت رئيس الكهنة الذي جعل ذاته ضحيّةً. وأنهى الضحايا القديمة، إذ جعل من نفسه الضحيّة التي ترضي الآب.

وليبتهج في مريم كلّ موكب الأنبياء. ففيها تحقّقت رؤاهم، ونبوآتهم، وثبتت أقوالهم.

وليبتهج، في مريم، كلّ موكب الآباء، فمثلما هي تلقّت البركة التي وُعدوا هم بها، كذلك هي، بابنها، جعلتهم كاملين. فبه الأنبياء، والأبرار، والكهنة، تطهّروا، وعوضاً عن الثمرة المرّة التي قطفتها حوّاء من الشجرة المميتة، نفحت مريم البشر ثمرةً مملتئةً حلاوةً. وها إنّ العالم كلّه يتذوّق ثمرة مريم.

إنّ شجرة الحياة، المخبأة في الفردوس، نمت في مريم. لقد انبثقت منها، وبسطت ظلّها على الكون، ونشرت ثمارها على أبعد الشعوب وعلى أقربها، معًا.

لقد نسجت مريم ثوب مجدٍ، ووهبته لأبينا الأوّل. كان قد أخفى عريه بين الأشجار، وها هو الآن مزدانٌ بالحشمة، والفضيلة، والجمال. ذاك الذي ألقته زوجته أرضًا، أنهضته ابنته، فاتّكأ عليها ونهض نهضة الأبطال.

حوّاء والحيّة نصبا شركًا وقع فيه آدم. وانحنى عليه مريم وابنها الملكيّ وانتشلاه من الهوّة.

الكرمة البتوليّة آتت عنقودًا، يعيد عصيره العذب الفرح للمحزونين. وقد تذوّق آدم وحوّاء، في كربتهما، شراب الحياة، فوجدا فيه كلّ عزاءٍ».

* * * * * *

٤ – أناشيد

– «أُمّك، يا ربّ، لن يعرف أحدٌ كيف يسمّيها:
أيقول عذراء؟ وها إنّ ابنها هنا!
أيقول زوجة؟ ولكن لم يعرفها رجلٌ!
وإن كانت أمّك لا يحيط بها إدراكٌ، فمن يدركك؟
(لازمة) المجد لك، فلك كلّ شيءٍ متيسّرٌ، وأنت سيّد كلّ شيءٍ.

– هي وحدها أمّك، وهي، مع جميع البشر أختك.
من أَجلك أصبحت أُمًّا ومن أجلك أصبحت أختًا.
وهي، أيضًا، خطيبتك، مع سائر العذارى.
وها إنّك بكلّ شيءٍ زيّنت جمال أمّك!

– كانت خطيبتك، حسب الطبيعة، قبل مجيئك،
ولكنّها حبلت، متخطّيةً الطبيعة، عند مجيئك، أيّها القدّوس.
وكانت عذراء عندما ولدتك ولادةً مقدّسةً.

– من أَجلك عرفت مريم كلّ ثمار الزوجات.
وصار في حشاها ابنٌ، بلا زواجٍ.
وامتلأ ثدياها باللبن، في ما يتخطّى كلّ توقّعٍ،
والأرض القاحلة حوّلتها أنت، فجأةً، إلى نبع لبنٍ.

– لئن هي استطاعت حملك، فذلك بأنّك، أنت الجبل العظيم،
قد جعلت وِقْرك خفيفًا.
لئن هي أَطعمتك، فلأنّك، أنت، شئت أن تجوع،
ولئن هي سقتك، فلأنّك، أنتَ، شئت أن تعطش،
وإن هي قبّلتك، فأنت، يا جذوة الرحمة،
تبقي حشاها طاهرًا.

– معجزةٌ هي أمّك!

فيها ولج السيّد، وأمسى لها عبدًا.
فيها ولج الفصيح، وفيها أَمسى صامتًا،
فيها ولج الرعد وخبا صوته.
فيها ولج راعي الجميع، وأَصبح فيها حملاً،
ومنها خرج وهو يثغو.
كلّ الأنظمة انقلبت في أحشاء أمّك
يا خالق كلّ شيءٍ.
فيها ولج الغنيّ، وخرج منها فقيرًا.
فيها ولج العليّ وخرج منها متواضعًا!
فيها ولج البهاء، وارتدى ألوانًا باهتةً،
وعلى هذا النحو خرج منها.

– كيف؟...
كيف أفتح ينابيع لبني
لك، أيّها النبع الإلهيّ؟
وكيف أُطعم
من يطعم، من مائدته، كلّ كائنٍ؟
وكيف أُقمّط من يرتدي البهاء؟

لا يعرف فمي كيف يسمّيك،
يا ابن الله الحيّ؟
إن تجرّأت فدعوتك ابن يوسف،
ارتعدت فَرَقًا،
لأنّكَ لستَ من صلبه.
وإن رفضت إطلاق هذا الاسم عليك
ارتعدت جزَعًا، إذ قد زُوّجت ليوسف.

ومع أنّ أباك واحدٌ،

فسأدعوك، بعد الآن، ابن كثيرين،
إذ إنّ آلاف الأسماء لن تكفي للإحاطة بك.
فأنت ابن الله، ولكنّك، أيضًا ابن البشر،
ثمّ أنت ابن يوسف،
وابن داود،
وابن مريم.

– دخل القديرُ وارتدى الخوفَ في أحشائها.
دخل من يطعم كلّ شيءٍ، وخَبَر الجوع.
دخل من يسقي الجميع، وخَبَر العطش.
وخرج منها، مجرّدًا وعاريًا، ذاك الذي يُلبِس كلّ شيءٍ ثوبًا.

– ابتهجي...
ابتهجي، يا نشيد الشيروبيم،
ويا تسبيحة الملائكة.
ابتهجي، يا سلام الجنس البشريّ وفرحه.
ابتهجي، يا فردوس النعيم،
ابتهجي، يا سور المؤمنين، ومرفأ المهدّدين بالمهالك.
ابتهجي، يا صورة آدم، وفادية حوّاء، ابتهجي!...
ابتهجي، يا نبع النعمة والخلود،
ابتهجي، يا نبعًا يحميه الروح القدس.
ابتهجي، يا هيكل الألوهة،
ابتهجي، يا عرش الربّ.
ابتهجي، يا كلّيّة الطهر،
التي سحقت رأس التنّين، الشرّير بامتيازٍ،
ودفعته، مترنّحًا، إلى الهاوية.
ابتهجي، يا ملجأ المرهقين،
ابتهجي، يا مفتدية اللعنة،

ابتهجي، يا أُمّ المسيح، ابن الله الحيّ،
الذي يحقّ له المجد، والتكريم، والعبادة، والتسبيح،
الآن، ودائمًا، وفي كلّ مكانٍ،
في جميع الدهور، آمين».

صورة مريم كما رسمها القدّيس أثناسيُس الإسكندريّ (٢٩٥– ٣٧٣)

«كانت مريم عذراء طاهرةً، ونفسًا متوازنةً. وكانت تغتني غنًى مزدوجًا: فقد كانت تحبّ الأعمال الصالحة، فيما كانت تؤدّي واجباتها، وتحمل، عن الإيمان والطهر، أفكارًا مستقيمةً. لم تكن تراودها رغبةٌ في أن يراها العالم، وتسأل الله أن يكون لها رقيبًا. لم تكن مندفعةً إلى الخروج، ولم يكن لها عهدٌ بالأماكن العامّة، بل كانت مثابرةً على التزام منزلها... كانت تصلّي، وحيدةً، للوحيد. ولم تكن مهتمّةً إلاّ بأمرَيْن: الحؤول دون تسلُّل أيّة فكرةٍ شرّيرةٍ إلى قلبها، ومقاومة الفضول وقسوة القلب. لم تكن تدَعُ أيّ جزءٍ من جسمها مكشوفًا. كانت تلجم غضبها، وتحدّ من اندفاع عواطفها. كانت متحفّظةً في أقوالها، وكان صوتها موزونًا. لم تكن تصرخ، وكانت حريصةً، في قلبها، على الامتناع عن أيّ قول سوءٍ في أحدٍ، وعلى عدم الاستماع، طوعًا، إلى أيّة نميمةٍ. لا لوثة في قلبها، ولا حَسَد في نفسها، لم تكن متبجّحةً، بل كانت متواضعةً. لم ينطوِ قلبها على أيّ خبثٍ، ولم تكن تعارض ذويها إلاّ دفاعًا عن أسلوب حياتها.

كانت تمضي، كلّ يومٍ، قدُمًا. لدى استيقاظها، صباحًا، كانت تجنّد كلّ قواها لكي تتخطّى أفعالُها أفعالَ الأمس، إبداعًا، ناسيةً مبادرات سخائها وإحساناتها السالفة، وجاهدةً في مضاعفتها. وكانت تنأى بقلبها عن أعمال العالم. لم تكن تخشى الموت، بل، على نقيض ذلك، كانت تتوق متلهّفةً إلى عبور أبواب السماء، أخيرًا. رغبات الشهيّة لم تكن تستبدّ بها، بل تبقيها مقتصرةً على مجرّد الحاجات الجسديّة، فلا تأكل ولا تشرب بدافع الرغبة، بل لمجرّد عدم إماتة جسدها. وكانت تسهر عاملةً، أو تاليةً الكتب المقدّسة.

كان الصوم لها متعةً، مثلما هي أطايب الطعام لسواها. كانت تستعيض عن الخبز المرئيّ بكلام الحقّ الذي كانت تتزوّد به. وعن الخمر كانت تستعيض بتعاليم

المخلّص... لم تكن تجيء وتغدو، ما لم يكن عليها المثول إلى الهيكل، وكانت تؤمّه بصحبة ذويها، رصينة المشية، محتشمة اللباس، مسيطرةً على نظراتها، بحيث كان يُخيّل إلى من يشاهدها بأنّ، ثمّة، من يراقب سلوكها، في حين أنّ العقليّة التي تمرّست منها كانت هي الرقيب والمعلّم، اللّذين اكتسبتهما، منذ البدء، بصلواتها.

لم تكن تجيل أبصارها على الخارج، ولم يكن يُسمَع لها صراخٌ. بل عندما كانت تصلّي كان ذووها والنسوة المحيطات بها يدهشون، إذ لم يكونوا يسمعون لها صوتًا، بل كانوا من حركات شفتيها الدائمة، يتبيّنون حركات أفكارها المقدّسة الحميمة.

وكانت مدركةً لواجبها: الصلاة أوّلاً، ثمّ الخضوع لوالديها. وكانت تعدّ كلّ شجارٍ مع أبيها أو أمّها رجسًا أمام الله...

ربّما عرف بولس العذراء ومنها استمدّ رأيه في البتوليّة التي لم يعرفها بواسطة الشريعة، بل من مراقبة سلوك مريم...

كم من العذارى اللائي سترحّب بهنّ مريم (في الآخرة)! ستُقبّلهن وستواكبهنّ أمام الربّ. وكم سيكون عظيمًا فرح الملائكة عندما سيشاهدون صورة طهرهم في أجساد العذارى! وكم سيشيد بهنّ الربّ أمام أبيه عندما يراهنّ قائلاً: «جميع هؤلاء كنّ، وهنّ، مثل مريم التي تخصّني».

القدّيس أمبروسيُس، أسقف ميلانو (٣٣٩-٣٩٧)

كان أمبروسيُس سياسيًّا، وموظّفًا حكوميًّا رفيع المقام، ورُفّع، عام ٣٧٤، وهو بعدُ موعوظٌ يتأهّب للعماد، إلى سدّة الأسقفيّة. وقد تميّز بمعرفته العميقة للنفوس، وبميوله التأمّليّة. ومن دراسته للعقيدة المسيحيّة في كتابات الآباء اليونانيّين استمدّ رؤًى عميقةً ورقيقةً وصوفيّةً كان يجهلها أترابه الغربيّون. وهو الذي هدى القدّيس أوغسطينُس إلى الإيمان.

في مقالته التالية، التي ربّما اقتبس بعضًا من أفكارها من أقوال أثناسيُس الإسكندريّ، السالفة الذكر، يحاول رسم صورةٍ روحيّةٍ لمريم، تمهيدًا للولوج إلى سرّ نفسها.

«فلتكن لكم سيرة مريم، بمثابة البتوليّة المعبّر عنها بصورٍ، حيث يتجلّى، في مثل مرآة، جمال العفّة، ومجمع الفضائل...

ما الذي يفوق أمّ الله نُبلاً؟ وما الذي يفوق بهاءً تلك التي اختارها البهاء نفسه؟

ومن هو أوفر عفّةً ممّن أنجب جسدُها ولم يلوّثه جسدٌ؟ وماذا أقول عن سائر فضائلها؟ كانت عذراء، لا بجسدها فحسب، بل بروحها، أيضًا، هي التي لم تدنّس أيّةُ نزعةٍ زائفةٍ حبّها الصادق. متواضعة القلب، جادّة القول، حذرة الفكر، موجزة الكلام، مواظبةٌ على المطالعة. لم تكن تضع رجاءها في الثروات المتقلّبة، بل في صلاة الفقراء. دائبةٌ على عملها، متحفّظةٌ، لا تلتمس تأييد البشر، بل تأييد الله. لا تجرح أحدًا بفمها. طيّبةٌ مع الجميع، شديدة الاحترام تجاه الشيوخ، لا تحسد أترابها، تنأى عن التبجّح، تسترشد بالعقل، وتحبّ الفضيلة. لم تهن، قطّ، ذويها، حتّى بمواقفها، ولم تعارضهم. لم تصدّ، يومًا، المتواضعين، ولم تسخر من ضعيفٍ. ولم تُدِرْ ظهرها لبائسٍ. لم تخالط سوى الحريصين على الحشمة والخَفَر. لا جموح في عينيها، ولا قحة في أقوالها، ولا تبذّل في مشيتها. لا رخاوةَ ولا حدّة في صوتها. وضع جسدها الخارجيّ صورةٌ لنفسها، وانعكاسٌ لاستقامتها...

وماذا أقول عن زهدها في الطعام، ودأبها على العمل؟ في التقشّف كانت تتخطّى طاقات الطبيعة، وفي الدأب تكاد توجع الطبيعة. وحين تضطرّ إلى ترميم قواها لا تتناول الطيّبات، بل تقتصر على أوّل طعامٍ متوفّرٍ يحول دون الموت. وفيما كان جسدها يرتاح، كان روحها ساهرًا، في نومها، يردّد مطالعاته، أو يستأنفها لدى كلّ انقطاعٍ للنوم...

نشيطةٌ في خفية البيت، ولا تخرج منه إلاّ بمواكبة آخرين، ومع ذلك، كانت ذاتها خير حمايةٍ لها. فهندامها، ومسيرتها كانا يفرضان الاحترام. وكلّما خطت خطوةً كانت تتقدّم درجةً في معراج الفضيلة.

ومع أنّها كانت أمّ الربّ، كانت توّاقةً إلى تعلّم وصايا الربّ؛ وهي التي ولدت الربّ، كانت تصبو إلى معرفة الله.

إنّها نموذجٌ للبتوليّة. وحريٌّ بسيرتها، وحدها، أن تكون قدوةً للجميع. فإن نحن كنّا نحبّ المؤلّف، فلنقدّر عمله. وعلى جميع اللواتي يتطلّعن توّاقاتٍ إلى امتيازاتها أن يتمثّلن بقدوتها. فكم من الفضائل تتألّق في عذراء واحدةٍ! إنّها موئل الطهر، ولواء الإيمان، ونموذج التقوى. عذراء في البيت، مساعدةٌ للكهنوت، وأمٌّ في الهيكل.

وكم من العذارى ستأخذهنّ بين ذراعيها، وتقودهنّ إلى الربّ قائلةً: هذه هي التي وَقَت فراش ابني، وحافظت على نصاعة طهر السرير الزوجيّ. وكذلك سيوكلهنّ الربّ إلى الآب، مكرّرًا القول الذي كان يحبّه: «يا أبتِ القدّوس، هؤلاء هنّ اللواتي حفظتهنّ، اللواتي ألقى عليهنّ ابن الله رأسه. إنّني أطلب أن يمكثنَ معي حيثما أكون». ولكن بما أنّهنّ لم يحيينَ من أجل ذواتهنّ فحسب، عليهنّ ألاّ يخلصنَ وحدهنّ، بل فلتنقذْ هذه والديها، وتلك إخوتها. يا أبتِ العادل، العالم لم يعرفني، ولكنهنّ عرفنني، وأبينَ معرفة العالم».

أيّ موكبٍ وأيّ تصفيق فرحٍ بين الملائكة! فتلك التي ساقت على الأرض حياةً سماويّةً، استحقّت أن تسكن السماء. وحينئذٍ ستتناول مريم الطبلة، وستقود أجواق العذارى، منشدةً للربّ، ومباركةً، لأنّها اجتازت بحر العالم، ولم تغرق في عبابه. وحينئذٍ، سيهتفنَ جميعهنّ، جذلاتٍ: «سأدخل إلى هيكل إلهي، الله الذي يبهج شبابي. إنّني أُضحّي لله تقدمة تسبيحٍ، وأقدّم للعليّ تمنّياتي».

ولست أشكّ بأنّ هياكل الله ستُشرع أمامكنّ على مصاريعها، أنتنّ اللائي أجرؤ على قول إنّ نفوسهنّ هي هياكل، يُقدّم عليها المسيح، كلّ يومٍ، ضحيّةً، من أجل فداء جسده السرّيّ. فإن كان جسد العذراء هو هيكل الله، فما عساني أقول عن النفس التي جرّدتها يَدُ الكاهن الأبديّ من رماد الجسد، فأشعّت حرارة النار الإلهيّة؟

وللقدّيس أمبروسيُس، أيضًا، هذا القول:

«إنّ من يدخل ويخرج، ولا يترك لدخوله وخروجه أثرًا، هذا ليس ضيفًا بشريًّا، بل إنّه إلهيٌّ. إنّ ذاك الذي صان الحبلُ به وولادتُه بكارةَ أمّه، ليس من الأرض، بل هو من السماء».

القدّيس جيروم (٣٣١– ٤٢٠) أحد آباء الكنيسة

«لقد كان من اللائق أن يُنتدب ملاكٌ إلى العذراء مريم، كي يحمل إليها بشارة السرّ القدسيّ، إذ قد قامت، دائمًا، علاقةٌ وثيقةٌ بين الطبيعة الملائكيّة والبتوليّة. في الحقيقة العيش في الجسد، وكأنّه ليس في الجسد، ليس من شأن حياة الأرض، بل من شأن حياة السماء. وبالتالي، ثمّة ثوابٌ أكبر في أن يسوق المرء، في الجسد،

حياة الملائكة، من امتلاكه طبيعتهم. وضع الملائكيّة وضع سعادةٍ، غير أنّ البتوليّة هي فضيلةٌ، فالعذراء تجهد في أن تظفر، بالنعمة، بما يملكه الملاك جوهريًّا».

* * * * * * * *

«إنّ العذراء، بفضل النعمة والاستحقاق، لا بفضل طبيعتها، هي أكثر من عذراء، وأكثر من إنسانٍ. قد يُتاح لعذراى أُخرياتٍ احتذاء مثلها حتّى الامتناع عن كلّ أفعال الجسد. غير أنّها مذ تلقّت الرسالة الملائكيّة، بات كلّ ما يحدث فيها إلهيًّا.

حتّى حبلها بابن الله كانت طاهرةً منزّهةً من كلّ دنسٍ ولوثةٍ، ولكن ربّما كان لا يزال فيها بقايا وهنٍ بشريٍّ، ولكن مذ حلّ عليها الروح القدس، أصبحت امرأةً يحتفظ بها الله لذاته... حتّئذٍ كانت تفوق كلّ عذارى الأرض... ولكن بعد أن امتلأت نعمًا، وغمرها الروح القدس، وأحاطها كلّيّةً بقدرة العليّ، أمست أوفر قداسةً، بلا حدودٍ، وأكثر مجدًا واستحقاقًا، وأنقى طهرًا، بحيث لم تعد مؤهّلةً إلاّ لخدمة الله».

ملجأ الرحمة

نحو العام ١٩٣٨ استُخرج من رمال مصر برديٌّ يحتوي نصّ صلاةٍ قد تكون الأولى التي انتهت إلينا من القرون المسيحيّة الأولى، إذ إنّ الخبراء أعادوا تاريخ هذا النصّ إلى القرن الثالث:

«إلى ملجإ رحمتكِ نفزع يا أمّ الله. فلا تردّي طلبات عَوَزنا، بل أنقذينا من الخطر، يا من هي، وحدها، عفيفةٌ ومباركةٌ»!

غريغوريُس النيصيّ (٣٣٥–٣٩٤)

لاهوتيٌّ – أسقف نيص، وشقيق القدّيس باسيليُس.

تعليقًا على تحيّة الملاك: «اغتبطي أيّتها الممتلئة نعمةً»، أورد ما يمكن اعتباره أصل صلاتنا: «السلام عليك يا مريم». وقد ورد النصّ التالي في عظةٍ ألقاها القدّيس غريغوريُس في قيصريّة كبّادوكيا بين ٣٧٧ و٣٧٨. إنّه انطلاقًا من نصّ الإنجيل حلّق منشدًا:

«فلنردّد، بصوتٍ جهيرٍ، قول الملاك:
«ابتهجي، أيّتها الممتلئة نعمةً، الربّ معك»...
منك خرج من هو كامل الكرامة،
ومن فيه يسكن ملء الألوهة،
«ابتهجي أيّتها الممتلئة نعمةً، الربّ معك»،
المَلِك مع الأَمَة،
ومع المنزّهة من الدنس، مطهّرُ الكون،
مع الجميلة، أجملُ بني البشر،
من أجل خلاص الإنسان المصنوع على صورته.

مباركةٌ أنت بين النساء،
لأنّك من بين كلّ العذارى اصطُفيتِ؛
لأنّك عُددتِ جديرةً بإيواء ربٍّ كذلك الربّ،
لأنّك رحّبت بمن يملأ كلّ شيءٍ،
لأنّك أصبحت كنز الجوهرة الروحيّة.»

يوحنّا الذهبيّ الفم (٣٤٧– ٤٠٧)

وُلد في أنطاكية، ونشأ على يدي أُمٍّ رائعةٍ ترمّلت في العشرين من عمرها، وعزفت عن الزواج ثانيةً، كي تقف حياتها على العناية بابنها.

تلقّى يوحنّا سرّ العماد وهو في الثامنة عشرة، وبرع في الدراسة، ثمّ اختلى بضع سنواتٍ قبل أن يُسام كاهنًا، في مسقط رأسه، عام ٣٨٦. تميّز ببلاغةٍ فريدةٍ استحقّت له لقب «الذهبيّ الفم». انتُخب أُسقفًا على القسطنطينيّة عام ٣٩٨، فعكف على إصلاح الأخطاء التي انزلقت إليها تلك الكنيسة، وعلى ترسيخ إيمان أبنائها، وتعرَّض بالنقد اللاذع لترف البلاط الإمبراطوريّ المسرف، فعوقب بالنفي مرَّتين. وقد لقي وجه ربّه في منفاه الأخير، منهكًا، عام ٤٠٧

١ – وُلد ابن الله من امرأةٍ، كي يجعل البشر أبناء الله

«أليس أمرًا خليقًا بإذهالنا أن نرى الله الذي يستعصي على كلّ قولٍ، ووصفٍ، وإدراكٍ، المساوي لأبيه في كلّ شيءٍ، يولد من أحشاء امرأةٍ، منتميًا إلى سلالة إبراهيم وداود؟... حيال هذا الحدث، لا تتخيّلنَّ أيَّ انحدارٍ، بل فليأخذ بك إعجابٌ بلا حدودٍ، عندما تشهد ابن الله نفسه يتنازل إلى الانتماء لداود، وذلك لكي يجعلك، أنت، ابن الله، ويرتضي أن يُدعى أخًا لخادمٍ وعبدٍ، لكي تتمكّن، أنت الخادم والعبد، أن تدعو الله أباك، حقًّا.

«هل يساورك أيّ شكٍّ في هذا الشرف الذي لا يحيط به وصفٌ؟ إذن، فليعلّمك تنازل الله الإيمان برفعتك. فإنّه، وفقًا لمعايير العقل البشريّ، لأعسر أن يصير الله إنسانًا من أن يصير إنسانٌ ابنًا لله. وإن كان الله قد غالى في التنازل، فلم يكن ذلك عبثًا، بل ابتغى الارتقاء بنا إلى أسمى الذرى. هو وُلد حسب الجسد، لكي تولد، أنت، ولادةً ثانيةً بالروح. وهو وُلد من امرأةٍ، لكيلا تبقى، أنت، بعد ذلك، ابنًا لامرأةٍ».

٢ – «اغتبطي أيّتها المغمورة بالنعمة!»

(نشيدٌ أنهى به الذهبيّ الفم إحدى عظاته، موجزًا به إيمان آباء الكنيسة، في تلك الحقبة)

«وافى الملاك إلى العذراء، ودنا منها، وقال:
«اغتبطي أيّتها المغمورة بالنعمة!»
خاطب الأَمَة مخاطبته لسيّدةٍ،
ولكأنّها قد أمست أُمّ الربّ.
«اغتبطي، أيّتها المغمورة بالنعمة!»
جدّتك الأولى، بعصيانها،
استحقّت عقاب ولادة أبنائها في الآلام،
وأنت، على نقيضها، تتلقّين دعوةً إلى الفرح.
تلك أنجبت قايين،

وولدت معه الحسد والموت،
وأنت، على نقيضها، تضعين ابنًا
يؤتي الجميع الحياة وعدم الفساد.
اغتبطي، إذن، وتهلّلي!
واسحقي رأس الحيّة!

اغتبطي أيّتها المغمورة بالنعمة!
فها إنّ اللعنة قد انتهت، والفساد اضمحلّ،
والحزن تلاشى، والفرح ازدهر،
والسعادة التي أعلنها الأنبياء قديمًا تحقّقت.
الروح القدس كان قد أعلن بلسان أشعيا:
«ها إنّ العذراء تتلقّى ابنًا في أحشائها وتضعه».
هذه العذراء هي أنتِ!
فاغتبطي، إذن، أيّتها المغمورة بالنعمة!
لقد استحسنك من برأ العالم،
استحسنك من صَنَع كلّ شيءٍ،
استحسنك الخالق،
استحسنكِ من يرتوي بالجمال،
لقد وجدت عريسًا يحمي بتوليّتك،
ولا يفسدها.
وجدت عريسًا، من جرّاء حبّه الجمّ للبشر،
شاء أن يصبح لك ابنًا.
الربّ معك!
إنّه فيك، ذاك الكائن في كلّ مكانٍ،
إنّه معك ومنك،

من هو، في السماء، سيّدٌ
ومن هو، في الأعماق، الكلّيّ القداسة،
ومن هو، في الخليقة كلّها، الباري...
الابن في أحشاء الآب، والابن الوحيد في أحشائك،
الربّ، بطريقةٍ لا يعرفها سواه،
هو، بكلّيّته في كلّ مكانٍ، وبكلّيّته فيك!
إنّك مباركةٌ بين جميع النساء،
لأنّك وُجدت جديرةً باحتضان هذا الربّ؛
لأنّك، بإرادتك، احتويتِ من لا يقوى شيءٌ على احتوائه؛
لأنّك استقبلت من يملأ الأشياء كلّها؛
لأنّك أصبحت المكان الفائق الطهر،
حيث يتحقّق الخلاص؛
لأنّك، عند مدخل ملكنا إلى الحياة،
ظهرتِ مركبةً لائقةً به.
ولأنّك أثبتّ أنّك غمد الروح القدس،
مباركةٌ أنت بين جميع النساء!»

القدّيس كيرلّس الإسكندريّ (بطريرك الإسكندريّة بين ٤١٢ و٤٤٤)

إنّه بطل أُمومة العذراء لله. فقد شاع في زمانه إطلاق لقب «أمّ الله» على مريم، غير أنّ نسطوريُس، بطريرك القسطنطينيّة، قاومه. فتصدّى له، باستبسالٍ، كيرلّس، بطريرك الإسكندريّة، الذي كان يُعَدّ أكبر سلطةٍ عقائديّةٍ في الشرق، وبتفويضٍ من البابا سيلستينُس، دعا إلى مجمع أفسس المسكونيّ الذي أدان نسطوريُس، عام ٤٣١.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الشعب الذي احتشد طيلة النهار أمام كنيسة أمّ الله، حيث التأم

المجمع، فجّر هتافات الفرح والنصر، والتسبيح، حالما تنامى إليه قرار المجتمعين، الذين حُملوا على الأكتاف، وسط غمامٍ من البخور، ورعدٍ هادرٍ من الأهازيج.

وكان كيرلّس، قُبيل المجمع، قد كتب إلى رهبانٍ مصريّين ما يلي:

«إنّني أَعجب من طرح بعض الناس هذا السؤال: هل يسوغ أو لا يسوغ تسمية العذراء القدّيسة أمّ اللّه؟ فإن كان سيّدنا يسوع المسيح هو اللّه، فكيف لا تكون العذراء التي وضعته أمّ اللّه؟ هذه هي العقيدة التي ورّثنا إيّاها الرسل القدّيسون، حتّى وإن هم لم يستخدموا هذه اللفظة. وهذا هو التعليم الذي تلقّيناه من الآباء القدّيسيّن، ولا سيّما من أبينا الطيّب الذكر، أثناسيُس الذي تبوّأ كرسيّ بطريركيّة الإسكندريّة سحابة ستّةٍ وأربعين عامًا، والذي واجه بِدَع الهراطقة، بحكمةٍ لا تُقهَر، جديرةٍ بالرسل، أثناسيُس الذي عطّر بشذى كتاباته الكون كلّه...

«إنّ الكتاب المقدّس المُلهَم من اللّه يعلن أنّ كلمة اللّه صار بشرًا، أي إنّه اتّحد بجسدٍ ينعم بنفسٍ عاقلةٍ... ومجمع نيقية يعلن أنّ كلمة اللّه هو سيّدنا يسوع المسيح، المولود من الآب، والمساوي له في الجوهر... ومن ثمّ، يمكن أن تدعى العذراء القدّيسة، في الآن عينه، أمّ المسيح، وأمّ اللّه، فهي لم تضع إنسانًا مثلنا، بل كلمة اللّه الذي تجسّد، وصار بشرًا.

«لهذا السرّ وجوه شبهٍ مع ولادتنا. فأمّهات الأرض، وفقًا لشرائع الطبيعة عينها، يحملنَ في أحشائهنّ ثمرةً خاضعةً للطاقات السرّيّة التي أودعها فيها اللّه، ثمرةً تتطوّر، وتتكوّن أخيرًا شكلاً بشريًّا. ولكنّ اللّه هو الذي يضع في هذا الجسد الصغير نفسًا، بطريقةٍ هو، وحده، يعرفها. ولا ريب أنّ الجسد شيءٌ، والنفس شيءٌ آخر. ومع ذلك، مع أنّ الأمّهات لا يكوّنّ سوى الجسد، نقول إنهنّ وضعن كائنًا حيًّا بجسدٍ ونفسٍ... شيءٌ مثل هذا حدث يومَ وُلد عمّانوئيل. فقد وُلد من جوهر الآب، لكونه كلمته، وابنه الوحيد. ولكنّه عندما اتّخذ جسدًا، وأضحى ابن الإنسان، ما من مغالطةٍ في القول، بل لا بدّ من الاعتراف بأنّه من امرأةٍ، حسب الجسد، تمامًا مثلما يُقال إنّ نفس الإنسان تولد مع جسده، في آنٍ واحدٍ، وتكوّن معه وحدةً، مع اختلافها عنه في الجوهر.»

مديحٌ لوالدة الإله

وضعه القدّيس كيرلّس الإسكندريّ كي يُتلى في مجمع أفسس، بعد إدانته نسطوريُس، وإقرار أمومة مريم للّه:

«أُحيّيك، يا مريم، أُمّ اللّه، العذراء الأمّ، التي حملت النور، الكلّية الطهر،

أُحيّيك، أيّتها العذراء مريم، الأُمّ والأمَة،

أنت عذراء، بفضل من ولدتِه،

وأمٌّ بسبب من حملتِه بين ذراعيكِ، وغذّيته بلبنكِ،

وأنت أمَةٌ، لأنّه هو اتّخذ زيّ الخادم.

لقد دخل الملك مدينته، أي حشاكِ؛ وخرج منه عندما شاء، وظلّ بابه موصدًا.

لقد حملتِ من غير بذرةٍ بشريّةٍ، وولدتِ بطريقةٍ إلهيّةٍ.

أُحيّيكِ يا مريم، أيّها الهيكل المضياف، الهيكل المقدّس.

أُحيّيكِ، يا مريم، يا كنز الأرض.

أُحيّيك، يا مريم، أيّتها الحمامة النقيّة.

أُحيّيك، يا مريم، أيّها المشعل الذي لا ينطفئ، فمنكِ وُلدت شمس العدل.

أُحييك، يا مريم، يا مسكن من لا يقوى شيءٌ على احتوائه.

يا من حملت كلمة اللّه الوحيد.

يا من أنبتت، بلا عناءٍ ولا بذارٍ، السنبلة التي لا يطالها فسادٌ.

أُحيّيك، يا مريم، يا أُمّ اللّه: فبك الأنبياء يعلنون، والرعاة يمجّدون،

مرتّلين مع الملائكة النشيد الرهيب: «المجد للّه في العلا، وسلامٌ لمن نالوا رضا اللّه».

أُحيّيك يا مريم، يا أمّ اللّه. من أجلك يرقص الملائكة، ويتهلّل رؤساء الملائكة.

أُحيّيك يا مريم، يا أمّ الله، بكِ المجوس الذين قادهم نجمٌ سجدوا كي يعبدوا.

أحيّيك يا مريم، يا أمّ الله، بكِ تجلّى جمال التلاميذ الاثني عشر.

أُحيّيك يا مريم، يا أمّ الله، بكِ تهلّل يوحنّا وهو جنينٌ، وسجد المصباح أمام النور الذي لا ينوس.

أُحيّيك، يا مريم، يا أمّ الله، فبكِ ظهرت النعمة المستعصية على الوصف، التي أَعلنها الرسول مبتهجًا: «لقد تجلّت نعمة الله، منبع خلاص البشر أجمعين».

أُحيّيك يا مريم، أمّ الله، بك أشرق على العالم النور الحقّ، ربّنا يسوع المسيح الذي قال: «أنا نور العالم».

أُحيّيك يا مريم، يا أُمّ الله، بك ازدهى جمال القيامة، وتألّق.

بكِ الثالوث يُقدَّس،

بكِ الصليب يُكرّم في العالم أَجمع،

بكِ السماء ترتعش حبورًا،

بكِ الملائكة، ورؤساء الملائكة يبتهجون،

بكِ الأبالسة يُطرَدون،

بكِ إبليس المجرِّب يُقذَف من السماء،

بكِ الخليقة المنحطّة تُرفَع إلى السماء،

بكِ يبلغ إلى معرفة الحقيقة العالم كلّه الذي كان أسير عبادة الأوثان،

بكِ ينال المؤمنون العماد وزيت الفرح،

بكِ تُشاد الكنائس في العالم أجمع،

بكِ أَشعّ ابن الله الوحيد نوره على من كانوا قابعين في الظلمات وفي ظلّ الموت.

بكِ استطاع الرسل تبشير الأُمم بالخلاص.

كيف يمكن الإشادة بتسبيحك إشادةً لائقةً، يا أمّ الله، أنت التي بها تهتزّ الأرض كلّها طربًا؟

سلامٌ يا مريم، يا أمّ الله،
أيّها الكنز الذي يتوجّب على الكون كلّه تبجيله،
أيّها المصباح الذي لا يخبو نوره،
يا تاج البتوليّة المتوهّج،
أيّها الهيكل الذي لا يُدمَّر،
يا من ولدت شمس العدل،
يا صولجان الحقّ
أُحيّيك، يا مريم، يا مسكن من لا يحتويه مكانٌ،
يا من أنبتت سنبلةً لا تذبل أبدًا.
يا أُمًّا وعذراء في آنٍ واحدٍ،
فمنك وُلِد من يقول فيه الإنجيل: «مباركٌ الآتي باسم الربّ»

القدّيس أوغسطينُس

إنّه أعظم الآباء المعلّمين الغربيّين. وقد توفّي في العام ٤٣٠

١ – الممتلئة نعمةً

«من أَنتِ، يا من ستلد الله؟ ومن أين لك هذا الشرف؟ كيف ظفرتِ به؟ وممَّ سيُصْنَع فيك من صنعكِ؟ ومن أين يأتيك هذا الأمر الجلَل؟

يبدو أنّني وقحٌ في مساءلتي العذراء، وأنّني أقرع بصوتي أذنيها العفيفتين، قرعًا غير لائقٍ. فليجب، إذن الملاك.

– قل لي، أيّها الملاك، من أين لمريم كلّ هذا؟

– لقد قلتَ عندما بشّرتها: سلامٌ لك، أيّتها الممتلئة نعمةً!

٢ – أَرضعي...

«أيّتها الأُمّ، أَرضعي غذاءنا، أَرضعي الخبز القادم من السماء...

أرضعي من صنعكِ، كي تصنعيه فيكِ. حبلُك به آتاك موهبة الخصب، وولادتك له لم تسلبكِ شرف البتوليّة».

٣ – الكنيسة هي، أيضًا، عذراءُ وأمٌّ

«لقد وضعت مريم جسديًّا، رأس جسد المسيح السرّيّ. والكنيسة وضعت، روحيًّا، أعضاء هذا الجسد. ولم تحُل البتوليّة دون خصب هذه وتلك. وبالتالي إن كانت الكنيسة الجامعة مقدّسةً، جسدًا وروحًا، من غير أن تكون عذراء في أجساد جميع أبنائها، بل عذراء، روحيًّا فيهم، فقط، فكم هي أسمى قداسةً في أعضائها الذين يقرنون بتوليّة الجسد ببتوليّة الروح!»

٤ – سعادة العذراء

«إنّ سعادة العذراء باستيعاب الإيمان بالمسيح أعظم من سعادتها بحمل جسده. فعلاقة الأمومة التي تربطها به، لم تكن لتفيدها في شيءٍ، لو لم تكن أشدّ سعادةً بحمل يسوع في قلبها منها بحمله في جسدها».

٥ – المنزّهة من كلّ خطيئةٍ

«في مجال الحديث عن العذراء، وإكرامًا للمسيح، آبى أن يؤتي على ذكر الخطايا. إنّنا نؤمن أنّها أوتيت نعمةً كبرى لكي تقهر كلّ صنوف الخطايا، بمجرّد استحقاقها أن تحمل وتلد مَن من المؤكّد أنّه لم يقترف خطيئةً، قطُّ».

٦ – أمٌّ وعذراء

«وحدها، بين النساء، مريم هي أُمٌّ وعذراء، لا بروحها فقط، بل بنفسها وجسدها معًا. بروحها هي أُمٌّ لا لرأسنا ومخلّصنا، فهي وُلدت منه بالروح، إذ إنّ جميع

المؤمنين به – وهي إحداهم – يستأهلون أن يُدعوا أبناء العريس. ولكنّها، بالروح، هي أُمّنا، نحن أعضاءَه، فهي، بمحبّتها، قد أسهمت بولادة جميع مؤمني الكنيسة، أعضاء هذا الرأس.

وبجسدها هي أُمّ رأسنا عينه. فقد كان لا بدّ من أن يولد رأسنا، جسديًّا، وبمعجزةٍ فريدةٍ، من عذراء، للدلالة على أنّ أعضاءه سيولدون، روحيًّا، من الكنيسة العذراء. وهكذا مريم هي، روحًا وجسدًا، أمٌّ وعذراء، أُمّ المسيح وعذراء المسيح.

عذراء تحبل، عذراء تؤتي ثمرةً، عذراء تلد وتظلّ أبدًا عذراء... أَيدهشكم ذلك؟ ألم يكن على يسوع أن يولد على هذا النحو، بما أنّه تنازل إلى أن يتأنّس؟ هو نفسه ابتدع أُمّه، وهو في حضن أبيه، وظلّ في أبيه، بولادته منها. وهل يكفّ عن أن يكون إلهًا، هو من ولدته أمّه وما برحت عذراء؟»

مريم في الكنيسة اليونانيّة

بين مجمعي نيقية وأَفسس برز آباءٌ انكبّوا على إقرار عقائد الإيمان الرئيسة. وبين القرنين السادس والثامن، ازدهر، في الكنيسة الشرقيّة، العهد المريميّ الذي لم يُعهد له مثيلٌ في الغرب حتّى القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وكان أثر الكنيسة الشرقيّة فيهما بالغًا وجليًّا.

وواكب دراسات الملافنة، في الشرق، تيّار تقوى شعبيّةٍ مضطرمةٍ، نجد نموذجًا لها في مسيرة القدّيسة مريم المصريّة، المتوفّاة حوالي العام ٤٣١، والتي كانت، سحابة سبعة عشر عامًا، تمارس الدعارة، واتّفق لها أن أمّت مدينة القدس تحدوها نوايا مريبةٌ. وفي يوم عيد رفع الصليب المقدّس، حاولت ولوج الكاتدرائيّة، غير أنّ قوّةً خفيّةً ردعتها، المرّة تلو المرّة. وفيما كانت غارقةً في بحران صدمتها وإحباطها تحت صورةٍ للعذراء القدّيسة مريم، وألهمها دافعٌ داخليٌّ إلى الاستنجاد بها، فتدفّقت من نفسها هذه الصلاة:

«أيّتها السيّدة العذراء، يا من ولدت، بالجسد، اللّه الكلمة، إنّني أعلم، أجل، أعلم أنّه ليس باللائق ولا بالمعقول أن تتأمّل امرأةٌ في مثل دنسي وقذارتي، صورَتَكِ، أنت التي كنتِ دائمًا عذراء، أنتِ الطاهرة، التي نفسها وجسدها نقيّان ومنزّهان من كلّ لوثةٍ. إنّه لمن العدل أن يمقتني وينبذني طهركِ، أنا الملطّخة بالدنس، ولكنّني قد علمتُ أنّ اللّه الذي ولدتِه قد تأنّس كي يدعو الخطأة إلى التوبة. أغيثيني، فأنا وحيدةٌ، وليس لي من معينٍ. ومُري أن يُتاح لي، أيضًا، ولوج الكنيسة. لا تحرميني من رؤية الخشبة التي سُمِّر عليها اللّه الذي ولدتِه، وعليها سكب دمه كي يفتديني. ومُري، يا سيّدة، أن يُفتح، لي أيضًا، باب عبادة الصليب الإلهيّة. إنّني أهبكِ، أنت، ضمانةً مقبولةً لدى اللّه الذي ولدته. سأقلع عن تدنيس جسدي بمثل العلاقات المشينة السالفة. لا بل إنّني حالما أرى خشبة صليب ابنك، سأزهد، في الحال، بالعالم وبكلّ ما فيه، وسأمضي، بلا تلكّؤٍ، إلى حيث ستقودينني، يا ضامنة خلاصي».

وتتابع التائبة سرد روايتها:

«بعد أن صلّيت على هذا النحو، وبعد أن أودعت نار الإيمان كلّ ثقتي، وبتشجيعٍ

من طيبة أمّ الله، نهضت من حيث كنت أُصلّي، وعدت فاختلطتُ بمن كانوا يدخلون الكنيسة، ولم يردعني أحدٌ عن الدنوّ من الباب المؤدّي إلى الهيكل. فانتابتني الرعدة، وأخذت الرعشة بكلّ كياني. وأخيرًا انتهيت إلى الباب الذي كان، حتّئذٍ، موصدًا دوني، ولكأنّ القدرة التي كانت، من قبل، تصدّني، قد تراخت. ولمّا قُبلتُ في المكان المقدّس، تأمّلت الصليب المحيي، ورأيت أسرار الله، واستعداده للترحيب بالتائبين. ثمّ سارعت إلى الخروج، والعودة إلى عند أقدام كفيلتي.

وهناك، جثوت أمام أمّ إلهي الدائمة البتوليّة، وتوجهّت إليها بهذه الصلاة: «أيّتها السيّدة الطيّبة، لقد أظهرتِ لي إنسانيّتك، ولم تردّي دعائي، مع عدم استحقاقي، ورأيتُ المجد الذي حُرمنا منه نحن النجسين، بحقٍّ، مجد الله الذي تلقّى، بواسطتك، توبة الخطأة. وما عساني أقول أكثر من ذلك، أنا الخاطئة؟ لقد حان لي، يا سيّدتي، أن أفي بوعود الكفالة التي ارتضيتها. فقوديني، الآن، إلى حيثما تشائين، وأصبحي لي عربون الخلاص، بقيادتك لي، بيدك، إلى الدرب المفضي إلى الخلاص».

مع أنّ نبرة هذه الصلاة هي نبرة تقوًى بنويّةٍ، إلاّ أنّها ما برحت تستخدم صفة «السيّدة»، عوضًا عن «الأمّ». وقد يكون تواضع التائبة تفسيرًا لذلك، ولكن من المؤكّد أنّ المناخ الذي كان ما زال سائدًا هو مناخ إجلالٍ واحترامٍ للكلّيّة القداسة، أمّ الله.

وتتميّز هذه الصلاة، أيضًا، بتقديم العذراء القدّيسة، «ضمانةً مقبولةً»، وهذا يبرز صورة العذراء «المحامية»، والوسيطة بامتيازٍ، فهي تحلّ محلّ الخطأة كي تضمن خلاصهم.

وإلى جانب كلّ ذلك، تلعب مريم دور مرشدة النفوس التي تستعين بها.

باسيليُس، أسقف سيلوقيا (٤٥٩ +)

هذا الأُسقف الذي خاض جدالاتٍ محتدمةً حول المسيح، صفت رؤيته من خلال عيني مريم.

١ - تميّز مريم

«إن كان الله قد أغدق نعمه على خدّامه الأبرار، فأيّة مواهب أضفاها على

أمّه!... وإن كنّا نصف بطرس بالطوباويّ، فكم هي طوباويّةٌ، على نحوٍ فريدٍ، العذراء، التي ولدت ذلك الذي اعترف به بطرس؟ وإن دُعي بولس الإناء المصطفى، لأنّه حمل اسم المسيح إلى كلّ أرجاء المسكونة، فأيّ إناءٍ هي أُمّ الله؟...

أيّتها العذراء الفائقة القداسة، مهما سمت الامتيازات التي أنسبها إليك، ومهما عظم المجد الذي أعترف لك به، فإنّني سأظلّ، أبدًا، دون الحقيقة، شأوًا بعيدًا».

٢ - وقال على لسان العذراء مخاطبةً ابنها:

«عندما كانت تتأمّل طفلها الإلهيّ، وقد استحوذ عليها، كما أتخيَّل، الحبّ والخوف، كانت تحدّث نفسها، وحيدةً لوحيدٍ، على هذا النحو:

ما السبيل إلى العثور على اسمٍ يلائمك، يا بُنيّ؟

أإنسانٌ؟ ولكنّ حَبَلي بك كان إلهيًّا!

أإلهٌ؟ ولكنّك ارتديت جسدًا بشريًّا!

وما عساني أن أفعل لك؟

أأُطعمك؟ أم أُشيد بك كإلهٍ؟

أأُعنى بك كأمٍّ، أم أعبدك كأمَةٍ؟

أأُقبّلك كابنٍ، أم أتوسّل إليك كإلهٍ؟

أأُقدّم لك لبنًا أم بخورًا؟

يا له من سرٍّ يفوق الوصف!

السماء عرشٌ لك، وأنت ثاوٍ على ذراعيّ!

أنت بكلّيّتك لسكّان الأرض،

ولم تحرم السماء من حضورك!»

ڤينانس فورتونا (٥٣٠– ٦٠٩)

شاعرٌ مسيحيٌّ إيطاليٌّ. عُيِّن اسقفًا على مدينة پواتييه.

Venance FORTUNAT

«أيّتها العذراء التي سمت فوق جميع العذارى،
يا أُمًّا سمت فوق جميع الأُمّهات،
تواضعك هو الذي ارتقى بك:
والله صنع فيك عظائم!
مغبوطةٌ أنت، لأنّك أصبحت للجنس البشريّ الواقع في أسر الجحيم،
الغاية والسبيل، الباب والعربة!
أمسيت مسكن الله، وزينة الفردوس، ومجد الملكوت،
ملاذ الحياة، والجسر الذي يفضي بنا إلى السماء،...
إنّك ترتفعين وكأنّك هيكل العليّ، ومثل منارةٍ تشعّ نورًا كلّيّ الصفاء،
إنّك تسمقين فوق أشجار الأرز، وفوق قمم الجبال،
والشمس ذاتها تقبع تحت قدميك.
أنت دليل النساء جميعهنّ، أنت الفتاة الوحيدة المفضّلة على أجواق الملائكة.
أنت صلصال الخزّاف، وتحفته الأشدّ بهاءً،
إنّك مادّة خليقةٍ جديدةٍ نيّرةٍ وطاهرةٍ.
إنّك المصباح الذي يحمل نور الكلمة، وقد رصّعه الفنّان الذي خلق النجوم.
إنّك سنى الجمال، ومحيّاك يشعّ نورًا
إنّك مرآة نجوم السماء، أنتِ يا مسكن كلّيّ القدرة.»

ثيوتكنُس، أسقف ليڤياس (+٦٥٠)

أسقفٌ فلسطينيٌّ، أوّل المتحدّثين عن انتقال العذراء

قال في انتقال العذراء:

«كان من اللائق أن يؤازر الرسل القدّيسون مريم في ساعاتها الأخيرة. فهي أمّ الجميع، بما أنّ الابن الوحيد، كلمة اللّه، دعا تلاميذه إخوةً. وكان جديرًا بذلك الجسد، حامل اللّه ومؤلهه، الجسد المؤلّه، المنزّه من الفساد، المستنير بنورٍ إلهيٍّ، والممتلئ مجدًا، أن يحمله الرسل، في موكبٍ من الملائكة، وأن يودع الثرى، فترةً قصيرةً، ثمّ أن يُرفَع إلى السماء بمجدٍ، مع نفسها التي نالت رضى اللّه.

ولئن كان الربّ الذي رأى تلاميذه يحزنون لآلامه قال لهم: «إنّي ماضٍ كي أُعدّ لكم مكانًا»، فكم هو، بالحريّ، كان قد أعدّ لتلك التي ولدته مكانًا متميّزًا بقدر ما كان لها من مكانةٍ لديه!....

وإن كان جسد السيّدة العذراء، حامل اللّه، قد خضع للموت، إلاّ أنّه لم يخضع للفساد، بل وُقي منه، ونُزّه من كلّ لوثةٍ، ورُقيّ إلى السماء مع نفسها الطاهرة التي لا لوثة فيها...»

القدّيس سفرونيُس الأورشليميّ (٥٥٠– ٦٣٩)

من مواليد دمشق. انتخب بطريركًا على أورشليم

«لم يكن أحدٌ مغبوطًا نظيركِ، ولم يوهب أحدٌ ملء القداسة مثلكِ؛ لم يُرقَّ أحدٌ كما رُقيّتِ إلى ذرى العظمة؛ ولم يزوَّد أحدٌ، مثلكِ، بالنعمة المطهِّرة والمقدِّسة. لم يتألّق أحدٌ مثلما تألّقتِ بأنوار السماء، ولم يُرفَع أَحدٌ، مثلكِ، فوق كلّ علوٍّ... وهذا عدلٌ، إذ لم يقترب أحدٌ من اللّه مثلما اقتربت... إنّ خالق الأشياء كلّها وسيّدها، لم يكتفِ بأن جعل منك هيكله، ولكنّه استمدّ جسده من جسدك؛ وأنت حملتِه في أحشائك، وولدتِه ولادةً تستعصي على الوصف».

«السلام عليك يا روعة الروائع! من يستطيع، يومًا، وصف مجالي سناكِ؟ من يدّعي التعبير، بكلماتٍ، عنكِ، أيّتها المعجزة؟... فيك ألمح زينة الجنس البشريّ... لقد فقتِ، بلا قياسٍ، كلّ الخلائق، وطهرك يتلألأ وسطها بألقٍ فريدٍ. ولا بدع، فقد تلقّيتِ الخالق داخلك، وحملتِه في حشاكِ. وبإيجازٍ، أنتِ وحدكِ، دون الخلائق قاطبةً، أصبحتِ أُمّ الله».

أمّا عن بشارة العذراء فقال:

«... ما عساه قال ذلك الملاك الطوباويّ المرسل إلى تلك العذراء التي لا تعرف رجلاً؟ أو كيف عبّر عن رسالةٍ مفعمةٍ بالأنباء السعيدة؟

«ابتهجي، أيّتها المغمورة بالنعمة، الربّ معك». بالفرح استهلّ حديثه إليها، فهو رسول الفرح. فقد كان يدرك إدراكًا كاملاً أنّ رسالته ستوفّر الفرح لجميع البشر، وللخلائق قاطبةً، وسيدرأ عن الجميع كلّ ضروب الكروب؛ وكان يعلم أنّ الإلمام بهذا السرّ الإلهيّ سيغمر الكون بالنور؛ فتُثلم شوكة الموت، وينهار سلطان الغواية، ويُنتزع من الجحيم نصرها، ويتحقّق الخلاص للإنسان الضالّ الذي طالما عبد الشرور، مُذ طرد من فردوس النعيم، وحرم سكناه. ولذلك استهلّ رسالته بكلمات الفرح، فمن شأن هذه الرسالة أن تأتي بالفرح لجميع المؤمنين.

«... ولئن أعلن الملاك الفرح قبل كلّ شيءٍ آخر، فلأنّه كان عالمًا بمآل رسالته، وبأنّ الحوار سيفضي إلى فرح العالم أجمع. فأيّ فرحٍ أو أيّة متعةٍ لا يفوقهما، بلا قياسٍ، الحوار مع تلك العذراء الطوباويّة، أمّ الفرح؟

ابتهجي، يا أمّ الفرح السماويّ الفائق،

ابتهجي، يا من تلد الفرح الأسمى،

ابتهجي، يا مسكن الفرح الخلاصيّ الأوّل،

ابتهجي، يا مؤئلاً قدسيًّا لفرحٍ يستعصي على الوصف،

ابتهجي، يا تربةً رائعةً لفرحٍ لا يمكن التعبير عنه،

ابتهجي، يا نبعًا طوباويًّا لفرحٍ لا ينضب،

ابتهجي، يا كنزًا إلهيًّا لفرحٍ أبديٍّ.

ابتهجي، يا شجرةً مزهرةً تؤتي فرحًا محييًا،

ابتهجي، يا عذراء أمّ الله،

ابتهجي، يا عذراء ظلّت بتولاً بعد ولادتها،

ابتهجي، يا منظرًا رائعًا يفوق المعجزات كلّها.»

رومانُس المنشد (٥٥٦ +)

وُلد في أواخر القرن الخامس، في مدينة حمص السوريّة، من أبٍ يهوديٍّ متنصّر وأُمٍّ مسيحيّةٍ تقيّةٍ، وأثبت، منذ صباه، أنّه منشدٌ ملهمٌ، يتميّز بشاعريّةٍ مبدعةٍ، وخيالٍ خلاّقٍ، ونفسٍ لا تني تنشد، ولكأنّه تكرارٌ لظاهرة القدّيس أفرام.

منذ ريعان شبابه انتقل إلى بيروت، عاصمة الأدب آنذاك، ورُسم شمّاسًا لكنيسة القيامة فيها، ثمّ غادرها إلى القسطنطينيّة حيث رُقّي إلى رتبة الكهنوت. وتولّى خدمة كنيسةٍ للعذراء في تلك العاصمة البيزنطيّة. توفّي عام ٥٥٦، ويُقال إنّه وضع ما يربو على ألف نشيدٍ طقسيٍّ، لم يبقَ منها سوى نحو مئتين.

عبقرّيته تفجّرت في تكريم العذراء الذي أسبغ عليه رقّةً إنسانيّةً مستساغةً. وفيما نزع كثيرون سواه إلى تصوير أمّ الله كائنًا مجرّدًا لا تطأ قدماه الأرض، رسمها رومانُس في صُوَرٍ واقعيّةٍ عذبةٍ تهزّ كياننا، وبعباراتٍ حلوةٍ تفتقر إلى مثلها نصوص كبار المعلّمين.

في ما يلي ترجمةٌ لثلاثةٍ من أناشيده:

آ - بمَ أُسمّيك، يا بنيّ.

«كانت مريم تتقدّم، وهي تحمله بين ذراعيها،

متسائلةً كيف أصبحت أُمًّا، وهي ما برحت عذراء،

مدركةً أنّ ولادتها فاقت الطبيعة.

كانت خائفةً ترتعد، وتقول، في سرّها:

بمَ أُسمّيك يا بنيّ؟

أَإنسانًا أدعوك، وأنت فوق البشر؟
أنت الذي صان بكارتي.
أَأصفك بالكمال، وأنا أعلم حبَلي الإلهيّ بك؟
وإن دعوتك اللّه، فيا لذهولي،
وأنا أراك شبيهًا بي، في كلّ شيءٍ،
ولك كلّ ما للبشر!
فهل عليّ أن أُرضعك، أم أن أُنشد لك؟»

ب – نشيدٌ للعذراء عند أقدام الصليب

١ – «تعالوا جميعكم لنحتفل.
فذاك الذي صُلب من أجلنا،
رأته مريم معلّقًا على آلة العذاب، فهتفت:
بوسعك أن تُصلَب وتتألّم،
ومع ذلك تبقى
ابني وإلهي.

٢ – مثل نعجةٍ تشهد حملها
يُساق إلى الذبح،
كانت مريم تتبع،
وقد حطّمها الألم،
مع النساء الأُخريات.
وكانت تتأوّه:
«إلى أين أنت ماضٍ، يا بنيّ؟

ولمَ هذا الجري السريع؟
هل هناك، أيضًا، في قانا،
عرسٌ آخر تُسرع إليه،
لكي تسقيهم من الماء خمرًا؟
وهل أتبعك، يا بنيّ،
أم عليّ أن انتظرك؟
قلْ كلمةً،
أنت الكلمة!
ولا تدعني هكذا محرومةً من كلمةٍ
أنت الذي حفظني طاهرةً،
يا ابني وإلهي!
٣ – لم أَتوقّع قطّ، يا بنيّ،
أن أشهدك، يومًا، في هذا الحال.
ولم أكن لأتخيّل،
حتّى وأنا أشهد حَنَق أولئك الكفرة وهياجهم،
أن يلقوا عليك أيديهم الآثمة.
فأبناؤهم ما زالوا يهتفون:
«هوشعنا! مباركٌ أنت!»
وسعف النخل الملقاة على الدروب ما برحت تُخبر الجميع
باندفاع أولئك الذين كانوا يهتفون لك.
فعلامَ هذا الانقلاب؟

ليتني أُدرك له سببًا!
لمَ ينطفئ نوري،
ولمَ يوثقون على الصليب
ابني وإلهي؟
٤ – إنّك ماضٍ، يا حشاي،
صوب جريمة قتلٍ ظالمةٍ،
ولا أحد يقاسمك آلامك!
لا يرافقك بطرس،
وهو الذي كان قد قال:
«ولو أُلجئتُ إلى الموت معك لما أنكرتك!»
وهجرك، أيضًا، توما الذي كان قد هتف:
«فلمنضِ، نحن أيضًا، ولنمتْ معه!»
والآخرون، أيضًا، الحميمون والأبناء،
الذين عليهم أن يدينوا الأسباط الاثني عشر،
أين هم الآن؟
لا أحد منهم هنا!
ولكنّك، أنت وحدك، تموت عن الجميع،
وحيدًا، يا بنيّ!
مع أنّك خلّصت جميعهم،
وافتديت جميعهم،
يا ابني، وإلهي!»

٥ – هكذا كانت تتأوّه وتنتحب
مريم التي أرهقها الحزن،
وأمضّها الألم،
حينئذٍ التفت نحوها
ذاك الذي انبثق منها، وهتف:
«علامَ تبكين يا أُمّاه؟...
إن لم أتألّم ولم أمُتْ،
فكيف لي أن أُنقذ آدم؟
وإن لم أسكن القبر،
كيف لي أن أُعيد إلى الحياة
من تأسرهم الجحيم؟
أجل، أنتِ تعلمين
أنّني، من أجل ذلك
أُصلب وأموت.
فعلامَ تبكينَ، يا أُمّاه؟
بل اهتفي، بالحريّ:
لقد تألّم طوعًا وحبًّا،
ابني وإلهي!
٦ – هدّئي رَوْعك، يا أُمّاه،
فالنحيب لا يلائمك!
لقد دعيتِ «ممتلئةً نعمةً».

فلا تفسدي هذا اللقب بتأوّهاتك!
ولا تحذي حذو الحمقاوات،
أيّتها العذراء الكلّيّة الحكمة.
أنت تقيمين في بيتي،
فلا تدَعي نفسك تنهار،
وكأنّك واقفةٌ خارجًا.
بل استدعي من في البيت،
فهم خدمك.
وسيهرع كلٌّ منهم،
وسيصغي إليك، يا قدّوسةُ،
عندما ستسألين:
«أين هو، ابني وإلهي؟»

٧ - لا تجعلي يوم آلامي يبدو مريرًا،
فمن أجله انحدرتُ من السماء،
أنا العذوبة عينها،
انحدارَ المنّ، لا على جبل سيناء،
بل في أحشائك.
وفي أحشائك تخثّرتُ، كما تنبّأ داود،
فاعلمي، أيّتها المرأة النبيلة،
أنّ هذا «الجبل المتخثّر» هو أنا،
بما أنّني الكلمة الذي صار فيك جسدًا.

في هذا الجسد أتألّم وأموت،
وبه، أيضًا، أُخلّص.
فلا تنتحبي، يا أُمّاه،
بل، بالحريّ، اهتفي:
«طوعًا يقاسي الآلام، ابني وإلهي!»

٨ – وأجابت مريم:
أتريدني أن أُجفّف منبع دموعي؟
ولكنّ قلبي يزداد، بذلك، اضطرابًا.
وأفكاري لا تقوى على التزام الصمت.
فعلامَ، يا حشاي، تقول لي:
«لا خلاص لآدم، إن لم أتألّم»
مع أنّك شفيت الكثيرين، ولم تتألّم؟
كان حسبك أن تشاء كي يطهر الأبرص،
ولم تتألّم.
والمقعد قوّيت عضلاته،
ولم تعانِ أيّ تعبٍ.
والأعمى، بمجرّد كلمةٍ منك،
أعدت له البصر،
ولم تعانِ، من جرّاء ذلك، أيّ نَصَبٍ،
أيّها الطيبة عينها،
يا ابني وإلهي!

٩ – في سبيل إنهاض جُثَثٍ،
لم تضطرّ إلى الموت،
ولم تُسَجَّ في لحدٍ.
فكيف، إذن، تقول لي:
«إن لم أتألّم، وإن لم أَمت،
لما خلص آدم المسكين»؟
مُرْ، فقط، وسينهض، في الحال،
حاملاً فراشه.
مثل لعازر الذي أَقمته بكلمةٍ،
أَقمْه، وإن كان راقدًا في قبرٍ
كلُّ الأشياء خاضعةٌ لك،
لأنّك خلقتها جميعًا.
علامَ، إذن، تستعجل، يا بنيّ؟
لا تجرِ، هكذا، صوب منقع العذاب،
ولا تُسلِّم نفسك للموت،
يا ابني وإلهي!
١٠ – إنّكِ، يا أُمّاه، لا تدركين قصدي.
فاجهدي في فتح ذهنك، كي تودعي فيه أقوالي.
وتأمّلي، في سرّك، وافهمي ما أقول:
إنّ من سمّيتهِ آدم المسكين،
ليس فقط سقيم الجسم،

بل إنّه أوقع، أيضًا، نفسه في السقم.
وقد صنع بؤسه بيده، فعرَّض ذاته للتهلكة.
إنّك تدركين ما أقول، فلا تنتحبي، يا أُمّاه،
بل قولي، بالحريّ:
كن رحيمًا حيال آدم، وشفوقًا على حوّاء،
يا ابني، وإلهي!

١١ – من جرّاء إسرافه وفهمه،
قُذف بآدم العليل إلى أغوار الجحيم،
وهو، هناك، ينتحب، راثيًا بؤس نفسه.
وحوّاء البائسة التي سبق لها أن علّمته العصيان،
تنتحب معه، فهي، معه، عليلةٌ،
كي يتعلّما، كلاهما معًا، الالتزام بوصفة الطبيب.
هل أدركتِ، أخيرًا، ما قلتُه؟
وبما أنّك أَصبحتِ، الآن، تدركين،
علامَ، إذن، تبكين، يا أُمّاه.
بل اهتفي، مرَّةً أُخرى:
«إن هو تألّم، فلأنّه شاء الألم،
ابني وإلهي!»

١٢ – عندما سمعت النعجة المنزّهة من العيب
هذه الكلمات، أجابت حَمَلها:
يا ربّي، إِن ألححتُ، ثانيةً، فلا تغضب عليّ.

فما استيضاحي هذا إلاّ رغبةٌ
في أن أعلم، منك، ما أرغب رغبةً عارمةً في معرفته.
فإن أنتَ تألّمت، ومتَّ، هل ستعود إليّ؟
وإن أنت مضيت لإبراء حوّاء وآدم،
أفلا يحقّ لي أن أخشى من ألاّ أراك ثانيةً؟
هذا ما أخشاه:
أن تنطلق من اللحد إلى السماء،
في حين أنا أبحث عنك، باكيةً، وصارخةً:
أين هو ابني وإلهي؟
١٣ – لدى سماع من يعرف كلّ الأشياء قبل حدوثها،
هذه الأقوال، أجاب مريم:
«اطمئنّي، يا أمّاه، فستكونين
أوّل من يشاهدني خارجًا من القبر.
فسآتي كي أُظهر لك من أيّة هوّة ظلماتٍ
انتشلتُ آدم،
وأيّ عَرَقٍ سكبتُ من أجله.
وسيتبيّن أصدقائي ذلك،
بدليل العلامات المحفورة في يديّ.
وحينئذٍ، ستشاهدين، يا أُمّاه،
حوّاء، وقد بُعثت إلى حياةٍ جديدةٍ،
وستهتفين، فرحةً:

لقد خلّص أجدادي
ابني وإلهي.
١٤ – تذرّعي بشيءٍ من مزيد الصبر،
وسترين كيف أنّي، نظير طبيبٍ،
سأنزع ثيابي، وسأهرع إلى حيث هم راقدون،
وسأتحرّى جراحهم،
وسأستأصل، بحربتي، ندوبهم وتكلكلاتهم،
وبالخلّ سأكوي جراحهم،
وبأطراف مساميري سأشفي قروحهم،
وسأجعل من معطفي الأرجوانيّ أضمدةً،
وأخيرًا سأحمل صليبي،
بمثابة صندوق أدويةٍ،
وسأستخدمه، كي تنشدي، يا أُمّاه،
بوعيٍ كاملٍ:
بآلامه ألغى الألم،
ابني وإلهي!
١٥ – أَقصي عنك الحزن، يا أُمّاه،
وسيري فرحةً، من أجلي.
إنّني، الآن، أستعجل تنفيذ مشيئة من أرسلني،
(ومن أجل هذا أنا موجودٌ على الأرض).
منذ البدء، كان هذا ما أُمرتُ به:

فقد قرّر أبي، مع روحي،
أن أصير بشرًا، وأن أقاسي الآلام،
افتداءً لمن خطئ.
فاجري، يا أُمّاه، وأَعلني في كلّ مكانٍ:
بألمه طعن، حتّى الموت، عدوّ آدم الحقود،
وها هوذا يعود منتصرًا
ابني وإلهي!

١٦ - إنّ حبّي أقوى منّي، ولا قِبَل لي على مقاومته،
ولست أقوى على ارتضاء أن أكون، أنا، في ملجإٍ آمنٍ،
فيما أنتَ معلّقٌ على الصليب،
أو أن أمكث في بيتي، وأنت ثاوٍ في لحدٍ.
دعني، إذن، أرافقك،
فمشاهدتك تريحني،
وإن تعيّن عليّ أن أرقب جسارة تلاميذ موسى المجرمة،
أُؤلئك العميان المدّعين
أنّهم، بقتلك، ينتقمون لموسى،
مع أنّ موسى قال لإسرائيل:
«ذات يومٍ، سترُى الحياة على خشبةٍ».
وما الحياة سواك، أنت،
يا ابني وإلهي!

١٧ - إن أنتِ كنت عازمةً على مواكبتي،
فلا تبكي، يا أُمّاه، كما تبكي أُمٌّ.

ولا ترتعدي لدى رؤية عناصر الكون تتزعزع.
فرؤية هذه الجريمة،
ستشيع الاضطراب في الخليقة:
فالسماء ستكفهرّ، وسترفض النور،
حتّى أتكلّم أنا.
والهيكل سيمزّق حجابه،
لاعنًا، جهارًا،
من لا يتورّعون عن اقتراف هذه الجريمة.
الأرض والبحر سيسارعان إلى الفرار،
والجبال ستهتزّ،
والقبور ستُدَكّ.
وإن اعترتك، من ذلك، الرعدة،
بما أنّك امرأةٌ،
اهتفي، نحوي:
ارأف بي
يا ابني وإلهي!

١٨ – يا ابن العذراء، عذراء الله، ويا باري الكون،
آلامك هي قمّة الحكمة.
أنت، وحدك، عالمٌ بما كنتَ، وبما صرتَ،
وبتعطّشك إلى الألم، ارتأيت أن تأتي.
ورغبةً منك في خلاصنا، مثل حمل التضحية،

أخذت على عاتقك خطايانا،

وبموتك أَمتّها.

فيا مخلّص، تنازل وخلّصنا جميعًا.

فأنت، وحدك، تتألّم ولا تهتزّ،

وحدك، تموت، وبموتك تخلّص.

أنت الذي أتاح للعذراء القدّيسة،

أن تدعوك، بكلّ بساطةٍ:

يا ابني، وإلهي!»

ج – مدائح العذراء، أو الأكاثستُس

هذا النشيد وضعهُ القدّيس رومانُس، أصلاً، من أجل عيد البشارة الواقع في ٢٥ آذار، وقد تناول كلّ أسرار حياة العذراء، فجاء النصّ الأرحب والأكمل في تسبيح أمّ الله.

ثمّ، بعد عقودٍ، إذ حاصر الفرس القسطنطينيّة، وكادوا يستولون عليها في ليلة السابع من آبٍ عام ٦٢٦، وفيما كان ملك القسطنطينيّة، هرقل، غائبًا يستنجد بجيوشٍ صديقةٍ أو حليفةٍ، بعد أن أوكل القيادة للبطريرك المسكونيّ سرجيُس، وفيما كان الشعب محتشدًا فوق أسوار العاصمة ينشد مدائح العذراء التي وضعها القدّيس رومانُس، مردّدًا، إثر كلّ بيتٍ، لازمة «افرحي يا عروسةً لم تقترن بعريس» أو لازمة «هلّلويا». حدثت المعجزة، وظهرت في السماء سيّدةٌ جميلةٌ ومهيبةٌ، تدفع بيدها جحافل الأعداء التي تراجعت بغتةً، وسط فوضى عارمةٍ.

ولذلك أضاف البطريرك سرجيُس إلى مدائح رومانُس مقدّمةً تشيد بتلك المعجزة، وتشكر للعذراء صنيعها، وهي التي ما برحنا نردّدها بقولنا: «نحن عبيدك يا والدة الله...»

وإحياءً لتلك الذكرى، بات نشيد المدائح يُحتفل به في أيّام الجمعة من أسابيع الصوم، ويُدعى «أكاثستُس»، أي الذي لا يُجلَس فيه، إذ إنّ شعب القسطنطينيّة كان ينشده وقوفًا، عند الأسوار.

وفي القرن الثامن أضاف الشاعر «يوسف المنشئ» إلى نشيد المدائح الأصليّ، «قانونًا» من تسع تسبيحات،

وبما أنّ هذا النشيد ارتبط، في الأذهان، بنجاة القسطنطينيّة من حصار الفرس، سنواتٍ

بعد وفاة مؤلّفه، فقد ظنّ بعض النقّاد أنّه إنّما وُضع بوحي تلك النجاة وأنكروا أُبوّة رومانُس له، فعزاه بعضهم إلى جاورجيُس البسيدي (بُعَيْد ٦٣٠)، أو إلى البطريرك سرجيُس (٦١٠– ٦٣٨) أو إلى جرمانُس القسطنطينيّ (حوالي ٧٣٣ +)

وإنّما الجدَل حول نسبة هذا النشيد يندرج في إطار أسماء مهندسي الكاتدرائيّات، الذين ظلّت عبقريّتهم مغفلةً، غير منفصلةٍ عن روح الجماعة. فمجد الفنّان المسيحيّ هو، أوّلاً، مجد كنيسةٍ حيّةٍ.

يتألّف هذا النشيد من ٢٤ مقطعًا يُستَهلّ كلٌّ منها بحرفٍ من حروف الأبجديّة اليونانيّة، بدءًا بـ «ألفا» حتّى «أوميغا». وكلٌّ من الاثني عشر مقطعًا مفردًا يتألّف من اثني عشر دعاءً، تبدأ بهتاف «افرحي» وتُختَتم بلازمةٍ تقول «افرحي». فالفرح يغمر هذا النشيد.

المقاطع الاثنا عشر الأولى تروي الأحداث الإنجيليّة، بدءًا بالبشارة حتّى نبوءة سمعان الشيخ. والمقاطع الاثنا عشر التالية تتعلّق ببنود الإيمان الخاصّة بمريم: حياتها، وولادتها البتوليّة، وأُمومتها الإلهيّة، وبتوليّتها في الولادة، وبعد الولادة، وحضورها في الكنيسة، ودورها الحاضر.

النشيد ينطلق من أحداث الخلاص التي يرويها الكتاب المقدّس، ومن الفرح الذي أشاعه على الأرض، كي ترتقي إليه الأرض كلّها، في الفرح.

هذا النشيد تحفةٌ مدهشةٌ لا تني تتجدّد.

لطالما أَلفنا تلاوة «المدائح» وفق ترجمةٍ طقسيّةٍ قديمةٍ ليس بوسعنا الحكم على دقّتها. غير أنّه توفّر لدينا ترجمتان فرنسيّتان قام بهما خبراء، لحظنا بينهما تبايناتٍ طفيفةً، غير أنّ بين كلتيهما والنصّ المستخدم في كنائسنا خلافاتٍ كثيرةً وهامّةً.

ولذلك آثرنا أن نورد، فيما يلي، ترجمةً جديدةً مبنيّةً على الترجمتين الفرنسيّتين الآنفتي الذكر، لعلّ قشابة الألفاظ والتعابير تدرأ تأثير الاعتياد الذي غالبًا ما يُفضي إلى تكرارٍ لا واعٍ، فتشحذ الانتباه، وتقود إلى تمعّن النصّ تمعّنًا أفضل، وإلى تذوّق روعته:

لقد هُرع الملاك إلى كوخ يوسف،
حاملاً، في روحه، الرسالة القدسيّة،
وقال للعذراء:
إنّ الذي يحمل السماء على التنازل،
يحتبس بأكمله ثابتًا فيكِ.
وإنّني، إذ أراه يتّخذ صورة عبدٍ في أحشائكِ،

أَهتف لك مذهولاً:
افرحي يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ١ –

افرحي يا إِشعاع الفرح،
افرحي يا مبطلة اللعنة،
افرحي، يا مقيلة آدم من عثاره،
افرحي، يا مكفكفة دموع حوّاء،
افرحي، يا قمّةً لا تطالها الأَفكار البشريّة،
افرحي، يا هوّةً لا تنفذ إليها حتّى أبصار الملائكة،
افرحي، يا عرش الملِك.
افرحي، يا حاملة من يحمل كلّ شيءٍ،
افرحي، أيّها الكوكب الذي يعلن الشمس،
افرحي، يا حشا التجسّد الإلهيّ،
افرحي، يا مجدّدة الخليقة،
افرحي، يا من بها أصبح الخالق طفلاً،
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ٢ –

إذ كانت القدّيسة واثقةً من بتوليّتها
قالت لجبرائيل بجرأةٍ:
إنّ مفارقة كلامك تبدو لي مستعصية الفهم،
فإنّك تتنبّأ بثمرة حبلٍ بلا زرعٍ،
هاتفًا: هلّلويا!

– ٣ –

مُحاولةً إدراك ما يستعصي على الإدراك،

هتفت العذراء لخادم الله:

قل لي: كيف يمكن أن يولد ابنٌ من أحشائي النقيّة؟

فأجابها بتهيُّبٍ، قائلاً:

افرحي، يا من أُطلعْت على المشيئة الإلهيّة، التي يقف البيان، حيالها، عاجزًا،

افرحي، يا مؤمنةً بمقاصد الصمت،

افرحي، يا مبدأ معجزات المسيح،

افرحي، يا خلاصة تعاليمه،

افرحي، أيّتها السُلَّم التي عليها ينحدر الله،

افرحي، يا جسرًا يصل ساكني الأرض بالسماء،

افرحي، يا معجزة الملائكة الفائقة،

افرحي، يا جرح الأبالسة الجدير بالرثاء،

افرحي، يا أمّ النور الذي يندّ عن الوصف،

افرحي، يا سرّ سؤال «كيف؟»

افرحي، يا من تتخطّى معرفة الحكماء،

افرحي، يا من تضيء قلوب المؤمنين،

افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ٤ –

قدرة العليّ ظلّلتها، لكي تحبل بلا زواج،

فأَضحى حشاها المقفر حقلاً خصبًا،

لجميع ملتمسي الحصاد مرنّمين: هلّلويا.

– ٥ –

هُرعت العذراء لزيارة إليصابات،
حاملةً اللّه في أحشائها.
وما إن سمع جنين إليصابات سلامها، حتّى أخذت به البهجة،
فرحّب بأمّ اللّه بتوثّباتٍ كأنّها أناشيد تهتف:
افرحي، يا غصن كرمةٍ لا تذبل،
افرحي، يا تربةً تؤتي ثمرةً خالدةً،
افرحي، يا من أثمرت فلاّحًا صديقًا للبشر،
افرحي، يا من غرست غارس حياتنا،
افرحي، يا حقلاً يُنبت الإحسانات بوفرةٍ،
افرحي، يا مائدةً زاخرةً بالطهر،
افرحي، يا إزهار فردوسٍ يوفّر لنا الغذاء،
افرحي، يا من توفّر للنفوس مرفأً،
افرحي، يا بخور الصلاة المقبول،
افرحي، يا من تكفّر عن العالم أجمع،
افرحي، يا عطف اللّه على البشر،
افرحي، يا ضمانة البشر لدى اللّه،
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ٦ –

عاصفةٌ داخليّةٌ من الأفكار المتضاربة،
هزّت نفس يوسف الحكيم، فاضطرب.
كان يعرف أنّك عذراء، وانتابته من سقطتك ريبةٌ،
يا منزّهةً من كلّ عيبٍ،

ولكنّه إذ علم أنّ إِخصابك قد تمّ بفعل الروح القدس،
قال: هلّلويا.

– ٧ –

سمع الرعاةُ الملائكةَ ينشدون لحضور المسيح المتجسّد،
فهرعوا نحو راعيهم، وشاهدوا حملاً بلا عيبٍ، يرتع في حضن مريم،
وأنشدوا قائلين:
افرحي، يا أُمّ الحمل والراعي،
افرحي، يا حظيرة النعاج الروحيّة،
افرحي، أيّتها الذائدة عن حياضنا من هجمات الوحوش غير المرئيّة،
افرحي، يا مفتاح أبواب الفردوس،
افرحي، لأنّ السماء تشارك الأرض بهجتها،
افرحي، لأنّ الأرض تردّد أناشيد السماء،
افرحي، يا صوت الرسل الذي لا يُكَمّ،
افرحي، يا شجاعة الشهداء التي لا تُقهَر،
افرحي، يا سند الإيمان الذي لا يتزعزع،
افرحي، يا علامة النعمة المتألّقة،
افرحي، يا من بها سُلبت الجحيم،
افرحي، يا من بها ارتدينا المجد،
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ٨ –

شاهد المجوس كوكبًا يقود إلى الله،
فاتّخذوا من نوره نبراسًا

وبه اكتشفوا الكلّيّ القدرة،
وعندما انتهوا إلى من يتعذّر الوصول إليه،
حيّوه هاتفين: هلّلويا.

– ٩ –

لقد شاهد أبناء الكلدانيّين، بين يَدي العذراء،
ذاك الذي فَطَر البشر بيديه.
ومع أنّه اتّخذ صيغة عبدٍ،
تعرّفوا فيه الربّ،
فسارعوا إلى تكريمه بهداياهم،
وهتفوا للمباركة:
افرحي، يا أُمّ الكوكب الذي لا يأفل،
افرحي، يا سنى النهار السرّيّ،
افرحي، يا مطفئة أتّون الضلال،
افرحي، يا منيرة الملمّين بسرّ الثالوث،
افرحي، يا من تطيح بسلطان الطاغي اللاإنسانيّ،
افرحي، يا مظهرة المسيح الربّ، صديقًا للبشر.
افرحي، فقد أنقذتنا من الخرافة البربريّة،
افرحي، فقد انتشلتنا من نفثات الحمأة،
افرحي، فقد أطفأتِ عبادة النار،
افرحي، فقد أخمدتِ لهيب الأهواء،
افرحي، يا مرشدة المؤمنين إلى العفّة،
افرحي، يا اندفاع الأَجيال البشريّة كلّها.
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ١٠ –

رجع المجوس إلى بابل، وقد أمسوا دُعاةً يحملون اللّه،
وأتمّوا نبوءتكَ، وأعلنوا المسيح على الملأ،
تاركين هيرودُس يتخبّط في حمقه،
عاجزًا عن ترنيم: هلّلويا.

– ١١ –

يا مخلّص، لقد أشعَعْتَ، في مصر، بهاء الحقيقة،
وطردت غياهب الضلال،
إذ لم تُطِق أصنام تلك البلاد احتمالَ قدرتكَ، هوت،
ونحن، الناجين منها، نهتف لأمّ اللّه:
افرحي، يا نهضة البشر،
افرحي، يا داحرة الأَبالسة،
افرحي، فأنتِ تدوسين، بقدمكِ، قوى الفتنة،
افرحي، لأنّكِ تنزعين قناع مكر الأَصنام،
افرحي، يا بحرًا يغرق في عبابه فراعنة الفكر،
افرحي، يا صخرةً ينهل من مياهها عطاش الحياة،
افرحي، يا عمود نارٍ يهدي في الظلام.
افرحي، يا ظلاًّ للعالم، أرحب من الغمام.
افرحي، يا غذاءً يُغني عن المنّ.
افرحي، يا موزّعة المتع المقدّسة،
افرحي، يا أرض الميعاد،
إفرحي، يا مَن منها يسيل العسل واللبن،
افرحي، يا عروسًا، لم يعرفها عريسُها.

– ١٢ –

لمّا أَزمع سمعان على مغادرة هذا العالم الخدّاع، دُفعتَ إليه طفلاً،
ولكنّه تعرّف فيك إلهًا كاملاً، فدهش من حكمتك التي لا يحيط بها وصفٌ،
وهتف: هلّلويا

– ١٣ –

لقد أظهر لنا الخالق خليقةً جديدةً، آتيةً منه،
حشاها أنبت بلا زرعٍ، وقد أَبقاه كما كان، مُصانًا من الفساد،
لكي ننشد لدى رؤيتنا هذه المعجزة، هاتفين:
افرحي، يا زهرة اللافساد،
افرحي، يا تاج العفّة،
افرحي، يا من تألّقت فيها صورة القيامة،
افرحي، يا من تجلّت فيها سيرة الملائكة،
افرحي، يا شجرةً تؤتي ثمارًا فاخرةً، غذاءً للمؤمنين،
افرحي، يا غرسةً مخضلّةً يفيء الكثيرون إلى ظلّها،
افرحي، يا من حملت في حشاها هادي الضالّين،
افرحي، يا من وضعت محرّر الأسرى،
افرحي، يا مستعطفة الديّان العادل،
افرحي، يا من هي، لكثيرين، منبع الغفران،
افرحي، يا رداءَ المحرومين من الحماية،
افرحي، يا حبًّا يتغلّب على كلّ الرغبات.
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ١٤ –

إذ نشهد هذه الولادة الغريبة، فلنَنْأَ بأفكارنا عن العالم، ولنرقَ بها إلى السماء،
فلذلك ظهر العليّ على الأرض، فقيرًا، إنسانًا،
كي يجتذب إلى العلاء جميع من يهتفون له: هلّلويا.

– ١٥ –

إنّ الكلمة الذي لا يحدّه مكانٌ، كان بكلّيّته في هذه الدنيا،
وفي الآن عينه كان في العلاء الذي لم ينأَ عنه.
لقد حدث تنازلٌ إلهيٌّ، لا تبدّلٌ مكانيٌّ،
عندما ولدت عذراء ممتلئةٌ بالله.
فتعالت إليها هذه المدائح:
افرحي، يا مؤئل الله الذي لا يحتويه مكانٌ،
افرحي، يا باب السرّ الجليل،
افرحي، يا نبأً لغير المؤمنين لا يُصدَّق،
افرحي، يا مجدًا للمؤمنين لا يرقى إليك شكٌّ،
افرحي، يا مركبةً فائقة القداسة لمن يفوق الشيروبيم،
افرحي، يا مسكنًا لائقًا بمن يفوق السيرافيم.
افرحي، يا من وفّقت بين الأضداد،
افرحي، يا من قرنت الولادة بالبتوليّة،
افرحي، يا من بها صُفح عن المعصية،
افرحي، يا من بها فُتحت أبواب الفردوس،
افرحي، يا مفتاح ملكوت المسيح،

افرحي، يا رجاء الخيرات الأبديّة،
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ١٦ –

إنّ عالم الملائكة بأسره
تأمّل بإعجابٍ فعل تجسّدك العظيم،
فاللّه الذي لا يُنال، ظهر بمتناول الجميع،
إنسانًا مقيمًا بين ظهرانينا،
وهو يسمعنا نردّد له: هلّلويا

– ١٧ –

إنّنا نشهد الخطباء المفوّهين
بُكمًا كالأَسماك، أمامكِ، يا والدة اللّه،
عاجزين عن تفسير كيف استطعتِ أن تلدي وتظلّي عذراء.
أمّا نحن، فنتأمّل السرّ بإعجابٍ،
ونهتف بملء إيماننا:
افرحي، يا إناء الحكمة الإلهيّة،
افرحي، يا كنز عنايته،
افرحي، يا من تثبت حمق الحكماء،
افرحي، يا من تُخرس العلماء الثرثارين،
افرحي، فالباحثون المهرة تنتابهم الحيرة،
افرحي، فمختلقو الأساطير قد أُفحموا.

افرحي، فقد مزّقتِ حبائل الأَثينيّين،

افرحي، فقد ملأتِ شباك الصيّادين،

افرحي، يا من تنتشل من وِهاد الجهل،

افرحي، يا من تغني الكثيرين بالمعرفة،

افرحي، يا سفينة من ينشدون الخلاص،

افرحي، يا مرفأ المبحرين في يمّ هذه الحياة،

افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ١٨ –

عندما ابتغى خالق كلّ شيءٍ أن يخلّص العالم، وافاه حسب وعده،
ومع أنّه الراعي، بما أنّه الله، جاء إلى ما بيننا، نعجةً،
كي يدعو الشبيهُ شبيهَه.
وهو يسمعنا نخاطبه، كإلهٍ: هلّلويا.

– ١٩ –

أنتِ سور العذارى، يا عذراء،
يا أمّ الله، وأمّ جميع من يلتجئون إليكِ،
إذ إنّ خالق السماء والأرض، بسكناه في أحشائكِ،
قد حوّلك، أيّتها المنزّهة من كلّ دنسٍ،
وعلّم الجميع أن يهتفوا لك:
افرحي، يا عمود البتوليّة،
افرحي، يا باب الخلاص،
افرحي، يا باكورة الخليقة الروحيّة الجديدة،

افرحي، يا موزّعة النعمة الإلهيّة،
افرحي، لأنّك ولدتِ إلى حياةٍ جديدةٍ الذين حُبِل بهم في العار،
افرحي، لأنّكِ أعدتِ الفهم إلى من كانوا محرومين منه،
افرحي، يا من سحقتْ مفسد الأرواح،
افرحي، يا من ولدتْ زارع العفّة،
افرحي، يا خدر الأعراس الطاهرة،
افرحي، يا من تعقد قران المؤمنين بالربّ،
افرحي، يا مربّية العذارى، العذبة،
افرحي، يا مُعِدّة النفوس للاقتران بالله.
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ٢٠ –

كلّ نشيدٍ يفشل، عندما يحاول الإسهاب في وصف غنى رأفاتكَ الجمّة،
وحتّى لو نحن رفعنا إليك مدائح تساوي حبّات الرمال عددًا،
أيّها الملك القدّوس، لما أتينا شيئًا جديرًا بما وهبتَناه،
نحن الهاتفين: هلّلويا.

– ٢١ –

إنّنا نتأمّل العذراء القدّيسة،
مثل مشعلٍ مُشعٍّ يهدي التائهين في الظلمات.
فقد أشعلتْ نورًا غير مادّيٍّ،
وهي تقود كلّ إنسانٍ إلى المعرفة الإلهيّة.
وإنّنا نكرّم سناها الذي يضيء العقول هاتفين:
افرحي، يا شعاع الشمس الروحيّة،

افرحي، يا وهج النور الذي لا يغيب،
افرحي، يا برقًا ينير النفوس،
افرحي، يا صاعقةً ترهب الأعداء،
افرحي، لأنّك تشعّين نورًا شديد التألّق.
افرحي، لأنّك تفيضين نهرًا دفّاقًا،
افرحي، لأنّك تمثّلين صورة بركة المعموديّة،
افرحي، لأنّك تزيلين لطخة الخطيئة.
افرحي، يا حوض تطهيرٍ يغسل الضمير،
افرحي، يا كأسًا تسكب البهجة،
افرحي، يا فَوْحَ طيب المسيح،
افرحي، يا حياة المأدبة السرّيّة،
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ٢٢ –

إنّ مسدّد ديون البشر أجمعين،
رغبةً منه في المسامحة بالديون القديمة،
وافى بنفسه إلى من نأوا عن نعمته،
وعندما مزّق صكّ ديونهم،
سمع الجميع يهتفون له: هلّلويا

– ٢٣ –

إنّنا ننشد لولادتكِ، ونمتدحكِ جميعنا،
أيّها الهيكل الحيّ، يا أُمّ الله.
إنّ الربّ القابض على كلّ شيءٍ بيده،

بإقامته في أحشائكِ، قد قدّسكِ، وكرّمكِ، وعلّم الجميع أن يهتفوا لك:
افرحي، يا محراب الله، الكلمة،
افرحي، يا قدّيسةً تفوق القدّيسين.
افرحي، يا سفينة الروح الذهبيّة،
افرحي، يا كنز الحياة الذي لا ينضب،
افرحي، يا تاج الملوك الأتقياء النفيس،
افرحي، يا مجد الكهنة القدّيسين الجليل،
افرحي، يا حصن الكنيسة الصامد،
افرحي، يا قلعة المملكة العصيّة على الدمار،
افرحي، يا من بها تُرفع شارات النصر،
افرحي، يا من بها يُدحر العدوّ،
افرحي، يا شفاء جسدي،
افرحي، يا خلاص نفسي،
افرحي، يا عروسًا لم يعرفها عريسُها.

– ٢٤ –

أيّتها الأمّ الجديرة بكلّ مديحٍ،
يا من ولدت الكلمة،
أقدس القدّيسين قاطبةً،
تنازلي وتقبّلي هذه التقدمة.
أنقذينا من كلّ كارثةٍ.
وخلّصي من الرزايا الداهمة،
جميع الهاتفين لك معًا: هلّلويا.

القدّيس إيلديفونس الطليطليّ

(St Ildefonse de Tolède)

ولد في طليطلة نحو العالم ٦٠٧، أصبح راهبًا ورئيس دير؛ توفيّ عام ٦٦٩. ألّف دفاعًا عن بتوليّة مريم الدائمة، ختمه بصلاةٍ طويلةٍ، وصفها البابا بولس السادس بالمدهشة، وهذه مقاطع منها:

«أتوسّل إليكِ، أيّتها العذراء القدّيسة، اجعليني أتلقّى يسوع من الروح القدس الذي، بعمله، ولدتِ يسوع. ولتمتلك نفسي يسوع بفضل الروح القدس الذي به حملتِ يسوع هذا عينه؛ ولأعرفْ يسوع بالروح القدس الذي جعلك تعرفين امتلاك يسوع وولادته. ولتتمكّن حقارتي من الإشادة بعظمة يسوع، بالروح القدس الذي به اعترفتِ أنّك أمَة الربّ، راغبةً في أن يتمّ فيك قول الملاك. ولأُحبّ يسوع في الروح القدس الذي فيه تعبدينه، سيّدًا، وترمقينه ابنًا لكِ. ولتكن فيّ خشية يسوع، مثلما كان، وهو اللّه، خاضعًا لأبويه...

«يا لشرف حرّيّتي الأبهى! يا لأرفع لقب نبلٍ! يا لضمان عظمتي المجيد والثابت، المفضي إلى المجد الأبديّ! في انحطاطي البائس، كم تطلّعتُ إلى أن أكون خادم أُمّ ربّي، كي أفتدي ذاتي! وبعد أن حُرمتُ، في إثر أبينا الأوّل، من مشاركة الملائكة، تمنّيت أن أستأهل كوني خادم أمَة الخالق وأُمّه، ومثل جسمٍ طيّعٍ بين يدي العليّ رجوت أن أكلَّف بخدمة الأمّ العذراء، وأن أتفانى في خدمتها. فهبني، يا يسوع، أيّها اللّه ابن الإنسان، هبني، يا سيّد كلّ شيءٍ وابن أَمَتك، أَعطِني، أيّها اللّه المتنازل في جسدٍ بشريٍّ، أيّها الإنسان المرقّى إلى الألوهة، أن أومن بولادتك من عذراء، فأمتلئ إيمانًا بتجسّدك؛ وأن أُشيد بأمومة العذراء، فيمتلئ فمي تسبيحًا لك، وأن أُحبّ أُمّك، فأمتلئ بحبّك؛ وأن أخدم أمّك، بحيث تعترف بي، أنت نفسك، خادمًا لك، وأن تكون هي مليكتي على هذه الأرض، بحيث تكون أنت سيّدي إلى الأبد. انظر بأيّ نفاد صبرٍ، أتحرّق إلى أن أكون خادم هذه الملكة، ومنفّذ رغباتها، وألاّ أُنتزَع أبدًا من خدمتها. فليتني أُقبَل، حقًّا، في خدمتها، وبخدمتها أستأهل هباتها، وأبقى تحت نيرها، وأظلّ أنعم بها في الأبديّة...

إنّ رغبتي الكبرى هي أن أكون خادم ابنها، كي تكون هي سيّدتي، ولكي أكون

خاضعًا لابنها، أريد أن أخدمها؛ وبمثابة شهادة قبولي في خدمة الله، أريد أن تكون أُمّه مليكتي. ولكي أكون خادمًا مخلصًا لابنها الخاصّ، أتوق إلى أن أكون خادم الأمّ. فخدمة الأمَة هي، أيضًا، خدمة الربّ. وما يُعطى للأُمّ ينعكس على الابن، منطلقًا من المرضعة إلى من ترضعه، والتكريم الذي يقدّمه الخادم للملكة، يطال الملك.

القدّيس جرمانُس القسطنطينيّ (٦٣٥– ٧٣٣)

كان بطريرك القسطنطينيّة بين عامي ٧١٥ و٧٢٩

بعباراتٍ تنبض تقوًى، تكلّم عن انتقال العذراء، وعن وساطتها للبشر:

١ – انتقال العذراء، ووساطتها

«إنّ الابن المحبوب يرغب في حضور أُمّه، والأُمّ، بدورها، تتوق إلى الحياة مع ابنها. وقد كان، إذن، من اللائق أن تصعدي نحو ابنكِ، أنتِ التي كان قلبها يضطرم حبًّا لله، ثمرة أحشائها. وكان من العدل، أيضًا، أن يدعوها لله الذي كان يخفق قلبه حبًّا بنويًّا لأمّه، كي تحيا في جواره الحميم. وهكذا هجرتِ الأشياء الفانية، إلى الهياكل الأبديّة التي جعل الله منها سكناه، ولن تبارحي، بعد، هذا المقام العذب. لقد كنتِ البيت الجسديّ الذي ارتاح هو فيه، وها هوذا، بدوره، يصبح مكان راحة جسدكِ، أيّتها العذراء المجيدة، أمّ الله... لقد اجتذبكِ إليه، منزّهةً من كلّ فسادٍ، لأنّه أرادكِ أن تظلّي، إن ساغ التعبير، ملتصقةً بشفتيه وبقلبه. ومن أجل ذلك، هو يهبكِ كلّ ما تطلبينه من أجل أبنائكِ البائسين، ويضع قدرته الإلهيّة في خدمة صلواتكِ».

٢ – صلاة لمريم

أيّتها العفيفة الطاهرة، الكلّيّة العطف، والمليئة رحمةً، أيّتها الملكة، يا عزاء المسيحيّين، وملجأ الخطأة الأوفر أمنًا، يا مفترج الحزانى، لا تدعينا يتامى محرومين من عونكِ. فإلى من عسانا نلتجئ، عندما ينتابنا الشعور بالتخلّي، وما عسى يحلّ

بنا؟ إنّكِ، أنتِ، نسمة حياة المسيحيّين. ومثلما ينهض التنفّس دليلاً على أنّ جسمنا ما زال يَملك طاقات الحياة، كذلك اسمك الجليل القداسة الذي لا تنفكّ تتفوّه به أفواه خدّامك، في كلّ زمنٍ وكلّ مكانٍ، وبكلّ الطرق، هو لنا، ليس دليلاً فحسب، بل هو سبب حياتنا وفرحنا، وعوننا. فاحمينا تحت جناحَيْ عطفكِ. ولتكنْ وساطتك مصدر غوثنا. وهبينا الحياة الأبديّة، يا رجاء المسيحيّين المنقطع النظير. فنحن فقراء في الأعمال والممارسات الإلهيّة. ولكنّنا، إذ نتأمّل ثروات الرحمة التي تظهرينها لنا، يسعنا أن نقول: مليئةٌ هي الأرض برحمة الربّ. لقد أبعدتْنا خطايانا الجمّة عن اللّه. ولكنّنا بعونكِ نشدنا اللّه، وعثرنا عليه، وبعثورنا عليه خلصنا. عظيمٌ هو عونكِ من أجل خلاصنا، يا أمّ اللّه، وهو لا يحتاج إلى وسيطٍ آخر لدى اللّه.

مَن، بعد ابنك، يهتمّ، مثلكِ، بالجنس البشريّ؟ ومَن يذود عنّا، بلا هوادةٍ، في مِحَننا؟ ومن يسارع، مثلكِ، إلى إنقاذنا من التجارب التي تداهمنا؟ ومَن، مثلكِ، يتحمّل من العناء في التوسّل من أجل الخطأة؟ ومن يتولّى الدفاع عنهم كي ينال لهم الصفح، في الحالات الميئوس منها؟ بفضل القدرة التي توليكِ إيّاها أمومتكِ لدى ابنكِ، ومع أنّ جرائمنا تديننا، بحيث فقدنا الجرأة على التطلّع إلى ذرى السماء، أنتِ تخلّصيننا بتوسّلاتكِ وشفاعاتكِ، من العذابات الأبديّة. ولذلك يفزع إليكِ كلّ محزونٍ، وكلّ مظلومٍ، والمثخن بالآلام يلتمس عونكِ.

إنّ كلّ ما هو لكِ رائعٌ، يا أمّ اللّه، وأكبر من الطبيعيّ، متخطّيًا عقلنا وقدرتنا. وحمايتكِ، هي أيضًا، تفوق فكرنا.

٣ – سيّدة الحماية

صحيحٌ أنّ تلك الأمُّ الإلهيّة لم تعُدْ، جسديًّا، معنا. ولكن لم ينقطع التواصل بينها وبين منفيّي الأرض. أجل، أيّتها العذراء الكلّيّة القداسة، إنّكِ تسكنين، روحيًّا، بيننا. والحماية الدائمة والمنيعة التي تحيطيننا بها هي البرهان على شراكة الحياة التي تجمعنا. نحن، جميعنا، نسمع صوتكِ، وأَصوات جميعنا تصل إلى أذنيكِ. أنت تعرفيننا لكي تحمينا، ونحن نتعرّفكِ من خلال المعونات التي تأتينا على يدكِ. لا، لم يبتر الموت العلاقات بينك وبين خدّامكِ. مَن كنتِ لهم الخلاص، لم تتخلّي عنهم. فنفسكِ هي أبدًا حيّةٌ، وجسدكِ لم يطله فساد القبر. إنّكِ تسهرين على كلِّ

منّا، يا أُمّ اللّه. ولا أحد يُفلت من نظرات عطفكِ. من المحقّق أنّ، ثمّة، ما يحجب أنظارنا عن رؤيتكِ، ومع ذلك تظلّين في ما بيننا، وتظهرين، بأساليب متنوّعة، لمن تجدينهم جديرين بذلك...

* * * * * *

٤ – الشفيعة

ما أبعد الانحلال عنكِ، يا أُمّ اللّه، فأنتِ خليقةٌ جديدةٌ، ومليكة الذين أُخذوا من طينةٍ حقيرةٍ، وهم معرَّضون للفساد.

إنّني موقنٌ أنّكِ، بصفتك أُمّ العليّ، تملكين قدرةً توازي إرادتكِ. ولذلك لا حدود لثقتي فيكِ.

لم يمتلئ أحدٌ معرفةً باللّه إلاّ بكِ، أيّتها القدّوسة. ولا يخلص أحدٌ إلاّ بكِ، يا أمّ اللّه. ولا أحد يُعتَق من العبوديّة إلاّ بكِ، يا من استأهلت أن تحمل اللّه في أحشائها الطاهرة... بفضل سلطتكِ الأموميّة على اللّه نفسه، تظفرين بالرحمة لأكثر المجرمين بؤسًا. ولا يمكن لكِ إلاّ أن تُستجابي: فاللّه يستجيب، في كلّ شيءٍ، ومن أجل كلّ شيءٍ، لرغبات أُمّه الحقيقيّة.

أيّتها القدّوسة، لا أحد يخلص إلاّ بكِ. وأيّتها المنزّهة من الدنس، لا أحد يُعتَق من الشرّ إلاّ بكِ. وأيّتها الكلّيّة الطهر، لا أحد يتلقّى مواهب اللّه إلاّ بواسطتكِ. وأيّتها الجديرة بكلّ تكريمٍ، لا أحد يتلقّى نعم العطف الإلهيّ إلاّ من خلالكِ.

«لا يظفر أحدٌ بالرحمة الإلهيّة إلاّ بك، يا موئل اللّه. فمن مثلكِ يدافع عن الخطأة؟ ومن، مثلكِ، هو المحامي عن الميؤوس من إصلاحهم؟... أنتِ التي تملك لدى اللّه نفوذ الأُمّ، تنجحين في الحصول على غفرانٍ أقصى، لمن يرتكبون الخطايا القصوى. فاللّه لن يقوى، يومًا، على رفض الاستجابة لطلباتكِ، بل إنّه يطيعكِ في كلّ شيءٍ، ومن خلال كلّ شيءٍ، طاعةً لأمّه الحقّة المنزّهة من كلّ دنسٍ. ولذلك يحقّ للبشر أن يلجأوا إليكِ في مِحَنهم، وأن يتشبّثوا بكِ في وهنهم، وأن يتّخذوا منكِ متراسًا حيال الأعداء، في صراعاتهم».

القدّيس أَندراوس الكريتيّ

بطريرك كريت، المتوفّى عام ٧٤٠. كان يروق له أن يسمّي العذراء «ابنة اللّه»، ويصفها بأنّها:

«الصلصال الذي صاغه، إلهيًّا، الفنّان الإلهيّ، والمادّة التي تجانست مع تجسّدٍ إلهيٍّ.

إنّها الخميرة التي خمَّرت كلّ كتلة الجنس البشريّ»

القدّيس يوحنّا الدمشقيّ (٦٧٥– ٧٤٩)

إنّه من أعظم آباء الكنيسة الجامعة. وُلد في دمشق حوالي العام ٦٧٥. سيم كاهنًا وعُيّن واعظًا في كنيسة القبر المقدّس في القدس. اشتُهر بالدفاع عن الإيقونات. ولكنّ شهرته رسّخها غزير علمه، واتّساع تأثيره، وسموّ قداسته. وقد اتّسمت خطاباته وكتاباته عن العذراء بالعمق، وبغنائيّةٍ أخّاذةٍ.

١ – مريم كتابٌ ألّفه الروح القدس

«اليوم هبّت نسائم معلنةً فرحًا عالميًّا. فلتبتهج السماء في الأعالي، ومن تحتها فلتتهلّل الأرض، وليرتعش بحر العالم، فها قد وُلدت فيه صدَفةٌ، ستحمل في أحشائها، بإشعاع الألوهة السماويّ، وستلد الجوهرة التي لا تثمّن: المسيح. ومنها سيخرج «ملك المجد»، مرتديًا أُرجوان الجسد، وسيتفقّد الأسرى، وسيعلن تحريرهم. فلتطفر الخليقة جذَلاً!

اليوم، ذاك الذي أَخرج، قديمًا، الجَلَد من المياه، خلق على الأرض، من مادَّةٍ أرضيّةٍ، سماءً جديدةً، هي أجمل، بلا قياسٍ، وأكثر إلهيّةً من تلك، إذ ستولد منها شمس العدل، تلك التي خلقت الشمس الأُخرى.

كم من المعجزات تتجمّع في تلك الفتاة، وكم من العهود تنعقد فيها! فابنة العقم ستصبح البتوليّة التي تنجب. فيها تتّحد الألوهة بالبشريّة، واللاأَلَميّة بالأَلم، والحياة بالموت، لكي يتغلّب الأكمل، في كلّ شيءٍ، على الأقلّ كمالاً. وكلّ ذلك، يا

ربّ، قد تحقّق من أجل خلاصي! وكان حبّك لي من العظمة بحيث شئتَ أن يتمّ هذا الخلاص، لا بواسطة الملائكة، ولا بواسطة أيّة خليقةٍ أُخرى، بل أردت أن تجدّد، بيدك، ذاك الذي كنت قد خلقتَه، أوّلاً، بيدك. ولذلك أتهلّل، وأفخر، وفي غمرة فرحي أتطلّع إلى منبع هذه المعجزات، ومنتشيًا بفيضٍ من السعادة، أتناول قيثارة الروح كي أرتّل أناشيد هذه الولادة الإلهيّة...

يا ابنة آدم، وأمّ الله!...

اليوم خالق الأشياء كلّها، الله الكلمة يؤلّف كتابًا جديدًا، متفجّرًا من قلب أَبيه، ومكتوبًا بيد الروح القدس، لسان الله. هذا الكتاب أُعطي لرجلٍ يجيد القراءة، ولكنّه لم يقرأه، فيوسف لم يعرف مريم، ولم يستجلِ معنى هذا السرّ. يا ابنة يواكيم وحنّة، الكلّيّة القداسة، لقد أفلتِّ من أنظار الرئاسات والسلطات، ومن «سهام الشرّير الملتهبة» (أفسس ٦: ١٦). لقد أقمتِ في قاعة العرس الزوجيّة، وحُفظتِ طاهرةً كي تصبحي عروس الله، وأمّ الله بالطبيعة. أيّتها الفتاة الكلّيّة القداسة، لقد ظهرتِ بين ذراعي أمّك، فأشعتِ الرعب في نفوس القوى المتمرّدة...

أيّتها الفتاة الجديرة بالله، يا سنى الطبيعة، يا معيدة تأهيل حوّاء أمّنا الأولى بشريًّا! بولادتك نهضتْ تلك التي كانت قد سقطتْ. أيّتها الفتاة الكلّيّة القداسة، يا بهاء النساء! حوّاء الأُولى ارتكبت خطيئة العصيان، وبها دخل الموت، لأنّها استخدمت الحيّة ضدّ أبينا الأوّل، أمّا مريم فكانت خادمة مشيئة الله، فخدعت الحيّة الخدّاعة، وأدخلت إلى العالم الخلود!

يا ابنة الملك داود، وأَمّ الله ملك الكون! أيّها الشيء الإلهيّ الحيّ، الذي فتن جمالُه الله الخالقَ، يا من نفسها خاضعةٌ بكلّيّتها للعمل الإلهيّ، ومصغيةٌ لله وحده، رغباتكِ كلّها مشدودةٌ صوب من يستأهل، وحده، أن يُبحث عنه، والجدير، وحده، بالحبّ. أنتِ التي لا تغضب إلاّ على الخطيئة، ستحظين بحياةٍ تفوق الطبيعة، ولكنّك لن تستخدميها من أجلكِ، فأنت لم تُخلقي من أجل ذاتكِ. بل ستكرّسين ذاتكِ بكلّيّتها لله الذي جاء بكِ إلى العالم خدمةً لخلاص الجنس البشريّ، وتحقيقًا لمخطّط الله: أي تجسّد ابنه، وتأليه الجنس البشريّ.

سيتغذّى قلبكِ بأقوال الله التي ستخصبكِ، مثل زيتونةٍ خصبةٍ في بيت الله، مثل

شجرةٍ مغروسةٍ على ضفاف مياه الروح المتدفّقة، مثل شجرة الحياة التي آتت ثمارها في الموعد المحدّد: اللّه المتجسّد، حياة كلّ شيءٍ. لن تتناول أفكاركِ من المواضيع سوى ما يفيد النفس، وستنبذين كلّ فكرةٍ وبيلةٍ، بل كلّ فكرةٍ نافلةٍ، قبل أن تتذوّقي طعمها.

ستكون عيناكِ شاخصتَيْن، دائمًا، نحو الربّ، نحو النور الأبديّ الذي لا يُطال؛ وستظلّ أُذناكِ متيقّظتَيْن للكلمات الإلهيّة، ولأنغام قيثارة الروح، الذي من خلاله جاء الكلمة ليتّخذ جسدًا نظير أجسادنا... ومنخاراكِ سيشتمّان العطر الإلهيّ الكفيل بتعطير إنسانيّته. وشفتاكِ ستسبّحان الربّ، وستظلاّن ملتصقتين بشفاه اللّه. وسيتذوّق فمكِ أقوال اللّه، وسيستسيغ عذوبتها الإلهيّة. وقلبكِ الكلّيّ الطهر، المنزّه من كلّ لوثةٍ، سيشهد، بلا انقطاعٍ، إله كلّ طهرٍ، وسيضطرم توقًا إليه، وسيكون حضنكِ مسكنَ من لا يسعه مكانٌ. ولبنك سيغذّي اللّه، في يسوع الطفل. إنّكِ باب اللّه، ومتألّقةٌ ببتوليّةٍ دائمةٍ. يداكِ ستحملان اللّه، وركبتاكِ ستكونان له عرشًا أسمى من عرش الشيروبيم... وقدماكِ اللّتان يقودهما نور الشريعة الإلهيّة، ستتبعان الربّ في جريٍ لا انحراف فيه، وستقودانكِ حتّى امتلاك المحبوب. أنت هيكل الروح القدس، ومدينة اللّه الحيّ، التي تغمرها أنهارٌ غزيرةٌ، أنهار النعمة الإلهيّة المقدّسة. إنّكِ كلّيّة الجمال، وثيقة القرب من اللّه؛ تفوقين الشيروبيم، وتتسامين فوق السيرافيم، وتدنين من اللّه نفسه.

سلامٌ، يا مريم، ابنة حنّة الرقيقة؛ إنّ الحبّ يقودني مجدّدًا إليكِ. كيف لي أن أصف مشيتكِ المليئة وقارًا، وثوبكِ، وسحر محيّاكِ، والحكمة التي يوليها عمرٌ مقترنٌ بشباب الجسد؟ زيّك كان ممتلئًا حشمةً، بمنأًى عن كلّ بذخٍ أو تبذُّل. مشيتكِ تتّسم بالوقار، بلا استعجالٍ، ولا تعثّرٍ، ولا تراخٍ. مسلككِ قَشِفٌ، يلطّفه الفرح، ولا يسعى، أبدًا، إلى استلفات انتباه الرجال. دليل ذلك تلك الرعدة التي استحوذت عليكِ لدى زيارة الملاك اللامألوفة. كنتِ خاضعةً لوالديكِ، ومطيعةً لهما؛ وظلّت نفسكِ متواضعةً وسط أسمى تأمّلاتكِ ورؤاكِ. كلامكِ كان عذبًا، معبّرًا عن رقّة نفسكِ. أيّ مسكنٍ سواكِ كان جديرًا باللّه؟ من العدل أن تغبطكِ جميع الأجيال، فأنت شرفٌ رفيعٌ للجنس البشريّ. أنت مجد الكهنوت، ورجاء المسيحيّين، ونبتة البتوليّة الخصبة. بكِ انتشر، في كلّ مكانٍ، شرف البتوليّة. فليُبارَك من يعترفون بكِ أمًّا للّه.

يا ابنة يواكيم وحنّة ومليكتهما، تقبّلي دعاء خادمكِ المسكين، فما هو سوى خاطئٍ، ولكنّه يحبّكِ حبًّا مضطرمًا، ويكرّمكِ، ويبتغي أن يجد فيكِ رجاء سعادته الوحيد، ودليل حياته، والمصالحة لدى ابنكِ، وضمان خلاصه الأكيد. أَعتقيني من عبء خطاياي، وبدّدي الظلمات المتراكمة حول فكري، وانزعي عنّي ثوب الحمأة الصفيق. اقمعي التجارب التي تداهمني، وأحسني قيادة حياتي، كي أَبلغ، بكِ، السعادة السماويّة، وهبي العالم السلام...

٢ – انتقال العذراء

لا جَرَمَ أنّ سلّم يعقوب كانت إشارةً إليكِ، ورمزًا لكِ. فيعقوب رأى السماء متّحدةً بالأرض بواسطة طرفي السلّم، والملائكة، على امتدادها، يصعدون ويهبطون... هكذا أنتِ غدوتِ الوسيطة، والسلّم التي يستخدمها اللّه للنزول إلينا، كي يرتقي بطبيعتنا الواهنة، ويضمّها ضمًّا حميمًا، ويجعل من الإنسان نفسًا ترى اللّه. وبذلك لممتِ شمل ما كان منفصلاً...

مع أنّ نفسكِ الطوباويّة القدّوسة، انفصلت عن جسدكِ المقدّس، والمنزّه من كلّ لوثةٍ، وفقًا لمصير طبيعتنا، إلاّ أنّ هذا الجسد لم يمكث أسير الموت، ولم يتعرّض للانحلال. فتلك التي، حتّى في ولادتها، احتفظت ببتوليّتها مصانةً، حُفِظَ جسدها، حتّى بعد مغادرتها الحياة، وأصبح قُدْس أقداسٍ أشدّ طهرًا وإلهيّةً، لا سلطة للموت عليه، وثابتًا لا نهائيًّا. وكما أنّ الشمس المزدانة بنورٍ ساطعٍ أبديٍّ، حتّى عندما يحجبها جسمٌ ماديٌّ بُرهةً، فتبدو وكأنّها تلاشت نوعًا ما، وغرقت في لجّة الظلمات، وتحوّل ألقُها إلى ظلمةٍ، إلاّ أنّها لا تنفكّ تحتفظ بنورها، إذ إنّها، هي ذاتها، منبع نورٍ لا ينضب، وفق مخطّط خالقها، كذلك أنتِ نبع النور الحقّ، وكنز الحياة نفسها الذي لا ينضب، ومَعين البركة الدفّاق، أنتِ التي نالت لنا خيراتٍ جمّةً؛ وحتّى عندما حجبكِ الموت، لحظةً، عن أبصارنا، في جسدكِ، إلاّ أنّك ما برحتِ تفيضين علينا مياه النور اللانهائيّ، والحياة الخالدة، والسعادة الحقّة، والشفاء، والبركة الأبديّة...

اليوم العذراء المنزّهة من الدنس والتي لم يعلق قلبها بأيّ حبٍّ أرضيٍّ، بل كانت أفكار السماء غذاءه، لم تعُدْ إلى الأرض. وبما أنّها كانت سماءً حيّةً، وُضعت على الهياكل السماويّة... اليوم، يخفي عنّا موتٌ محيٍ كنزَ الحياة، وهوّةَ النعمة.

بلا وجلٍ رأت الموت يقترب، هي التي ولدت قاهر الموت، هذا إن ساغ أن نسمّي موتًا انطلاقَ الحياة والقداسة المشعّ نورًا. إذ كيف لمن وهبت العالم الحياة الحقّة أن تخضع للموت؟ إلاّ أنّها خضعت للشريعة التي فُرضت على من ولدته، وبما أنّها ابنة آدم القديم خضعت للحكم الصادر بحقّ الأَب. وابنها، مع أنّه الحياة عينها، لم يرفض الموت، فكان من الحقّ أن تتمثّل به أُمّ الله.

وإذ كان الجسد المقدّس المعصوم من الفساد الذي استمدّه منها الله كي يتّحد به، قد نهض من القبر في اليوم الثالث، كان من الحقّ أن تُنتزع أُمّه، هي أيضًا، من القبر كي تلتحق بابنها. ومثلما كان هو قد انحدر إليها، كان من الحقّ أن تؤخذ إلى مقدسٍ أسمى وأثمن، أي إلى السماء نفسها. كان لا بدّ من أن تودع تلك التي التجأ إِلى أحشائها الله الكلمة، في هياكل ابنها السماويّة. وبما أنّ الربّ قد قال إنّه يودّ البقاء في صحبة من يخصّون أباه، فقد كان من اللائق أن تقيم الأمّ في قصر ابنها، في منزل الربّ، وفي فناء بيت إلهنا. فإن كان ذاك هو مسكن المقيمين في الفرح، فكم كان حريًّا بمن هي سبب فرحنا أن تقيم فيه! وكان من الواجب أن يُصان، بُعيْد الموت، جسد تلك التي، حتّى في ولادتها، احتفظت ببتوليّةٍ لا لوثة فيها. وتلك التي شاهدت ابنها على الصليب واخترق قلبَها السيفُ الذي لم يطلْها في ولادتها، كان من الواجب أن تشاهده جالسًا إلى جانب الآب. وكان من الواجب، أخيرًا، أن تملك أُمُّ الله كلّ ما كان يملك ابنها، وأن تكرّمها الخلائق كلّها».

ويقول أيضًا عن انتقال العذراء:

«لا لم يكن لائقًا أن تودع العذراء الكلّيّة القداسة في أحشاء الأرض. فالجسد المقدّس، الذي استمدّه الله منها كي يوحّده بذاته (الإلهيّة)، كان قد قام في اليوم الثالث، ولم يطله فسادٌ، وكان لا بدّ من أن تُنتزَع، هي أيضًا من اللحد، ومن أن تنتقل إلى مسكن ابنها... كان لا بدّ لتلك التي تلقّت في أحشائها كلمة الله، ضيفًا من السماء، من أن يستقبلها ابنها في الهياكل الأبديّة، أي في قصر الملك العظيم، وفي رحاب إلهنا. كان لا بدّ لابن الله الذي، بولادته، وقى بتوليّة أُمّه من أيّة لوثةٍ، أن يقيها من التفسّخ الذي يطال جميع الأموات، بعد موتها... كان لا بدّ لتلك التي كانت عيناها محدّقتين إلى ابنها المعلّق على الصليب، والتي اخترق سيفٌ قلبها، من

أن تشاهده، بتَيْنك العينَيْن، جالسًا إلى يمين الآب. وأخيرًا كان لابدّ من أن تمتلك أمّ الله ملكوت ابنها، لكي تكرّمها كلّ خليقةٍ... فالابن قد أخضع الأشياء كلّها لأمّه.

«بعد أن أصغت حوّاء إلى وسوسات الحيّة العدوّة الماكرة... حُكم عليها بالحزن، والدموع، وآلام المخاض، والموت. وكان ذلك الحكم عادلاً. ولكن كيف لتلك العذراء الطوباويّة، التي أطاعت كلمة الله، والتي جعلها عمل الروح القدس أُمًّا، التي حبلت بمنأًى عن شهوة الحواسّ، ووضعت، بلا ألمٍ، شخص كلمة الله نفسه؛ كيف لتلك العذراء التي اتّحدت بالله بكلّ جوارحها، أن تغدو ضحيّة الموت، وأسيرة القبر؛ وهل يجرؤ الفساد أن يطال تلك التي وهبتنا الحياة؟ أوَ ليست تلك أمورًا تتناقض مع نفسٍ، ومع جسدٍ حملا الله؟ لذلك دنا منها الموت مرتعدًا.

«إذن، أيّتها العذراء الكلّيّة القداسة، أيّ اسمٍ يسعنا إطلاقه على هذا السرّ الذي تحقّق فيك؟ أنقول إنّه الموت؟ لا غروَ أنّ نفسك القدّوسة والطوباويّة قد انفصلت عن جسدك البتوليّ، وفقًا لسنّة الطبيعة؛ غير أنّ هذا الجسد عينه، مع أنّه أودع القبر، لم يُقِم في الموت، ولم يخضع للتفسّخ. فمثلما، في ولادتك، لبثتِ عذراء، هكذا جسدكِ، مع خضوعه للموت، لم ينحلّ نظير أجسادنا، بل إنّه، بتحوّلٍ مذهلٍ، أصبح هيكلاً إلهيًّا لا سلطان للموت عليه، وسيظلّ حيًّا إلى دهر الدهور.

«حتّى عندما يحجب القمرُ الشمسَ، فتبدو وكأنّها فقدت ألقَها المتوهّج، إلاّ أنّها تظلّ، في ذاتها، النبع الذي لا ينضب، الذي يفيض النور، كذلك أنتِ، يا نبع النور الحقّ، وكنز الحياة الذي لا ينفد، أنت التي أتتنا منها كلّ بركةٍ، ومع أنّ ظلال الموت قد غشتكِ، وقتًا قصيرًا، ما برحتِ تُفيضين دفق النور، والحياة الخالدة، والسعادة الحقّة، والنعمة، والأشفية، والبركات، ولا تنضبين أبدًا. لذلك لن نقول إنّ عبوركِ كان موتًا. فما هو إذن؟ إنّه رقادٌ، خروجٌ من هذا العالم، وولوجٌ إلى مسكن الله، ومجده».

٣ - إلى جانب الله

«لم تصعدي، فقط، إلى السماء نظير إيليّا،

ولم تُرفعي إلى «السماء الثالثة»، مثل بولس،

بل تقدَّمتِ حتّى عرش ابنكِ الملكيّ نفسه،

في رؤيةٍ مباشرةٍ، في الفرح،

وإنّكِ، بثقةٍ كبرى تندّ عن الوصف،

تقفين إلى جانبه».

٤ – مسكن الله

«كان محكومًا على الجميع بالموت، ولكنّ اللّه، في رحمته، أبى أن يعود الإنسان الذي صاغه بيديه، فيهوي إلى العدم الذي استلّه منه. ولذلك أبدع سماءً جديدةً، وأرضًا جديدةً، سيدفعه عطفه ورغبته في إصلاح الأُسرة البشريّة، إلى السكنى فيهما، مع أنّ لا شيء يقوى على احتوائه. وما هذه السماء، وهذه الأرض، إلاّ المغبوطة والمباركة ألف مرّةٍ، العذراء مريم... آه! ما أجمله ذلك القصر الملكيّ المعدّ من أجل ملك الكون! ويا لسنى هذا العالم! ويا للخليقة المدهشة المزدانة بكلّ زهور الفضائل!... من المحقّق أنّها جديرةٌ بأن تكون مسكنًا للّه القادم إلى وسط البشر...

«هل يمكن تخيّل ما هو أطهر من العذراء، وأكثر تنزّهًا من كلّ عيبٍ؟ ولا بدعَ في ذلك، فاللّه، النور الأنقى والأسمى، قد أولاها من الحبّ، بحيث امتزج جوهريًّا بها، بفعل الروح القدس الذي حلّ فيها، وخرج من أحشائها إنسانًا كاملاً... لم يخجَل من أن يُدعى ابن مخلوقته؛ بل إنّه افتُتن بحبّ تلك العذراء التي تفوق كلّ مخلوقٍ جمالاً، وعدّ تلك التي تفوق حتّى فضائل السماء امتيازًا، جديرةً بتقبيله.

«لا يقولنّ، إذن، بعدُ، سليمان الحكيم أن لا جديد على الأرض. أفلستِ، أنتِ، أيّتها العذراء المضمّخة بالنعم الإلهيّة، الهيكل المقدّس الذي ابتناه سليمان الروحيّ، أمير السلام، كي يتّخذ منه مسكنًا، هيكلاً لست أرى فيه ذهبًا، بل أرى، بديلاً عن الذهب، الروح القدس بكلّ سناه؟»

٥ – فلنكرّمها

«لا قِبَل لشيءٍ على مدحها مديحًا لائقًا: لا ألسنة البشر، ولا فهم الملائكة مهما

سما. ففيها، وبها، أمسى مجد الله بمتناول عيوننا... ولكن هل سنصمت من جرّاء عجزنا عن مديحها كما يليق بها؟ كلاًّ، بل فلنخفّف غلواء رغبتنا بالخوف، ولنضفر من الرغبة والرعدة إكليلاً، وبيدٍ ترتجف تجلّةً واحترامًا، وبقلبٍ يضطرم عرفانًا بالجميل وحبًّا، فلنقدّم لتلك الأمّ الملكة آيات التكريم التي تحقّ لها بفضل امتيازها، وأفضالها على الورى...»

٦ - أثمن الخلائق

«يا ابنة الجنس البشريّ التي حملت الخالق بين ذراعيها، إنّك أثمن من الخليقة كلّها. فمنكِ وحدكِ تلقّى الخالق بواكير إنسانيّتنا. من جسدكِ استمدّ جسده، ومن دمكِ استمدّ دمه. لقد تغذّى بلبنكِ، وشفتاكِ لامستا شفتي الله. إنّكِ، بكلّ كيانكِ، مخدع الروح، ومدينة الله الحيّ... إنّكِ كلّيّة الجمال، ووثيقة القرب من الله! قدّوسٌ هو الله الآب الذي شاء أن يتحقّق فيكِ السرّ الذي قرّره قبل الدهور! قدّوسٌ وقويٌّ هو ابن الله هو الذي أوجدكِ كي يولد منكِ! قدّوسٌ وخالدٌ روح كلّ قداسة الذي، بندى أُلوهته، وقاكِ في ناره الإلهيّة التي رمزت إليها علّيقة موسى».

٧ - أُمّ الله

«ندرك أنّ العذراء القدّيسة هي أُمّ الله، وندعوها كذلك ليس فقط بسبب طبيعة الكلمة، بل، أيضًا، بسبب تأليه البشريّة...

إنّه واجبٌ وحقٌّ أن ندعو القدّيسة مريم أمّ الله، إذ إنّ هذا الاسم يحيط بالتدبير الخلاصيّ. فإنْ كانت تلك التي ولدت هي أمّ الله فالذي وُلد منها هو، بكلّيّته، إلهٌ، وبكلّيّته إنسانٌ أيضًا. إذ كيف لله، الموجود قبل كلّ الدهور، أن يولد من امرأةٍ، إن لم يكن قد صار إنسانًا؟... ولكن، إن كان هذا الذي وُلد من امرأةٍ إلهًا، فمن المحقّق أنّه «واحدٌ» ذاك المولود من الله الآب، في جوهره الإلهيّ بلا بدءٍ، والذي، في الأزمنة الأخيرة، وُلد من عذراء، وفق جوهرٍ له بدءٌ، وخاضعٍ للزمن، أي جوهرٍ بشريٍّ».

القدّيس ثيودورُس الستودي (٧٥٩– ٨٢٦)

في تيّار القدّيس يوحنّا الدمشقيّ انبرى العديدون من الرهبان للدفاع عن الإيقونات، وأثبتوا بطولةً فذّةً في الذود عن الإيمان القويم، والتوبة، والحياة الصوفيّة، في مواجهة إكليرُسٍ منضوٍ تحت لواء السلطة المدنيّة. وقد لعب أولئك الرهبان دورًا فائق الشأن في الأدب المريميّ.

ألمعهم، بلا مراء، كان القدّيس ثيودورُس، الذي وُلد في القسطنطينيّة عام ٧٥٩، وأصبح راهبًا، ثمّ رئيسًا لدير «ستوديُم» (STUDIUM) في القسطنطينيّة، حيث التفّ حوله نحوُ من ألف راهبٍ. مات منفيًّا، عام ٨٢٦، في أعقاب صراعاتٍ بطوليّةٍ مع الأَباطرة الهراطقة.

١ – مريم عالمٌ جديدٌ، معدٌّ لتقبّل آدم الجديد

قبل صوغه الإنسان الأوّل، كان اللّه قد أشاد له قصر الخليقة. ولكنّه طُرد من الفردوس الذي وُضع فيه، من جرّاء عصيانه، وأصبح، مع ذرّيّته كلّها، فريسة الفساد. غير أنّ الغنيّ بالرحمة أشفق على عمل يديه، وقرّر أن يبدع سماءً جديدةً، وأرضًا جديدةً، وبحرًا جديدًا، كي تكون موطنًا لمن لا يُدرَك، الراغب في إصلاح الجنس البشريّ. فما هو هذا العالم الجديد، وما هي هذه الخليقة الجديدة؟

العذراء الطوباويّة هي السماء التي تُظهر شمس العدل، والأرض التي تنبت سنبلة الحياة، والبحر الذي يطلع اللؤلؤة الروحيّة. ما أروع هذا العالم! وكم هذه الخليقة جديرةٌ بالإعجاب، بما تنبته من فضائل، وزهور البتوليّة الفوّاحة!... فهل هناك ما هو أطهر من العذراء، وأكثر تنزّهًا من العيب؟ إنّ اللّه، النور الأسمى والكلّيّ النقاء، وجد فيها من الروعة ما جعله يتّحد بها جوهريًّا، بحلول الروح القدس.

مريم أرضٌ لم تنبت فيها أشواك الخطيئة، بل هي أَطلعت الخِلْف الذي اقتلع الخطيئة من جذورها. إنّها أرضٌ لم تُلعَن مثلما لُعنت الأرض الأولى التي أخصبت أشواكًا، بل أرضٌ حلّت عليها البركة، وبوركت ثمرتها.

٢ – تأمّل العذراء في المجد

«الآن، وقد أصبحت تنعم بخلودٍ طوباويٍّ، هي ترفع صوب اللّه، من أجل خلاص العالم، يديها اللّتين حملتا اللّه... حمامةٌ بيضاء طاهرةٌ، ارتقت، في

تحليقها، حتّى ذرى السماوات، ولا تنفكّ تحمي منطقتنا السفلى. لقد فارقتنا بجسدها، ولكنّ روحها ما زال معنا. بولوجها السماوات طردت الأبالسة، وأمست وسيطتنا لدى اللّه. قديمًا كان الموت الذي أدخلته حوّاء يلفّ العالم بقسوة سلطانه، أمّا اليوم فقد طُرد عندما تصدّى للطوباويّة، ابنة أُمٍّ مذنبةٍ، وجاءت هزيمته من حيث استمدّ قدراته...

أيّتها العذراء، إنّي أراكِ مستسلمةً للكرى، ولست أراكِ ميتةً. لقد نُقلتِ من الأرض إلى السماء، ومع ذلك لا تكفّين تحمين الجنس البشريّ. أُمًّا، لبثت عذراء، لأنّ الذي ولدتِه كان اللّه. وهذا ما يجعل موتكِ حيًّا، وشديد الاختلاف عن موتنا: فأنتِ، وحدكِ، تنعمين بعدم فساد النفس والجسد، وهذا حقٌّ.

أمبروسيُس أوتبيرت (قُبَيْل ٧٧٧+)

(Ambroise AUTPERT)

(هذه العظة في انتقال العذراء نُسبت أوّلاً إلى القدّيس أوغسطينُس، قبل أن يُحسَر اللثام عن اسم مؤلّفها الحقيقيّ)

... فلنسبّح العذراء. ولكن كم سيكون تسبيحنا ضئيل الشأن وصغيرًا، إذ حتّى لو تحوّلت كلّ أعضائنا إلى ألسنٍ، لما كانت كافيةً لتسبيحها. فتلك التي نتكلّم عنها هي أعلى من السماء، وتلك التي نجهد في مديحها هي أعمق من الهوّة، فهي قد حملت في أحشائها المنزّهة من كلّ دنسٍ، اللّه الذي لا تحتويه أيّة خليقةٍ.

لقد حلّت عقدة إدانة الأمّ الأولى، وجاءت بالخلاص للإنسان الهالك. أمّ الجنس البشريّ الأولى سبّبت عقاب العالم، وأُمّ ربّنا جلبت له الخلاص. حوّاء هي صانعة الخطيئة، ومريم صانعة الثواب. كانت حوّاء وبيلةً فقتلت، ومريم كانت محسنةً فوهبت الحياة. واحدةٌ ضربت، والأُخرى شفت. وهي التي، بطريقةٍ مدهشةٍ، ولدت مخلّص الكلّ ومخلّصها.

من هي، إذن، تلك العذراء الفائقة القداسة التي تنازل الروح القدس فحلّ عليها؟ إنّها من الجمال بحيث اختارها اللّه عروسًا، ومن العفّة بحيث ظلّت عذراء بعد

الولادة، إنّها هيكل الله، النبع المختوم، والباب المقفل في بيت الربّ. إليها انحدر الروح القدس، وقدرة العليّ ظلّلتها. إنّها طاهرةٌ من كلّ لمسة رجلٍ، وخصبةٌ بولادتها. عذراء مرضعةٌ تغذّي من هو غذاء الملائكة والبشر. لقد رُقّيت إلى الأعالي بحيث تلقّت من قلعة السماء من هو، منذ البدء، عند الله.

أيّتها الطوباويّة مريم الجديرة بكلّ تسبيح! أيّتها الأمّ المجيدة، أيّتها النُفَساء السامية، التي أوكل إلى أحشائها مبدع السماء والأرض، أيّة قبلةٍ سعيدة طبعها (يسوع) على شفتي المرضعة، عندما كان، في تجربة الطفولة الحابية اليوميّة، يعبث، بصفته ابنًا حقًّا، معكِ، أنت أمّه، ذاك الذي يأمر، بصفته إلهًا منبثقًا من الآب، وابن الله الوحيد. إنّه خالقكِ ذاك الذي حملتِه ووضعتِه، في الزمن، هو الذي أسّس كلّ شيءٍ قبل الزمن. ويا للولادة السعيدة، فرح الملائكة، ورغبة القدّيسيّن، وضرورة الهالكين، ومعونة المقهورين!

وهو بعد كلّ ما أُلحق بالجسد الذي اتّخذه من أذًى، وجُلد بالسياط، وسُمّر على خشبةٍ كي يُظهر أنّكِ، حقًّا، أُمّه، أظهر ذاته إنسانًا حقًّا، بالآلام.

فما عساي أقول، أنا الساذج المسكين، حيال ما تستأهله كرامتكِ؟ إن دعوتُكِ سماءً، فأنت أسمى. وإن دعوتكِ أمّ الأمم، فأنت أكثر، وإن دعوتكِ دمغة الله، فأنتِ جديرةٌ بهذه التسمية. وإن سمّيتكِ ملكة الملائكة، فأنتِ تُثبتين ذلك، على كلّ وجهٍ. أيّ قولٍ، إذن، يليق بك؟ وبمَ عساي أن أُدلي، إذ إنّ اللسان البشريّ عاجزٌ عن سرد فضائلكِ؟ فليخرس، إذن، اللسان الجسديّ، في تسبيحكِ، ففي الداخل، يلهج الروح، دائمًا، بهذه التسابيح بحرارةٍ. أرجو، إذن، أن تداعب موسيقاكِ الآذان المثقّفة بتعاليمكِ، وأن تصفّق الأيادي المقدّسة، وأن ينبعث من الأنامل الرشيقة إيقاع النُفساء...

باسشاز رادپير (٧٩٠– ٨٦٥)

Paschase RADPERT

«السلام عليكِ يا ممتلئةً نعمةً، الربّ معكِ، مباركةٌ أنتِ بين النساء...

كان من اللائق أن تُغمر العذراء بكلّ تلك الهبات، وأن تُملأ نعمةً، هي التي

أَعطت السماوات مجدًا، وآتت الأرض اللّه والسلام، وآتت الوثنيّين الإيمان، ووضعت للرذائل حدًّا، وللحياة نظامًا، وللممارسات ضابطًا.

وإنّه لائقٌ أن يُرسل الملاك للعذراء، فبين البتوليّة والملائكة قرابةٌ دائمةٌ. افرحي أيّتها الممتلئة نعمةً؛ أجل، الممتلئة، فالآخرون ينالون قسطًا من النعمة، أمّا مريم فالنعمة تدفّقت عليها كاملةً.

القدّيس ثيوفانس المنشد (من القرن التاسع)

ناسك من فلسطين، اضطُهد دفاعًا عن الإيقونات. ولكنّه، في عهد الامبراطورة تيودورا أصبح أسقفًا على نيقية، له أناشيد شهيرةٌ.

«وحدها اختيرت لتكون أُمّ اللّه. وحدها هي هيكل الكلمة، والإناء الحيّ الوقور الذي سكب فيه الآب ابنه؛ والجُزّة السرّيّة التي منها نسج الكلمةُ ثوبَ بشريّتنا. وحدها، استأهلت أن تحمل في أحشائها المقدّسة ابن الآب الوحيد».

سلامٌ أيّتها الملكة

صلاةٌ نشأت في القرن الحادي عشر ونشرها الدومينيكيّون في القرن الثالث عشر.

«سلامٌ، أيّتها الملكة، يا أُمّ الرحمة،
يا حياتنا، وعذوبتنا، ورجاءنا، وخلاصنا!
إليكِ نرفع أصواتنا، نحن أبناء حوّاء، في منفانا.
إليكِ نصبو، متأوّهين ومنتحبين، في وادي الدموع هذا.
فيا محاميتنا، وجّهي إلينا أنظار عطفكِ.
ودعينا نرى، بعد منفانا،
يسوع ثمرة أحشائكِ.
أيّتها الرؤوف، الطيّبة،
يا مريم العذراء الرقيقة.

عظمة مريم

(أحد الوعّاظ اليونانيّين، يُعتقد أنّه القدّيس إيبيفانُس، استهلّ عظةً عن السيّدة العذراء بقوله:)

«ما أتعسني! فقد حاولتُ أن أُعبّر بكلماتي عن روائع أمّ الله السنيّات، وعن كمالاتها التي تتخطّى كلّ فهمٍ، عن سرّ السماء والأرض، عن شفيعة العالم ومعجزته. كان قلبي يخفق رغبةً في حسر اللثام عن تلك الرائعة الجديرة بأسمى التأمّلات وأعمقها! غير أنّني، يا أعزّائي، أقف مرتعدًا، يشلّني الخوف. فذكرى ما قُيّض لي أن استشفّه تخضّني حتّى أعماق أحشائي، وشعوري بعجزي يفعمني حزنًا. فأيّ فكرٍ يسعه ادّعاء سَبْر هذا السرّ الذي لا يُسبر له غورٌ، وأيّ لسانٍ يسعه ادّعاء التعبير عنه!...

«إنّ صوتي لمغرقٌ في الوهن، ولساني مغرقٌ في الكسل، وفصاحتي مغرقةٌ في الضحالة، عندما يتعيّن التحدّث عن أمّ الله، الكلّيّة السموّ، والكلّيّة القداسة...»

ميلون سانت أَمان (+٨٧٢)

Milon DE SAINT - AMAND

لقد استعدتِ مفتاح السماء

إنّكِ، يا عذراء، تفتحين أبواب الفردوس. كانت حوّاء قد أغلقتها، عندما اقتطفت من الشجرة المحرّمة، علّة الموت. أمّا أنتِ، ففيما كانت معلّقةً على أغصان الصليب، ثمرة الخلاص، ابن جسدك، آسيته بدموعكِ التي، بها، عاد الفرح إلى العالم، وقدتِ أبناء التبنّي إلى عُلى السماوات التي استعدتِ مفتاحها.

الأدب المريميّ
بين القرن الحادي عشر والقرن السادس عشر

في هذه المرحلة لمعت أَسماء القدّيسين أنسيلم، وبيرنار الذي لُقِّب «بالملفان المريميّ، والمتعبّد بامتيازٍ للسيّدة العذراء»، وإِن هو ظلّ متحفّظًا حيال عقيدة الحبل بلا دنس، إلاّ أنّه كان يتحدّث عن العذراء بنبرةٍ تختلج حبًّا، وتفيض اندفاعًا. وبرز اسما فرنسيسكانيَّيْن هما: دونس سكوت (١٢٧٠ – ١٣٠٨) الذي دافع، بحصافةٍ ومنطقٍ سديدٍ، عن عقيدة الحبل بلا دنس، مؤكّدًا أنّ الربّ افتداها بدمه، على وجهٍ خاصٍّ، إذ وقاها من لطخة الخطيئة الأصليّة التي لم يسمح بأن تطالها. وكان تأثيره بالغًا على اللاهوت المريميّ. الفرنسيسكانيّ الآخر هو القدّيس بوناڤنتورا الذي اشتهر بحبّه المتأجّج للسيّدة العذراء.

في الأدب تألّق الشاعر دانتي، الذي، في مأثرته الرائعة «الكوميديا الإلهيّة»، اتّخذ من القدّيس بيرنار، المريميّ الكبير، دليلاً له في الفردوس. وبرز، أيضًا، اسم الشاعر الفرنسيّ فرانسوا فيّون (François VILLON)، الذي شابت حرارةَ تقواه وحبّه للعذراء، طفراتٌ لاهوتيّةٌ شوهاء.

بتاريخ ١٥ أيلول ١٤٣٩ انعقد مجمع بال الذي أكّد قداسة مريم.

القدّيس پيير داميان

وُلد عام ١٠٠٧، وعقب مرحلة تيهٍ، ارتدّ، واعتنق الحياة النسكيّة، عام ١٠٣٥. عُيّن كردينالاً ورئيس أساقفة أوستيا عام ١٠٥٧. تُوفّي عام ١٠٧٢

١ – مريم والإفخارستيّا

قدِّروا، إخوتي المحبوبين، كم نحن مدينون لأمّ الله الطوباويّة، وأيّة آيات شكرٍ

ينبغي أن نرفعها لها، لقاء ما أغدقت علينا من نعمٍ. فجسد المسيح هذا الذي حملته في أحشائها، وولدته، ولفّته بقمُطٍ، وغذّته بلبنها، بعنايةٍ أُموميّةٍ فائقةٍ، هذا الجسد عينه نتلقّاه على الهيكل، ودمه هو الذي نرتشفه، في سرّ الفداء...

لا، ما من كلامٍ بشريٍّ خليقٌ بمديحٍ يليق بتلك التي استمدّ منها جسدًا الوسيطُ بين الله والبشر. وأيًّا كان عظيمًا تكريمنا لها، سيظلّ دون استحقاقها، بما أنّها هي التي أعدَّت لنا، في أحشائها، الجسد المنزّه من الدنس الذي يغذّي نفوسنا... حوّاء تناولت ثمرةً حرمتنا من المأدبة الأبديّة. أمّا مريم فهي تقدّم لنا ثمرةً أُخرى تؤهّلنا للدخول إلى المأدبة السماويّة.

٢ - تحفة الله

«لا شيء يفوقها حقيقةً وسموًّا، ولا شيء أعذب لطبيعتنا المعرَّضة للموت. فمع أنّ الله قد أبدع روائع جمّةً، غير أنّ أنامله لم تصُغْ، قطّ، ما يضاهي هذه العذراء المباركة، كمالاً وروعةً... إنّ الحكمة الأبديّة التي تعالج الأشياء كلّها بعذوبةٍ، قد صاغتها بحيث تكون جديرةً بتلقّي الحكمة ذاتها، في داخلها، وبإلباسها جسدًا منزّهًا من كلّ لوثةٍ».

القدّيس أنسيلم (١٠٣٣- ١١٠٩)

وُلد في إيطاليا عام ١٠٣٣، وفرّ إلى فرنسا هربًا من أبٍ كان يمقته. انضمّ إلى الرهبنة البينيدكتيّة عام ١٠٦٠، وانتُخب رئيسًا عليها عام ١٠٧٨، ثمّ عُيّن رئيس أساقفة كانتربيري، عام ١٠٩٣، حيث كانت له صداماتٌ عنيفةٌ مع السلطات المدنيّة.

اشتهر بتقواه المضطرمة حيال السيّدة العذراء، وبنظرته النيّرة إليها، وكان له تأثيرٌ بالغٌ على عصره؛ وقد عُزي إليه الكثير من الصلوات، والتسابيح، والتأمّلات المتعلّقة بأمّ الله.

في ما يلي تأمّلاتٌ وأدعيةٌ ثبتت صحّة نسبتها إليه:

«يا من هي رقيقةُ القدرة، وقديرةُ الرقّة، يا مريم التي منها تفجّر نبع الرحمة، أرجوك ألاّ توقفي هذه الرحمة الصادقة، حيث تجدين بؤسًا حقيقيًّا. فإن كنتُ، أنا،

من جانبي، غارقًا في خزي دناءة ذنوبي تجاه قداستك الباهرة، إلاّ أنّك، أنتِ، يا سيّدتي، ليس لديك ما تخجلين منه، بسبب عواطفك الرحيمة الطبيعيّة حيالَ إنسانٍ بائسٍ. إن اعترفتُ بخطاياي، فهل ستحرمينني عطفكِ؟ وإن كان بؤسي أكبر ممّا عليه أن يكون، فهل ستكون رحمتك أضأل ممّا يليق بكِ؟ يا سيّدتي، بقدر ما تبدو خطاياي نجسةً تجاه الله وتجاهكِ، بنفس القدر تشتدّ بها الحاجة إلى الشفاء، بفضل شفاعتكِ. فاشفي وهني، أيّتها الرحيمة؛ وامحي هذه البشاعة التي تهينكِ؛ انزعي عنّي، أيّتها الطيّبة، هذه العلّة، فلن يُنفّركِ، بعدُ، إنتاني. هبيني، أيّتها الرقيقة، نصاعة الضمير، فيزول كلّ ما من شأنه أن يسيء إلى طهركِ. لبّي طلبتي، يا سيّدتي، واشفي نفس الخاطئ، خادمكِ، بقوّة ثمرة بطنكِ، الجالس على يمين الآب الكلّيّ القدرة، الجدير بالتسبيح والمجد، فوق كلّ شيءٍ، وإلى نهاية الدهور.

يا مريم، أنت عظيمةٌ، بل عُظمى المطوّبات وعظمى النساء، وقد بلغتِ ذروة العظمة.

قلبي يريد أن يحبّكِ، وفمي يتوق إلى مديحكِ، وذهني يرغب في تكريمكِ، ونفسي تسعد بالصلاة لكِ، وكلّ كياني يكِل ذاته إلى حمايتكِ. اجمعي قواكِ، يا أحشاء نفسي، وجمّع ما أُوتيتَ من قوّةٍ يا صميم ذاتي، للإشادة باستحقاقاتها، ولحبّ فرحها، وللإعجاب بسموّها، ولالتماس عطفها، فشفاعتها ضروريّةٌ لي كلّ يومٍ. في فقري أرغب، وفي رغبتي ألتمس، وفي التماسي أطلب، وإن لم أنل كلّ ما أرغب فيه، إلاّ أنّني أنال ما يفوق استحقاقي.

يا ملكة الملائكة، وسيّدة العالم، وأُمّ من يطهّر الكون، إنّني أعترف بأنّ قلبي من الإغراق في الدنس، بحيث يخجل من التطلّع إليكِ، أنت الطهر عينه، وإذا ما تطلّعتُ إليكِ، فإنّي أخجل من لمسكِ. فيا أمّ من خلّص نفسي، كلّ أعماق قلبي تتوسّل إليكِ بكلّ طاقاتها. فأصغي إليّ، يا سيّدتنا، وتعطّفي عليّ، وأعينيني بقدراتك الفائقة، علّ نفسي تطهر من لوثاتها، ويشرق النور على ظلماتي، ويلتهب فتوري، ويستيقظ خمولي...

وفوق كلّ شيءٍ (ما خلا سيّدي، وإلهي، وربّ كلّ شيءٍ، ابنك) فليعرفك قلبي، وليُعجب بكِ، وليحبّكِ، ويتوسّل إليكِ، لا باندفاع كائنٍ ناقصٍ، لا يملك سوى

الرغبات، بل كما يتوجّب على من أوجده ابنكِ، وخلّصه، وافتداه، وأنهضه من الموت.

أيّتها السيّدة، من أجل فيض أعمالكِ الخلاصيّة، وقداستكِ الفائقة، أنتِ جديرةٌ بكلّ تكريمٍ. فقد أظهرتِ للعالم سيّده وإلهه الذي كان يجهله، وأظهرتِ للعالم المرئيّ خالقه الذي لم يكن قد رآه، بعدُ؛ وولدتِ للعالم المصلحَ الذي كان يفتقر إليه في تيهه، والمُصالح الذي كان يحتاج إليه، في خطيئته. وبخصبك، أيّتها السيّدة، بُرّر الخاطئ، وأُنقذ المُدان، وأُعيد المنفيّ إلى دياره. وولادتكِ، أيّتها السيّدة، أعتقت العالم من أسره، وشفته من علّته، وأنهضته من موته.

إنّ السماء والكواكب، والأرض والأنهر، والليل والنهار، وكلّ ما هو خاضعٌ لسلطة الإنسان ولاستخدامه، تغتبط بفقدان مجدها الغابر، لأنّها بكِ، يا سيّدتنا، بُعثت إلى حياةٍ جديدةٍ، وحظيت بنعمةٍ قشيبةٍ تندّ عن الوصف. وكلّ ما كان ميتًا يبتهج وينهض، فهذه الأشياء كلُّها كانت في عداد الأموات، عندما فقدت وظائفها الخاصّة، في خدمة من يسبّحون الله، التي من أجلها وُجدت. ولكنّها أُرهقت، وسُحقت، ودنّستْ، بالاستخدامات السيّئة التي أخضعها لها خدّام الأصنام، التي لم توجد من أجلها. وها هي، وقد بُعثت من الموت، تبارك مليكتها، إذ إنّها باتت تحت سلطة من يعترفون بالله، ومكرّمةً بما يستخدمونها في سبيله. إنّ نعمةً جديدةً لا تقدَّر جعلتها تطفر جذَلاً، ليس فقط لأنّ الله نفسه، خالقها، بات يسود عليها سيادةً لا تُقهر، بل، أيضًا، لأنّه، باستخدامه لها، يقدّسها من الداخل. وهذه الخيرات كلّها إنّما أتتها بفضل الثمرة المباركة، ثمرة مريم المباركة.

فيا سيّدتنا، إنّكِ المرأة الفريدة فرادةً رائعةً، والرائعة روعةً فريدةً. بكِ تتجدّد العناصر، والجحيم تُشفى، والأبالسة تُسحَق، والبشر يخلصون، والملائكة يستعيدون مكانتهم.

إنّكِ المرأة الممتلئة نعمةً، إلى أقصى حدود الامتلاء، إنّكِ الفيض الذي يروي كلّ خليقةٍ، ويعيد لها الحياة. إنّكِ العذراء العطوف، الفائقة العطف. بركتكِ تبارك كلّ طبيعةٍ، لا مباركةَ الخالق لخليقته فحسب، بل، أيضًا، مباركة الخليقة للخالق.

أيّتها الفائقة السموّ، إنّ صبوّ قلبي يجهد في اللحاق بكِ، ولكنّ اندفاع قلبي لا

يطالكِ. فانتظري، يا سيّدتنا، النفس العليلة الساعية في إثركِ. ولا تتواريْ، يا سيّدة، عمّن لا يراكِ إلاّ قليلاً، وعن النفس التي تنشدكِ. وأشفقي على النفس اللاهثة، والساعية، مضنّاةً، إليكِ.

يا للروعة! إنّني أتأمّل مريم، وفي أيّ أوجٍ رفيعٍ أراها! لا شيء يعادل مريم، ولا شيء يفوقها سوى الله. لقد أعطى الله مريمَ ابنه ذاته، المساوي له، الذي يلده وحده في قلبه. وهو نفسه اتّخذ من مريم ابنًا، لا ابنًا آخر، بل ابنه الوحيد عينه، ابنًا مشتركًا بين الله ومريم. الخليقة كلّها أبدعها الله، والله ولدته مريم. الله خلق كلّ شيءٍ، ومريم ولدت الله. الله الذي صنع كلّ شيءٍ، صنع نفسه من مريم. وهكذا أعاد صنع كلّ ما كان قد صنعه. إنّ الذي أوجد كلّ شيءٍ من العدم، لم يشأ أن يصلح ما فسد، بمعزلٍ عن مريم. الله، إذن، هو أبو الأشياء المخلوقة، ومريم هي أمّ الأشياء التي أُعيد خلقها. الله هو الآب الذي يكوّن كلّ الأشياء، ومريم هي الأمّ التي تعيد إلى كلّ الأشياء كيانها. الله هو الآب الذي بنى كلّ شيءٍ، ومريم هي التي أعادت بناء كلّ شيءٍ. الله ولد ذاك الذي به صُنع كلّ شيءٍ، ومريم ولدت من خلّص كلّ شيءٍ. الله ولد من لا وجود لشيءٍ بمعزلٍ عنه، ومريم ولدت من لا شيءَ، بمعزلٍ عنه، صالحٌ.

حقًّا إنّ الله معكِ، لأنّه جعل كلّ خليقةٍ مدينةً لكِ، ومتوافقةً معه!

أيّتها الأُمّ الطيّبة، أتوسّل إليكِ، بحقّ الحبّ الذي تحبّين به ابنكِ، ومثلما تحبّينه وتريدين أن يُحَبّ، أعطيني أن أُحبّه حقًّا، أنا أيضًا...

ويا أُمّ من يحبّنا، يا من استأهلت أن تحمله في أحشائها، وترضعه من ثدييها، أليس بقدرتكِ، أو أليس بإرادتكِ أن تمنحيني من يطلب منك حبّه وحبّكِ؟ فليكرّمكِ فكري كما تستحقّين، وليحبّكِ قلبي مثلما يليق بكِ، ولتشغف بكِ نفسي، مثلما هو في صالحها أن تفعل، وليخدمكِ جسدي كما يتوجّب عليه، ولتنقضِ هكذا حياتي، لكي يُشيد بكِ كلّ كياني مدى الأبديّة، وليُبارَك الربّ إلى الأبد!

آمين!

أيّتها السيّدة المجيدة، فلنستحقّ، بشفاعتكِ، أن نرتقي إلى يسوع ابنك، الذي، بك، تنازل وانحدر إلينا.

القدّيس برنار دي كليرڤو (١٠٩٠– ١١٥٣)

(St Bernard de CLAIRVAUX)

إنّه، بامتيازٍ، محبّ العذراء الورِع، المندفع في حبّها، بتبصّرٍ والتزامٍ بتعاليم الكنيسة. ولكنّه استنبط من هذه التعاليم مادّةً أغنى بها أجيالاً من المسيحيّين. لقد عبّر، بحرارةٍ منقطعة النظير، عن المشاعر المسيحيّة المتعلّقة بأُمّ النعم والرحمة، وبوساطتها الشاملة، وبأمومتها للّه.

١ – «نَعَم» العذراء

ها قد سمعتِ، أيّتها العذراء، المعجزة التي ينبغي أن تتحقّق، والطريقة التي ينبغي أن تتحقّق بموجبها، وكلتاهما كفيلتان باستثارة إعجابكِ وابتهاجكِ... وبما أنّكِ سمعت كلمة الفرح والبهجة، فلننعم، نحن أيضًا، بسماع جوابكِ السعيد الذي ننتظره، لكي ترتعش عظامنا الذليلة جَذَلاً.

لقد سمعتِ عن المعجزة التي ستتحقّق، وآمنتِ، فآمني، أيضًا، بالطريقة التي ستتحقّق بها: ستحبلين، وستلدين ابنًا، لا من الإنسان، بل من الروح القدس. الملاك ينتظر جوابكِ، وقد آن له أن يؤوب إلى اللّه الذي أرسله. وننتظر، نحن أيضًا، يا مليكتنا، كلمة الروح، نحن البائسين الذين يرين عليهم حكم إدانةٍ. ها إنّ ثمن خلاصنا يُقدّم لكِ، فاقبلي، وسنُعتَق في الحال... الكون كلّه ينتظر موافقتكِ، جاثيًا عند ركبتيكِ، فعلى الجواب الذي سيهمي من شفتَيْكِ يتعلّق عزاء البائسين، وعُتقُ الأسرى، وتحرير المدانين، وخلاص جميع أبناء آدم، وجنسكِ كلّه. فسارعي، يا عذراء، ووافينا بجوابكِ، يا مليكتنا. قولي الكلمة التي تنتظرها الأرض، والجحيم، والسموات. الملك وربّ الأشياء كلّها، هو نفسه، ينتظر، بمثل التوق الذي رغب به في جمالكِ، موافقتكِ التي جعل منها شرطًا لخلاص العالم. حتّى الآن، كان يروق له صمتكِ. ولكن، بعد الآن، سيروق له كلامكِ أكثر. ألستِ تسمعينه يصيح لكِ من السماء: «أنتِ، أيّتها الجميلة بين النساء، أسمعيني صوتكِ». وإن أنتِ أسمعتِه صوتكِ، أعطاكِ أن تري خلاصنا. وأليس هذا الخلاص هو ما كنتِ تنشدين، وتلتمسينه متأوّهةً، بدعائكِ ليلَ نهارَ؟ ألستِ أنتِ من وُعدتْ بالخلاص، أم علينا انتظار أُخرى؟ أجل، من المحقق أنّكِ، أنتِ المرأة الموعودة، المنتَظرَة،

المرغوب فيها... أنتِ من فيها وبها قرّر الله، ملكنا، قبل الأجيال، أن يُجري الخلاص على أرضنا...

سارعي بإجابة الملاك، أو بالأحرى، بإجابة الربّ، عبر الملاك. أجيبي بكلمةٍ، وتلقّي الكلمة؛ تلفّظي بكلمتكِ، وتلقّي الكلمة الإلهيّة، انطقي بكلمةٍ عابرةٍ، والتقطي الكلمة الأبديّة؟ لمَ تتلكّأيين؟ وما تخشين؟ آمني، ثقي، تقبّلي، فليغدُ تواضعكِ جَسورًا، وخفَركِ واثقًا! لا ريب أنّه لا يحسن أن تتخلّى البساطةُ البتوليّة عن الحذَر، ولكن، أيّتها العذراء الحذرة، هذه هي الحالة الوحيدة التي لا داعي فيها إلى خشية الادّعاء: فإن كان الخَفَر يأمركِ بالصمت، فالغيرة تأمركِ بالكلام. فافتحي، أيّتها العذراء الطوباويّة، قلبكِ للإيمان، وشفتيكِ للموافقة، وأحشاءَكِ للخالق. فها إنّ الذي تاقت إليه كلّ الأمم يقرع بابكِ... فانهضي، واركضي، وافتحي. انهضي بالإيمان، واركضي بالتقوى، وافتحي بالموافقة.

٢ – مريم الوسيطة وامتيازاتها

رجلٌ وامرأةٌ ألحقا بنا إساءةً كبرى، ولكن، بفضل الله، ثمّة رجلٌ وامرأةٌ أصلحا كلّ شيءٍ، وبفيضٍ من النعَم. فليس الفداء كالخطيئة، بل إنّه تخطّى، بعواقبه الخيّرة، الأذى الذي انتجته الخطيئة. والله، ذلك الفنّان الماهر الفائق الرحمة، لم يكمل تحطيم الإناء المشدوخ، بل إنّه أعاد صوْغه على نحوٍ أوفر كمالاً، ومن أجلنا استنبط من آدم القديم آدمًا جديدًا، وحوّل حوّاء إلى مريم.

لا ريب أنّ المسيح وحده كان يكفينا. وحتّى الآن ما زلنا نستمدّ منه كلّ ما نقوى عليه في ميدان الخلاص. ولكن لم يكن حسنًا أن يظلّ الرجل وحيدًا، بل كان من اللائق جدًّا أن يشترك الجنسان في فدائنا، مثلما اشتركا في سقطتنا. من المحقّق أنّ الرجل، أي يسوع المسيح، هو الوسيط الكلّيّ الوفاء والقدرة بين الله والبشر. ولكنّ جلاله الإلهيّ يسرّب إلى قلوب البشر رعدةً وتجلّةً... فإن هو تعلّم من آلامه الرأفة التي جعلته رحيمًا، إلاّ أنّه يظلّ، هو، ديّاننا، فضلاً عن كون الله نارًا حارقةً. وكيف لا يخشى الخاطئ الفناء، باقترابه منه، كالشمع الذي يذوب قرب النار؟

ومن ثمّ، لا يسوغ أن نرى دور المرأة المباركة بين النساء نافلاً، بل إنّ مكانتها في هذه المصالحة راسخةٌ، فنحن بحاجةٍ إلى وسيطٍ يقودنا إلى المسيح الوسيط، ولا يسعنا

أن نجد خيرًا من مريم. حوّاء كانت وسيطةً، ولكن، يا لها من وسيطةٍ وبيلةٍ تمكّنت، من خلالها، الحيّة القديمة من تسريب سمّها الوبائيّ إلى الإنسان نفسه.

ومريم، أيضًا وسيطةٌ، ولكنّها أَمينةٌ تُسيل ترياق الخلاص في كلٍّ من الرجل والمرأة، على السواء. حوّاء تعاونت مع الغواية، ومريم تعاونت مع التكفير: الأُولى ألهمتنا العصيان، والثانية آتتنا الفداء. وليس لدى الوهن البشريّ ما يخشاه من الدنوّ من مريم. فلا شيء فيها قاسٍ، ولا شيء فيها مرعبٌ، بل هي عذوبةٌ مطلقةٌ، وتوفّر للجميع الغذاء والدفء. تصفّحوا الإنجيل.... تجدوا أنّ سلوكها كلّه يتّسم بالتقوى، والرّقة، والحنان والرحمة، واشكروا ذاك الذي وهبْكم عنايتُه الفائقة الرقّة والرحمة، وسيطةً مثل هذه، لا تخشون فيها شيئًا. فقد جعلت ذاتها كلاًّ للكلّ، وفي فيض محبّتها أضحت مدينةً «للحكماء والجهّال»، وفتحت للجميع أحشاء الرحمة، كي ينال الجميع ملأها: فيحظى الأسير بالعتق، والعليل بالشفاء، والمحزون بالعزاء، والخاطئ بالغفران، والبارّ بالنعمة، والملاك بالفرح، والثالوث الأقدس بالمجد، ويظفر الابن بجسدٍ بشريٍّ، بحيث لا يفتقد أحدٌ دفأه.

أَوَلا تظنّون أنّها المرأة المرتدية الشمس (رؤيا ١٢:١)؟ لا ريب أنّ مجمل النبوءة يُشير إلى أنّ المقصود هو الكنيسة، ولكن من المحقّق، أيضًا، أنّ هذا الوصف يليق بالعذراء مريم التي يبدو، أيضًا، أنها ترتدي شمسًا أُخرى، فكما أنّ هذا الكوكب يُشرق، بلا تمييزٍ، على الصالحين والأشرار، كذلك مريم لا تحاسبنا عن استحقاقاتنا السابقة، بل إنّها تستجيب للجميع، وتعطف عليهم، وفي حنانها الجمّ ترأف ببؤس البشر أجمعين...

كلّ ما هو منافٍ للصواب تدوسه بقدميها، ولا شيء يجمعها بالنساء الفاقدات الصواب، أو بجماعة العذارى الحمقاوات. وفضلاً عن ذلك، فإنّ الأحمق الأكبر، أمير كلّ جنون.. الذي فقد حصافته الرائعة، وديس وسُحق تحت قدمي مريم، تردّى إلى العبوديّة. فمريم هي، هي، المرأة التي وعد الله قديمًا أنّها ستحطّم بقدمها المنتصرة رأس الحيّة القديمة، في حين ستجهد الحيّة، سُدًى، بكلّ أساليب مكرها، كي تلدغ عقبها...

... «امرأةٌ ترتدي الشمس»، أي إنّ النور يحيق بها كالثوب. يتعذّر على الجسديّين

فهم ذلك، إذ إنّهم لا يرون في هذه الحقيقة الروحيّة سوى حماقةٍ. ولكنّ الرسول (بولس) أدرك هذه الحقيقة إذ قال: «البسوا الربّ يسوع المسيح».

وكم أَنتِ أَلِفتِ الربّ، يا سيّدتنا! وكم استحققتِ أن تدني منه عن كثبٍ، بل أن تلجي إلى حميميّته، وأيّة حظوةٍ وجدتِ لديه! إنّه يقيم فيك، وأنت تقيمين فيه. إنّك تلبسينه، وهو يُلبسك مجد جلاله؛ إنّك تغلّفين الشمس بغمامةٍ، والشمس تغلّفكِ؟

(ويرى القدّيس برنار أنّ الاثنتي عشرة نجمةً التي تكلّلها، وفقًا لسفر الرؤيا، تمثّل اثني عشر امتيازًا خُصّت بها، وهي:

– أربع «امتيازاتٍ سماويّةٍ»: الحبل بها بلا دنس، وبشارة الملاك لها، وحلول الروح القدس عليها، وحبلها بابن الله.

– أربع «امتيازاتٍ في جسدها»: بتوليّتها، خصْبها البتوليّ، حملها بلا تعبٍ، وولادتها بلا ألمٍ.

– أربع «امتيازاتٍ في قلبها»: خَفَرها العذب، تقواها المتواضعة، إيمانها السخيّ، واستشهاد القلب.

الامتيازات الثمانية الأولى خاصّة بأمّ الله. ولكن حريٌّ بنا الاقتداء بامتيازات قلبها، والتي يعلّق عليها القدّيس برنار بما يلي:

«إنّ الحُمرة التي تغشى محيّا الإنسان العفيف لجوهرةٌ في تاجه، ونجمةٌ تتألّق على جبينه. وهل من يظنّ أنّ تلك التي كانت ممتلئةً نعمةً قد افتقرت إلى تلك النعمة؟ وإنّنا لنجد، في الإنجيل، الدليل على تحفّظها وحشمتها، وبُعدها عن الثرثرة والاعتداد. ذات يومٍ، وقفت عند الباب راغبةً في التحدّث إلى ابنها، ولكنّها لم تستخدم سلطتها الأموميّة لا من أجل حمله على قطع خطابه، ولا من أجل الدخول عنوةً إلى البيت الذي كان يعظ فيه. وإن لم تخنّي الذاكرة، فالأناجيل الأربعة لا تُسمعنا سوى أقوالٍ أربعةٍ لمريم: الأوّل، يوم خاطبت الملاك، ولم يكن قولها سوى جوابٍ على عرضٍ؛ والثاني لدى زيارتها لإليصابات، لمّا انتفض يوحنّا في بطن أُمّه عندما تنامى صوتها إلى سمعه، وعندما عظّمتها نسيبتها، ولكنّها هي، آثرت، بالأحرى، أن تعظّم الربّ؛ والثالث، عندما عاتبت ابنها البالغ الثانية عشرة، لأنّها،

مع أبيه، بحثا عنه قلقين؛ والرابع، في عرس قانا، عندما خاطبته ثمّ خاطبت الخدَم. وفي هذه النوبة تجلّت، بوضوحٍ، طيبتها الفطريّة، وحشمتها البتوليّة. فقد تبنّت حَرَج الآخرين، ولم ترضَ لهم به، ولم تُخفِ عن ابنها أنّ الخمرة، عندهم، نفدت. ولمّا أجابها ابنها بجفوةٍ، التزمت بالرقّة وتواضع القلب، ولم تردّ، ومع ذلك، لم تستسلم بل أخطرت الخَدَم بفعل ما يقوله لهم.

... وفي كلّ الأحوال بدت بطيئةً في الكلام، سريعةً في الإِصغاء، و«كانت تحفظ تلك الأقوال كلّها، وتتأمّلها في قلبها»...

ثمّ إنّنا نقرأ أنّ التلاميذ، بعد أن عادوا من جبل الزيتون (عقب صعود يسوع) كانوا مثابرين جميعًا على الصلاة، وكانت مريم معهم، وكان من اللائق أن يُذكر اسمها قبل أيّ اسمٍ آخر، من جرّاء امتياز أمومتها، وقداستها الفريدة. ولكنّ سفر أعمال الرسل يقول إنّهم كانوا: «بطرس، ويوحنّا، ويعقوب، وأندراوس، فيليبُّس وتوما، برتلماي ومتّى، يعقوب بن حلفى وسمعان الغيور، ويهوذا أخو يعقوب... وكان معهم بعض النسوة، ومريم أُمّ يسوع». لا ريب أنّها كانت أكثر النسوة تواضعًا فذُكِرت بعد جميعهنّ... بقدر ما كانت مريم عظيمةً، كانت تتواضع، ليس فقط في كلّ شيءٍ، بل، أيضًا، أكثر من الجميع. ومن ثمّ، كان من العدل أن ترقّى من المكان الأخير إلى المكان الأوّل، هي التي، مع كونها الأولى، عدّت نفسها الأخيرة. وكان من العدل أن تصبح سيّدة الجميع، هي التي جعلت نفسها خادمةً للجميع. وكان من العدل أن تُعظّم فوق الملائكة، تلك التي اتّضعت، برقّةٍ تندّ عن الوصف، دون الأرامل والتائبات، بل دون المرأة التي طُرد منها سبعة شياطين...

هذه الوداعة تسلّط الضوء، لدى العذراء، على فضيلة التواضع. فالوداعة والتواضع أُختان ترضعان اللبن عينه، وهما متّحدتان اتّحادًا حميمًا في من قال: «تعلّموا منّي، فإنّي وديعٌ ومتواضع القلب». فكما أنّ الكبرياء تولّد الاعتداد والعُجب بالذات، كذلك لا تولد الوداعة الحقّة إلاّ من تواضعٍ حقٍّ. غير أنّ تواضع مريم لا يتجلّى فقط من خلال صمتها، بل هو يدوّي بوضوحٍ أكبر، من خلال أقوالها. فلمّا قيل لها: «إنّ الذي سيولد منك سيُدعى ابن العليّ»، اكتفت بالإجابة أنّها أَمَة الربّ. وعندما بلغت بيت إليصابات، التي أطلعها، في الحال، الروح القدس على المجد الفريد الذي حظيت به مريم، فهتفت، وهي تضجّ إعجابًا: «من أين لي أن تأتي

أُمّ ربّي إليّ؟»، ثمّ أضافت، مباركةً الصوت الذي حيّاها: «ما إن قرع صوت سلامكِ أُذنيّ، حتّى اهتزّ جنيني طربًا في بطني»، ثمّ غبطت إيمانها قائلةً: «طوبى للّتي آمنت، فإنّ ما قيل لها من لدن الربّ سيتحقّق»، وهذه، لا مراء، مدائح كبرى، غير أنّ تواضع مريم الورع أبى أن يحتفظ منها بشيءٍ لها، بل عزتها إلى الذي أغدق عليها العظائم التي تُمتدح فيها. ولكأنّها تقول لإليصابات: أنت تعظّمين أمّ الربّ، ولكنّ نفسي تعظّم الربّ... أنت تشهدين أنّ ابنكِ ارتعش جذلاً لدى سماع صوتي، ولكنّ روحي ارتعشت فرحًا بالله مخلّصي... إنّك تطوّبينني لأنّني آمنتُ، ولكنّ طوبى الإيمان هي التفاتةٌ صوبي من قبل الرحمة الإلهيّة؛ وإن كانت الأجيال كلّها تطوّبني، فما ذلك إلاّ لأنّ الله حطّ نظره على أَمَته المتواضعة.

ولكن لا نظنّنّ أنّ إليصابات التي ألهمها الروح القدس قد أخطأت. فمريم مغبوطةٌ لأنّ الله حطّ عليها نظره، ولأنّها آمنت، وما إيمانها سوى الثمرة الجميلة التي أَنتجها فيها عطف الله. وقد عمل الروح القدس الذي حلّ فيها، بفنٍّ يندّ عن الوصف، حتّى اقترن، في سرّ قلبها البتوليّ، تواضعها ذاك بعظمة نفسٍ تعادله. وهاتان الفضيلتان، مثلما أسلفنا القول عن البتوليّة والخصب، هما، أيضًا، نجمتان تضيء إحداهما الأُخرى، بحيث لا ينال عمق التواضع، في شيءٍ، من عظمة النفس، ولا تنال عظمة النفس، في شيءٍ، من التواضع. ومع أنّ مريم كانت ترى نفسها وضيعةً، إلاّ أنّ تلك الرؤية لم تحدّ من سخائها في الإيمان بما وُعدت به. وهي التي لم تعدّ ذاتها سوى أَمَةٍ صغيرةٍ، لم يُخامرها شكٌّ بأنّها مدعوّةٌ إلى ذلك السرّ الذي يتخطّى الإدراك، إلى ذلك الاتّحاد الرائع، إلى تلك القدسيّة التي لا يُسبَر لها غورٌ، وآمنت أنّها ستصبح، حقًّا، أُمّ الله المتأنّس. إنّ النعمة الإلهيّة تُحدث في نفوس المختارين رائعةً تحول دون أن يصبح تواضعهم صَغارةً، ودون أن تتحوّل عظمة نفوسهم إلى كبرياء، بل تُحدث نقيض ذلك، فتدعم كلٌّ من الفضيلتَيْن الأُخرى، وتُكسبها منعةً. فعظمة النفس لا تقتصر على منع الكبرياء من التسلّل، بل إنّها تلعب دورًا فاعلاً في ترسيخ التواضع، بحيث إنّ أكثر الناس سخاءً هم الأكثر امتلاءً بخشية الربّ، والأكثر شكرًا لمواهبه. وبالمقابل لا يُسرّب التواضع أيّ جبنٍ إلى النفس، بل كلّما تضاءل اعتداد الإنسان بقواه، حتّى في صغار الأمور، كلّما تعاظمت ثقته بالقدرة الإلهيّة، حتّى في عظائم الأمور.

أمّا استشهاد العذراء، النجمة الثانية عشرة في تاجها، فتؤكّده نبوءة سمعان، مثلما تؤكّده آلام الربّ... كان الشيخ البارّ قد قال لمريم: «وأنتِ، أيضًا، سيخترق سيفٌ نفسك». وهل بمكنة السيف أن يخترق جسد ابنكِ، ولا يخترق نفسكِ؟

فبعد أن أسلم يسوعكِ الروح، أشرعت الحربة القاسية جرحًا في جنبه، على غير احترامٍ لجسده الذي فقد الشعور، ولم تُصِبْ نفسه، ولكنّ نفسكِ هيِ التي أُصيبت. نفسه، هو، كانت قد غادرت جسده، ولكنّ نفسكِ كانت عاجزةً عن الانفصال عنه. وقد اخترقت حدّة الألم نفسكِ، ومن ثمّ علينا أن نعترف بأنّكِ أكثر من شهيدةٍ، إذ إنّ تعاطف القلب لديكِ هو أقوى من آلام الجسد...

وألم يكن أنفذ من السيف هذا القول الذي أصاب أعماق نفسكِ: «يا امرأة، هوذا ابنك». فيا لها من مقايضةٍ! لقد أُعطيت يوحنّا بديلاً عن يسوع، الخادم بديلاً عن السيّد، التلميذ بديلاً عن المعلّم، ابن زبدى بديلاً عن ابن اللّه، مجرّد إنسانٍ، بديلاً عن الإله الحقّ! وكيف لا يخترق هذا القول نفسكِ المغرقة في الحبّ، فمجرّد ذكره يُحطّم قلوبنا، مع أنّها من حجرٍ وحديدٍ؟ فلا تعجبوا، يا إخوتي، إن قيل إنّ مريم قد عانت استشهاد النفس...

٣ - نجمة البحر

«وكان اسم العذراء مريم» (لوقا ١:٢٧)

هذا الاسم يُترجم «نجمة البحر»، وهو يليق، على أكمل وجهٍ، بالأمّ التي بقيت عذراء، فعلى غرار الكوكب الذي يرسل أشعّته ولا يُدمَّر، كذلك العذراء وضعت ابنها ولم تُخدَش. الشعاع لا يُنقص نور الكوكب، ولا الابن نال من نقاء العذراء. أجل، إنّها النجمة النبيلة التي يُضيء شعاعها الكون كلّه. سناها يتلألأ على القمم، وفي الآن عينه يتوغّل حتّى أعماق الوهاد. حرارته المنتشرة بالتساوي على الأرض تدفئ النفوس قبل الأجساد، مُنضجةً الفضائل، حارقةً العيوب. أجل، إنّها النجمة الرائعة التي يمتدّ تألّقها فوق المحيط الرحب، فتتلألأ باستحقاقاتها، وتنير بمثالها.

فيا أيّها الإنسان الذي يشعر بالتيه في مستنقع هذا العالم، وسط الأعاصير والعواصف، بعيدًا عن الأرض الصلبة، لا تُشِحْ بنظرك عن وهج هذا الكوكب، لكيلا تطيح بك العاصفة. بل عندما تهبّ ريح التجارب، وتدفعك نحو الصخور

المعادية، حدّق إلى النجمة، واستغث بمريم، وعندما تطيح بك أمواج الكبرياء، والجشع، والحسد، تطلّع إلى النجمة، و اصرخ مستغيثًا بمريم. وعندما يهزّ الغضب والبخل، وغوايات الجسد سفينة نفسك، حدّق إلى مريم. وعندما ترهقك جسامة ذنوبك، وينتابك الخجل من لوثات ضميرك، ويرعبك هول الدينونة، وتستسلم لتيّار هوّة الحزن، وتتردّى إلى القنوط، فكّر في مريم!

في المخاطر والهواجس، وحيال الأوضاع العصيبة، فلتكن مريم حاضرةً في ذهنك، واستغثْ بها! ولا يبارحنّ اسمُها شفتَيْك وقلبك. ولكي تنال شفاعة صلواتها لا تتقاعس عن التمثّل بحياتها. فإن أنت اقتفيتَ أَثَرها نجوتَ من الضياع، وإن أَنت استغثتَ بها، لم يجد القنوط إلى نفسك سبيلاً، وإن أنت استهديتَ بها بتّ في مأمنٍ من التيه، وإن أنت وضعتَ يدكَ في يدها أمنتَ من السقوط، وإن هي حمتك تحرَّرتَ من التعب، وإن هي قادتكَ تخطّيت الخوف، وإن أنت حظيتَ برضاها بلغت المرفأ الأمين، وتبيّنت بنفسك صحّة ما قيل: «وكان اسم العذراء مريم»، أي نجمة البحر».

٤ – امتيازٌ مزدوجٌ

«ثمّة مضمارٌ واحدٌ لم يكن فيه للعذراء نموذج تتمثّل به، ولا وُجد من يتمثّل، فيه، بها، وهو قرنها فرح الأمومة بشرف البتوليّة. «لقد اختارت مريم النصيب الأفضل». أجل، الأفضل: فخصب المرأة المتزوّجة جيّدٌ، ولكنّ عفّة العذراء خيرٌ منه، بيد أنّ النصيب الأفضل هو خصبٌ بتوليٌّ، أو بتوليّةٌ خصبةٌ. وهذا امتيازٌ خُصّت به مريم دون سواها، لن تحظى به أُخرى، ولن يُنتزع من مريم. إنّه فريدٌ، ويندّ عن كلّ وصفٍ: لا أحد يقوى على التمثّل به، ولا أحد يقدر على وصفه.

وما القول إن أَوضحنا أُمّ من هي؟ وأيّ لسانٍ – ولو كان لسان ملاكٍ – قادرٌ على تمجيد **العذراء الأُمّ** بمدائح خليقةٍ بها، إذ إنّها ليست أمّ إنسانٍ كسائر البشر، بل أمّ الله؟

إنّ في ذلك جدّةً مزدوجةً، وامتيازًا مزدوجًا، ومعجزةً مزدوجةً. غير أنّ ذلك الاقتران حقٌّ وملائمٌ: إذ لم يكن من اللائق أن تلد عذراء غير هذا الابن، ولا أن يكون لله غير هذه الأُمّ...

أيّ طهرٍ، حتّى عند الملائكة، يجرؤ على التشبّه بهذه البتوليّة التي وُجدت جديرةً بأن تصبح «معبد الروح القدس، ومسكن ابن الله»؟... لقد سألتْ: «كيف يمكن أن يتمّ ذلك؟» من المحقّق أنّه لن يتمّ على نحوٍ طبيعيٍّ، وكما يحدث لسائر النساء».

٥ - كلمة الله

«فليكن لي بحسب قولك»! فليحقّق الكلمةُ فيَّ كلمتَك! وليصبح الكلمة الذي هو الله من البدء، جسدًا من جسدي!....

«ولا تدوِّينّ هذه الكلمة في آذاني فقط، بل فلتشهدها عيناي، ولتجسَّها يداي، ولتقلّها كتفاي! ولا تكوننّ كلمةً صامتةً، بل فلتكن متجسّدةً وحيّةً!

إنّني أُريد كلمةً تهب ذاتها في صمتٍ، وتتجسّد في شخصٍ، وتحلّ فيَّ جسديًّا... ولتتنازل وتكن من أجلي، ومن أجل العالم أجمع، حسب قولك!»

٦ - يا لتنازل الله، ويا لامتياز العذراء!

«عندما ابتغى مخلّص البشر أن يصير بشرًا، ويولد من بشر، كان عليه أن يختار بين جميع النساء؛ بل فلنقل كان عليه أن يتّخذ لنفسه أُمًّا تحظى بكلّ رضاه. لذلك شاءها عذراء، كي يولد من أمٍّ منزّهةٍ من الدنس، بما أنّه، هو، منزّهٌ من الدنس، وقد جاء كي يطهّرنا من كلّ أدناسنا. وشاءها متواضعةً، هو المتواضع والوديع القلب، كي يعطينا، في شخصها، المثال الضروريّ والخلاصيّ، لهذه الفضائل.

وقد وفّر لها ولادةً بتوليّةً، بعد أن كانت، بإلهامه، قد نذرت البتوليّة، وتلقّت بنعمته امتياز التواضع. فلكي تكون تلك التي كان عليها أن تلد قدّوس القدّيسين مقدّسة الجسد، وُهبت نعمة البتوليّة، ولكي تكون مقدّسة القلب تلقّت نعمة التواضع.

وإذ ازدانت تلك العذراء الملكيّة بهذه الفضائل، وكأنّها مزدانةٌ بجواهر نفيسةٍ، وتلألأت بأصفى ألَقٍ في الجسد والنفس، وذاعت شهرة جمالها المنقطع النظير حتّى السماوات، واجتذبتْ أنظار سكّان السماء، بحيث استمالت قلب الملك نفسه فأنفذ إليها من عليائه رسولاً. وهذا ما يطلعنا عليه الإنجيليّ، عندما يظهر لنا الملاك المرسل من الله إلى العذراء، أي من العظمة إلى الوضاعة، من السيّد إلى الأمَة، من الخالق إلى الخليقة. فيا لتنازل الله، ويا لامتياز العذراء!».

٧ – تمثّلوا، أقلّه، بتواضع العذراء

إلى مدينةٍ في الناصرة أنفذ الله الملاك جبرائيل. ولكن لمن أرسله؟

«إلى عذراء مخطوبةٍ لرجلٍ اسمه يوسف».

من هي تلك العذراء الموقّرة بحيث استحقّت أن يحيّيها ملاكٌ، والمتواضعة بحيث خُطبت لعاملٍ؟ ما أروع اقتران التواضع بالبتوليّة! إنّ الله يؤثر نفسًا كهذه، حيث التواضع يُبرز البتوليّة، وحيث البتوليّة تضفي على التواضع ألَقًا قشيبًا. ولكن كم جديرٌ بنا أن نجلّ تلك التي خِصبُها مجّد تواضعها، وأمومتها كرّست بتوليّتها!

كما ترون، العذراء هي عذراء متواضعةٌ. فإن عجزتم عن التمثّل ببتوليّتها، تمثّلوا، أقلّه، بتواضعها. لا ريب أنّ بتوليّتها جديرةٌ بكلّ مديحٍ، غير أنّ التواضع هو أكثر لزومًا من البتوليّة. وإن كان يُنصَح بالأولى، إلاّ أنّ الثانية واجبٌ... في معرض الكلام عن البتوليّة، قال الربّ: «فليمارسها من يستطيع إلى ممارستها سبيلاً»، (متّى ١٩ : ١٢). أمّا عن التواضع فتكلّم بهذه العبارات: «**إن لم تتحوّلوا ولم تصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت السماوات**» (متّى ١٨ : ٣)... إنّ الخلاص ممكنٌ بمعزلٍ عن البتوليّة، ولكنّه متعذّرٌ بمعزلٍ عن التواضع.

٨ – «الابنة التي محت عار والديها

«ارتعش بهجةً، يا آدم، يا أبانا البائس، وأنتِ، خاصّةً، أيّتها التعيسة حوّاء أُمّنا. أنتما، والدي البشر أجمعين، كنتما، أيضًا، قاتليهم. لا بل، لكي تبلغ كأس بؤسكما الجمام، قتلتما أبناءكما قبل أن تنجباهم. تعزّيا، إذن، بابنتكما، ويا لها من ابنةٍ! وأنتِ، خاصّةً، التي بها دخل الشرّ، أوّلاً، والتي انسحب عارها على النساء قاطبةً، ها قد حان وقت محو هذا العار، بحيث لا يعود للرجل مأخذٌ على المرأة. قديمًا كان الرجل، كي يتذرّع بعذرٍ، لا يتوانى عن اتّهام المرأة بقسوةٍ: هذه التي أعطيتني إيّاها، قد قدّمت لي هذه الثمرة، وقد أكلت منها.

«فيا حوّاء، اركضي صوب مريم، أيّتها الأُمّ، اجري صوب الابنة. ولتُجب الابنة عن الأُمّ، ولتعتقْها من عارها، ولتكفّر عنها حيال الآب. فإن كان الرجل قد سقط بجريرة امرأةٍ، فلن ينهض إلاّ بفضل امرأةٍ... وأنت، يا آدم، استبدل أعذارك الزائفة

بأفعال شكرٍ، وقلْ: «يا ربّ، إنّ هذه المرأة التي أعطيتني قد جاءتني بثمرة الحياة، وقد تناولتها فإذا بها أعذب من العسل في فمي، لأنّك، بها، أحييتني».

*****

سلامٌ، يا أمّ الرحمة

(نشيدٌ من القرن الثاني عشر)

سلامٌ يا أمّ الرحمة، يا أمّ الله، وأمّ الغفران، يا أمّ الرجاء وأمّ النعمة، أيّتها الأمّ الممتلئة نعمةً، يا مريم.

سلامٌ، يا فخر الجنس البشريّ، سلامٌ، أيّتها العذراء التي تفوق الجميع كرامةً، وتفوق كلّ العذارى، والجالسة في أعالي السماوات، يا مريم!

سلامٌ، أيّتها العذراء الأُمّ السعيدة، لأنّ الجالس على يمين الآب، والذي يسود السماء والأرض والأجواء، قد ثوى في أحشائك، يا مريم!

الآب الذي لم يُخلق خلقكِ، والابن الوحيد صانَك، والروح القدس أخصبك، لقد صُنِعتِ بطريقةٍ سماويّةٍ، يا مريم!

فكوني، يا أمّنا، عزاءَنا؛ وكوني يا عذراء، فرحنا، واجمعينا، أخيرًا، بعد منفانا، وقد امتلأنا فرحًا، بالجوقات السماويّة، يا مريم!

آدم دي سان ڤيكتور (+١١٧٧)

(Adam de -SAINT- VICTOR)

شاعرٌ وموسيقيٌّ فرنسيٌّ – ألّف مجموعة أناشيد للسيّدة العذراء

سلامٌ، يا أمّ المخلّص

«سلامٌ، يا أمّ المخلّص، أيّها الإناء المختار، إناء الشرف، إناء النعمة السماويّة. إناءٌ معدٌّ منذ الأزل، إناءٌ سنيٌّ، إناءٌ زيّنتْه بفنٍّ يدُ الحكمة.

سلامٌ، يا أمّ الكلمة المقدّسة، يا زهرةً انبثقت من الأشواك، يا وردةً بلا أشواكٍ، يا مجد الأحراش.

الحرش هو نحن الذين جرّحتهم أشواك الخطيئة. ولكنّكِ، أنتِ، كنتِ بمنأًى عن الأشواك. أيّها الباب الموصد، يا ينبوع الحدائق، يا كنز العطور،...

سلامٌ! يا مجد العذارى، يا وسيطة البشر، ويا أمّ الخلاص...

يا ريحانة القناعة، ووردة الصبر، والناردين العطر،

يا وادي التواضع؛ أيّتها التربة التي احترمها المحراث، والوفيرة المواسم،

يا زهرة الحقول، ويا زنبقة الوديان الجميلة، التي انبثق منها المسيح.

أيّها الفردوس الأرضيّ، أيّتها الأرزة التي لم يمسّها حديدٌ، والتي تبسط ظلّها العذب.

فيكِ يكمن ملء الأَلق والجمال، والعذوبة والأشذاء،

يا عرش سليمان، الذي لا يضاهيه عرشٌ، مادّةً وفنًّا،

إنّ عاج هذا العرش يمثّل، بنصاعته، سرّ العفّة. وذهبه، بألَقه، يرمز إلى المحبّة.

إنّك تتفرّدين بسعفتك، ولا مثيل لك لا على الأرض ولا في القصر السماويّ.

يا مجد الجنس البشريّ، لقد تجمّعت فيكِ امتيازات الفضائل، التي فقتِ بها الجميع.

مثلما تفوق الشمسُ القمرَ تألّقًا، ويفوق القمرُ النجومَ، تتألّق مريم أكثر من كلّ الخلائق.

النور الذي لا عهد له بكسوفٍ، هو عفاف العذراء، والنار التي لا تنطفئ أبدًا هي محبّتها الخالدة.

سلامٌ! يا أُمّ الرحمة، وموطن الثالوث الأقدس،

ولكنّكِ لجلال الكلمة المتجسّد وفّرتِ مقدسًا خاصًّا.

من عرشك الرفيع في السماء، أوصِ ابنك بنا، لكيلا يقوى إرهابُ أعدائنا وخداعهم على وهننا.

وفي الصراع الذي نخوض غماره، اعضدينا بسندك، وليُهزَم عنف عدوّنا المشبع جسارةً ومكرًا، أمام قدرتك الفائقة، ولتفشل حيلته أمام فطنتكِ!

ويا يسوع احفظ خدّام أُمّك. حلّ قيود الخطأة، وخلّصهم بنعمتك، وادمغنا بملامح نورك المجيد. آمين!»

پيير دي بلوا (١١٣٥– ١٢٠٤)

Pierre DE BLOIS

شاعرٌ وموسيقيٌّ – كان معلّمًا للملك غيّوم الثاني. ثمَّ خدم في بلاط الملك هنري الثاني في بريطانيا.

انتقال العذراء إلى السماء

«لقد ترك يسوع أُمّه، فترةً ما، على الأرض، لكي تبلّغ تلاميذه كلّ ما شاهدته، في أثناء حياتها، بحميميّةٍ بالغةٍ، مع ابنها، وكلّ الأمور التي طالما حفظتها في قلبها، ولكي، تُدخل إلى قلوب المؤمنين إيمانًا بالمسيح، وحبًّا له أشدّ منعةً وثباتًا، بعد سحقها رأس الأفعى، وفق نبوءةٍ قديمةٍ؛ وأخيرًا لكي تقدّم له كنيسةً «لا كلف فيها ولا غضن»، كنيسةً أُوكل إليها تثقيفُها، في أعقاب صعود ابنها إلى السماء.

ولكن، كان يبدو أنّ صعود يسوع لن يكتمل قبل أن يجتذب إليه تلك التي، بلحمها ودمها، كوّنت جسده. كان يرغب، رغبةً مضطرمةً، في أن يكون إلى جانبه ذلك الإناء المختار، أي جسد العذراء الذي طالما أحبّه، إذ لم يُحفَظ فيه ما لا يروق للألوهة...

كان قد سبق لأمّ الله أن أودعت ابنها في مغارةٍ وضيعةٍ، وها إنّ ابنها يقيمها، اليوم، على عرشٍ رفيعٍ. كانت قد أَضجعت ابنها بين بهيمتين، وها هي، اليوم، تُرقّى فوق مستوى الملائكة. قديمًا، كانت قد اقتادت ابنها إلى مصر، وها إنّ ابنها،

اليوم، ينقلها من صحراء هذا العالم إلى السماء. كانت قد ألبسته قُمُطًا وضيعةً، وها هو، اليوم، يدثّرها بمعطف بهجةٍ أبديّةٍ. ابنها يشركها في إنسانيَّته وألوهته، في أبديّته وبهائه، وفي فرحه كلّه، لكي ترى أمّه فيه، وتعانق، وتمتلك ابن الله الوحيد».

عذوبة مريم

(لواعظٍ مجهولٍ من القرن الثالث عشر. ولكن ترجّح نسبتها إلى القدّيس ألبير الكبير (١٢٠٦– ١٢٨٠)

واعظٌ وأُسقف راتسبون – يعدّ من معلّمي الكنيسة

«**ما أجملك وما أشهاكِ!**» (نشيد الأناشيد ٧: ٧)

«تأمّلوا، أرجوكم، هذا المشهد:

فتاةٌ عذراءُ وأمٌّ معًا، تحمل على صدرها البتوليّ ابنها الذي تعرف أنّه ابن الله، وإنسانٌ. هو، بيديه الرقيقتين، يعانق صدر العذراء المقدّس، وهي، بذراعيها الطوباويّتين، تغمر جسد ابنها الصغير. هو، فيما يرضع، يرنو بعطفٍ إلى محيّا أمّه، وهي تحني رأسها المقدّس وتتأمّل، بخشوعٍ، عيني صغيرها. وما كلّ ذلك سوى جزءٍ ضئيلٍ من سرّ وحدتهما الحميمة. فوسط ما أتينا على ذكره، أيّ تبادلٍ بين قلبَي الأمّ وابنها: فهي، وابنها بين ذراعيها، كانت تجيل الفكر في طريقة حبلها به، في السماء التي وافى منها، في كلّ ما سمعته من الملائكة، ومن إليصابات، ومن الرعاة والمجوس، وكلّ ذلك كان يفضي بها إلى التأمّل في ما سيحدث لهذا الطفل في العالم؛ وهو، مضّجعًا على صدر الفتاة المسكينة، التي لم يهتمّ جيرانها بتعرّفها، كان يتبيّن الطريقة التي سيقدّمها بها إلى العالم وإلى الملائكة، داعيًا إيّاهم إلى الاستنجاد بها، بصفتها محامية جنسها. وفيما كان يرضع لبنها كان يخطّط، سرًّا، لفداء العالم...

إنّها تحمل ثمرةً تفوق كلّ عذوبةٍ. فكلّ ما هو في مريم، وكلّ ما يأتي منها، هو عذوبةٌ.

عذبٌ هو روح مريم، كما تشهد هي بذلك: «إنّ ذكري أحلى من العسل» (ابن سيراخ ٢٤: ٢)، وعذبٌ هو جسد مريم الذي وضع ابنًا فائق العذوبة.

عذبةٌ هي أفكار مريم التي وصفها القدّيس جيروم بقوله: «إنّ نعمة الروح القدس قد ملأتها بالكامل. والحبّ الإلهيّ قد ألهبها كلّيّةً، بحيث لم يكن شيءٌ قادرًا على تلويثها بعلاقةٍ عالميّةٍ، بل كلّ شيءٍ فيها كان نارًا دائمة الاضطرام، ونشوة حبٍّ فيّاضٍ».

عذبًا كان كلام مريم، كما شهد قرينها: «شفتاك تقطران شهدًا، أيّتها العروس. وتحت لسانك عسلٌ ولبنٌ حليبٌ». (نشيد ٤: ١١)

عذبًا كان دخول مريم إلى العالم، لأنّها وُقيت من كلّ لوثة خطيئةٍ. وعذبةً كانت حياتها لأنّها كانت في منجاةٍ من كلّ خطيئةٍ. وهذا ما شهد به القدّيس أوغسطينُس الذي قال: «عندما يتعلّق الأمر بالخطايا، آبى أن يؤتى على ذكر مريم».

وعذبًا كان انتقال مريم، لأنّها كانت مصانةً من مرارة الموت، الذي يخضع له الجميع، وفقًا لشهادة الكنيسة: «إنّ أمّ الله القدّوسة خضعت للموت المؤقّت، ولكنّها لم تُسجن في قيود الموت».

وعذبٌ هو اسم مريم الذي يجعل كنيسة المؤمنين تذوب تكريمًا له، في كلّ مكانٍ...

عذبةٌ هي صُوَر مريم التي يرسمها الفنّانون بروعةٍ فائقةٍ، وبجمٍّ من التقوى والرقّة، وبما يفوق رسمهم لصُوَر سائر القدّيسين. والمؤمنون يكرّمون، بفرحٍ عارمٍ، هذه الصوَر. ألا ترون الكنائس زاخرةً بصُوَرها، ممّا يدلّ، بجلاءٍ، على أنّ كلّ قلبٍ مليءٌ بذكرها وبتكريمها؟ هذه هي ثمار شجرة النخيل الطيّبة! هذه هي البلحات التي تنثرها العذراء على أرض الأموات!

ويا لجمال تلك التي ستوزّعها على سكّان السماء، في ديار الأحياء، حيث سنراها، لا في صُوَرٍ من ذهبٍ وعاجٍ، بل وجهًا لوجه، في جسمها الكلّيّ القداسة! حينئذٍ سنشهد، بعيوننا، وجهها، الذي طالما اشتهينا، على هذه الأرض، رؤيته، منتحبين. وحينئذٍ سنجلس إلى جانب أمّنا، التي نبعد عنها الآن كثيرًا. وحينئذٍ سنستطيع التحدّث، لا عنها، بل إليها. وحينئذٍ لن نناأى عن حضورها المجيد! آه! متى سيتحقّق لنا ذلك؟

... يا أمّ الرحمة، هل كُتب لنا، في مكانٍ ما من سِفْر ابنك، أنّنا سنراك هكذا، معه؟ وبانتظار ذلك، فلتكن لنا «دموعنا خبزًا، ليلاً ونهارًا» (مزمور ٤١: ٤) ريثما يُقال لنا: أيّها الأبناء، هي ذي أمّكم! أيّها الأولاد، هوذا أخوكم!»

أفراح مريم السبعة

نشيدٌ ألمانيٌّ من القرن الرابع عشر، مستوحًى من التقوى الفرنسيسكانيّة:

«أيّتها العذراء، يا هيكل الثالوث، إنّ إله العطف والرحمة، بعد أن تبيّن تواضعكِ، وتذوّق فتنة عذوبتكِ، وعبير طهركِ، أنفذ إليك رسولاً يبلّغكِ أنّه يبتغي أن يولد منك. لقد جاءكِ الملاك بتحيّة النعمة، فاستفسرتِ عن كيفيّة تحقيق المعجزة. ولمّا سمعتِ تفسير الملاك أعلنتِ عن موافقتكِ، وفي الحال تجسّد فيكِ ملك المجد.

بحقّ هذه الفرحة نرجوكِ أن تستميلي نحونا عطف هذا الملك العظيم، كي يحمينا، فتُدخلنا حمايته إلى أرض الأحياء.

فرحتكِ الثانية يوم وضعتِ الشمس، أيّتها النجمة، وولدتِ الشعاع المضيء، أنتِ الشبيهة بالقمر. هذه الولادة لم تُصبكِ بأذًى، بل أَبقتكِ عذراء، ولم تُحدث فيكِ أيّ تغييرٍ. وكما لا تفقد الزهرة ألقَها، عندما تضوّع شذاها من حولها، كذلك لم تفقد بتوليّتكِ شيئًا من ألقها عندما تنازل الخالق ووُلد منكِ.

فيا مريم، أمّ العطف، كوني لنا الطريق القويم الذي يقود إلى ابنكِ. وبحقّ هذه الفرحة الثانية، اعطفي علينا، وأبعدي عنّا خطايانا.

نجمةٌ أعلنت فرحتكِ الثالثة. هذه النجمة التي توقّفت فوق ابنك، حيث عبده المجوس، وقدّموا له هدايا من خيرات الأرض. في هذه التقدمة ذكّرت النجمة بالوحدة، والملوك الثلاثة بالثالوث، والذهب بنقاء النفس، والمرّ بعفّة الحواسّ، والبخور بتضرّعات العبادة.

فيا مريم، نجمة العالم، طهّرينا من الخطيئة، واجعلينا خصبين في الفضائل، ولنقاسمكِ، يومًا، فرح الوطن الأبديّ، يا مريم العذراء.

فرحتكِ الرابعة تلقّيتِها لحظة قيامة المسيح من الأموات، في اليوم الثالث. هذا السرّ قد رسّخ الإيمان، وبعث الرجاء مجدّدًا، وطرد الموت، وكان لكِ سهمٌ في تلك المعجزات، أيّتها الممتلئة نعمةً. لقد قُيّد العدوّ المهزوم، وتأوّه، وتخبّط في يأسه بعد أن فقد سطوته، وأُعتق الإنسان الأسير، ورُفع من هذه الأرض، وارتقى إلى أعالي السماوات.

فيا أُمّ الخالق، تنازلي وصلّي من أجلنا بلا انقطاعٍ، عسانا، بحقّ هذه الفرحة، وبعد جهد هذه الحياة، نستطيع الانضمام إلى جوقات ساكني السماء.

فرحتكِ الخامسة، أيّتها العذراء، تمّت عندما شهدتِ ابنكِ يصعد إلى السماء. فالمجد الذي كان يحيق به أظهر لكِ، أكثر من أيّ وقتٍ، أنّ الذي كنتِ أُمّه، كان، هو، خالقكِ. بصعوده إلى السماء أرشدنا إلى الدرب الذي به يرتقي الإنسان إلى القصور السماويّة. فلينهض، إذن، ولينهج هذا الدرب، من لا يزال راسفًا في رزايا هذا العالم.

ونتوسّل إليكِ، يا مريم، بحقّ هذه الفرحة، ألاّ تدعينا تحت نير إبليس، بل أصعدينا إلى السماء، حيث سننعم، معكِ ومع ابنكِ، بالسعادة الأبديّة.

بانحداره من السماء، على شكل ألسنةٍ ناريّةٍ، من أجل تدعيم الرسل، وحمايتهم، وملئهم، وتطهيرهم، وإضرامهم، جاءكِ البارقليط الإلهيّ بفرحتكِ السادسة. وقد نزلت النار، بشكل ألسنةٍ، لكي تشفي الإنسان الذي كان اللسان قد أهلكه، ولكي تطهّر نفسه التي كانت الخطيئة قد لوّثتها منذ البدء.

فبحقّ هذه الفرحة، يا عذراء، اسألي ابنكِ أن يتنازل ويمحو أخطاءنا، ونحن في منفانا، ولكي لا تبهظنا الخطيئة، في يوم الدينونة.

وقد دعاكِ المسيح إلى الفرحة السابعة عندما استدعاكِ من هذا العالم إلى المقرّ السماويّ، ورفعكِ، يا مريم، إلى العرش حيث ستتلقّين أمجادًا منقطعة النظير. فهنا يحيق بكِ مجدٌ لن يظفر بمثله أيٌّ من سكّان السماء؛ ولن يبلغ أحدٌ على الأرض إلى ملء النعم، ما لم تتنازلي وتحفظيها فيه.

فيا مريم، يا أُمّ العطف، اجعلينا نلمس نتائج حنانكِ، صونينا من الخطيئة، وقودينا مع الأبرار، إلى الأفراح الأبديّة.

ويا مريم الكلّيّة الطهر، بحقّ هذه الأفراح السبعة، طهّرينا من خطايانا، ويا أيّتها الأمّ الخصبة، اجعلي نفوسنا خصبةً بالنعم، واستصحبينا معكِ إلى أحضان سعادة الفردوس. آمين».

القدّيسة ميكتيلد (١٢٤١– ١٢٨٤)

راهبةٌ بينيدكتيّةٌ. في كتابها «سفر النعمة الخاصّة»، تتحدّث عن ثلاثيّة «السلام» التي تشيد بعلاقة مريم مع أقانيم الثالوث. إذ فيما كانت تتوسّل إلى العذراء مريم الطوباويّة، أن تتنازل وتعينها بحضورها في ساعتها الأخيرة، أجابت العذراء القدّيسة:

«إنّي أعدكِ بذلك، ولكن، عليكِ أن تتلي، كلّ يومٍ، ثلاث مرّات، «السلام، يا مريم». في المرّة الأولى، تتوجّهين بها إلى الله الآب، الذي، بقدرته العلويّة، عظّم نفسي وأحلّني في مقامٍ يلي مقامه، في السماء وعلى الأرض، وتسألينه أن أكون حاضرةً، في ساعة موتكِ، لكي أشدّ من عضدكِ، وأدرأ عنك كلّ قوّةٍ معاديةٍ.

وفي النوبة الثانية، تتوجّهين بها إلى ابن الله، الذي، في حكمته التي لا يُسبَر لها غورٌ، حباني بفيضٍ من المعرفة والفهم، بحيث أنعم بالثالوث المقدّس، وأُدركه إدراكًا يفوق إدراك جميع القدّيسين الآخرين، وتسألينه، أن أنير نفسك بالنور الذي يجعل منّي شمسًا من السطوع بحيث تضيء السماء كلّها، وأن أملأ نفسك بأنوار الإيمان والمعرفة، كي تكوني بمأمنٍ من كلّ جهلٍ وكلّ ضلالٍ.

وفي النوبة الثالثة، تتوجّهين بها إلى الروح القدس، الذي غمرني بحبّه، وأغدق عليّ فيضًا من الرقّة والحنان لا يفوقني في امتلاكهما سوى الله وحده. وتسألينه أن أكون حاضرةً في ساعة موتكِ كي أسكب، في نفسك، عذوبة الحبّ الإلهيّ، وبذلك ستتغلّبين على آلام الموت ومرارته، التي ستنقلب عذوبةً وبهجةً».

القدّيس بوناڤانتورا (١٢٢١ – ١٢٧٤)

لقد لعب الفرنسيسكانيّون دورًا هامًّا في نشر تكريم مريم وترسيخه. فكان أحدهم، اللاهوتيّ «دنْس سكوت» (DUNS SCOT) رائد الدفاع عن عقيدة

الحبل بالعذراء بلا دنسٍ، في حين اشتهر زميله القدّيس بوناڤنتورا بعظاته الشعبيّة الداعية إلى تكريم مريم، وإلى معرفةٍ تقويّةٍ لها. من أقواله:

١ - مريم في الجلجلة

«لا يسوغ الشكّ، في أيّة حالٍ، بأنّ العذراء قد ابتغت بذل ابنها، من أجل خلاص الجنس البشريّ، يدفعها إلى ذلك قلبٌ شجاعٌ، وعزمٌ مصمّمٌ ثابتٌ، بحيث تتمثّل الأمّ بالآب. ومن ثمّ فإنّ أكثر ما يجدر مدحه وحبّه، هو ارتضاؤها التضحية بابنها، من أجل خلاص العالم. فقد كان تعاطفها مع البشر من العمق بحيث كانت كفيلةً بأن تأخذ، طوعًا، على عاتقها، إن أمكن، كلّ الآلام التي قاساها ابنها. لقد قرنت، حقًّا، القوّة بالرقّة، والعذوبة بالعزيمة. كانت تحرم ذاتها، وتغدق علينا عطاياها. فهي، إذن، من يجدر حبّها وإجلالها فوق كلّ شيءٍ، بعد الثالوث الأقدس، وابنها الكلّيّ القداسة، سيّدنا يسوع المسيح، الذي يتعذّر على كلّ لسانٍ التعبير عن سرّه الإلهيّ».

٢ - سأمضي إلى مريم

«وأنا، في منتصف أيّامي، قلتُ: سأمضي إلى مريم،
كي تصالحني مع المسيح.
والتمستُ منها ذلك، طيلة بقيّة عمري، في مرارة نفسي.
حياتي انتُزعت منّي: فأبي، وأُمّي، وكلّ شيءٍ
في هذا العالم هجرني. ولكنّ مريم استقبلتني.
كانت هي رجائي، صباحًا، ومساءً، وفي كلّ فترة ظهرٍ.
ومثل أسدٍ، سحقت كلّ عظام خطاياي.
وأنتِ، يا سيّدتي، خطفتِ نفسي، ونجّيتِني من الموت،
ومن يد الكلب أنقذتِ ردائي.

خلّصيني، يا سيّدة، وسأنشد مديحكِ،
في كلّ يومٍ من حياتي، يا أمّ ربّي القدّيسة».

القدّيس توما الأكوينيّ (١٢٢٥– ١٢٧٤)

منذ القدّيس أوغسطينُس، كان الأكوينيّ ألمع لاهوتيّي الكنيسة. وهو ما برح من أعظم معلّميها. ولطالما تكلّم عن العذراء، مؤكِّدًا امتيازاتها. من أقواله، في هذا المضمار، نقتطف ما يلي:

«إنّ بشريّة المسيح، لكونها متّحدةً بالله، والغبطة المخلوقة لكونها التمتّع بالله، ومريم الطوباويّة، لكونها أُمّ الله، تمتلك، بطريقةٍ ما، كرامةً لامحدودةً، آتيةً من الله، الخير اللامحدود. ومن ثمّ، لا يمكن أن يكون، هناك، خيرٌ منها، بما أنّه ليس ما هو خيرٌ من الله».

* * * * * * *

«يهب الله كلّ إنسانٍ نعمةً تتوافق مع دعوته. وبما أنّ المسيح، بصفته الإنسانيّة، كان قد أُعِدَّ مسبَّقًا، واختير ابنًا لله، مالكًا قدرة التقديس، فقد امتلك ملء النعمة، بوفرةٍ تؤهّله لإغناء البشر أجمعين، حسب ما جاء في إنجيل يوحنّا: «من ملئه كلّنا أخذنا». (١: ١٦)

أمّا الطوباويّة مريم العذراء، فقد تلقّت امتلاءً يؤهّلها لتكون الأقرب إلى صانع النعمة، بحيث تتلقّى، في ذاتها، من هو ممتلئٌ نعمةً، وبولادتها، جعلت النعمة تسيل، بطريقةٍ ما، إلى جميع البشر...»

* * * * * * *

«كان من اللائق أن يُعقد زواجٌ روحيٌّ (من خلال التجسّد) بين ابن الله، والطبيعة البشريّة، ولذلك طُلبت موافقة العذراء باسم الطبيعة البشريّة كلّها...»

* * * * * * *

«إنّ مجرّد تلقّي القدّيسيّن نعمةً تقدّس نفسهم، لمعجزةٌ، بيد أنّ النعمة التي حلّت على نفس العذراء كانت من الوفرة بحيث انعكست على جسدها، كي تحمل مريم ابن الله، في هذا الجسد.

إنّ نعمة مريم كانت من الغزارة بحيث فاضت على البشريّة جمعاء. أليس أمرًا جلَلاً أن يمتلك قدّيسٌ من النعمة ما يكفي لخلاص عددٍ غفيرٍ من البشر! أمّا أن

يمتلك منها إنسانٌ قسطًا كافيًا لاستحقاق خلاص جميع بشر العالم، فتلك هي أكثر المعجزات إدهاشًا. تلك هي حال المسيح، وتلك هي، أيضًا، حال العذراء الطوباويّة المجيدة التي يسع الإنسان أن يظفَر منها بالخلاص، أيّةً كانت التهلكة التي يواجهها.

وبما أنّ الروح هو أقرب إلى الله من الجسد، فلم يكن من اللائق أن تأتي الحكمة اللامخلوقة، وأن تقطن أحشاء العذراء، إلاّ بعد أن يصبح روح هذه العذراء عينها ساطعًا بأنوار الحكمة السميا».

نيكولاس كاباسيلاس

لاهوتيٌّ علمانيٌّ من القرن الرابع عشر. وقد أدرك أنّ مريم، هي، بامتيازٍ، من تحيا في المسيح، بلا انقطاعٍ، حياةً باقيةً، في حومة أمواجٍ تصطخب بها حياةٌ فانيةٌ.

١ - البشارة

لم تكن العذراء مثل التراب الذي استخدمه الله لصنع الإنسان، مادَّةً لا إرادة لها. بل هي صنعت بنفسها ما اجتذب إلى الأرض المبدعَ، شخصيًّا، وحرّكت اليد الخالقة. أعني بذلك حياتها المنزّهة من كلّ لوثةٍ، الكلّيّة القداسة، القائمة على نبذ كلّ شرٍّ، وعلى ممارسة جميع الفضائل، على نفسٍ أطهر من النور، وجسدٍ كلّه روحٌ، أشدّ إشعاعًا من الشمس، وأنقى من السماء، وأكثر قداسةً من عروش الشيروبيم، وروحٍ يرتقي حتّى العلى، ويحلّق أعلى من أجنحة الملائكة؛ وعلى حبٍّ لله يستوعب كلّ رغبات النفس، وعلى امتلاكٍ لله، واتّحادٍ به يتخطّيان العقل المخلوق. لقد جهدت، نفسًا وجسدًا، معًا، في سبيل بلوغ جمالٍ استلفتت به أنظار الله، وأغنت، بسناها، الطبيعة البشريّة. فتنتُها اجتذبت من لا عهد له بانفعالٍ، وذاك الذي كان الإنسان، بخطيئته، قد نأى عنه، صار إنسانًا بسبب العذراء.

لو لم تكن العذراء قد أحسنت التأهّب، لما ألقى الله على الإنسان نظرة عطفٍ، ولما ارتضى النزول إليه، حيث ليس من يرحّب به ويُعدّ مجيئه. ولو لم تكن العذراء قد آمنت ووافقت، لما تحقّقت مشيئة الله من أجلنا...

ما دامت العذراء تستجلي كيف ستصبح أمًّا، لم ينزل اللّه. ولكن، عندما رآها خاضعةً، مستجيبةً لدعوته، تحقّق السرّ في الحال، فارتدى اللّه جسدًا بشريًّا، والعذراء أمست أُمّ الخالق. لم يُخطر اللّه آدم عندما عزم على استلال حوّاء من جنبه، بل حرمه من الشعور؛ في حين هو شرع بإخطار العذراء، وانتظر فعل إيمانها، قبل مباشرة عمله الخلاصيّ. لمّا خَلَق آدم، توجّه إلى ابنه قائلاً: «فلنصنع الإنسان». ولكن عندما تعيّن أن يُدخل إلى العالم هذا المشير الرائع، ابنه البكر، ويصوغ آدم الثاني، أشرك العذراء في مخطّطه. هذا القرار الخطير، أصدره اللّه، وأقرَّته العذراء. تجسُّد الكلمة لم يكن، فقط، عمل الآب وقدرته، وعمل الروح القدس، لم يكن فقط عمل الآب الذي قرّر، والروح الذي حلّ، وقدرة الآب الذي ظلّل العذراء، بل كان، أيضًا، عمل مشيئة العذراء وإيمانها. ومثلما كان يتعذّر تحقيق هذا المخطّط إلاّ باتّفاق الأقانيم الثلاثة، كذلك لم تكن لتتحقّق المشيئة الإلهيّة، بمعزلٍ عن موافقة المنزّهة من الدنس، وعن إيمانها.

عندما أبلغ اللّه العذراء، على هذا النحو، وأقنعها، جعل منها أُمّه، واستعار جسد امرأةٍ واعيةٍ، موافقةٍ. ومثلما هو حُبِل به، لأنّه شاء ذلك، كذلك مريم حملت طوعًا، وأصبحت أُمًّا بقرارٍ حرٍّ. لقد اختيرت للإسهام في مخطّطات اللّه، ولكنّها لم تكن مجرّد أداةٍ فاقدة الإرادة، بين يدي المبدع، بل إنّها تبرّعت بنفسها، وأضحت معاونة اللّه من أجل العناية بالجنس البشريّ، ومن ثمّ شريكةً في ما سينشأ عن ذلك من مجدٍ.

ثمّ، مثلما أنّ المخلّص لم يكن، فقط، إنسانًا، وقريبًا من الإنسان بالجسد، بل، أيضًا، بالنفس، والعقل، والإرادة، وكلّ ما هو للإنسان، كذلك كان لا بدّ من أن تكون له أُمٌّ كاملةٌ، تُعدّ ولادته لا بالجسد فحسب، بل، أيضًا، بالروح، والإرادة، وكلّ كيانها، بحيث تكون العذراء أُمًّا له بالجسد والنفس، وتؤتي بولادتها التي تستعصي على الوصف، الإنسان كلّه.

والجدير بالإعجاب فوق كلّ شيءٍ هو أنّ العذراء وجدت ذاتها، في الحال، متأهّبةً لسرٍّ لم يكن لها به علمٌ سابقٌ، إذ تلقّت، بسجوّ نفسٍ، الإعداد واليقظة الخليقَيْن بمجيء اللّه المباغت. قالت: «ها إنّي أَمَة الربّ»، وتلت النتيجةُ القولَ: «وصار الكلمة جسدًا وسكن بيننا». حالما أعطت اللّه كلمتَها، تلقّت الروح الذي صاغ فيها

جسدًا تسكنه الألوهة... كلمة الآب تكوّنَ بناءً على كلمة الأمّ، والخالق خُلق، بناءً على كلمة الخليقة. وكما يقول الله: «فليكن نورٌ»، تفجّر النور في الحال، كذلك، حالما تكلّمت العذراء، وُلد النور، واتّحد بالجسد، وحُبل به في أحشائها ذاك الذي «بمجيئهِ إلى العالم أنار كلّ إنسانٍ». يا للصوت المقدّس، ولا لقدرة هذه الكلمة! يا للّسان السعيد الذي يدعو بغتةً الأرض كلّها! يا لكنز القلب الذي يسكب علينا، بكلماتٍ معدوداتٍ، فيضًا من الخيرات! هذه الكلمات جعلت من الأرض سماءً، وانتزعت من الجحيم أسراها، وهيّأت السماء لسكن البشر، ووحّدت الملائكة والبشر، وجمعت السماء والأرض في جوقةٍ واحدةٍ، حول من ينتمي إلى كلتيهما، ذاك الذي وافى من السماء إلى الأرض، ساكن السماء الذي أصبح من سكّان الأرض!

٢ - الانتقال

لقد أبدعت العذراء سماءً جديدةً، وأرضًا جديدةً. لا بل إنّها، هي ذاتها، أرضٌ جديدةٌ، وسماءٌ جديدةٌ. إنّها أرضٌ، لأنّها استمدّت من الأرض منشأها؛ وهي أرضٌ جديدةٌ، لأنّها لا ترتبط بالأرض بوشائج أجدادها، ولم ترث من الخميرة العتيقة، بل هي، على حدّ قول بولس الرسول «عجينةٌ جديدةٌ»، ومبدأ جنسٍ جديدٍ. ومن يجهل أنّها سماءٌ؟ ولكنّها سماءٌ جديدةٌ، لأنّها لم تعهد الشيخوخة، هي التي قهرت الفساد، ولأنّها أمس، ودائمًا، وحتّى اليوم الأخير، قد أُعطيت للبشر، حسب الوعد الإلهيّ الذي أعلنه أشعيا: «سأهبكم سماءً جديدةً، وأرضًا جديدةً».

من البشر الذين وُجدوا منذ بدء الأزمنة، هي وحدها ولجت إلى الهيكل، وقدّمت ذاتها، مسبّقًا، ضحيّةً فدائيةً عن العالم أجمع... قبل المخلّص دخلت إلى الهيكل كي تقدّم ذاتها للآب. بموته على الصليب أجرى يسوع مصالحةً كاملةً بين الله والبشر. ولكنّ العذراء، بتقديم ذاتها لله، ساهمت مساهمةً جُلّى في هذه المصالحة، مجتذبةً الوسيط إلى البشر، وجاعلةً من رسول الله أخًا لجميع الذين من أَجلهم تشفّع لدى الله، عادًّا إيّاهم خاصّته...

وُلدت من بشرٍ، وشاركت في جنسنا جميعًا. ولكنّ نفسها، على نقيض نفوسنا، لم تغرق في رذيلةٍ متأصّلةٍ، بل إنّها تصدّت للخطيئة، وقاومت فسادنا، ووضعت حدًّا لخبثنا...

جسدها كان «جسدًا روحيًّا»، على حدّ قول القدّيس بولس. فالروح الذي حلّ فيه أطاح بكلّ سُنَن الطبيعة. وفضلاً عن ذلك، امتلكت العذراء الطوباويّة، إلى أقصى مدًى، قدرة القدّيسين على عدم صرف فكرهم عن الله. فهم إذ يلتصقون بالمرغوب فيه فوق كلّ شيءٍ، بكلّ طاقات رغبتهم، وإذ يتأمّلون الكائن الحقّ بكلّ قوّة ذهنهم، لا يسعهم الالتفات نحو هدفٍ آخر، ولو كان مرئيًّا. وقد أوتيت العذراء هذه الحظوة، على نحوٍ يستعصي على الإدراك والوصف، فتقبّلت الله تقبّلاً منقطع النظير.

ويتّضح بجلاءٍ أنّها، حتّى في حياتها الأرضيّة، حظيت بنعمةٍ فائقةٍ، وبخيرٍ أسمى أهّلاها للتمتّع، منذ هذه الدنيا، بالخيرات المستقبليّة، وللدخول، دخول ملكةٍ، ومنذ هذه الأرض، إلى الملكوت المخصّص للأبرار. فقد كانت تحيا حياةً كامنةً في المسيح، حياةً باقيةً وسط انسياب الأشياء. وكان لا بدّ من أن تنعم العذراء المغبوطة بهذه الحياة الجديدة، فقد تهاوت أمامها كلّ سُنَن الطبيعة. هذه الحُظوة هي التي أشارت إليها في النشيد الذي به أشادت بالامتيازات التي خصّها الله بها، فقالت: «لقد صنع لي القدير عظائم».

(Guiraut RIQUIER)

منشدٌ جوّالٌ، (تروبادور) توفّي حوالي العام ١٢٩٢

حبٌّ عذريٌّ، يستبعد الغيرة

في الماضي، غالبًا ما خطر لي أن أُنشد الحبّ، ولكنّني ما كنت أعرفه، وكنت أُسمّي جنوني حبًّا. ولكن الحبّ جعلني، الآن، كلفًا بسيّدةٍ لن أوفيها، يومًا، حقّها من الإجلال والتكريم، ولن أقوى على حبّها كما تستأهل... جمالها من العظمة بحيث لا شيء ينال منه. ولا نقصُ فيه، بل هو يتألّق ليل نهار... لا تأخذ بي الغيرة ممّن يحاول أن يحبّ تلك التي أُحبّها، بل إنّني أجد في حبّه لها متعةً كبرى. أمّا الذي لا يتنازل إلى حبّها فهو لا يروقني، فإنّني راسخ اليقين بأنّ كلّ خيرٍ ينبع من حبّها. وإنّني لأرجو سيّدتي أن تحمي محبّيها بحيث يظفر كلٌّ منهم بما يرغب فيه...

ليست الأشهر الحارّة أو الباردة، ولا المواسم المعتدلة التي تتفتّح فيها الزهور هي

التي تدفعني إلى إنشاد الحبّ الكامل للسيّدة التي أحبّها حبًّا كاملاً. إنّني أُنشد لها في كلّ موسمٍ، وكلّما طاب لي الإنشاد، فالتي أعشقها هي المثلى، وهي أعذب كائنٍ وُجد، يومًا. وأرجو أن تشيع فيّ الفرح، مع أنّني لم أخضع لها، بعد، خضوعًا كاملاً.

لستُ، بعدُ، خاضعًا لها خضوعًا كافيًا، إذ ما برحت الأفعال القبيحة تراود ذهني. ومن ابتغى الظفر بعون سيّدتي، يتعيّن عليه ألاّ يستمرئ أيّ شرٍّ، فالشرّ لم يجُل، يومًا، ببالها. وعندما أتبيّن أفعال عطفها الكبرى، والشرف العظيم والفريد الذي أولتني إيّاه، وعندما أذكر أنّها تريدني خادمًا لها، عليّ أن أُخضع لها قلبي.

عليّ أن أُخضع قلبي لكي لا تقودني إرادتي المجنونة إلى ارتكاب أيّ خطأٍ بحقّ الجميلة التي أُجلّها. فإن هي أحبّتني لغمرتني بالخيرات... وكلّ إنسانٍ يحظى بحبّ سيّدتي يتعلّم السلوك بتهذيبٍ وصدقٍ... فلتسأل سيّدتي من يوجّه إليه المحبّون الكاملون صلواتهم، أن يجعل منّي محبًّا كاملاً.

الشاعر الإيطاليّ «دانتي» (١٢٦٥– ١٣٢١)

بعد توما الأكوينيّ، قمّة اللاهوت، «دانتي»، قمّة الشعر الشامخة في القرون الوسطى، قمّةٌ يغلّفها نورُ لاهوتٍ أصبح شعرًا، ونشيدًا، و«حبًّا يحرّك النهار والنجوم».

من مأثرته الخالدة: «الكوميديا الإلهيّة»، نقتطف الأبيات التالية، حيث يصف الشاعر انخطافه إلى السماء التاسعة، توّاقًا إلى الرؤيا الفائقة، وكان مرشده، في هذه الرحلة، القدّيس بيرنار الذي أراه الفردوس وردةً تتبوّأ العذراء وسطها، وأراه بعض القدّيسين:

أنظر، أمام بطرس، حنّة جالسةً،

تضجّ حبورًا بتأمّل ابنتها...

ثمّ التمس القدّيس بيرنار من العذراء أن تهب الشاعر الرؤيا الفائقة، فأنشد لها:

«أيّتها الأُمّ العذراء، ويا ابنة ابنها،

أيّتها المتواضعة التي تعلو فوق كلّ خليقةٍ،...

بكِ بلغت الطبيعة البشريّة من النبل،
ما لم يأنف، معه، الخالق أن يصير خليقةً.
وفي أحشائك اضطرم، من جديدٍ، الحبّ.
الذي أنبتت حرارته، في السلام الأبديّ،
هذه الزهرة السماويّة...
أنتِ، هنا، من أجلنا، توقدين شعلة المحبّة،
وبين المعرَّضين هناك للموت، أنت نبع رجاءٍ حيٍّ.
أيّتها السيّدة، إنّك من العظمة والقدرة،
بحيث إنّ من يرغب في نعمةٍ، ولا يلجأ إليك،
إنّما يداعب رغبةً لا جناح لها، به تطير.
وعطفكِ لا يقتصر على الاستجابة لمن يستغيث به،
بل إنّه، غالبًا يستبق الطلب، بسخاءٍ.
فيكِ، أيّتها الرحمة، فيكِ أيّتها الرأفة، فيكَ أيّها السخاء،
يتجمّع كلّ ما لدى الخليقة من طيبةٍ.
وها إنّ هذا (الشاعر دانتي)، الذي من أعماق هاوية الوجود حتّى هنا،
قد شاهد مصائر النفوس، نفسًا نفسًا،
يتوسّل نعمتكِ أن توهّله لرفع عينيه، أعلى فأعلى، نحو الخلاص الأسمى.
فبصلواتكِ بدّدي جميع غيوم ضعفه البشريّ.
واحسري له الحجاب عن الفرح الأقصى.
وأرجوكِ، أيّتها الملكة القادرة على تحقيق ما أَطلب،
أن تُبقي رغباته طاهرةً، بعد أن ينعم بهذه الرؤيا،
وأن تنصريه على أهوائه البشريّة.

الشاعر الإيطاليّ بترارك (١٣٠٤– ١٣٧٤)

لقد تبوّأت مريم مكانًا رحبًا في حياة هذا الشاعر، وفي أعماله. ومن أشهر قصائده فيها «الأنشودة الثامنة: العذراء الجميلة المرتدية الشمس»، التي نظمها وهو يحبو صوب أجله. وفيها يسأل المرأة التي وصفها سفر الرؤيا (١٢:١) أن تحرّره من حبٍّ خائبٍ. وهذه مقاطع منها:

«أيّتها العذراء الجميلة، المرتدية الشمس والمتوّجة بالنجوم، والتي راق لمن هو الشمس العظمى، أن يخبئ فيك نوره، إنّ الحبّ الأكبر يحدوني إلى التحدّث إليك، ولكنّني لست أعرف كيف أَبدأ، بمعزلٍ عن عونك، وعون من استقرّ فيك حبّه...

أيّتها العذراء الحكيمة، وإحدى العذارى الفطنات الطوباويّات، بل أولاهنّ، أنت التي مصباحها دائمًا مضاءٌ، وهو الأشدّ إشعاعًا، يا درع المحزونين المنيعة في مواجهة ضربات الموت والقدَر، والتي، بحمايتها، ننال الظفر، فضلاً عن الخلاص... أيّتها العذراء، صوّبي تَيْنك العينين الجملتين اللّتين شهدتا، بأسًى، الجراح التي أُثخنت بها أعضاء ابنك الحبيب، نحو ما يهدّد بالوبال مصيري، فأنا آتٍ إليك متردّدًا، ملتمسًا نصحًا...

أيّتها العذراء القدّيسة، المملوءة بكلّ النعَم، التي، بإنسانيّةٍ حقّةٍ وفائقة السموّ، صعدت إلى السماء، ومنها تسمع صلواتي، لقد ولدتِ نبعَ الرأفة وشمس العدل، الذي يشيع الطمأنينة في القرون المترعة فظائع قاتمةً وصفيقةً.

إنّك تجمعين، في ذاتك ثلاثة أسماءٍ عذبةٍ وعزيزةٍ: أمٍّ، وابنةٍ، وزوجةٍ.

أيّتها العذراء المجيدة، يا زوجة الملك الذي حطّم قيودنا، وجعل العالم حرًّا وسعيدًا، بحقّ جراحه المقدّسة أتوسّل إليك، أيّتها المحسنة الحقّة، أن تُفرحي قلبي.

أيّتها العذراء المتألّقة، والثابتة في الأبديّة، يا نجمة بحرٍ عاصفٍ، يا دليلاً كونيًّا أمينًا، وقبطانًا ماهرًا، انظري أيّ إعصار يتقاذفني، وأنا لا دفّة بين يديّ، وأكاد أطلق صرخة الهلاك. غير أنّ نفسي تثق بك.

أيّتها العذراء، كم من الدموع قد سفحت، وكم من التوسّلات والأَدعية أطلقت سُدًى، ولم أصب منها سوى مزيدٍ من الكرب والضُرّ... إنّ الجمال الفاني، والأقوال

والأفعال، قد دمّرت نفسي. فيا أيّتها العذراء القدّوسة السامية لا تتلكّئي في إنقاذي، فأنا، ربّما، في سنتي الأخيرة.

أيّتها العذراء، إنّها، الآن، ترابٌ، وقد فجعت قلبي، تلك التي، وهي على قيد الحياة، لم تأتِه إلاّ بالدموع، ولم تتبيّن سببًا واحدًا من أسباب آلامه... والآن، أنتِ، يا سيّدة السماء، أنتِ يا ألوهتنا - إن ساغ التكلّم على هذا النحو - أيّتها العذراء بأسمى معنًى، ترين كلّ شيء، وما يعجز عنه الآخرون كأنّه لا شيء أمام قدرتك الفائقة، أنهى أَلمي، وسيكون في ذلك مجدك وخلاصي...

أيّتها العذراء العطوف، ويا عدوّة الكبرياء، وبحقّ حبّ مبدئنا المشترك، ارأفي بقلبٍ متواضعٍ ونادمٍ؛ فإن أنا ما زلت أُحبّ، بوفاءٍ رائعٍ، حفنةً من ترابٍ فانٍ، فما عساني أفعل من أجلك؟ إن أنا بيديك نهضت من وضعي البائس الذليل، أيّتها العذراء، فإنّي سأكرّس لاسمك، وسأطهّر أفكاري، وعبقريّتي، وأسلوبي، ولساني، وقلبي، ودموعي، وتأوّهاتي، فقوديني إلى معبرٍ أفضل، وتقبّلي، بحنانٍ، عواطف ارتدادي...

... وأَوصي بي ابنك، الإنسان الحقّ، والله الحقّ، لكي يرحّب بي، بسلامٍ، عندما أَلفظ نفَسي الأخير.

نوح العذراء

(مؤلِّفٌ مُغفَلٌ من القرن الرابع عشر)

نَوْحي أكبر من كلّ نوْحٍ، وأَلمي أكبر من كلّ أَلَمٍ. السماء والأرض فقدتا ربّهما، وأنا فقدت ابني، والشمس فقدت ألقها...

أمرٌ لا أقوى على فهمه ولا على إدراكه: فمن جاء كي يخلّص العالم، خالق الكون والأحياء جميعهم، يُقتل، تحت عينيّ، على نحوٍ مخزٍ. إلهي! يا له من ألمٍ قاتلٍ!

لا بدّ من قلبٍ مفرط القسوة لحبس دموع النحيب لدى رؤية الربّ معلّقًا فوق صليبٍ، وللتجرّؤ على الحكم بالعذاب على ابن الله، يا الله! يا له من ألم قاتلٍ!

يا سادة، ويا سيّدات، يكاد قلبي يتفتّت؛ وأنا أشهد ابني على الصليب يعاني سكرات الموت، تحت أَنظاري. إنّ ألمي أكبر ممّا يمكن وصفه، لو استطعت لَمُتّ معه. يا اللّه! يا له من ألمٍ قاتلٍ!

جان دومينيتشي (١٣٥٧– ١٤١٩)

Jean DOMINICI

(شاعرٌ وعالمٌ دومينيكيٌّ – أصبح رئيس أساقفة راكوز (Raguse)

«خبّرينا، يا مريم العذبة، بأيّ حبٍّ
رمقتِ طفلكِ، المسيح، إلهي،
بعد أن وضعته بلا ألمٍ.
أظنّ أنّ ما فعلتِه، أوّلاً،
هو أنّك عبدتِه، أيّتها الممتلئة نعمةً!
ثمّ، على القشّ، في المذود، أضجعتِه،
ولففتهِ بأقمطةٍ زريّة،
وأنتِ تتأمّلينه، وتتهلّلين.

يا لفرحكِ، ويا لسعادتك،
وأنتِ تمسكينه، بين ذراعيك!
خبّريني، يا مريم، فقد يكون من اللائق،
ولو إشفاقًا عليّ، أن تروي فضولي، بعض الشيء.
لقد كنت تقبّلين محيّاه،
وأَظنّ أنّك كنت تخاطبينه قائلةً: «يا طفلي»
وتدْعينه تارةً «يا ابني»، وتارةً: «يا أبي، وربّي».
حينًا تسمّينه اللّه، وحينًا يسوع.

وأيّ حبٍّ عذبٍ كان يفعم قلبك،
عندما كنت تحتضنينه، وترضعينه!
وأيّة إشارات حبٍّ حلوةٍ
كانت تفتن ناظريك، وأنت ترمقين ابنك!
وإن هو، في أثناء النهار، كان يستسلم إلى شيءٍ من الإغفاء.
وودتِ إيقاظ كنز الفردوس هذا،
كنت تسيرين بخطًى خافتةٍ، خافتةٍ، لكيلا يسمع نأمتها،
وتحطّين فمك على محيّاه،
وتقولين له، ببسمة الأُمّ:
«كفاك نومًا، لئلاّ يصيبك أَذًى».

يا ابنة الآب العليّ،
يا أمَةَ الربّ المتواضعة،
إنّه، هو، بتُقًى بالغٍ، دعاك «أمّاه».
إنّ مجرّد هذه الفكرة، يذيب قلب
من تلمسه شرارةٌ رقيقةٌ
من ذلك الحبّ الذي أَنأى، دائمًا، عنه.

امضِ، يا نشيدي، صوب مريم، محاميتنا الغالية،
واجثُ أمامها، وتوسّل إليها من أجلي،
لكيلا تضنّ عليّ بابنها،
الذي لم يرفض، لها يومًا، طلبًا، ولا يرفض لها أبدًا، طلبًا.
وقل لها: «أرجوكِ، أمسكي بمن ينأى أبدًا عنكِ،
أَمسكي به إلى الأبد».

برناردينو السييناّوي (٨ أيلول ١٣٨٠– أيّار ١٤٤٤)

واعظٌ فرنسيسكانيٌّ، كان يجوب، بلا هوادةٍ، ولا كللٍ، ساحات إيطاليا، محدّثًا الشعب بلغةٍ بسيطةٍ. يلاحظ أنّه رأى النور يوم مولد العذراء، وتوفّي في شهر أيّار:

أقوال مريم السبعة

«لم ينقل لنا الإنجيل سوى سبعة أقوالٍ تلفّظت بها أُمّ المسيح المباركة، ولكأنّه يبتغي أن يظهر لنا أنّها كانت ممتلئةً بنعمةٍ سباعيّةٍ.

فمع الملاك لم تتبادل سوى عبارتين:

– كيف يمكن أن يتمّ هذا... (لوقا ١: ٣٤)

– ها إنّي أمَة الربّ... (لوقا ١: ٣٨)

ومع إليصابات تبادلت قولين، أيضًا: الأوّل لتحيّتها، والآخر لتسبيح الربّ، بقولها «تعظّم نفسي الربّ...» (لوقا ١: ٤٦)

ومع ابنها تبادلت قولين: الأوّل في الهيكل: «لم صنعتَ بنا هكذا؟»... (٢: ٤٨) والثاني في عرس قانا: «لم يبقَ عندهم خمر» (يوحنّا ٢: ٣)

وللخدم قالت قولاً واحدً: «افعلوا كلّ ما يقول لكم» (يوحنّا ٢: ٥)

في كلّ الأحوال كانت مقلّةً في الكلام، إلاّ عندما استرسلت في تسبيح اللّه وشكره، هاتفةً: «تعظّم نفسي الربّ، وتبتهج روحي بإله خلاصي...» ولكنّها، حينئذٍ لم تكن تحدّث إنسانًا، بل كانت تخاطب اللّه.

هذه الأقوال السبعة تلفّظت بها، وفق أفعال الحبّ السبعة، بتدرّجٍ ونظامٍ رائعين، وكأنّها سبع شعلاتٍ متفجّرةٍ من موقد قلبها. وإنّ النفس المحبّة التي تتأمّل هذه الأقوال وتجترّها، تهتف مع النبيّ: «ما أعذب قولك في حلقي! هو أحلى من العسل في فمي» (مزامير ١١٩: ١٠٣)..

فلنميز، بالتسلسل شعلات الحبّ السبع في أقوال العذراء المباركة:

– الأولى هي شعلة الحبّ المفرِّق.

- الثانية هي شعلة الحبّ المحوِّل
- الثالثة هي شعلة حبّ التواصل
- الرابعة هي شعلة الحبّ المتهلّل
- الخامسة هي شعلة الحبّ المتذوّق
- السادسة هي شعلة الحبّ المتعاطف...
- السابعة هي شعلة الحبّ الحارق.

الشعلة الأولى هي شعلة الحبّ المفرّق، فطبيعة الحبّ الحقيقيّ هي الابتعاد عمّا هو مخالفٌ للمحبوب... هذا الابتعاد يتجلّى في كلمة العذراء الأولى: «كيف يكون هذا، وأنا لا أعرف رجلاً؟»

الشعلة الثانية هي شعلة الحبّ المحوّل الذي يحوّل، تحويلاً فائقًا، المحبّ والحبيب. ومع أنّ هذه الشعلة هي، جوهريًّا، الأولى، إلاّ أنّها الثانية، في اكتمال التجربة، إذ إنّ ملء الشعور بها، وامتلاكها فعليًّا لا يتحقّقان، إلاّ بعد أن يتمرّس المرء، تمرّسًا كاملاً، من إقصاء، أو مقت كلّ ما من شأنه مقاومة أو إعاقة امتلاك المحبوب بالكامل، بكلّ رقّته ورضاه. هذه الشعلة تتفجّر في قول العذراء الثاني، وفي موافقتها على حمل ابن الله، وفي إعلانها للملاك:

- «ها إنّي أمَة الربّ. فليكن لي بحسب قولك».

هذا الاتّحاد المحبّ بين النفس والله نفسه، ينبغي أن يتحقّق في التواضع التامّ، والخضوع، والتأهّب والخدمة، أي في الاندفاع في كلّ شيءٍ. ولذلك بدأت العذراء بإظهار ذاتها لله على هذا النحو:

«ها إنّي أمَة الربّ»، إذ عليها أن تكون، في آنٍ واحدٍ، مليئةً خشيةً وثقةً، وأن ترغب في رقّةٍ وإلحاحٍ. وذلك، لا تجاوزًا للقياس الذي حدّده لها الربّ، ولا تخاذلاً دونه. ولذلك أضافت: «فليكن لي حسب قولك»...

«تذكّري»

(هذه صلاةٌ نُشرت في القرن الخامس عشر، مثبّتةً تقليدًا قديمًا، كان يقطن جميع الذاكرات، ويفجّر دفقًا من الرجاء، وأفعال الشكر):

«تذكّري، أيّتها العذراء مريم الكلّيّة الرحمة، أنّه لم يُسمع قطّ أنّ أحدًا ممّن التجأوا إلى حمايتك، والتمسوا عونك، وطالبوا بأزرك، قد أهمل. وإذ يحدوني مثل هذه الثقة، يا عذراء العذارى، يا أمّي، أجري نحوك، وأنتحب، رازحًا تحت وقر خطاياي، وأجثو عند قدميك. فيا أمّ الكلمة، لا تزدري صلواتي، بل تقبّليها تقبّلاً حسنًا، وتنازلي، فلبّيها. آمين».

(وكان القدّيس يوحنّا الدمشقيّ قد أَدلى بصلاةٍ مماثلةٍ، إذ قال):

«أنت يا مريم التي تُسمع دائمًا شفاعتها، وتلبّى، دائمًا، صلاتها... هلاّ تساعدينا على فعل الخير، وتجنّب الشرّ...، وبلوغ اللّه العليّ».

(وفي صلوات يونانيّة تعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والعاشر، هذا النصّ:)

«من ذا الذي يلجأ إلى حمايتك، يا أمّ اللّه الدائمة البتوليّة،... ولا يظفر بانعتاقٍ سريعٍ من آلامه، ولا يجد لديك معاونةً قديرةً، وشفيعةً، وقلعةً حصينةً؟ فيا أمّ اللّه المنزّهة من الدنس، يا عون المسيحيّين، تشفّعي من أجل خلاص من يكرّمونك».

«ليس أحدٌ يستغيث بك، ويعود خائبًا، أيّتها العذراء الطاهرة، وأمّ اللّه، بل كلّ من يلتمس النعمة يظفر بعطاءٍ يوافق حاجته».

مارتن لوثير (١٤٨٣– ١٥٤٦)

Martin LUTHER

إنّه مؤسّس الحركة الإصلاحيّة، المعروفة بالبروتستانتيّة. عن الحبل بالعذراء بلا دنسٍ قال:

«لم توجد أمرأةٌ في مثل قداستها، ولم توجد ولن تأتي امرأةٌ مباركةٌ مثلها، فتلد ثمرة بطنها، فما من امرأةٍ أُخرى حبلت بمعزلٍ عن الشهوة والخطيئة.

ثمّة اعتقادٌ تقويٌّ بأنّ الحبل بها، أي أنّ إنبثاق نفسها فيها قد تمّ بمنأًى عن أيّة

خطيئةٍ، إذ إنّها في لحظة بثّ نفسها فيها نُظّفت مريم من الخطيئة الأصليّة، وزُيّنت بهبات اللّه، لكي تتلقّى النفس المقدّسة التي بُثّت فيها. ومن ثمّ، ففي اللحظة عينها التي بدأت، فيها، حياتها الخاصّة، كانت منزّهةً من كلّ خطيئةٍ. وهذا ما عبّر عنه قول الملاك (لوقا ١:٢٨) «مباركةٌ أنتِ بين النساء» إذ لم يكن بوسعه أن يصفها بالمباركة لو أنّها كانت تحت اللعنة. وكان من الحقّ والعدل أن تصان من الخطيئة تلك التي سيستمدّ منها المسيح جسدًا يقهر به الخطيئة. ويُقال عنه مباركًا، بالمعنى الصحيح، ما وُهِبَ بنعمةٍ إلهيّةٍ، أي ما نُزّه من الخطيئة».

وفي كتابه عن نشيد العذراء، في أثناء زيارتها لإليصابات، علّق على قولها: «إنّ القدير صنع فيّ عظائم»:

«ما هذه «العظائم» سوى كونها أصبحت أمّ اللّه. ففي هذا الفعل تلقّت خيراتٍ من الوفرة والعظمة بحيث يتعذّر إدراكها؛ وهي مصدر كلّ شرفٍ وكلّ سعادةٍ، ولهذا السبب أمست كائنًا فريدًا في الجنس البشريّ بأسره، كائنًا يسمو فوق الجميع، ولا يعادله أحدٌ. فهي تشترك مع الآب السماويّ في ابنٍ، ويا له من ابنٍ! هي نفسها لا تستطيع أن تطلق عليه اسمًا، فعطيّة اللّه هذه على جانبٍ جمٍّ من العظمة والوفرة. فعليها أن تكتفي بفيض الحميّة والورع. هذه العظائم تستعصي على التعبير والقياس. ولذلك توجز كلّ عظمتها في وصفها بأنّها أمّ اللّه. وليس بوسع أحدٍ يتحدّث عنها، أو يخاطبها، أن يصفها بأعظم من هذا الوصف، حتّى لو امتلك من الألسن بقدر أوراق الأشجار والأعشاب، ونجوم السماء ورمال البحر. ولا بدّ من استقصاء معنى أمّ اللّه بخشوعٍ عميقٍ.

وهي تعزو كلّ ذلك إلى نعمة اللّه، لا إلى استحقاقها، فمع كونها منزّهةً من الخطيئة، إلاّ أنّ تلك النعمة هي من السموّ الفائق، بحيث لم تستأهلها. إذ كيف لخليقةٍ أن تستأهل كونها أُمًّا للّه؟»

وعن كونها العذراء دائمة البتوليّة يقول لوثير:

«كان على المسيح ألاّ يُحبَل به وألاّ يولَد في الخطيئة مثل سائر أبناء آدم. ولذلك كان لا بدّ من أن تكون أمّه عذراء لم يمسّها رجل. فحتّى الأرملة التي سبق لها الاقتران برجلٍ، كان من شأنها نشر الخطيئة الأصليّة... ولذلك كان من الضروريّ أن

تكون أمّ المسيح عذراء، عذراء بكرًا فتيّةً، عذراء قدّيسةً، مفتداةً، ومنزّهةً من الخطيئة الأصليّة، وهي التي، بالروح القدس، لم تحمل أولادًا عديدين، بل ابنًا وحيدًا: يسوع، ثمرة بطنها، بلا أبٍ (بشريٍّ)».

القدّيس توما دي ڤيلّنيف (١٤٨٨- ١٥٤٣)

(St Thomas de Villeneuve)

واعظٌ ومؤلّفٌ فرنسيٌّ

١ - صمت الكتاب

«لقد تساءلتُ، بحيرةٍ، عن صمت الإنجيليّين الذين أسهبوا في الحديث عن يوحنّا المعمدان والرسُل، وتناولوا بكثيرٍ من الإيجاز، تناولاً خاطفًا، تاريخ مريم العذراء، التي تفوقهم، جميعًا، سيرةً وكرامةً. فعلامَ لم يزوّدوا ذاكرة البشر بمعلوماتٍ عن حملها، وولادتها، وتربيتها، وخصالها الرائعة، وسنى فضائلها، وعمّا فعلت، مع ابنها، بين البشر، وعن حياتها المشتركة معه، وكيف كانت حياتها، بعد صعوده، مع الرسل. إنّ تلك فعالٌ عظيمةٌ خليقةٌ بالذكرى، وبأيّة متعةٍ كان المؤمنون سيطالعونها، وكانت الشعوب ستتلقّاها!

أيّها الإنجيليّون، لمَ حرَمْنا صمتكم هذه البهجة؟ ولمَ حبس مصدر كلّ هذا الفرح، وهذه الرغبات، وهذه السعادة؟

من يستطيع أن يشكّ بأنّ خوارق كثيرةً قد طبعت ولادتها وطفولتها؟ ففي سنواتها الأولى، كانت تلك الفتاة الصغيرة معجزة القرون، وصرح كلّ الفضائل، ومع ذلك لا ذكر لشيءٍ من ذلك في الكتب القانونيّة... بيد أنّ اتّهام الإنجيليّين بالإهمال، فيه من الكفر بقدر ما فيه من القحة، ومع ذلك أظلّ حائرًا. فعلامَ لم تكن أفعال العذراء موضوع كتابٍ، كما كانت أفعال بولس؟ هل تلك كانت رغبة الروح القدس، ولا شيء سواها؟ هل هي العناية الإلهيّة التي ألزمت الإنجيليّين بالصمت، إذ إنّ مجد العذراء، كما نقرأ في المزامير، كان بأكمله داخليًّا، وإنّ إعمال الفكر فيه أسهل من التعبير عنه كتابةً؟

إنّ كلّ تاريخها يُختصر في ما قيل عنها: **منها ولد المسيح**. أليس هذا كافيًا؟ إنّها أمّ الله، وهذا حسبها. قولوا لي، بربّكم، هل من جمالٍ، وهل من قدرةٍ، وهل من نعمةٍ، وهل من مجدٍ، لا تتمتّع به أمّ الله؟ فأطلق لأفكارك العنان، ووسّع آفاق عقلك، واجعل من ذاتك إيقونةً داخليّةً للعذراء الأوفر طهرًا، وفهمًا، وجمالاً، وورَعًا، وتواضعًا، ورقّةً، وامتلاءً بالنعمة، وتمتّعًا بكلّ قداسةٍ، وتزيّنًا بكلّ الفضائل، وكلّ الكرامات، والتي نالت أعظم حظوةٍ لدى الله، زدها مديحًا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وبكلّ ما تملك من طاقةٍ أضف: العذراء هذه هي الكبرى، وهي الأسمى. فائقةٌ هي العذراء، لم يصفها الروح القدس حرفيًّا ولكنّه ترك لك مهمّة رسمها في نفسك، لكي تدرك أنّها لم تفتقر إلى أيّة نعمةٍ، أو أيّ كمالٍ، أو أيّ مجدٍ يمكن تخيّله في مخلوق.

ثمّ إنّ واقعها يتخطّى كلّ فهمٍ. وحيث الكلّ ماثلٌ، فلا ضرورة للكتابة عن الجزئيّات، لكيلا يظنّ أحدٌ أنّها تفتقر إلى ما لم يُقَل عنها. وإن كان الله الكليّ القدرة، قد زيّن خادمات بيته وخدّامه زينةً رائعةً، وإن كان أضفى عليهم فيضًا من المواهب والنعم، فهل يمكن تخيّل ما صنعه لأمّه... التي اختارها بين كلّ النساء، وأحبّها أكثر من جميعهنّ؟

إنّ كلّ ما ترغبون في معرفته أو فهمه عن العذراء، تجدونه في ثنايا هذا القول الموجز: تلك التي منها وُلد يسوع. هذه هي سيرتها كاملةً وبكلّ إسهاب: عن العذراء مريم ينبغي الاقتصار على قول إنّها أمّ الله».

٢ - جعلها جديرةً بحمل الله

«لكي تُؤهّل الأرض لحمل الله وتلَقّيه، أوجد الله على الأرض كائنًا فريدًا وفائقًا، لم يشترك في خطيئة العالم، وازدان بجمٍّ من الجمالات والامتيازات بحيث لم يرَ العالم ولن يرى أبدًا، لا على الأرض، ولا في السماء، من يضاهيه. لم تطلها الخطيئة عندما كُوّنت، وقُدّستْ منذ لحظة وجودها الأولى،... وثُبّتت في حالة براءةٍ وعجزٍ عن الإساءة، وفي حالة نعمةٍ ليست كافيةً فحسب، بل هي غزيرةٌ، وليست غزيرةً فحسب، بل هي فائقةٌ، وعلى مستوًى من التفوّق بحيث لم يُشاهد، قطّ، في مضمار النعمة، ما يماثلها... ومع أنّها ولجت كالآخرين وادي الشقاء هذا، ولم

تلجْ فردوسًا أرضيًّا، ومع أنّ هذا المنفى هو موطنها، إلاّ أنّها لم تحمل أيًّا من ملامح النفي، ولكنّها حملت، في نفسها، نعمةً أعظم من تلك التي نُفحت، في الفردوس، لآدم، بصفته طليعة الطبيعة البشريّة، ولذريّته... نعمتها أنبل وأكثر أُلوهةً من النعَم التي ستتدفّق يومًا من ينابيع المخلّص المحتضر، ومن استحقاقات صليبه، وتبذّ قدرةً وكرامةً تلك التي في السماء، إذ إنّها تهدف إلى غايةٍ سميا، فهي لا تهدف إلى أن تجعل منّا قدّيسيّن، بل إنَّ هدفها هو صنع قدّيس القدّيسين، وصوغ الإنسان الله، وإقامة أُمٍّ لله في الكون، وهذه، كلّها، أمورٌ جديدةٌ ومعجزةٌ، حتّى في مضمار النعمة العجيب...

هذه النفس المقدّسة والإلهيّة هي، للكنيسة، ما الفجر لقمّة السماء، فهي تسبق الشمس، ولكنّها أكثر من فجرٍ، فهي لا تسبق الشمس فحسب، بل عليها أن تحمله وتلده للعالم، وتهب الخلاص، والنور، وتنتج مشرقًا، ليس المشرق الذي ينيرنا، إزاءه، سوى ظلٍّ وصورة... وُلدت بلا ضجيجٍ، ولم يتحدّث عنها العالم، ولكنّ السماء رنت إليها، وبجّلتها، لأنّ باري الكون أوجدها، من أجل غايةٍ عُظمى، ولكي تؤدّي له خدمةً جُلّى، أي لكي تُلبسه، يومًا، طبيعةً جديدةً، والله نفسه الذي يبتغي أن يولد منها، يحبّها ويحدّق إليها، تحديقه إلى أُمّه العتيدة. لم يُلقِ أنظاره، حينئذٍ، على العظماء، وعلى الملوك الذين تعبدهم الأرض، بل إنّ نظرة الله الأولى، والأشدّ رقّةً، تحطّ على تلك العذراء المتواضعة، التي تجهلها الأرض... إنّه يرنو إليها، ويحبّها، ويقودها، فهي التي يبتغي أن يهبها ذاته ابنًا، وأن يتّخذ منها لنفسه أُمًّا. إنّه يغدق عليها نِعَمه وبركاته، منذ تكوينها، ويقدّسها منذ صباها، يقصيها عن العالم، ويكرّسها لهيكله، رمزًا ودلالةً إلى تكريسها العتيد لهيكلٍ أرفع وأقدس. وهنا، في وحدتها، يحفظُها، ويحيطها بقدرته، ويحدوها بروحه، ويحدّثها بكلمته، ويرقى بها بنعمته، ويضيئها بأنواره، ويضرمها بغيرته، ويزورها بملائكته، ريثما يزورها بذاته، إنّه يملأ وحدتها، ويجعل تأمّلها ساميًا، وحديثها إلهيًّا، فتُعجَب بها الملائكة وتجلّ فيها ألوهةً تفوق إنسانيّتها. فالله، فيها، يعمل أكثر منها. فلا فكر لديها إلاّ بنعمته، ولا تحرُّك إلاّ بروحه، ولا عمل إلاّ بحبّه...

ثمّة تناغمٌ مقدّسٌ بين روح الله وروح مريم. بين فينةٍ وفينةٍ يسكب الله على تلك النفس نعمةً جديدةً، وهذه النفس تستجيب لها في الحال، وبكلّ طاقاتها. هذا

التوافق، وهذا التناغم التامّ، يغمرانها بفيضٍ من النعم، وهذه النِعم، في تلك النفس التي لا تني تتقدّم في سبُل الله، مع عظمتها، إن هي سوى معارج ترتقي بها إلى نعمٍ جديدةٍ. وهذه النفس النادرة، الفائقة، الإلهيّة، التي تحيا على الأرض، تفتن السماوات، وكان من شأنها أن تفتن الأرض، لو لم تحجب عنها الظُلمات رؤية هذا الشيء النادر؛ ولكنّها لن تلبث أن تفتن باري الأرض والسماء... إن كان على الله أن يولد، فمن مريم، بسبب وفرة نعمها وامتيازاتها. وإن كان على تلك العذراء المتواضعة أن تحبل وتلد، فهي ستحبل بالله وتلده، لأنّها موغلةٌ في التألّه. إنّها، على الأرض، سماءٌ حيّةٌ، معدَّةٌ لحمل شمسٍ حيّةٍ، وهي شمسٌ قائمةٌ في أعلى قبّة السماء. إنّها، على الأرض، مَقْدسٌ ملأه الله بالخوارق، ويودّ الاستراحة فيه، على نحوٍ قشيبٍ. إنّها فردوسٌ سماويٌّ مثل فردوس الملائكة الذي لا وجود له إلا في السماء، بل هو، على الأرض، فردوسٌ سماويٌّ غرسه الله بيده، ويحفظه الملاك من أجل آدم الثاني، من أجل ملك السماء والأرض الذي سيقيم فيه. ولكنّ ذلك خفيٌّ عن عينها، وفكرها الغارق في أعماق تواضعها، لا يرى مرامي الله بشأنها».

٣ - «كيف يكون هذا...»

«قالت مريم: «كيف يكون هذا، وأنا لا أعرف رجلاً؟» يا لخَفَرها الرائع! يا لكَلَفها الفائق بالعفّة! الملاك يعلنها أُمًّا لله، وهي قلقةٌ على بتوليّتها. إنّها ستتلقّى الله ابنًا، وطهرُها هو الذي يشغل بالها... كم كان عشقها للطهر المقدّس جمًّا! ولكن من أين جاءها هذا الكَلَف القدسيّ بالطهر، الذي لا عهد للعالم به؟ من لقّنكِ، يا مريم، هذا الخَفَر البتوليّ الذي يلقى لدى الله حظوةً كبرى؟ في أيّة مدرسةٍ تعلّمت أنّ الحفاظ على البتوليّة يفوق كلّ مجدٍ، بحيث قيّدتِ موافقتكِ على أن تكوني أُمًّا لله، بأن تظلّي أُمًّا عذراء؟

لم تعلّمكِ الشريعة هذا الدرس، ولم تستوحي مثاله من تقاليد الأقدمين.. لا مراءَ أنّ كلمة الله كان هو معلّمك، قبل أن يكون ابنك، واتّخذك تلميذةً قبل أن يتّخذك أُمًّا؛ وكان قد ملأ روحكِ، قبل أن تتلقّيه في أحشائكِ.

«لك، إذن، الأولويّة بين العذارى، أيّتها العذراء الملكيّة. أنت قائدتهنّ الأولى، ومعلّمتهنّ الأولى. أنت، نموذج البتوليّة، ومعلّمتها، كنتِ المؤسِّسة الأولى لهذا الدين

المقدّس... إنّ العذراء القدّوسة، أمّ الله، التي كانت رائدة هذا النهج، علّمته لأبناء آدم. كانت الأولى في تعليم البشر الحفاظ على العزوبة الكاملة، والحياة، في الجسد، حياة الملائكة، ومنافسة الأرواح السماويّة في مضمار الطهر. كانت الأولى في نذر بتوليّتها لله، وقد حرّض مثالها الآخرين على تقديم تضحيةٍ مماثلةٍ.

عذراء طاهرةٌ، عذراء فريدةٌ... إذ لم يحدث، قطّ، ألاّ تتعرّض عذراء لتخيّلاتٍ تشيع الاضطراب، وألاّ تعاني متاعب الجسد. حسبُ الأخريات التغلّب على التجارب، وعدم السقوط فيها. أمّا مريم فهي، بكاملها، عذراء: في جسدها، وفكرها، وروحها، في أنظارها وفي علاقاتها، في خواطرها وعواطفها، في أقوالها وأفعالها... عذراء كلّيّة البتوليّة، والطهر، والنقاء؛ ومن عمق البتوليّة بحيث «تُبتِّل» المحيقين بها، والذين يتأمّلونها. بتوليّتها، حسب قول النبيِّ، كانت تُنبت عذارى. إنّه لأمرٌ مدهشٌ، ونعمةٌ رائعةٌ! مع أنّها أجمل النساء قاطبةً، فهي تقدّس النفوس ولا تجرحها. ولكي أوجز رأيي في هذه العذراء أقول إنّ جسدها لم يكن جسدًا من لحمٍ ودمٍ بقدر ما كان بلّورًا فائق الصفاء، لا أثر فيه لكدَرٍ أو للوثةٍ... ولذلك راقت للعليِّ، فأحبّها أكثر من جميع مخلوقاته، واختارها لتكون أُمّه».

جان برتو (١٥٥٢– ١٦١١)

Jean BERTAUT

شاعرٌ فرنسيٌّ

إنّها تلك التي يدوم إيمانها أبديًّا،
إنّها تلك التي ليس لإيمانها مثيلٌ،
تلك التي إيمانها، من أجل خلاصنا،
صدّق صوت الملاك، فحملت من أُذنها!

إنّها الكوكب المشعّ الذي لا يخبو أبدًا،
حيث ترى السماء ذاتها، كما في مرآةٍ.
إنّها مسكن الله المتألّق، والمقام المقدّس،
حيث شاء الله أن يكرّس لنفسه هيكلاً.

إنّها القصر الملكيّ المفعم ضياءً،
الأشدّ طهرًا وشفافيّةً من السماء التي تحيق به.
إنّها الفردوس البهيّ المزروع صوب الشرق،
متعةً للسماء، ورجاءً للأرض.

إنّها الزهرة العطِرة، والطيب المتضوّع،
التي، بشذاها، تتعزّى نفوسنا.
إنّها البستان الخفيّ، الذي يبعث عطرًا عذبًا،
إنّها وردة الحقول، وزنبقة الوديان.
إنّها الغصن الذي يحتفظ، في كلّ آنٍ، بلونه،
غصن يسّى، النبتة الطاهرة المقدّسة،
التي تؤتي ثمرتها، ولا تفقد زهرتها،
التي ظلّت عذراء، ووجدت ذاتها حبلى.

جاكّ داڤي دو پيرّون (١٥٥٦– ١٦١٨)

Jacques DAVY DU PERRON

لاهوتيٌّ ودبلوماسيٌّ فرنسيٌّ

رقاد العذراء الأخير

عندما رقدت العذراء رقادها الأخير، وأغمضت عينيها،
ارتقى الملائكة الذين كانوا يسهرون على سيّدتهم،
بجسدها، إلى مجد السماوات،
وضجّت السماوات ببهجةٍ قشيبةٍ.

ولدى وصولها، تقدّم للقائها أرفع السيروفيم مقامًا،
وأخلوا لها أماكنهم،
وقد أخذ منهم الفرح والدهشة كلّ مأخذٍ،
لمشاهدتِهم بهاء محيّاها.

وهي خطرت فوق سماوات السماوات،
تكلّلها مشاعل النجوم،
والقمر تحت قدميها،
والشمس تلفّها كالثوب...

إنّها الفجر الذي يلد الشمس
مزدهيةً بأشعّتها، وبضرامها المتوهّج،
إنّه نجم البحّارة، والمنارة المنقطعة النظير،
التي ترشد في حَلك الليل، وسط الأنواء.

فيا نجمة البحر، يا عزاءنا الوحيد،
نجّينا من الصخور، ومن الرياح، ومن الغرق،
وساعدينا على بلوغ المرفأ،
وأرينا ابنكِ، على حافة الشاطئ.

الأدب المريميّ منذ القرن السابع عشر حتّى اليوم

اجتاز القرن السادس عشر عهد انحطاطٍ استدعى إصلاحًا عجز مجمع اللاطران الخامس (١٥١٢– ١٥١٧) عن تحقيقه. فكان الإصلاح البروتستانتيّ بقيادة مارتن لوثير الذي، مع مقاومته للكثير من مواقف الكنيسة، احتفظ باحترامٍ جمٍّ للعذراء مريم، في حين أنّ المجمع التريدنتينيّ (١٥٤٥ – ١٥٦٣) كاد يغفل ذكرها. وانقضت سنواتٌ قبل أن ينقلب الوضع، فتمعن الكاثوليكيّة في «مريميّتها»، وتقف البروتستانتيّة من مريم العذراء موقفًا مناوئًا.

وقد اتّسمت النزعة المريميّة في القرن السابع عشر بالاتّزان، ووضوح الرؤية والنأي عن الغلوّ والشطط.

القرن التاسع عشر شهد نهضةً مريميّةً عارمةً فجّرتها ظهورات العذراء المتعاقبة في باريس، شارع باك (١٨٣٠)، وفي الساليتّ (١٨٤٦)، وفي لورد (١٨٥٨) وبونتمان (١٨٧١) ودعّمها إعلان البابا بيّوس التاسع عام ١٨٥٤ عقيدة الحبل بلا دنس التي أيّدتها وأكّدتها العذراء نفسها، عندما عرّفت نفسها، في لورد، بأنّها سيّدة الحبل بلا دنس. وقد كان إعلان البابا هذا أعظم إعلانٍ عقائديٍّ يخصّ العذراء، منذ مجمع أفسس.

ومنذئذٍ، زخر الأدب المريميّ بروائع تقرن الإبداع الملتزم، عمومًا، بتعاليم الكنيسة. ومن المريميّين الذين برزوا في هذه الحقبة: الكردينال دي بيرول (de Bérulle) (١٥٧٥–١٦٢٩)، وجان جاك أوليبه (١٦٠٨– ١٦٥٦)، والملك لويس الثالث عشر، وغرينيون دي مونفور (١٦٧٣ – ١٧١٦)، وألفونس دي ليغوري (١٦٩٦– ١٧٨٧)، وكاترين لابوريه (١٨٣٠ – ١٨٧٦)، والكردينال نيومن (١٨٠١– ١٨٩٠)، والقدّيسة تيريز الطفل يسوع (١٨٧٣– ١٨٩٧)، والقدّيس مكسيميليان كولبي (١٨٩٤– ١٩٤١)

وإن كان حبّ أُمّ الله قد ألهم شعراء وكتّابًا مؤمنين أمثال شارل پيغي، وپول

كلوديل، وجورج برنانوس، فهو أيضًا قد استدرّ نبراتٍ مؤثّرةً ممّن ضلّت بهم السُبل نظير شارل بودلير وپول ڤرلين، وممّن تباهوا بإلحادهم مثل جان پول سارتر.

وكان القرن العشرون مريميًّا بامتيازٍ، بفضل إعلان البابا بيّوس الثاني عشر في ١٩٥٠/١١/١ عقيدة انتقال العذراء إلى السماء جسدًا ونفسًا، وبفضل إسهاب المجمع الفاتيكانيّ الثاني في تكريمها إذ جاء على ذكرها في اثني عشر قرارًا من مقرّراته الستّة عشر، وبفضل حبرين أعظمين عاشقين للعذراء: البابا بولس السادس الذي سمّاها أُمّ الكنيسة، والبابا يوحنّا بولس الثاني الذي استوحى شعار بابويّته من غرينيون دي مونفور، فجعله: «كلّي لكِ» (Totus Tuus).

القدّيس فرنسيس السالیزيّ (١٥٦٧ - ١٦٢٢)

قدّيسٌ فرنسيٌّ، كان أسقف جنيف. وهو مؤسّس رهبانيّة «الزيارة» للنساء. مؤلّفاته الروحيّة أعادت إلى الروحانيّة المسيحيّة أبعادها الإنسانيّة.

صلاةٌ في المآزق

«تذكّري، أيّتها العذراء الرقيقة، أنّك أمّي، وأنّي ابنك؛ وأنّك قديرةٌ، وأنّني إنسانٌ مسكينٌ حقيرٌ وواهنٌ.

أتوسّل إليك، أيّتها الأمّ العذبة، أن تقوديني، وتذودي عنّي، في جميع دروبي ومساعيّ، فابنك قد وهبك كلّ سلطانٍ في السماء وعلى الأرض.

لا تقولي إنّه لا يتوجّب عليك الاستجابة لتوسّلي، فأنت أمٌّ مشتركةٌ لجميع البشر المساكين، وخاصّةً أمّي.

لو لم يكن بوسعك ذلك لعذرتك قائلاً: صحيحٌ أنّها أمّي وتحبّني محبّة أمٍّ لابنها، ولكنّ المسكينة تفتقر إلى القدرة والسلطان.

ولو لم تكوني أمّي، لتعيّن عليّ أن أعتصم بالصبر قائلاً: لا غروَ أنّها غنيّةٌ وقادرةٌ على غوثي، ولكن، وا أسفاه!، بما أنّها ليست أمّي، فهي لا تحبّني.

ولكن، بما أنّك، أيّتها العذراء الرقيقة، أُمّي وتملكين القدرة، فكيف لي أن أعذرك، إن لم تخفّفي عنائي، وإن لم تقدّمي لي عونك!

ترين، يا أمّاه، أن لا مناص لك من الاستجابة لكلّ توسّلاتي.

من أجل مجد ابنك، اقبليني ابنًا لك، مُعرضةً عن زلاّتي وخطاياي. أَعتقي نفسي وجسدي من كلّ شرٍّ، وهبيني فضائلك كلّها، وخاصّة التواضع.

وانفحيني كلّ المواهب، والخيرات، والنعم التي ترضى الثالوث الأقدس: الآب، والابن، والروح القدس.

جان جاك أولييه (١٦٠٨- ١٦٥٦)

(Jean Jacques OLIER)

كاهنٌ ارتدّ، بعد فترة ضياعٍ، إلى حياةٍ مكرّسةٍ بأكملها لله، ولتكريم العذراء مريم التي شفته من علّةٍ في عينيه، ومن انهيارٍ عصبيٍّ انتابه وهو بين الثلاثين والثالثة والثلاثين من عمره. تميّز بأسلوبه الغنائيّ المندفع.

«يا يسوع، إلهي! إن كانت نفس أمّك عل قدرٍ عظيمٍ من القداسة، ومغمورةً بالنِعَم، قبل أن تجعل فيها مقامك، فما عساها أصبحت بعد أن حلّ فيها الروح القدس، وأغدق عليها فيض حضوره؟ وبعد أن نزل عليها وهي بصحبة رسلك؟ وبأيّة طاقةٍ حَبَوْتَ تلك النفس كي تستوعب أنهار النِعم وسيولها يا يسوع العظيم! أَوليست هي بحرًا، ومحيطًا، وهوّة؟

يلاحظ القدّيس «دينيس» (Denis)، أنّه يحدث، في الله، بين حينٍ وحينٍ، تدفّقٌ بل فيضان نِعَمٍ على الملائكة كذاك الذي يفيض به البحر على الرمال، بوفرةٍ واندفاعٍ، بحيث يبدو وكأنّ الأمواج بكثافتها واندفاعها تبتغي التهام كلّ شيءٍ. فكيف لنا، إذن، أن نتخيّل تلك الفيضانات الإلهيّة، وتدفّقات النور والحبّ التي ألقاها يسوع في نفس مريم، النفس التي ليست في مثل ضيق نفس الملائكة، بل هي من الرَّحب بحيث تستوعب محيطًا بأكمله، بتقبّلها ذاك الذي يسكن فيه، جسديًّا، ملء الألوهة عينها؟ أَوَ ليسَت سماءً كامنةً داخل سماءٍ أُخرى؟ يا لأحشاء مريم، الهوّة التي لا يُسبَر غورها والتي تنطوي على كنوز المعرفة الإلهيّة الثَّرَّة واللامحدودة!

بيير كورنيي (١٦٠٦– ١٦٨٤)

Pierre CORNEILLE

من أشهر المسرحيّين الفرنسيّين ومن أقطاب الأدب الكلاسيكيّ في القرن السابع عشر. استحقّ لقب «أبي التراجيديا الفرنسيّة». من مسرحيّاته الخالدة «السيد». ومن قصائده الدينيّة نقتطف ما يلي:

١ – تسابيح

«قبل أن تتنازل حكمة اللّه العميقة،
وتبسط سلطانها على الأَرض والسماوات،
وقبل أن يستلّ صوت الباري الكون من العدم...
أعدّتكِ، منذ الأزل، فطنته الجديرة بالإجلال،
كي تكوني لكلمته الفائقة الوصف أُمًّا،
وعلى ملائكته مليكةً، وللبشر سندًا.
ومنذئذٍ اختار عطفه وساطتك
لانتشالنا من الهوّة التي زجّنا فيها، جميعنا، معه،
الأب الأوّل، بخطيئةٍ واحدةٍ اقترفها.
افتحي، إذن، نفسكِ للفرح، أيّتها الأُمّ العذراء،
فقد أعدْتِنا، وأعدتِ معنا أجدادنا، إلى أحضان النعمة.
اغتبطي لأنّك فتحت أبواب السماوات،
ومهَّدتِ إليها السبُل.
فضيوف هذه القصور المتألّقة
يقدّمون لكِ، وسيقدّمون، معًا، إلى الأبد،
أناشيد ابتهاجٍ وشكرانٍ.
ونحن، وقد حميتِنا من شراك الجحيم،
سنضمّ إلى أصواتهم، جهود وهننا البشريّ،
كي نظفر، مثلهم، بنعمة الانتصار على قوى الشرّير.
يا للجدّة المذهلة!

الزهرة تنبثق من الأرض المجدبة،
والثمرة تنبت من العقم،
والخشب الجافّ يستعيد اخضراره،
ويرسل براعم تتفتّح، وتلد.
فأين سُننكِ، أيّتها الطبيعة، وأين هي مسيرتكِ،
في هذا الانقلاب العجيب،
الذي يجعل العجز خصبًا، رغمًا عنكِ؟
وما هي القدرة التي، في ليلةٍ واحدةٍ،
تستنبط من غصنٍ يابسٍ وعقيمٍ،
هذه الأوراق، والزهور، والثمار؟

يا زهرة الربيع المتوهّجة،
أيّتها البراءة التي لا يقوى شيءٌ على محوها،
يا فخر العذارى، وزهرة الأزاهير،
يا منبع العون الذي تصون مياهُه المقدّسة،
كلّ جنسنا البشريّ!
إنّ شذى استحقاقاتك المنقطع النظير،
يجتذب ملاك المشورة،
وسلطان الملوك، وربّ الجيوش،
وبوساطتك تشرع أبواب السماء
التي طالما ظلّت موصدةً،
لكي تنهي حقبة منفانا.»

٢ – ملكة السماء

«لقد رأى القدّيس يوحنّا امرأةً فريدة البهاء،
تُلبسها الشمس، من أشعّتها، ثوبًا،
والقمر، تحت قدميها، يشعّ بمثل النور
الذي نشهده له، وهو في ميعة سطوعه،

واثنا عشر كوكبًا على جبينها تاجٌ.
وما يكمن في داخلها يفوق، روعةً،
كلّ السنى الذي يحيق بها من الخارج.
وهل هذه المرأة الرائعة إلاّكِ؟
وهل زينتها البهيّة
من كواكب، وقمرٍ، وشمسٍ،
سوى زينة فراشكِ المقدّسة؟
وهل يُغدق على سواكِ
من هو شمس العدل الساطعة
كلّ كنوزه، مالئًا بها داخلك، ومُلبسًا بها ظاهركِ؟
وهل يستهلّ بغيركِ، في هذه الديار،
ملكوت الله العذب، والجليل الجدوى،
الذي يربط الأرض بالسماوات؟

إنّ جيش السماء، المنتظم تحت إمرتكِ،
كما القمر تحت قدميكِ،
لا ينفكّ يشيد بمديحكِ،
ويوفّر للعرش الذي تجلسين عليه قاعدةً سنيّةً.
وما جماعة أجدادك القدّيسين المجيدة
إلاّ التاج الثمين، تاج الكواكب الذي يكلّل جبينك،
كواكب يساوي عددها عدد الرسل،
أولئك الذين نجد فيهم نموذجًا
لما سنكون، يومًا، بوساطتكِ، لدى الله، مثلما هم الآن.
إنّ ملء النعم المدهش هذا،
الذي، عليكِ وحدكِ أغدقتْه يمين الربّ،
يقرن وفرة الفضائل ووفرة السخاء،
بمجد فيض كرمه الدائم.

فيها أيّتها العذراء بامتيازٍ، وأُمّ العليّ،
التي لم يشُبْها لوثةٌ أو عيبٌ،
أيّها النور الذي لم يحجبه، يومًا، غيمٌ،
اسكبي من فيض ملئكِ ساقيةً.
ومن فيض البهاء المشعّ من محيّاك،
فليُشرق علينا نهارٌ جديدٌ!»

٣ - «أيًّا كنت، أيّها الإنسان، تأمّل حوّاء ومريم،

«وقارن بين أُمّك وأمّ المخلّص،
وتبيّن أيّةً منهما تحظى بحبّ الآب الأزليّ،
وبامتيازاته.
إحداهما أخضعت كلّ ذرّيّتها لعبوديّة إبليس،
والأُخرى حطّمت أغلال العبوديّة التي كانت تكبّل أجدادها.
إحداهما جاءت بالموت، والأُخرى جاءت بالحياة.
واحدةٌ أشرعت أبواب الجحيم، والأُخرى أشرعت أبواب السماوات.»

الكردينال پيير دي بيرولّ (١٥٧٥-١٦٢٩)

(Pierre de BÉRULLE)

كان للكردينال بيرول إشعاعٌ واسعٌ في مطلع القرن السابع عشر. وكان يرى في سرّ التجسّد، وفي أمومة مريم لله، مركز كلّ شيءٍ:

١ - أُمومة العذراء

«إذ كان على ابن الله أن يولد ثانيةً، وُلد، حبًّا، في العذراء الكلّيّة القداسة، من جوهر العذراء، كما هو يولد، معرفةً، في أحشاء الآب، من جوهر الآب. وقد تلقّت العذراء، من الآب الأزليّ، القدرة المدهشة التي تجعلها تلد الله في طبيعته البشريّة، وتهب كيانًا جديدًا للأبديّ الذي لا يتغيّر...

أمومة العذراء القدّوسة هذه تستمدّ منشأها، ورونقها، وسلطتها من الأبوّة الإلهيّة،

أبوّة «الذي منه تنبثق كلّ أسرةٍ في السماوات وعلى الأرض» (أفسس ٣: ١٥). إنّه أَبو مَن العذراء هي أمّه...

هذه الأمومة هي من السموّ والرفعة بحيث لا شيء فوقها إلاّ اللّه، وكلّ ما سواها أدنى منها كثيرًا. وهذه الرفعة هي من القداسة بحيث تفترض نعمةً فائقةً فريدةً، وفيض نعمةٍ، نعمةٍ مفعمةٍ بالامتيازات. وهي من الندرة بحيث هي فريدةٌ على الأَرض وفي السماء. فالأرض تحمل العديد من أَبناء اللّه بالتبنّي، والسماء ملأى بالقدّيسين، والملائكة هم، أيضًا، أبناء اللّه. ولكن ليس في السماء والأرض سوى أمٍّ واحدةٍ للّه، وهي في ذلك فريدة...

لقد أخضع اللّه أعظم أعماله، أي التجسّد، لموافقتكِ... يا عذراء. طلب، وانتظر هذه الكلمة المتواضعة: «ها إنّي أَمَة اللّه»، وإنّ قولك: «فليكن...»، لأقوى كثيرًا من قوله لدى خلق الكون. فإن كان قوله ذاك قد أَبدع العالم، فقولك هذا صنع صانع العالم.

ما عساي أقول فيك، أيّتها العذراء القدّوسة؟ لقد تردّيت إلى العدم، عندما شاء اللّه الارتقاء بكِ إلى عظمته! وأعلنت ذاتك أَمَةً لمن ابتغى أن تكوني أُمّه!

وإن ساغ لي أن أقارن ما لا يُقارَن، فإنّني أرى وأعبد قدرةً أعظم، في ولادته، منها في آلامه، في مغارته أكثر منها في صليبه، في الناصرة أكثر منها على الجلجلة. فقدرة الجلجلة والصليب تنتج أبناء للّه بالتبنّي، أمّا قدرة الناصرة ومذود بيت لحم، فقد نتج عنها أمٌّ للّه في العالم، ولو شاء ابن اللّه أن يوجد ويتألّم في العالم، من غير أن يولد من أمرأةٍ، لكان ثمّة أبناءٌ للّه، ولكن لما كان أمٌّ للّه لا على الأرض، ولا في السماء.

٢ – صمت العذراء

قَدَر العذراء هو التزام الصمت. تلك هي حالها، وطريقها، وحياتها. حياتها هي حياة صمتٍ وعبادةٍ للكلمة الأبديّة. لدى رؤيتها أمام عينيها، وفي حشاها، وعلى ذراعيها، هذه الكلمة عينها، كلمة الآب الجوهريّة، خرساء، وقد جعلها الصغَر صامتةً، ولجت إلى صمتٍ جديدٍ، وفي هذا الصمت تحوّلت، على غرار الكلمة المتجسّد، ابنها، وإلهها، وحبّها الوحيد. وهكذا درجت حياتها من صمتٍ إلى صمتٍ، من صمت عبادةٍ إلى صمت تحوّلٍ...

وإنّه لمن العجب أنّ، في صمت يسوع وطفولته، الجميع يتكلّمون ومريم ممسكةٌ عن الكلام، فلصمت يسوع قدرةٌ على إلزامها بصمتٍ مقدّسٍ، أكثر ممّا لأقوال الملائكة والقدّيسين قدرةٌ على جعلها تتكلّم عن أمورٍ تستأهل قدرًا كبيرًا من المديح، أمورٍ تُجمع السماء والأرض على الاحتفال بها، وعلى عبادتها. الملائكة يتحدّثون عنها في ما بينهم، ويحدّثون بها الرعاة، فيما تصمت مريم.

الرعاة يجرون ويتكلّمون، ومريم صامتةٌ. الملوك يأتون، ويتكلّمون، ويجعلون المدينة كلّها وكلَّ الدولة، وكلّ مجمع اليهوديّة المقدّس يتكلّمون، فيما مريم في خلوةٍ وصمتٍ. الدولة كلّها مضطربةٌ، وكلّ فردٍ دهشٌ، يتحدّث عن الملك الجديد الذي يبحث عنه الملوك، ومريم ساكنةٌ، ملتزمةٌ بصمتها المقدّس. في الهيكل يتكلّم سمعان، وتتكلّم النبيّة حنّة، ويتكلّم جميع الذين ينتظرون خلاص إسرائيل، في حين أنّ مريم تقدّم، وتعطي، وتأخذ وتستعيد ابنها، صامتةً. كم كان لصمت يسوع من قدرةٍ ومن تأثيرٍ سرّيٍّ على روح العذراء وعلى قلبها، بحيث يبقيها، بشدّةٍ، وعلى نحوٍ إلهيٍّ، منشغلةً، ومفتونةً، بصمتٍ!

٣ – سرّ التجسّد

لا وجود لصفة أُمّ الله، إلاّ في سرّ التجسّد، وإلاّ في ارتباطها بالكلمة المتجسّد... أيّها الثالوث، إنّني أعبدك في ذاتك، وفي أعمالك، وفي مأثرة مآثرك هذه. أعبدك في السماوات، وفي الناصرة. أعبد وحدتك المقدّسة، أعبدك في جوهرك، وفي مخدع مريم.

بوسويه (١٦٢٧ – ١٧٠٤)

Jacques- Benigne BOSSUET

من أشهر الخطباء والوعّاظ الفرنسيّين. لُقِّب بـ «نسر مو»، و«مو» هي المدينة الفرنسيّة التي كان عليها أسقفًا.

قيل إنّ أقواله في مريم تبذّ رفعةً وخلودًا الصروح والكاتدرائيّات التي أُشيدت تكريمًا لها.

يتميّز بنبرته المضطرمة، الأخّاذة، المقنعة، ولكأنّ الاندفاع المسيحيّ كلّه كان ينطق بلسانه.

١ - مريم تقود إلى يسوع

«قبل كلّ الأزمنة أعدّ الله مريم كي تهب بذاتها العالمَ يسوعَ المسيح. ولكن لا بدّ من الإيضاح بأنّ الله الذي دعاها إلى هذه الخدمة المجيدة أبى أن يجعل منها مجرّد قناةٍ لهذه النعمة، بل إنّه حرص على أن تكون وسيلةً طوعيّةً تُسهم في هذا الإنجاز العظيم، ليس فقط بتميّز خصالها، بل أيضًا بفعلٍ إراديٍّ. ولذلك أنفذ إليها الآب الأزليّ ملاكًا يبسط، بين يديها، رغبته؛ ولم يتحقّق سرّ التجسّد ما دامت مريم غير مطمئنّةٍ. ومن ثمّ فإنّ فعل التجسّد العظيم، الذي ترقّبه الكون منذ قرونٍ، ظلّ معلّقًا، عندما اعتزم الله تحقيقه، إلى أن وافقت عليه العذراء الإلهيّة. فقد كان من اللازم للبشر أن ترغب العذراء في خلاصهم. وما إن هي عبّرت عن موافقتها حتّى فتحت السماوات أبوابها، وأصبح ابن الله إنسانًا، وأمسى للبشر مخلّصٌ. لقد كانت، إذن، محبّة مريم النبع المخصب الذي استمدّت منه النعمة مجراها وتدفّقت بغزارةٍ على الطبيعة البشريّة بأسرها. وكما قال القدّيس أمبروسيُس: «من أحشائها المباركة تفجّر، بغزارةٍ، روح الغيرة المقدّسة، الذي حلّ فيها، أوّلاً، قبل أن يُغرق الأرض».

... كلّ تكريمٍ نحيط به العذراء القدّيسة هو نافلٌ وباطلٌ، إن لم يقدنا إلى الله، كي نمتلكه إلى الأبد، وننعم بالإرث السماويّ...

فلا نكوننّ ممّن يظنّون أنّهم يُنقصون مجد الله ويسوع المسيح، إن هم عظّموا العذراء القدّيسة وسائر القدّيسين. فما هذا إلاّ تخوّف أعداء الكنيسة. وإنّما نحن ننسب لله وهنًا مخزيًا عندما نصوّره يغار من مواهبه وأنواره الخاصّة التي يغدقها على خلائقه. فما القدّيسون والعذراء إلاّ صنع يديه ونعمته. ولو كان للشمس شعورٌ، لما غارت من القمر «الذي يسود على الليل» بنوره الصافي «إذ إنّه يستمدّ كلّ نوره منها، وهي التي تتألّق وتنيرنا بعكس أشعّتها عليه».

وأيًّا كان ساميًا الكمال الذي نعترف لمريم بامتلاكه، فليس من شأن يسوع المسيح أن يغار منه، لأنّه نابعٌ منه، ولأنّها تعزو كلّ شيءٍ إلى مجده وحده. ومن يرى غير ذلك يرتكب خطأً فادحًا. ومن هم أكثر مدعاةً للشفقة هم الذين ينعتون تكريمنا للعذراء، بعبادة أوثانٍ...

... أنتم، يا أبناء الله، المتطلّعين إلى سعادة تبنّي أمّ المخلّص لهم، والراغبين في تكريمها، اقتدوا بها بأمانةٍ...

من هم أبناء العذراء القدّيسة؟ أليس أبناؤها الحقيقيّون هم الذين تراهم واقفين عند أقدام صليب يسوع المسيح المصلوب؟ ومن هم هؤلاء؟ إنّما هم الذي يذلّون، في ذواتهم، الإنسان القديم، ويصلبون الخطيئة وشهواتها بممارسة التوبة. أتريدون أن تكونوا أبناء مريم؟ اعتنقوا صليب يسوع».

٢ – شريكة يسوع في آلامه

«عندما أَلمح الجرح البليغ الناشب بنفس العذراء القدّيسة، عند أقدام صليب ابنها الوحيد، أتبيّن كم على نفسنا أن تتعاطف معها. ولكن عندما أشمل بنظرةٍ واحدةٍ جرح قلبها، وسجوّ محيّاها، يبدو لي أنّ هذا الاحترام المقترن بالتعاطف الذي يمليه حزنٌ على هذا القدر من الوقار، ينبغي أن يوقظ فينا مشاعر أبلغ تأثيرًا، وأنّ قسوة قلبٍ قصوى هي وحدها كفيلةٌ بالحؤول دون انسكاب دموعنا. اقتربِوا، إذن، يا إخوتي، بالدموع والنحيب، من تلك الأُمّ التي تقرن الفجيعة بالصمود، ولا يخطرنّ لكم ببالٍ أنّ صمودها يخفّفُ من شعورها بالألم. بل عليها أن تتمثّل بابنها: أُسوةً به تتعالى فوق أوجاعها؛ وأُسوةً به، أيضًا، تقاسي كلّ حدّتها وكلّ اتّساعها. ويسوع المسيح الذي يبتغي أن يطبع في أمّه القدّيسة صورةً حيّةً لآلامه، يطبع فيها كلّ قسماته. وإنّي لأدعوكم إلى هذا المشهد: سترون، قريبًا، يسوع على الصليب؛ وبانتظار هذا اليوم العظيم، تدعونا الكنيسة إلى تأمّل صورته في العذراء القدّيسة. وربّما سيحدث مثلما يحدث لدى انعكاس أشعّة الشمس، فتتضاعف حدّتها، فيكون لآلام الابن المنعكسة على قلب مريم قدرةٌ كبرى على مسّ شغاف نفوسنا. تلك هي النعمة التي ألتمسها منك، أيّها الروح الإلهيّ، بشفاعة العذراء القدّيسة.

ولا تظنّوا، يا إخوتي، أنّ أُمّ مخلّصنا القدّيسة قد مثلت عند أقدام الصليب، فقط كي تشهد آلام ابنها الوحيد، ولكي يمزّق هذا المشهد المريع قلبها. بل إنّ للعناية الإلهيّة، في تلك الأمّ المفجوعة، مرامي أسمى. وعلينا أن ندرك أنّها اقتيدتْ إلى ابنها، في هذه الحال من التخلّي، لأنّ تلك هي مشيئة الآب الأزليّ؛ أن لا يُضحّى بها فقط مع تلك الضحيّة البريئة، وأن تعلّق على صليب المخلّص بنفس المسامير التي اخترقت جسده، فحسب، بل أن تشارك بكلّ السرّ الذي يحقّقه صليبه.

* * * * * *

قولي لنا، أيّتها العذراء الإلهيّة، بأيّة قدرةٍ أصبحت خصبةً، أبقدرتك الطبيعيّة؟ هذا مستحيلٌ. ألا ترون أنّها حكمت على نفسها بعقم طوباويٍّ باعتزامها الحفاظ على طهرها البتوليّ، وبدليل قولها للملاك: كيف يمكن أن يتمّ ذلك؟ كيف يسعني أن أحمل ابنًا، وأنا التي نذرت بتوليّةً دائمةً؟ وإن هي اعترفت بعقمها، كيف، إذن، أصبحت أُمًّا؟ اسمعوا ما قال لها الملاك: «إنّ قدرة العليّ ستظلّلك». يتّضح، إذن، أنّ خصب العذراء أتى من العلاء، ومن العلاء، بالتالي، جاء حبّها.

نعمتك، إذن، أيّها الآب الأزليّ، هي التي تدخّلت، وآزرت الطبيعة العاجزة. وأنت، إذ آتيت مريم خصبك الإلهيّ، جعلتها أُمّ ابنك، وكان من المحتّم أن تكمل عملك. وبعد أن أشركتها، على نحو ما، بالولادة العفيفة الأبديّة التي بها تصنع كلمتك، كان لا بدّ من أن تُسيل في أَحشائها قبسًا من حبّك اللانهائيّ لذلك الحبيب الذي يمثّل روعة مجدك، وصورة جوهرك الحيّة. من هنا ينبع حبّ مريم: حبٌّ يتخطّى الطبيعة كلّها، حبٌّ رقيقٌ، حبٌّ موحِّدٌ، لأنّه يولد من مبدإ الوحدة عينه، حبٌّ يقيم تواصلاً كاملاً بين يسوع المسيح والعذراء القدّيسة، على صورة التواصل الكامل القائم بين يسوع المسيح وأبيه.

ولا تعجبوا، أيّها المسيحيّون، إن قلت إنّ حزن مريم منقطع النظير، وإنّه يُحدث فيها نتائج لا يمكن أن يوجد لها مثيلٌ. الآب والابن يقتسمان، في الأبديّة، مجدًا واحدًا، والأمّ والابن يقتسمان، في الزمن، الآلام عينها؛ للآب والابن نبع ملذّاتٍ واحدٌ، وللأمّ والابن سيل مرارةٍ واحدٌ. للآب والابن عرشٌ واحدٌ، وللأمّ والابن صليبٌ واحدٌ. الأشواك التي غُرزت في رأس يسوع، مزّقت مريم بكلّ حدّتها. عندما قُدّم له حنظلٌ وخلٌّ، تجرّعت مريم كلّ مرارتهما؛ وعندما عُلّق جسده على الصليب، عانت مريم كلّ عنف الصلب وهوله، وما الذي يفعل ذلك سوى حبّها؟... كم أنت ترهقها أيّها الحبّ، وكم تعصر قلبها الأموميّ. هذا الحبّ وِقْرٌ من حديدٍ على صدرها، يضغط عليه ويسحقه، ويخنق حتّى تنهّداته، ويكوّم، فوق رأسها، عبئًا لا يُطاق، بحيث لا تقوى على التفريج عن أساها بالدموع، ويرين على كلّ جسدها بوهنٍ يرهقها، ويكاد يقطّع كلّ أوصالها. ويتفاقم حبّ مريم ثقلاً، لأنّه يبهظ يسوع نفسه. فليس يسوع وحده، في هذا اللقاء، هو الذي يشيع شعور آلامه. إذ إنّ مريم، بدورها، تبثّ الشعور بآلامها، ولكأنّ كلاًّ منهما يطعن الآخر. ولكأنّ هذا الابن وهذه الأمّ مرآتان متقابلتان، تعكس كلٌّ منهما ما تتلقّاه، في ضربٍ من التنافس، وتكثّران

الأشياء تكثيرًا لا محدودًا. وهكذا يتفاقم ألمهما بلا قياسٍ... ويتعاظم ألم مريم بقدر ما هو يتعاطف مع يسوع، ولا يعزّيه، يشاركه عذاباته ولا يحدّ من حدّتها، بل إنّه يضاعف آلام الابن بنفاذها إلى قلب أُمّه».

٣ - موت العذراء

«إنّني أرى أنّ كمال حبّ العذراء القدّيسة وحده هو سبب موتها. فقد كان هذا الحبّ يسود قلبها بلا أيّ عائقٍ، ويشغل كلّ أفكارها، وكان يتعاظم يومًا إثر يوم بأعمالها، ويكتمل برغباتها، ويتضاعف بذاته، إلى أن بلغ من الكمال ما لا قِبَل للحياة على احتوائه...

يا حبّ العذراء القدّيسة إنّ كمالك مغرقٌ في الرفعة، ولم يعد بمكنتك الانحباس في جسدٍ فانٍ؛ نارك تطلق لهيبًا من الاضطرام بحيث لا يسعه البقاء متخفّيًا تحت هذا الرماد، فانطلق وتألّق في الأبديّة، واتّقد أمام وجه الله؛ امضِ وانبسط في حضنه الجمّ، فهو وحده قادرٌ على احتوائك.

حينئذٍ أَسلمت العذراء الإلهيّة، بلا عناءٍ ولا عنفٍ، نفسَها الطوباويّة بين يدي ابنها. لم يحتج حبّها إلى بذل جهدٍ فائقٍ. بل مثلما تكفي هزّةٌ خفيفةٌ لإسقاط ثمرةٍ ناضجةٍ عن شجرتها، هكذا قُطِفت تلك النفس المباركة كي تُنقَل، دفعةً واحدةً، إلى السماء. هكذا ماتت العذراء القدّيسة، بفعل توثّب حبٍّ إلهيٍّ، وحُمِلت نفسها إلى السماء على غمامة رغباتٍ مقدّسةٍ. «من هذه الطالعة من البرّيّة كأعمدةٍ من دخانٍ معطّرٍ بالمرّ والبخور؟...» (نشيد ٣: ٦) إنّه لتشبيهٌ جميلٌ وممتازٌ يفسّر لنا تفسيرًا رائعًا طريقة هذا الموت السعيد الساجي. فذاك الدخان العطِر المتصاعد من خلطة عطورٍ، لم يُنزَع منها عنوةً، ولم يُدفَع خارجها بالعنف، بل إنّ حرارةً رقيقةً ومعتدلةً انتزعته برقّةٍ، وحوّلته إلى بخارٍ مرهفٍ يتصاعد تلقائيًّا. هكذا انفصلت نفس العذراء القدّيسة عن جسدها، فلم تهتزّ أركانه بعنفٍ، بل إنّ حرارةً إلهيّةً انتزعتها برقّةٍ من الجسد، وارتقت بها صوب حبيبها، على غمامةٍ من الرغبات المقدّسة».

٤ - صمت مريم وتأمّلها

«أليس خيرًا لنا أن نتّحد بصمت مريم من أن نمتدحه بأقوالنا؟ فبعد كلّ ما بشّرها

به الملاك، وكلّ ما حدث فيها، وسماعها كلّ ما تكلّم به الناس، هل، ثمّة، أَروع من صمتها؟ لقد حملت ابن العليّ في أحشائِها، ورأته ينبثق منها مثل شعاع شمسٍ، مثل غمامةٍ طاهرةٍ، نيّرةٍ. وأيّ شعورٍ أحدثه فيها حضوره! وإن كان يوحنّا، وهو في بطن أمّه، قد انتابته رعشةٌ معجزةٌ لمجرّد اقترابه منه، فأيّ سلامٍ، وأيّ فرحٍ إلهيٍّ قد غمرا العذراء القدّيسة، لدى حبلها بالكلمة الذي كان الروح القدس يصوغه فيها! وكم كان بوسعها أن تقول عن ابنها الغالي! ولكنّها تركت الجميع يمتدحونه، فأصغت إلى الرعاة، ولم تفُهْ بكلمةٍ للمجوس الذين وافوا ليعبدوا ابنها؛ وأنصتت لسمعان وللنبيّة حنّة، ولم تبُحْ بمكنونات قلبها إلاّ لإليصابات التي جعلت منها زيارتها لها نبيّةً، ولم تنبس للآخرين بكلمةٍ، بل تظاهرت بالدهشة والجهل.

وقد أسهم يوسف في صمتها وفي سرّها، مع أنّ الملاك أطلعه على عظائم، ومع أنه كان شاهدًا على معجزة الولادة البتوليّة. ولم يتحدّث أيٌّ منهما عمّا كانا يشهدان، كلّ يومٍ، في بيتهما، ولم يزدهيا بما أوتيا من فيض المعجزات. وفي تواضعها وحكمتها جعلت مريم الآخرين ينظرون إليها نظرتهم إلى أيّة أمٍّ عاديّةٍ، ويعدّون ابنها ثمرة زواجٍ عاديٍّ.

إنّ العظائم التي يجريها الله داخل خلائقه تُحدث، تلقائيًّا، الصمت، والذهول، وشعورًا إلهيًّا يستعصي على كلّ تعبيرٍ. فما الذي كان يمكن أن يُقال، أو أن تقوله مريم، من شأنه أن يعادل ما ينتابها من شعور؟ وهكذا يظلّ سرّ الله مختومًا، ما لم يحرّك الله نفسه الألسنة، ويدفعها إلى الكلام. وإن كانت الامتيازات البشريّة عديمة القيمة، ما لم تُعلن، وما لم يقدّرها الناس، فإنّ ما يفعله الله يحمل في ذاته قيمته التي لا تُثمّن، والتي يأبى المرء تذوّقها إلاّ بين الله وبينه.

* * * * * *

ثمّة من يجدون حرجًا ويخجلون لأنّ يسوع أنفق حياته في إغفالٍ مدهشٍ، ويخجلون أيضًا من وضاعة حياة مريم، ويودّون أن ينسبوا لها خوارق دائمةً. ولكنّ الإنجيل يخبرنا: «كانت مريم تحفظ كلّ تلك الأمور في قلبها». كان يسوع دائبًا على الاهتمام بمهنته، وكان شاغل مريم، التأمّل في سرّ الله، ليلَ نهارَ.

ولكن، بعد أن فقدت ابنها، هل شُغلت بشيءٍ آخر؟ يذكر سفر أَعمال الرسل أنّها

كانت مع الذين التأموا في العلّيّة وتلقّوا الروح القدس. هذا كلّ ما قيل عنها. أَليس انشغالاً نبيلاً أن تحفظ في قلبها كلّ ما شهدته من ابنها الحبيب؟ وإن كانت أَسرار طفولته موضع اهتمامها العذب، فكم من العذوبة تلقى في تأمّل أحداث باقي حياته! كانت مريم تتأمّل في يسوع. مريم، مع القدّيس يوحنّا، الذي يمثّل وجه الحياة التأمّليّة، كانت في تأمّلٍ دائمٍ، تذوب حبًّا ورغبةً. وما الذي تتلوه الكنيسة في عيد انتقالها المجيد؟ إنّها تتلو إنجيل مريم، أخت لعازر، القابعة عند أقدام المخلّص، متلقّفةً أقواله. فمنذ غياب المخلّص، لا تجد الكنيسة شيئًا يتعلّق بمريم أمّ الله، في كنز الكتب المقدّسة، فتستعير من مريم أخرى إنجيل التأمّل الإلهيّ.

فما عسانا نقول لمن يخترعون الكثير من المشاهد الجميلة التي ينسبونها للعذراء القدّيسة؟ ألا يكفيهم التأمّل المتواضع الكامل؟ ولكن إن اكتفت به مريم، واكتفى به يسوع، سحابة ثلاثين سنةً، أليس حسبُ العذراء القدّيسة مواصلة هذه الممارسة؟ إنّ صمت الكتاب حول هذه الأُمّ الإلهيّة لهو أَعظم وأبلغ من كلّ خطابٍ».

٥ – الحبل بمريم بلا دنس

«إن نحن تبينّا لديها انعتاقًا عامًّا من كلّ سنن الطبيعة، وإن نحن، على ضوء الإيمان القويم، أو أقلّه، وفق رؤية أكثر اللاهوتيّين ثقةً ومصداقيّةً، ألفينا، لديها، ولادةً بلا ألمٍ، وجسدًا محرّرًا من الهشاشة، وحواسّ محصّنةً ضدّ العصيان، وسيرةً منزّهةً من العيب، وموتًا بلا وجعٍ؛ وإن لم يكن زوجها سوى حارسٍ لها، وإن لم يكن زواجها سوى حجابٍ يستر بتوليّتها ويصونها، وإن لم يكن ابنها سوى زهرةٍ نبتت من طهرها، وإن كان حبلها العجيب به قد أوحى للطبيعة المذهولة والحيرى أنّ سُننها ستُبطَل للأبد؛ وإن كان الروح القدس قد تبوّأ فيها مكانه، وإن حلّت فيها عذوبة البتوليّة المكان الذي أَلِفَت الشهوة احتلاله، فمن يستطيع ادّعاء أنّه لم يحدث أيّ أمرٍ فائق الطبيعة في الحبل بتلك الأميرة، وأنّ هذا الحبل وحده هو الحيّز الوحيد في حياتها الذي لم يتميّز بمعجزةٍ سنيّةٍ؟»

٦ – الحبّ الزوجيّ الذي ربط مريم ويوسف

«ليست أَجمل نيران الحبّ هي تلك التي تخالطها الشهوة. بل إنّ بتوليّتين

متّحدتين بزواجٍ روحيّ خليقتان بإضرام نيرانٍ أقوى، يبدو أنّ بوسعها الصمود تحت رماد الموت نفسه.

ولكن كيف تيسّر لهذا الحبّ الممعن في الروحانيّة، بلوغ الكمال في زواج القدّيس يوسف؟ ذلك أنّ هذا الحبّ كان بكلّيّته سماويًّا، وكلّ نيرانه وكلّ رغباته لا غاية لها سوى صون البتوليّة.

هلاّ، أيّها القدّيس يوسف، قل لنا ماذا كنت تحبّ في مريم؟ بلا ريبٍ، لم يكن الجمال الفاني، بل هذا الجمال الخفيّ الباطنيّ، الذي تمثّل البتوليّة زينته الأولى.

عفاف مريم، إذن، كان موضع هواه، وبقدر ما كان يحبّ هذا الطهر، كان حريصًا على صونه، أوّلاً لدى زوجته القدّيسة، وثانيًا في ذاته. وفي وحدة قلوبٍ كلّيّةٍ. وهكذا كان حبّه الزوجيّ، ينحرف عن النهج المألوف، وينصرف بكلّيّته إلى صون بتوليّة مريم».

* * * * * *

٧ – أُمومة مريم وأبوّة يوسف

«لم تحمل مريم من يوسف، إذ كان من شأن ذلك طعن البتوليّة. ولكنّ يوسف قاسم مريم العناية، والأَسهار، والهواجس التي واكبت تنشئة الطفل الإلهيّ. وعهد، حيال يسوع، هذا الميل الطبيعيّ، وكلّ الانفعالات العذبة وكلّ المبادرات الرقيقة المألوفة في قلب أبٍ.

وقد تتساءلون من أين له هذا القلب الأبويّ، الذي لم تهبه إيّاه الطبيعة؟ إنّ هذه الميول الطبيعيّة قد تُكتسَب، اختيارًا. وهل ينجح الفنّ في التشبّه بما تدوّنه الطبيعة في القلوب؟ وإن لم يكن القدّيس يوسف أبًا، فأنّى له حبّ أبٍ؟ علينا أن ندرك أنّ القدرة الإلهيّة هي الفاعلة في هذا المجال. وبفضل هذه القدرة امتلك يوسف قلب أبٍ، وإن ضنّت عليه به الطبيعة، فالله منحه إيّاه بيده.

هذه اليد التي تصوغ كلّ قلوب البشر، هي التي زوّدت يوسف بقلب أبٍ وزوّدت يسوع بقلب ابنٍ. لذلك خضع يسوع ليوسف الذي لم يخشَ أن يأمره.

من أين جاءته جرأة أمر خالقه؟ ذلك أنّ أبا يسوع المسيح الحقّ، ذلك الله الذي يلده منذ الأزل، بعد أن اختار يوسف الإلهيّ كي يقوم بوظيفة أبٍ لابنه الوحيد، في الزمن، قد أسال في أحشائه شعاعًا، أو قبسًا من حبّه اللامحدود لابنه».

ماري القدّيسة تيريزا (١٦٢٣– ١٦٧٧)

هي ناسكةٌ صوفيّةٌ، خاضت، منذ ١٦٥٧ وحتّى مماتها، حياةً حميمةً مع مريم. وقد جاء في إحدى كتاباتها:

«إنّني بكلّيّتي تحت سلطة هذه الأُمّ الشديدة الرقّة، التي ترشدني وتقودني. وأَنظاري شاخصةٌ أبدًا إليها، لكي أفعل، في كلّ شيءٍ، ما يُرضيها، وما تريده. وهي تتنازل وتبيّن لي بوضوحٍ، وتعلّمني ما ترغب فيه في كلّ مناسبةٍ، وما يتعيّن عليّ القيام به أو الامتناع عنه. وإنّه ليتعذّر عليّ أن أسلك خلافًا لذلك، بما أنّها، باستمرارٍ، أمامٍ نفسي، وتجتذبني اجتذابًا رقيقًا وأُموميًّا، مبتسمةً، محرّضةً، قائدةً إيّاي، ومرشدةً في دروب الروح، وفي ممارسة الكمال والفضائل، وهكذا، لست أفتقد، لحظةً واحدةً، عذوبة حضورها، إلى جانب حضور الله.

غرينيون دي مونفور (١٦٧٣– ١٧١٦)

Louis – Marie GRIGNION DE MONFORT

تكريم العذراء الحقّ

يعدّ القدّيس لويس ماري غرينيون دي مونفور من أَلمع من تناولوا الشأن المريميّ، وقد ارتبط اسمه بكتابه الشهير: «بحثٌ في التكريم السليم للعذراء القدّيسة» حيث شجب كلّ ما لحق بهذا التكريم من تشويهٍ، وأوضح أسلوب تكريمها الحقّ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ هذا الكتاب قد أَلهم تقوى العديدين من أعلام الكنيسة وأرشد مسيرتهم، وفي طليعتهم البابا يوحنّا بولس الثاني، الذي اقتبس منه شعار بابويّته «كلّي لكِ» (TOTUS TUUS)

١ - في ما يلي بعض مقاطع من هذا البحث:

«إنّني أرى سبعة أصنافٍ من الأَتقياء الزائفين ومن التكريم الزائف للعذراء القدّيسة. فثمّة:

١- الأتقياء النقّادون. ٢- الأتقياء المَوسَوسون. ٣- الأتقياء الخارجيّون. ٤- الأتقياء المعتدّون. ٥- الأتقياء المتقلّبون. ٦- الأتقياء المراؤون. ٧- الأتقياء بدافع المصلحة.

الأتقياء **النقّادون** هم، عمومًا، متعلّمون متكبّرون، مزهوّون بذواتهم ومتبجّحون، يكمن في أعماقهم شيءٌ من التقوى للعذراء القدّيسة، غير أنّهم يتناولون بالنقد كلّ مظاهر التقوى التي يبديها القوم البسطاء، ببساطةٍ وخشوعٍ، لتلك الأمّ الطيّبة، لأنّ هذه الممارسات لا تروق لهم.

أمثال هؤلاء المتكبّرين الذين يغلب عليهم روح العالم، هم مبعث خشيةٍ، ويلحقون أذًى فادحًا بتكريم العذراء القدّيسة، ويبعدون عنها العامّة إبعادًا وبيلاً، بحجّة مكافحة الإسراف في تكريمها.

والمكرّمون **المُوسَوسون** هم الذين يخشون الإساءة إلى الابن بتكريم أُمّه، ويخشون الحطّ من قدره برفعها عاليًا. لا يطيقون أن تحاط العذراء بالمدائح التي تستأهلها، والتي أغدقها عليها الآباء القدّيسون؛ وتشقّ عليهم رؤية الحشود أمام هيكل مريم أكثر ممّا يشهدون أمام القربان المقدّس، ولكأنّ أحدهما معادٍ للآخر، ولكأنّ الذين يصلّون للعذراء القدّيسة لا يصلّون، من خلالها، ليسوع المسيح. إنّهم يأبون الإمعان في التحدّث عن تلك الملكة السامية أو في مخاطبتها. وإليكم بعض العبارات التي غالبًا ما يدلون بها:

ما الجدوى من الإسراف في تلاوة المسبحة، ومن كثرة الأخويّات، ومن مظاهر تكريم العذراء الخارجيّة؟ ما ذلك إلا نتيجة الجهل، وتحويل ديننا إلى تصنُّعٍ مضحكٍ! حدّثونا، بالأحرى، عمّن يكرّمون يسوع المسيح؛ فإليه ينبغي أن نتوجّه، إنّه وسيطنا الوحيد. وبه ينبغي التبشير، فهو الشيء المنيع.

إنّ ما يقولونه يتّسم بشيءٍ من الصحّة، ولكنّه يصبح على جانبٍ كبيرٍ من الخطورة، وفي تطبيقهم له، يؤدّي إلى منع تكريم العذراء القدّوسة. وبحجّة نشدان

خيرٍ أَسمى، يقعون في شرك الشرّير، إذ لا تكريم ليسوع المسيح أعظم من تكريم العذراء القدّيسة، ولا يمكن تكريمها إلاّ بغية تكريم يسوع المسيح تكريمًا أكمل. لا أحد يمضي إليها إلاّ بصفتها الطريق المفضي إلى الغاية، أي إلى يسوع...

أمّا الأتقياء **الخارجيّون** فهم الذين يقصرون تقواهم حيال مريم على ممارساتٍ خارجيّةٍ؛ الذين لا يتذوّقون، من تكريم العذراء القدّيسة، سوى ظاهره، من جرّاء افتقارهم إلى الروح الداخليّ. يتلون العديد من المسابح على عجلٍ، ويحضرون الكثير من القداديس بلا انتباهٍ، وينضمّون إلى كلّ الأخويّات غير مكترثين بإصلاح سيرتهم، وغير ممارسين أيّ ضغطٍ على أهوائهم، وبمعزلٍ عن أيّ سعيٍ للتمثّل بفضائل العذراء القدّوسة. لا يحبّون من التقوى إلاّ ما هو محسوسٌ، ولا يتذوّقون ما فيها جوهريٌّ ومنيعٌ. وإن لم ترافق ممارساتهم مشاعر قويّةٌ، يخيّل إليهم أنّهم لا يفعلون شيئًا، فيتقاعسون، ويتخلّون عن كلّ شيءٍ، أو تصبح ممارساتهم عشوائيّةً. إنّ العالم يزخر بهؤلاء الأتقياء الظاهريّين، الذين ينتقدون العابدين الحقيقيّين، المنكبّين على الداخل، بصفته الجوهريّ، يحتقرون مظاهر التواضع المواكب لكلّ عبادةٍ حقيقيّةٍ.

الأتقياء **المعتدّون** هم خطأة مستسلمون لأَهوائهم، كلِفون بالعالم، يخفون تحت ادّعائهم المسيحيّة، وتكريم السيّدة العذراء، الكبرياء، أو البخل، أو الدنس، أو السكر، أو الغضب، أو استخدام اسم الله بالباطل، أو النميمة، أو الظلم، إلخ... ومع كلّ هذه النقائص ينامون بسلامٍ، ملء جفونهم، ولا يبذلون أيّ جهدٍ بُغيةَ إصلاح نفوسهم، بحجّة تكريمهم العذراء، ويعدون أنفسهم بصفح الله، وبأنّ الله لن يسمح بموتهم بلا اعترافٍ، ولن يدينهم، لأنّهم يتلون المسبحة، ويصومون في أيّام السبت، ولأنّهم أعضاء في جمعيّات، ويرتدون ثوب العذراء أو زنّارها. وعندما يُقال لهم إنّ تقواهم ليست سوى وهمٍ شيطانيٍّ، وادّعاءٍ وبيلٍ كفيلٍ بالإفضاء بهم إلى جهنّم، يجيبون أَنّ الله طيّبٌ ورحيمٌ، وأنّه لم يخلقهم لكي يدينهم، وأنّ ما من إنسانٍ لا يخطأ...

لا شيء، في المسيحيّة، أحقّ بالإدانة من هذا الادّعاء الشيطانيّ. فهل يسوغ ادّعاء محبّة العذراء وتكريمها لمن، بخطاياه، يطعن أعضاء ابنها يسوع، ويصلبه، ويهينه بلا رحمةٍ؟ ولو كان من شِيَم العذراء أن ترحم وتخلّص هذه الفئة من الناس، فإنّها تفسح فُرَص الجريمة، وتسهم في صلب ابنها الإلهيّ وإهانته...

الأتقياء **المتقلّبون** هم الذين يكرّمون العذراء بين فينةٍ وفينةٍ، على هواهم. وهناك الذين يكرّمون العذراء **بدافع المصلحة**، ولا يلجأون إليها إلاّ بغية كسب دعوى، أو تفادي خطرٍ، أو الشفاء من مرضٍ، أو أيّة مصلحةٍ أُخرى؛ وفي ما عدا ذلك لا يذكرونها...

بعد أن كشفنا النقاب عن ضروب التكريم الزائف للعذراء القدّيسة، لا بدّ من تبيان أوجه التقوى الصادقة، فهي: **داخليّة – رقيقةٌ – مقدّسةٌ – دائمةٌ – مجرّدةٌ**.

١ – تكريم العذراء الحقيقيّ هو **داخليٌّ** أي إنّه ينبع من القلب والفكر، ومن تقدير العذراء القدّوسة، ومن الفكرة السامية التي كُوِّنت عن عظمتها، وممّا يُكنّ لها من حبٍّ.

٢ – وهو **رقيقٌ**، أي مفعمٌ ثقةً في العذراء الكلّيّة القداسة، مثل ثقة الابن بعطف أمّه. وهو يجعل النفس تلجأ إليها، في كلّ حاجات الجسم والروح، في كثيرٍ من البساطة، والثقة، والرقّة، والتماس عونها العطوف في كلّ زمنٍ، وكلّ مكانٍ، وفي كلّ حالٍ: في الشكّ من أجل تبديده، في التيه من أجل الرجوع عنه؛ في التجارب طلبًا للعون؛ في الوهن التماسًا للقوّة، في السقطات، طلبًا للنهوض؛ في الإحباط، طلبًا للتشجيع؛ في الوساوس طلبًا للانعتاق منها؛ في الصلبان، ومهامّ الحياة وبلاياها، طلبًا للعزاء.

إنّه من الطبيعيّ الاستغاثة بالعذراء القدّوسة، حين تلمّ بنا آلام الجسد والروح هذه، على ألاّ ينتابنا أيّ خوفٍ من إزعاج هذه الأمّ الطيّبة، أو إغضاب يسوع المسيح.

٣ – وتكريم العذراء الصحيح **مقدّسٌ**، أي إنّه يحمل النفس على تحاشي الخطيئة، والاقتداء بفضائل العذراء الكلّيّة القداسة، ولا سيّما تواضعها السحيق، وإيمانها الحقّ، وطاعتها العمياء، وصلاتها المستمرّة، وتضحياتها الشاملة، وطهرها الإلهيّ، ومحبّتها المضطرمة، وصبرها البطوليّ، وعذوبتها الملائكيّة، وحكمتها الإلهيّة. تلك هي فضائل العذراء القدّوسة العشر، الرئيسة.

٤ – تكريم العذراء الحقّ **دائمٌ**، وهو يرسّخ النفس في الخير؛ ويحملها على ألاّ تتخلّى، بيُسرٍ، عن الممارسات التقويّة؛ ويهبها الجرأة على مقاومة أزياء العالم وحِكَمَه، ومقاومة شهوات الجسد وأهوائه، ومقاومة تجارب إبليس. ومن ثمّ، فإنّ

المكرّم الحقّ للعذراء القدّوسة ليس متقلّبًا، حزينًا، موَسوسًا، خائفًا. وقد يطرأ على حساسيّته وتقواه تغييرٌ؛ ولكنّه عندما يكبو ينهض، وهو مادٌّ يده نحو أُمّه الطيّبة؛ وإن هو فقد الاندفاع، والإحساس بعذوبة التقوى، لا يكتئب؛ فالوفيّ في تكريمه للعذراء يحيا بالإيمان بيسوع وبمريم، لا بمشاعر الطبيعة.

٥ – وأخيرًا، تكريم العذراء القدّوسة **متجرّدٌ**، أي إنّه يلهم النفس ألاّ تنشد ذاتها في أمّها القدّوسة، بل أن تنشد الله وحده. والمكرّم الحقّ لمريم لا يخدم هذه الملكة السامية بدافع الربح والمصلحة، ولا التماسًا لخيراتٍ زمنيّةٍ، أو جسديّةٍ، أو روحيّةٍ، بل فقط لأنّها تستأهل أن تُخدَم، وأن يُخدَم الله وحده فيها. وهو لا يحبّ مريم لأنّها تؤتيه خيرًا، أو لأنّه يرجو منها خيرًا، بل لأنّها تستأهل الحبّ. وبالتالي، فهو يحبّها ويخدمها بنفس الوفاء، في حالات النفور والجفاف، كما في حالات العُذوبة والاندفاع؛ يحبّها على الجلجلة بقدر ما يحبّها في عرس قانا. آه! كم إنّ هذا المكرّم للعذراء القدّيسة، الذي لا يلتمس لنفسه شيئًا من خلال خدماته لها، ثمينٌ في عيني الله وعيني أمّه القدّيسة! ولكن ما أندر أمثال هذا الآن!

... فليكن للعذراء القدّوسة من الأبناء، والخدّام، وعبيد الحبّ، أكثر من أيّ وقتٍ، وبذلك سيملك سيّدي يسوع المسيح، أكثر من أيّ وقتٍ، على القلوب!

* * * * * * *

التكريم الجوهريّ لمريم، هو عمل كلّ شيءٍ، معها، أي اتّخاذها نموذجًا كاملاً لكلّ ما يتوجّب فعله.

ومن ثمّ، قبل اضطلاعنا بأيّ شيءٍ، علينا الزهد بذواتنا وبآرائنا، والتلاشي أمام الله، معترفين بعجزنا، بقوانا الخاصّة، عن أيّ عملٍ فائق الطبيعة، كفيلٍ بخلاصنا. فلا بدّ من اللجوء إلى العذراء القدّوسة، ومن الاتّحاد بها وبمقاصدها، حتّى إن خفيت عنّا؛ لا بدّ من الاتّحاد بمقاصد يسوع، من خلالها، أي وضع الذات أداةً في يديها، كي تعمل فينا، وبنا، ومن أجلنا، كما تشاء، لمجد ابنها الأعظم، ومن خلال ابنها يسوع، لمجد الآب، وبحيث لا نظفر بحياةٍ داخليّةٍ، وبعملٍ روحيٍّ، إلاّ بالاعتماد عليها».

من أقوال القدّيس لويس ماري غرينيون دي مونفور
(من كتابه «سرّ مريم»)

١ – مريم فردوس الله

«مريم هي فردوس الله، وعالمه الفائق الوصف، الذي ولجه ابن الله كي يحقّق فيه عجائب... لقد أبدع الله عالمًا للإنسان المسافر، هو هذه الدنيا، وعالمًا من أجل الأبرار هو الفردوس، وعالمًا من أجله هو، سمّاه مريم...»

«مغبوطةٌ، بل ألف مرّةٍ مغبوطةٌ، النفس التي يكشف لها الروح القدس عن سرّ مريم كي تعرفها؛ والتي يفتح لها ذلك البستان المغلق كي تلجه، وهذا النبع المختوم كي تستقي منه، وتتناول منه جرعاتٍ كبيرةً من مياه النعمة الحيّة! فتلك النفس لن تجد، في تلك المخلوقة العذبة، سوى الله وحده، ولكنّه الله الكلّيّ القداسة والسموّ، وفي الآن عينه، الله المتنازل، بلا حدودٍ، إلى مستوى وهنها. الله موجودٌ في كلّ مكانٍ، ويمكن العثور عليه في كلّ مكانٍ، حتّى في الجحيم. ولكن، ليس هناك مكانٌ حيث بوسع الخليقة أن تجد الله على مقربةٍ منها، ومتنازلاً إلى وهنها، مثلما يجده في مريم، بما أنّه لهذه الغاية انحدر إليها. في كلّ مكانٍ آخر، الله هو خبز الأقوياء والملائكة، ولكنّه، في مريم، هو خبز الأبناء الصغار...»

٢ – دعاء للعذراء مريم

«السلام عليك يا محبوبة الآب الأزليّ؛ السلام عليك يا أمّ الابن الرائعة؛ السلام عليك، يا عروسة الروح القدس الفائقة الوفاء؛ السلام عليك، يا مريم، يا أُمّي الحبيبة، يا سيّدتي الفاتنة، ويا سلطانتي القديرة؛ السلام عليك، يا فرحي ومجدي، يا قلبي ونفسي. الرحمة جعلتكِ، بكلّيّتكِ لي، والعدل جعلني بكلّيّتي لكِ. ولكنّني لست، بعدُ، لكِ، بالقدر الكافي، ولذلك أهبكِ كلّ ذاتي، مجدّدًا، بصفتي عبدًا أبديًّا، غير محتفظٍ بشيءٍ لنفسي، أو لآخر.

إن كنتِ لا تزالين ترين فيَّ شيئًا لا يخصّك، أتوسّل إليك أن تأخذيه في الحال، لكي تكوني السيّدة المطلقة على كلّ قواي؛ وأن تدمّري، وتجتثّي، وتلاشي كلّ ما لا يروق، فيّ، لله، وأن تغرسي، وتنمّي، وتفعّلي كلّ ما يرضيه.

وليبدّد نور إيمانك ظلمات فكري. وليحلّ تواضعكِ السحيق محلّ كبريائي؛ وليلجم تأمّلك السامي تشتّت خيالي الجامح؛ ولتملأ رؤيتكِ الدائمة للّه ذاكرتي بحضوره؛ وليضرم حريق محبّة قلبك فتور قلبي وبرودته، وليوسّع آفاقه؛ ولتحلّ فضائلك محلّ خطاياي؛ ولتكن استحقاقاتكِ زينتي أمام اللّه. وأخيرًا يا أُمّي الحبيبة، اجعلي، إن أمكن، ألاّ يكون لي من فكرٍ سوى فكرك، لكي أعرف يسوع المسيح، ومشيئاته الإلهيّة؛ وألاّ يكون لي من نفسٍ سوى نفسكِ لكي أُمجّد اللّه وأعظّمه؛ وألاّ يكون لي من قلبٍ سوى قلبكِ كي أُحبّ اللّه بمثل طهر حبّك له وحرارته.

لست أسألكِ رؤًى وإيحاءاتٍ، ولا متعًا، حتّى إن كانت روحيّةً. فلكِ وحدكِ أن تري ولاتغشى رؤيتك ظلمةٌ؛ ولك أن تتذوّقي، ولا يشوب تذوّقك مرارةٌ؛ ولك أن تنتصري، بمجدٍ، على يمين ابنك، في السماء، بمنأًى عن أيّة مهانةٍ؛ ولك أن تأمري أمرًا مطلقًا، الملائكة، والبشَر، والأبالسةَ، بلا مقاومةٍ؛ ولك، أخيرًا، أن تتصرَّفي، كما تشائين، بكلّ خيرات اللّه، بلا أيّ تحفّظٍ.

هذا هو النصيب الصالح الذي وهبكِ إيّاه الربّ، والذي لن يُنزَع منكِ. وهذا ما يفعمني فرحًا جمًّا. وأنا، من جهتي لستُ أبتغي، في هذه الدنيا، إلاّ مثل ما نلتِ: أي الإيمان الصافي، بمعزلٍ عن أيّ تذوّقٍ أو رؤيةٍ؛ والتألّم الفرِح، بمنأًى عن أيّ عزاءٍ بشريٍّ؛ والموت المطّرد عن ذاتي، بلا هوادةٍ؛ والعمل بقوّةٍ، حتّى الموت، من أجلك، بمنأًى عن أيّة غايةٍ أو مصلحةٍ، مثل أحقر العبيد. والنعمة الوحيدة التي ألتمسها منكِ، بمحض رحمتكِ، هي أن أقول، في كلّ يومٍ، وفي كلّ لحظةٍ، ثلاث مرّاتٍ: آمين. آمين لكلّ ما فعلت، في أثناء حياتك، على الأرض؛ وآمين لكلّ ما تفعلينه، الآن، في السماء؛ وآمين لكلّ ما تجرينه في نفسي، لكي لا يكون فيها سواكِ، تمجيدًا كلّيًّا ليسوع فيّ، في الدهر وفي الآخرة، آمين».

٣ – شفاعة العذراء

«إنّ العذراء القدّوسة أمٌّ رقيقةٌ ورحيمةٌ، ولا تدع أحدًا يبذّها حبًّا وسخاءً، فإن وهبها أيّ إنسانٍ كلّ ذاته، كي يكرّمها ويخدمها، وإن هو تجرّد من أغلى ما يملك كي يزيّنها، فهي، أيضًا، تهبه ذاتها كلّيّةً، هبةً تفوق الوصف. إنّها تغرقه في هوّة نعمها، وتزيّنه بكراماتها، وتدعمه بقدراتها، وتنيره بضيائها، وتلهبه بحبّها، وتبثّه

فضائلها: تواضعها، وإيمانها، وطهرها... وتغدو له الكفيل، والرديف، وكلّ شيءٍ حيال يسوع. وبالإجمال، كما أنّ الإنسان المكرّس لمريم هو، بكلّيّته لها، هي، أيضًا، بكلّيّتها له...»

«ما أقدر وما أقوى، لدى يسوع المسيح، الإنسان المتسلّح باستحقاقات أُمّ اللّه الجليلة وبشفاعتها! فهي، على حدّ قول القدّيس أوغسطينُس، قد غلبت الكلّيّ القدرة، حبًّا».

«حيث مريم، لا وجود للروح الشرّير. إنّما في تكريم العذراء، وسكناها في البال، والتحدّث عنها باطّراد، إشارةٌ أكيدةٌ إلى أنّ الروح الصالح هو الذي يتولّى القيادة. ويضيف أحد القدّيسين أنّه مثلما يدلّ التنفّس على أنّ الجسد ما زال حيًّا، فالتفكير المطّرد بالعذراء مريم، والتماس شفاعتها بحبٍّ، دليلٌ دامغٌ على أنّ الخطيئة لم تُشِع الموتَ في النفس».

٤ – ضرورة تكريمٍ سليمٍ للعذراء القدّيسة

«... كم شاسعٌ هو البون بين نفس صيغت على مثال يسوع المسيح بالأساليب المعهودة، أساليب الذين، على غرار المثّالين الواثقين بمهارتهم، المتّكلين على فنّهم، ونفسٍ أخرى سلسلة القياد، حسنة السبك، غير معتمدةٍ على ذاتها، ترتمي بين يدي مريم، وتستسلم لقيادة الروح القدس! كم في النفس الأولى من لوثاتٍ، ومثالب، وبشريٍّ، وكم الأُخرى طاهرةٌ، إلهيّةٌ، وشبيهةٌ بيسوع!

ما من خليقةٍ، ولن يكون أبدًا من خليقةٍ حيث حضور اللّه هو أعظم من وجوده في مريم، بلا استثناءٍ لا للطوباويّين، ولا للشيروبيم، ولا لأسمى السيرافيم، ولا حتّى في الفردوس. فمريم هي فردوس اللّه، وعالمه الذي لا يوصف، حيث دخل ابن اللّه كي يجري معجزاتٍ...

لا نتخيّلنّ، على غرار بعض المدّعين، أنّ مريم، بصفتها خليقةً، هي حائلٌ دون الاتّحاد بالخالق. فليست مريم، بعدُ، هي التي تحيا، بل إنّ يسوع المسيح وحده، اللّه وحده، هو الذي يحيا فيها.... لم توجد مريم إلاّ من أجل اللّه وحاشى لها أن تستبقي نفسًا لذاتها، بل هي، على نقيض ذلك، تقذفها إلى أحضان اللّه، وتوحّدها به، وسيكون هذا الاتّحاد كاملاً بمقدار ما يكون اتّحاد تلك النفس بالعذراء وثيقًا.

مريم هي صدى اللّه الرائع، الذي يجيب: اللّه، عندما يُهتف باسم مريم؛ ولا يمجّد سوى اللّه، عندما تدعى مريم، كما دعتها إليصابات، طوباويّةً. لقد خدع إبليس مدّعي العلم، خداعًا ذريعًا، حتّى في صلاتهم. ولو هم وجدوا مريم، ومن خلال مريم وجدوا يسوع، ومن خلال يسوع وجدوا اللّه، لما تردّوا إلى تلك الدركات السفلى. فمن اتّفق له أن وجد مريم، ومن خلال مريم وجد يسوع، ومن خلال يسوع وجد اللّه الآب، فقد وجد كلّ خيرٍ بلا استثناءٍ: كلّ نعمةٍ وكلّ حظوةٍ لدى اللّه؛ وكلّ أمانٍ في مواجهة أعداء اللّه، وكلّ حقيقةٍ في مواجهة الكذب؛ وكلّ يُسرٍ وكلّ انتصارٍ على مصاعب الخلاص؛ وكلّ عذوبةٍ وكلّ فرحٍ في مرارات الحياة.

هذا لا يعني أنّ من وجد العذراء، عن طريق تكريمٍ صادقٍ، يُعفى من الصلبان ومن الآلام، بل إنّه، على نقيض ذلك، يهاجَم أكثر من سواه، لأنّ مريم، بما أنّها أمّ الأحياء، تهب جميع أبنائها أجزاء من شجرة الحياة، أي من صليب يسوع. ولكنّها إذ تقتطع لهم هذه الصلبان المباركة، تهبهم نعمة حملها بصبرٍ، لا بل بفرحٍ. وبالتالي فإنّ الصلبان التي تزوّد بها من يخصّونها هي صلبانٌ عذبةٌ، وليست صلبانًا مريرةً، وإن كان لها، لفترةٍ، طعم مرارة الكأس التي لا بدّ من ارتشافها من أجل اكتساب صداقة اللّه، فإنّ العزاء والفرح اللّذين تُتبع بهما تلك الأمّ العطوف مشاعر الحزن، تمثّل حافزًا قويًّا إلى تنكّب صلبانٍ أثقل وقرًا، وأشدّ مرارةً.

الصعوبة، إذن، هي في التوفّق إلى العثور الحقّ على مريم الإلهيّة، من أجل العثور على غزارة النعمة. إنّ اللّه، بما أنّه السيّد المطلق، بوسعه، أن يبلّغ بذاته ما لا يبلّغه، عادةً، إلاّ بمريم. ومن المؤكّد أنه يفعل ذلك أحيانًا. غير أنّه، وفق النظام الذي أقرّته حكمته، لا يبلّغ ذاته للبشر، عمومًا، إلاّ عبر مريم، في دنيا النعمة، على حدّ قول القدّيس توما. ولا بدّ، من أجل الارتقاء إليه، والاتّحاد به، من استخدام الأُسلوب ذاته الذي استخدمه، هو، من أجل الانحدار إلينا، كي يتأنّس ويبلّغنا نعمه. هذا الأُسلوب هو تكريم العذراء تكريمًا سليمًا».

٥ – صلاة تكريس

«إنّني أختارك، اليوم، يا مريم،
بحضور كلّ البلاط السماويّ،

أُمًّا لي، وملكةً.

أُسلّمك، وأكرّس لك، بكلّ خضوعٍ وحبٍّ، جسدي ونفسي، وخيراتي الداخليّة والخارجيّة، وقيمة أعمالي الصالحة، الماضية، والحاضرة، والمستقبلة.

وأدع لك، كاملاً، حقّ التصرّف بي، وبكلّ ما أملك،

بلا استثناءٍ، كما يروق لك،

لأجل مجد الله الأعظم،

في هذا الزمن وفي الأبديّة».

٦ – ما الذي ينظر إليه الله؟

«ما الذي ينظر إليه الله على الأرض؟ ألملوك والأباطرة الجالسين على عروشٍ؟

إنّه غالبًا ما ينظر إليهم بازدراءٍ. أنتصارات الجيوش الكبرى؟... ألحجار الكريمة، وما هو عظيمٌ في عيون البشر؟ «إنّ الرفيع عند الناس هو رجسٌ عند الله» (لوقا ١٦: ١٥). ما الذي، إذن، يحطّ الله عليه نظره بسرور؟... إنّه إنسانٌ يناضل في سبيل الله... إنسانٌ يحمل صليبه بفرح... ربّ أُسرةٍ لن يتكلّم عنه أحدٌ يومًا، ولدٌ يصلّي ولا يدري عنه أحدٌ شيئًا، راهبةٌ تضحّي بذاتها في صمتٍ. هؤلاء هم من ينظر الله إليهم مثلما نظر إلى أَمَته مريم، التي أخفت ذاتها «في أعماق العدم».

٧ – صلاة

«بجمٍّ من البساطة، والثقة، والحنان،
نلتفت نحوك، أيّتها العذراء القدّيسة.
أنت تعلمين أنّنا «فقراء»، ونحتاج إلى كلّ شيءٍ،
وأنّك أُمّنا الكلّيّة القدرة.
ولذلك لا نتردّد في اللجوء إليك، من أجل كلّ احتياجاتنا الجسديّة والروحيّة:
عندما تساورنا الشكوك، لكي تنيرينا.
وعندما نضلّ، لكي تقوّمينا،

وعندما تداهمنا التجارب، لكي تساندينا،
وعندما نضعف لكي تقوّينا،
وعندما نكبو، لكي تنهضينا
وفي جميع صلباننا، وتناقضات الحياة، لكي تعزّينا.

غير أنّنا، إذ نكرّس ذواتنا ليسوع بواسطتك،
فليس ذلك، أوّلاً، من أجل ما تؤتينا من إحسانٍ،
أو من أجل ما تسدينه لنا من خدماتٍ،
بل، بكلّ بساطةٍ، لأنّك تستأهلين أن نحبّك، ونحبّ الله فيكِ،
لأنّك مريم، ولأنّ يسوع هو ابنك».

٨ - أقوالٌ متفرّقةٌ

- «لم تسلك مريم، قطُّ، بإيحاء روحها الخاصّ، بل دائمًا بوحي روح الله الذي سادها بحيث أصبح هو روحها».

- «مثلما تستلزم الولادة الطبيعيّة والجسديّة أبًا وأُمًّا كذلك في الولادة الفائقة الطبيعة والروحيّة، ثمّة أبٌ هو الله وأمٌّ هي مريم».

- «لقد عهدت حياة مريم تناميًا جمًّا في نعمة الله وحكمته، ووفاءً كاملاً لحبّه، بحيث أثارت إعجاب الله نفسه، الذي فتنه تواضعها السحيق حتّى العدم، واجتذبه طهرها الإلهيّ، وأثّر فيه إيمانها الحيّ، وصلواتها المطّردة المفعمة حبًّا. تلك الممارسات المُحبّة استحوذت على حبّ الحكمة الإلهيّة... يا لحبّ مريم الذي غلب الكلّيّ القدرة!»

- «بقدر ما يجد الروح القدس مريم في نفسٍ، يصبح أكثر فاعليّةً وقدرةً على توليد يسوع المسيح في تلك النفس، وعلى توليد تلك النفس في يسوع المسيح».

- «على مكرّم العذراء ألاّ يطمع، منها، إلاّ بمكافأة «شرف» الانتماء إليها، وإلاّ بسعادة الاتّحاد بيسوع بواسطتها».

- «مهما كان ضئيلاً ما نهبه لمريم، فهي تهب الكثير ممّا تلقّته من الله. وإذا وهبتها نفسٌ ذاتها بلا تحفّظٍ، فهي، أيضًا، تهب هذه النفس ذاتها بلا تحفّظٍ.»

– «لا أحد يتغلّب عليها في الحبّ... وإذ ترى من يهبها ذاته كلّيّةً، فهي تهبه ذاتها بالكامل، وعلى نحوٍ يندّ عن الوصف. إنّها تُغرقه في هوّة نِعَمها... وتلهبه بحبّها، وتنفث فيه إيمانها، وتصبح له كلّ شيء لدى يسوع. وبما أنّ هذا الشخص مكرّس كلّيًّا لها، فهي، أيضًا، بكلّيّتها له...

– «بما أنّ مريم هي بين الخلائق كلّها الأوثق توافقًا مع يسوع المسيح، فإنّ من كلّ الممارسات التقويّة، تلك التي تكرّس نفسًا للربّ وتجعلها على توافقٍ معه، هي تكريم العذراء مريم، أُمّه القدّيسة؛ وبقدر ما تكون نفسٌ مكرَّسةً لمريم، تكون أكثر تكريسًا ليسوع المسيح».

القدّيس أَلفونس دي ليغوري (١٦٩٦ – ١٧٨٧)

هو من المريميّين الكبار. كتابه الشهير «أَمجاد مريم» تُرجم إلى معظم لغات العالم وبيعت منه ملايين النسخ. وما زال حتّى اليوم يُعاد طبعه.

وقد خاطب، في مقدّمة هذا الكتاب، العذراء بقوله:

«مُدّي يدك الفائقة الرقّة التي نجّتْني من العالم ومن الجحيم، وتقبّلي كتابي هذا، واحميه وكأنّه خاصّتك. ولكن اعلمي أنّني أتوقّع منك مكافأةً على هذه التقدمة الوضيعة: أن تجعلي حبّي لك، بعد الآن، أشدّ اضطرامًا، وأن يلتهب حبًّا لك كلّ من يقع هذا الكتاب بين يديه، وأن يشهد، في الحال، تعاظم رغبته في حبّك، وفي رؤية الآخرين يحبّونك، وبالتالي، أن يعمل، بكلّ قلبه، على نشر مدائحك، وأن يضاعف، بقدر ما يستطيع، لدى الآخرين، الثقة في شفاعتك القديرة».

١ – صلوات أمٍّ

«من المحقّق أنّ يسوع المسيح يجلس الآن، في السماوات، عن يمين الآب... ولكنّه من المؤكّد، أيضًا، أنّه، في أثناء حياته على هذه الأرض، قد شاء أن يتواضع حتّى الخضوع لمريم... وبما أنّه تنازل فجعل من مريم أُمّه، كان عليه أن يقدّم لها واجبات الطاعة البنويّة... جميع القدّيسين خضعوا لأوامر اللّه. ولكنّ مريم نالت حُظوةً كبرى. فهي لم تكن خاضعةً لمشيئة اللّه فحسب، بل رأت اللّه يخضع لإرادتها...

من ثمّ، إن لم يعد بوسع مريم، في السماء، أن تأمر ابنها، إلاّ أن صلواتها ما برحت صلوات أُمٍّ، وبالتالي تتمتّع بجدوى مدهشةٍ من أجل الظفر بكلّ ما تسأل. هذا هو، على حدّ قول القدّيس بوناڤانتورا، امتياز مريم الأكبر: إنّها تنعم بقدرةٍ كلّيّةٍ تؤهّلها للظفر بكلّ ما تشاء من ابنها الإلهيّ، بواسطة صلواتها... فهذه الصلوات هي صلوات أُمٍّ».

٢ – ملكة الرحمة

«العذراء ملكة، ولكنّها ليست ملكة العدالة التي تقتضي منها وظيفتها معاقبة المسيئين، بل هي ملكة الرحمة، ومهمّتها الوحيدة هي أن ترأف بالخطأة، وأن تنال لهم الغفران. فقد شاء الله أن تمرّ بيديها كلّ النعم التي يغدقها على البشر.

ما من خاطئ، مهما أَمعن في الإجرام، يهلك، إن رحمته مريم.

لا يظهر في شخصها أيّ مظهرٍ رهيبٍ أو صارمٍ، ولا تبدي لمن ينشدها سوى الرقّة والعطف، وتقدّم له لبن الرحمة كي توطّد ثقته، وصوف حمايتها الواقعيّة من صواعق العدالة الإلهيّة».

٣ – شرف خدمة العذراء

«إنّني أعدّ شرف خدمتكِ أعظم من شرف حكم الأرض كلّها... وأريد ألاّ يكرّمك، بعد اليوم، أحدٌ، وألاّ يحبّك، أكثر منّي».

٤ – حبّ مريم للبشر

«لو جمعنا، معًا، حبّ جميع الأمّهات لأبنائهنّ، وجميع الأزواج لزوجاتهنّ، وحبّ جميع القدّيسين والملائكة لمن هم تحت حمايتهم، لما ساوت جميع ضروب الحبّ هذه، مجتمعةً، حبّ مريم لنفسٍ واحدةٍ. وما حنان جميع الأُمّهات حيال أبنائهنّ سوى خيالٍ لما توليه مريم من حنانٍ لكلٍّ منّا.

لكي تلدنا على حياة النعمة، كان لا بدّ لها – ولعذاب قلبها – من أن تضحّي بحياة يسوعها الغالية، وأن ترضى برؤيته بعينيها يموت تحت هذه الآلام... ونحن

مدينون لهذه التضحية العظمى، بحياة النعمة التي نلناها. إنّ عطف مريم علينا، على الأبناء الذين كلّفوها كلّ هذه المشاقّ، هو عطفٌ أقصى. ومثلما قيل عن الآب إِنّه «أحبّ العالم حتّى إنّه بذل ابنه، وحيده، لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة» كذلك يمكن القول عن مريم.

ما من كائنٍ يحبّنا مثلما أحبّتنا تلك التي ضحّت، في سبيل خلاصنا، بوحيدها، بابنٍ كان لها أغلى من حياتها».

٥ – مريم الشفيعة (أقوالٌ متفرقة)

«من شاء ألاّ تطيح به العاصفة، فليتطلّع إلى مريم، وليستغث بها!»

«لا يمكن أن تهلك نفسٌ تكرّم الأمّ الإلهيّة بغيرةٍ وتواضعٍ. فهي لا تردّ خاطئًا مهما كان ملطّخًا بالحمأة. وفي يوم الدينونة، مهما كانت هاويةً كفّة الخاطئ، فهي، بضغطٍ من يدها على كفّة مساوئه، ترتفع كفّة حسناتة التي تؤتيه الرحمة».

«من أجل الخطأة، أصبحت مريم أُمًّا لإلهٍ هو الرحمة المتجسّدة».

«إنّها تستبق احتياجات أبنائها كما فعلت في عرس قانا».

«اللّه يريد تكريم أمّه بتحقيق طلبات البشر التي تقدّم له بواسطتها».

«إنّها باب السماء. كلّ إنعامٍ ملكيٍّ يمرّ من باب القصر. وكلّ من يدخل إلى القصر عليه العبور من هذا الباب».

«يقول القدّيس أنتونان: «من يدّعي الحصول على النعم بمعزلٍ عن وساطة مريم يحاكي من يدّعي القدرة على الطيران بلا أجنحة». فقد أوكل إليها اللّه خلاصنا».

«عندما تتوسّط مريم من أجل نفسٍ، فإنّ جميع سكّان السماء من قدّيسين وملائكة ينضمّون إلى شفاعتها، ويشاركونها».

«لقد أسرّت العذراء للأُخت ماري فيلاّني: «بعد لقب أمّ اللّه، أتشرّف بأن أُدعى محامية الخطأة».

وهل من شفاعة أقوى وأجدى من شفاعة من هي، في آنٍ واحدٍ، أمّ الديّان،

وأمّ الرحمة؟ القدّيسة بريجيت سمعت، يومًا، يسوع يقول لأمّه: «أُمّاه، اطلبي منّي كلّ ما ترغبين فيه». وسمعت مريم تجيب: «إنّما أطلب الرحمة للبائسين».

الأب غرو (١٧٣١– ١٨٠٣)

Le Père GROU

كاهنٌ يسوعيٌّ، خاض حياةً قاسيةً وبطوليّةً، بعد أن أُغلقت رهبانيّته قسرًا، ونُفي إلى إنكلترا، حيث توفّي. وقف حياته على الإرشاد والكتابات الدينيّة، وتميّز بتوغّله في نفس يسوع وأُمّه العذراء.

مريم تتلقّى الروح القدس

«حيّا الملاك جبرائيل مريم، مسمّيًا إيّاها الممتلئة نعمةً. وما عسى يمكن أن يضاف إلى هذا الامتلاء؟ لا شيء، في رأينا. ولكن في رأي الله، لم تكن، بعدُ، إلاّ في مستهلّ القداسة التي كان يودّ رفعها إليها. ولّما غادرها الملاك، تلقّت في أحشائها خالق النعمة نفسه. وحدث امتلاءٌ جديدٌ، كان الامتلاء الأوّل، بالمقارنة إليه، فراغًا. ولدى وضعها ابنها حدث فيضٌ جديدٌ من النعمة. وكلّما انتقلت إلى وضعٍ نفسيٍّ جديدٍ، ارتقت إلى مكانةٍ عليا. ومثلما كان يسوع، منذ طفولته، ينمو في الحكمة والنعمة، بشريًّا، هكذا كان شأن مريم. وهو كان دائبًا على تقديسها أكثر فأكثر، بفضل ما كان يخضعها له من مِحَنٍ. ويبدو لنا أنّ التضحية الكبرى التي قدّمتها عند أقدام الصليب قد أكلمت قداستها. وليس بوسعنا تخيّل ما يفوق ذلك.

ولكن من نحن حتّى نضع حدودًا للكمال الذي شاء الله أن يرفع إليه مريم؟ فهو ما زال يملك كنوزا من النعم سيضفيها عليها. ولا بدّ لها من استيفاء هذه الكنوز. فالروح القدس يبتغي إغناءَها بلا حدودٍ؛ وقد حلّ عليها ثانيةً، وبما أنّه هو حبّ الله والابن اللامحدود، فقد وسّع قلب مريم، وجعله رحبًا لكي تمتلئ بكلّ ما تستطيع خليقةٌ طاهرةٌ أن تمتلئ به.

ولكن ما الذي تلقّته؟ هل هي تلقّت على غرار الرسل، مواهب الأَلسن، وإِجراء المعجزات، والنبوءة، والعلم، وجميع النعم الضروريّة لتأسيس دين؟ إنّ هذه المواهب

كلّها، رغم تميّزها، هي دون مريم. إذ إنّ عليها أن تساهم، أكثر من جميع الرسل، ومن جميع خلفائهم في الخدمة المقدّسة، في توسيع رقعة ملكوت ابنها، ولكن ليس بوسائل التبشير وبالمعجزات، بل بحرارة رغباتها، واندفاع حبّها المنقطع النظير. أَجل، سيكون حبّها لابنها، ولجميع البشر الذين غدوا لها أبناءً، العامل الأوفر جدوى في تقدّم المسيحيّة، أكثر من جميع أَعمال الرسل، وخدّام الكنيسة. فهم سيكونون أدواتٍ محدودةً، أمّا مريم فستكون الأداة الشاملة. ولكنّها ستكون أداةً خفيّةً، أداةً لا تعمل في الخارج، ولن تتجلّى قدراتها إلاّ بآثارها الداخليّة. وكان من شأن تواضع مريم أن يتألّم كثيرًا، لو هي خدمت الكنيسة بأسلوبٍ مختلفٍ. صلواتها هي التي ستوفّر لمهمّات الرسل النجاح، ولكن، في أثناء حياتها لن يُنسب لها شيءٌ من هذا النجاح. هي التي ستغدق كلّ نعم ابنها، ولكنّها لن تخطر ببال أحدٍ. ولا يسعني هنا إلاّ أن أُعجب بمدى احترام الله لتواضع مريم، فالتواضع هو فضيلتها الأَثيرة. أيّها التواضع، كم أنت ثمينٌ لدى الله، بما أنّك عزيزٌ على قلب أُمّ الله!

في يوم العنصرة أرسل الروح القدس على التلاميذ أشعّةً من ناره المقدّسة. ولكنّه جمعها كلّها في مريم؛ وارتاح فيها، على نحوٍ خاصٍّ، واخترقها، وألهبها بحرارته... يمكننا القول، بصدقٍ، إنّ الروح القدس لم يهب، قطّ، ذاته، ولن يهب، يومًا، ذاته لخليقةٍ، بمثل فيض انسكابه على مريم. وفي ذلك اليوم حدث، في التلاميذ، تغييرٌ معجزٌ، فتحوّلوا من أشخاصٍ مادّيين، جسديّين، فظّين، إلى روحيّين، مؤلّهين. ولكنّ التغيير الذي تمّ في مريم كان أعظم شأنًا، فهي لم تتحوّل، على غرار الرسل من الوهن والنقص إلى القداسة، بل ارتقت من مستوى كمالٍ سامٍ، إلى مستوى أسمى بلا قياسٍ...

لقد خاضت مريم حياةً عاديّةً، وكانت سعيدةً بخوضها، مؤثرةً إيّاها على كلّ ما من شأنه أن يبدو فريدًا ومدهشًا. لقد عهدت فترة إيحاءاتٍ ومعجزاتٍ، ولكنّها فترةٌ ولّت، وعادت مريم فانغمست في ما هو شائعٌ مألوفٌ، وسُرّت بذلك. لم تعد تتلقّى سفاراتٍ من السماء؛ ولم يعد الله يُنهض لها أمثال إليصابات، وزكريّا، وسمعان، ينبئونها بمصائر ساميةٍ. وها إنّها قد أَمست ربّة بيتٍ في قريةٍ. صلاتها هي صلاة إيمانٍ وعريٍ: فهي تجهل ما يحدث فيها، ولا رغبة لديها في التفكير فيه. فما من خشوعٍ يطغى على الشعور، وما من حضورٍ لله تلمسه وتتذوّقه. ومع ذلك هي لا تني تصلّي، ولكن ببساطة قلبٍ، وبمعزلٍ عن أيّة علامةٍ فارقةٍ. فلا شيء لافتٌ في

ممارساتها التقويّة. النسوة اللواتي كنّ يراقبنَها عن كثبٍ لم يكنّ يرين فيها ما يُدهش، أو يجعلهنّ يقلنَ: إنّ تقوى هذه المرأة فائقةٌ!...»

هنري دومينيك لاكوردير (١٨٠٢– ١٨٦١)

Henri - Dominique LACORDAIRE

واعظٌ مفوّهٌ. أصلح الجمعيّة الدومينيكيّة في فرنسا وكرّس ديرها الأوّل في فرنسا للعذراء سيّدة الانتصارات. تميّز بتقوًى حارّةٍ حيال العذراء، و قد هتف في إحدى عظاته «إنّ مريم، يا سادتي، هي مليكة قلبي».

«السلام عليك يا مريم...»، عندما سمعت مريم هذا السلام، للمرَّة الأولى، من فم جبرائيل، حملت، في الحال، في أحشائها الفائقة الطهر، كلمة الله. والآن كلّما ردّد لها فمٌ بشريٌّ هذه الكلمات التي كانت علامة أمومتها، تتأثّر نفسها لذكرى لحظةٍ لم يكن لها مثيلٌ لا في السماء ولا على الأرض، وتمتلئ الأبديّة بما يغمرها من سعادة...

العقلانيّ يبتسم وهو يرى طابور الذين يردّدون كلمات هذا السلام عينها. ولكن الذي يُضيء نفسه نورٌ أسمى يدرك أنّ الحبّ لا يمتلك سوى كلمةٍ واحدةٍ، وعندما يقولها باستمرارٍ لا يردّدها أبدًا».

ڤيكتور هوغو (١٨٠٢ – ١٨٨٥)

Victor HUGO

من أعظم أدباء فرنسا والعالم. زعيم المدرسة الرومنسيّة في الشعر، وصاحب إنتاجٍ خصبٍ في مختلف ميادين الأدب.

ليلة الجلجلة، ونجمة الصبح

«كانت، هناك، واقفةً، الأمّ الوجيعة،
والظلمة الموحشة، العمياء، الصمّاء، المريعة،
تنتحب من كلّ صوبٍ، حوالي الجلجلة.

أيّها المسيح، لقد أظلم النهار عندما انتزعوك منه،
وذهَبَ نفسك الأخير بكلّ نورٍ.
والأمّ كانت واقفةً، هناك، عند الصليب،
وجال في خاطري: «ذاك هو الألم»، ودنوتُ.
وسألت: «ما الذي تطوين عليه أناملك الإلهيّة؟»
وحينئذٍ، عند أقدام الابن النازف من طعنة الحربة،
رفعت يمينها، وفتحتها، صامتةً،
فرأيت، في يدها، نجمة الصبح!

ماذا، إلهي، أليس هذا الحداد أكيدًا؟
فالأمّ المنتحبة عند أقدام الصليب القاتم،
تشعر بالعزاء، إذ إنّ الشموس تتألّق في ظلّها.
وفيما عيناها الشاردتان تبكيان دمًا،
ينتابها فرحٌ عارمٌ فتهتف:
«ابني هو الله، ابني يخلّص حياة العالم!».
ومع ذلك هل من هولٍ أشدّ قبحًا،
وهل، ثمّة، ما هو أكثر رهبةً، وأسًى، وقنوطًا،
في ذلك الوقت الكئيب، حيث الجنس البشريّ الأسود،
المرتعش حيال المأدبة، والمرتعش حيال الشهيد،
يسمع مريم تبكي، و«تريمالسيون» (إبليس) يقهقه!

نوڤاليس (١٧٧٢- ١٨٠١)

شاعرٌ ألمانيٌّ، مرتدٌّ إلى الكاثوليكيّة

«من يراك، يا أمّاه، يصبح في مأمنٍ من الوقوع في شراك الفساد. ولا شيء، بعدُ، يقلقه إلاّ ما يفصله عنك. إنّه يريد أن يحبّك، دائمًا، بكلّ قلبه، ويظلّ ذكر صنائعك أسمى إلهامٍ لفكره.

«إنّني أَراكِ، في أَلف صورةٍ، يا مريم، مرسومةً بلمساتٍ عذبةٍ. ولكن ما من رسمٍ يفلح في تصويرك مثلما تراكِ نفسي. ولكنّني أعلم أنّني، مذ رأيتك، تلاشى فيّ صخب العالم، تلاشي الحلم، وسكَنت في داخلي، للأبد، سماءٌ لا توصف عذوبتها».

الكردينال جون هنري نيومنّ (١٨٠١- ١٨٩٠)

أسقفٌ بروتستانتيٌّ، ارتدّ إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، وعُيّن كردينالاً. إيمانه الصادق قاده إلى تبيّن أنّ نفور بعض البروتستانتيّين من تكريم العذراء، قد تماشى، دائمًا، مع فتور الإيمان بألوهة يسوع. ولذلك أكّد على خطورة عقيدة أمومة مريم لله، وعلى كلّ تبعات هذه العقيدة

١ - تواضع مريم

«عندما شرع يسوع يكرز، انتحت مريم جانبًا، ولم تتدخّل في عمله. وحتّى عندما عاد يسوع إلى سمائه، لم تتولَّ الوعظ والتعليم، ولم تتبوّأ مقعد الرسالة، ولا مهمّة الكاهن، واقتصرت على نشدان ابنها، بتواضعٍ، في القدّاس الذي كان يحتفل به الرسل كلّ يومٍ. وهؤلاء، مع كونهم خدّامها في السماء، كانوا، على الأرض، رؤساءها في الكنيسة. وفي أعقاب موتها ووفاة الرسل، وتنصيبها ملكةً، وجلوسها إلى يمين ابنها، لم تدعُ الشعب المؤمن إلى إعلان اسمها حتّى أقاصي العالم، أو إلى إبرازها في نظره. ولكنّها انتظرت، بسكون، إلى أن يسهم مجدها في خدمة مجد ابنها. منذ البدء كانت الكنيسة المقدّسة قد أعلنت عبادتها ليسوع، وأَجلّته في هيكله، لأنّه الله، ولم يكن من اللائق أن يُوارى عن تكريم عابديه. ولكنّ أمر مريم كان مختلفًا. فبصفتها خليقةً، وأُمًّا، توجّب عليها أن تترك له الأوّليّة، وأن تكون له خادمةً، وألاّ تشقّ طريقها إلى قلوب المؤمنين إلاّ عبر الإقناع والوداعة. ولكن عندما امتُهِن اسم يسوع انتفضت غيرتها؛ وعندما أُنكر عمّانوئيل دخلت أُمّ الله الساحة، وطوّقته بيديها لكي توطّد عرش ابنها. وعندما تحقّقت هذه المهمّة المقدّسة انتهى دورها، فهي لم تكن تناضل من أجل ذاتها.

٢ – مغزى عقيدة أمومة الله

«عندما نستوعب بعمقٍ فكرة أنّ مريم قد حملت الأزليّ في حشاها وبين يديها، وأرضعته، في هيئة طفلٍ صغيرٍ، فهل يسعنا، بعدُ، أن نقيم حدودًا لسيل الأفكار التي تولّدها هذه العقيدة؟...

عندما بشّر الرسل أنّ الله تجسّد، فجّروا فكرةً جديدةً، وتعاطفًا جديدًا، وإيمانًا جديدًا، وعبادةً جديدةً. ومنذئذٍ بات بوسع الإنسان أن يحيط بأعمق حبٍّ، وبأرقّ تكريمٍ من كانت عظمته، قبل اعتلان التجسّد، تبدو مصدر إحباطٍ. وعندها أدركت البشريّة، فضلاً عن ذلك، أنّه كان لله المتجسّد أمٌّ، شهدت تفجّر نبع أفكار قشيبٍ، كان من قبل مجهولاً، ولا نظير له.

إنّ فكرة أُمّ الله تختلف اختلافًا شاسعًا عن فكرة الله المتجسّد، فيسوع المسيح، هو الله الذي تواضع وانحدر، أمّا مريم فهي المرأة التي سمت فوق كلّ نساء الكون..»

الأَب فريدريك وليم فابر (١٨١٤ – ١٨٦٣)

Frédéric William FABER

الأُسقف الأنغليكانيّ جون هنري نيومن ارتدّ إلى الكاثوليكيّة، في ٢ آب ١٨٤٥. وكان قُبَيْل ذلك قد علّق في عنقه إيقونة العذراء العجائبيّة. وكان أوّل كردينالٍ عيّنه البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٧٩. وبعد بضعة أيّام من ارتداد نيومن، أي في شهر تشرين الأوّل ١٨٤٥، ارتدّ أنغليكانيٌّ آخر هو الأب فابر. وقد جاء، في مقدّمةٍ وضعها لكتاب «البحث في التكريم الحقّ للعذراء القدّيسة»، قوله:

«فليختبر كلُّ إنسانٍ، بنفسه، هذا التكريم التقويّ، وحينئذٍ سيُقنعه بجدواه ما يؤتيه من نِعَمٍ، وما يحدثه من تغييراتٍ في نفسه. جدوى تكاد لا تصدّق بصفتها الوسيلة للظفر بخلاص النفوس، ولحلول ملكوت يسوع المسيح! آه! لو عرَف العالم مريم، فقط، لما كان فتورٌ حيال يسوع، ولكم كان إيماننا أروع، ولكم كانت تناولاتنا مختلفةً! آه! لو كانت مريم معروفةً، فقط، لكم كنّا أوفر سعادةً، وقداسةً، وأقلّ انقيادًا لميول العالم! ولكم كنّا أصبحنا صورًا حيّةً صادقةً لربّنا ومخلّصنا، ولابنه الغالي، الكلّيّ الألوهة!»

وللأب فابر، أيضًا، هذا النصّ حول:

مشاركة مريم في آلام يسوع

«مشاركة مريم يسوعَ آلامه، كانت تقدمتها للآب الأزليّ، تقدمة خليقةٍ منزّهةٍ من الخطيئة، من أجل التكفير عن خطايا إخوتها في البشريّة... وإذ هي كانت تخفّف قلوب البشر من عبئها، كانت ترهق قلبها. ظلماتها كانت لهم نورًا، وسلامهم كان لها نزاعًا. ابنها كان ضحيّتهم، وحياتهم كانت استشهادها الرهيب. تقدمتها كانت تتصاعد إلى السماء مقترنةً بتقدمة يسوع. تانك التقدمتان كانتا حبّتي بخورٍ فوق جمرات مبخرةٍ واحدةٍ، يتصاعد فوحهما المتنوّع نحو عرش الله، مشكّلاً سحبًا رقيقةً لازورديّة مختلفةً، ولكن متلازمةً ومتشابكةً. تأوّهات قلب مريم المكتومة، تأوّهات قلبها المحطّم، تصاعدت إلى السماء، متزامنةً مع وقع الجلدات. وعندما طالبت الجموع بإعتاق باربّاس، وشقّت صيحاتها، بعنفٍ، عنان السماء، كان نزاع مريم بمثابة موسيقى رقيقةٍ، تداعب سمع الله، وسط الصخب الوحشيّ. وعلى وقع المطارق كانت اختلاجات قلب مريم ترتقي وتحطّ عند أقدام العرش الإلهيّ، مؤثّرة فيه. تلهّفاتها الكمينة كانت تمخر الأجواء، وتصعد سريعةً، مع أقوال يسوع السبعة على الصليب. والصيحة التي أطلقها وهو يسلم الروح سُمعت، في السماء مرّتين. وكانت المرّة الثانية عندما دوّى صداها متفجّرًا من قلب مريم. وهكذا، في ساعات الآلام، كلّ تقدمة كانت مزدوجةً: فتقدمة يسوع، وتقدمة مريم كانتا متّحدتين في تقدمةٍ واحدةٍ».

وللأب فابر، أيضًا، هذا النصّ عن:

صمت العيلة المقدّسة

«أقوال يسوع كانت نادرةً، ولذلك كانت مريم تحفظها في قلبها حفظها لكنزٍ تضارع قيمتُهُ ندرتَه. من غير المعقول أن تجري الأمور على غير هذا النحو، فالله ممعنٌ في الصمت.

وكيف لا تصمت مريم؟ إذ ليس بوسع مخلوقٍ، طالما عاش مع الخالق، أن يسرف بالكلام. قلبها كان مليئًا، ولا سبيل لنفسها سوى التزام الصمت.

كانت مع يسوع منذ اثنتي عشرة سنة (يوم اختفى في الهيكل)، وهذه فترةٌ طويلةٌ، قياسًا إلى تكوين العادات، مع أنّ تلك السنوات كرّت ومريم في مثل انخطافٍ مقدّسٍ مترعٍ حبًّا موجعًا. كانت قد حملت يسوع على ذراعيها، وسهرت على نومه، وأطعمته، وحدّقت إلى عينيه، وهو لم يكفّ يكشف لها قلبه، فتعلّمت فهمه.

كلّ وجوه التمثّل باللّه كانت قد انتقلت إلى نفس مريم، ونحن نعلم كم اللّه صموتٌ.

بين الخالق والخليقة، وفي العلاقات التي كانت قائمةً بين يسوع ومريم، الصمت هو لغة تخاطبٍ أفضل من الكلام.

وما كان بوسع الألفاظ أن تقول؟ لقد كانت عاجزةً عن حمل ثقل أفكار الأمّ، وكانت أشدّ عجزًا عن حمل وقر أفكار الابن، وكان من شأن الكلام أن يبدو جهدًا، وتنازلاً، وانحدارًا عن الجبل، سواءٌ من قِبَل مريم أو من قِبَل يسوع.

وعلامَ الانحدار؟ حتّى القدّيس يوسف لم يكن بحاجةٍ إليه، فهو، أيضًا، كان يقيم، عاليًا على قمم جبال الصمت، في علوٍّ يتعذّر على أيّ صوتٍ، وعلى أيّ صدًى من أصداء الأرض بلوغه.

أرتور رنبو (١٨٥٤– ١٨٩١)

Arthur RIMBAUD

عبقريّةٌ شعريّةٌ تفتّقت باكرًا، وهي تبدو تارةً، إنكارًا لكلّ القِيَم الدينيّة، وتارةً تلامس الخبرة الصوفيّة الفذّة. هذه الأبيات كتبها عام ١٨٧٠ وهو في السادسة عشرة:

الدم والدموع

«في ذلك الزمان، كان يسوع يسكن الناصرة،
وكان فتًى ينمو فضيلةً وسنًّا.
ولمّا شرعت أشعّة الصبح الزهريّة تلوّن أسطح القرية،
وفيما الجميع نائمون، نهض من فراشه،

لكي يجد يوسف، لدى نهوضه من النوم، العمل وقد اكتمل.
وأكبّ، بوجهه النقيّ، على العمل الذي بدأه يوسف،
وأعمل فيه المنشار الكبير.
وبذراعه الفتيّة قطع ألواحًا خشبيّةً كثيرةً.

في البعيد كانت الشمس تتألّق على هامات الجبال،
وأشعّتها الفضّيّة تتسلّل من خلال النوافذ الوضيعة.
وكان رعاة البقر، وهم يقودون قطعانهم إلى المراعي،
يتأمّلون، معجبين، ذلك العامل الصغير، ويتساءلون:
– من هو هذا الفتى؟

وفي تلك الأثناء، كانت الأُمّ قد سمعت صرير المنشار،
فنهضت من فراشها على مهل، ودخلت، خلسةً، صامتةً،
ورأته يعمل، مقلّبًا ألواح الخشب،
فأشعّت بسمتها بالدموع...

وبغتةً انكسر المنشار، فجرحت شفرته أصابع الصبيّ،
ولوّث دمه القرمزيّ ثوبه الأبيض،
وانطلقت من فمه صرخةٌ.
ولكن سرعان ما حانت منه التفاتةٌ إلى أمّه،
فأخفى أنامله النازفة في ثنايا ثوبه،
وتصنّع البسمة وقال: «صباح الخير يا أُمّاه»!
ولكنّ الأمّ جثت أمام ابنها،
وداعبت، بأسًى، أنامله بأناملها،
وبحنانٍ قبّلت راحتيه،
واستغرقت في النحيب، مبلّلةً وجهها بدموعٍ غزيرةٍ.
ولكنّ الفتى قال لها، بسكونٍ خالٍ من التأثّر:
– علامَ تبكين، يا أُمّي، وأنت ما زلتِ لا تعرفين؟
ألأنّ شفرة المنشار لامست أناملي؟

لم يحن، بعد، الوقت الذي يتعيّن عليك، فيه البكاء».
وأكبّ ثانيةً على العمل الذي كان قد بدأه،
والأمّ صامتةٌ، مطرقةٌ إلى الأرض بوجهها الشاحب،
مستغرقةٌ في التفكير.
ثمّ صوّبت، من جديدٍ، نحو ابنها، عينيها الحزينتين، وتمتمت:
- «أيّها الربّ العليّ، فتلكن مشيئتك!»

پول ڤرلين (١٨٤٤- ١٨٩٦)

Paul VERLAINE

إثر مسيرة ضلالٍ أودت بهذا الشاعر إلى السجن، طالع كتابًا دينيًّا كان له، في نفسه، أثرٌ بليغ، فأعلن ارتداده، من خلال قصيدتين: «قصّة»، وهي رواية ارتداده، و«لا أريد أن أُحبّ سوى مريم أُمّي».

من قصيدة «قصّة»، نقتطع هذه الأبيات:

«ببساطةٍ، مثلما يُسكَب عطرٌ فوق شعلةٍ،
ومثلما يريق جنديٌّ دمه من أجل الوطن،
أودّ أن أودع قلبي ونفسي
في نشيدٍ جميلٍ للعذراء القدّيسة، مريم.
ولكنّني، وا أسفاه، لست سوى خاطئٍ زريٍّ، غير مستحقٍّ،
ومن شأن صوتي أن يجأر نشازًا، وسط أصوات جوقة الأبرار،
وبما أنّه ما زال مُتمتّعًا بخمرة الكرمة الأرضيّة المرَّة،
فهو كفيلٌ بخدش الآذان السماويّة.
فلا بدّ لي من قلبٍ نقيٍّ، نقاءَ الماء الزلال المتفجّر من قلب الصخور،
ولا بدّ لي من التمثّل بطفلٍ مرتدٍ كتّانًا ناصعًا،
ومن أن تكلّلني البراءة بتاجٍ مضطرمٍ.
لا بدّ لي من كلّ ذلك كي أجرؤ على امتداحك،
أنتِ، الأمّ العذراء، مريم المنزّهة من الدنس،

أنتِ، الناصعة البياض، وسط خفقان أجنحة الملائكة،
أنت التي تضع قدميها على أرضٍ أشاعت فيها العزاء.

(وبعد أن يستفيض الشاعر في سرد مسيرة تيهه، يروي توبته، فيقول):

ثمّ التفتّ صوب ابنك، وصوب أُمّه،
وكم غمرته، آنذاك، السعادة، سريعةً، في الحال؛
أيّة دموعٍ، وأيّ فرحٍ، يا أُمّاه!
ولكي يظفر برضاك، ها هوذا، في الحال، يهجر
كلَّ متاع الكبرياء، والرذائل الدنيئة،
ما يُدعى فكرًا، وما يدعى علمًا،
والضحكات، وبسمات الهزء
التي تفترّ عنها شفاه أئمّة الإلحاد، الصغار.

وها هوذا يجثو، وبتواضعٍ سحيقٍ،
يمرّ، بأنامله الأبيّة، فوق حبّات المسبحة الورديّة الملتهبة.
ملتمسًا منك، أيّتها الأمّ، أيّتها القدّيسة، أيّتها الملكة،
التحرّر من بؤس استعباد أهواء الجسد...

كم هو يودّ ألاّ يعلم، بعدُ، شيئًا، في هذا العالم،
سوى عبادة الحكمة القدسيّة، السرّيّة،
وسوى حبّ قلب يسوع، في انخطافٍ عميقٍ،
وسوى إعمال الفكر فيك، في أثناء الذبيحة المقدّسة!

(ومن قصيدته الأخرى، نقتطف ما يلي):

١ - يا مريم، ارأفي بي

لم أَعُدْ أَقوى على إِحصاء كبوات قلبي.
فالمحبّة تذبل في أَطراف أَصابع فتوري،

والشرّير يغرقني في هوّة ماءٍ آسنٍ.
ولكنّ جزءًا من كياني يخاف ويفاوض،
ولا مفرّ لي من عونٍ عاجلٍ وفعّالٍ.
هذا العون المنيع هو أنتِ، يا سيّدة الموت،
ويا ملكة الحياة، أيّتها العذراء المنزّهة من الدنس،
أنتِ، يا من تظهر ليسوع وجهًا متلألئًا بالكواكب،
كي تريه أحشاء الآلام كلّها.
إنّكِ تبسطين، نحو خطواتنا، وضحكاتنا، ودموعنا،
ونحو أباطيلنا الموجعة،
راحتيكِ المضيئتَيْن، ويدَيْكِ اللّتين تسكبان البلسم.

يا مريم، ارأفي بي، أنا الخسيس،
وأغيثيني في صراعي الطاهر، صراع الحكيم والمسيحيّ.
صلّي كي لا تفتر جرأتي، ولا تتقاعس،
وكي أتمرّس بالصبر، في صراعي المتمادي،
وكي أحتمل قرّ الفصول وقيظها.
أقصي عنّي آفة الضلالات،
وأعيدي لي بساطتي ومنعتي، فأُضحي عصيًّا على الدموع،
وأقوى على تحطيم كلّ الشهوات الباطلة،
والعطش والجوع، والحبّ الشهوانيّ البالغ القسوة،
والحقد، وهو أشدّ قسوةً وشهوانيّةً،
وأتمكّن من سحقها، جميعها، كما يتعيّن عليّ.
اجعليني جنديّ رغباتك المندفع،
ولتكن إطاعتي لكِ أيسر ما أستطيعه،
وليكن ما أنتِ تريدينه كلّ ما أقوى عليه.

٢ – ما عدت أَبغي سوى حبّ مريم

ما عدتُ أَبغي سوى حبّ مريم، أُمّي.
كلّ حبٍّ آخر فرضٌ،
وما كان منه ضروريّا، وحدها أُمّي
تسطيع إِضرام ناره، في قلوبٍ تحبّها.

من أَجلها ينبغي أَن أُحبّ أَعدائي.
إِكرامًا لها نذرتُ هذه التضحية،
وهي، استجابةً لدعائي، نالت لي
عذوبةً في القلب، واندفاعًا في الخدمة.

وإِذا كنتُ ما زلتُ واهيًا، وشرّيرًا،
في يديّ ارتخاءٌ، والطرقات تبهر أَبصاري،
هي جعلت عينيّ تطرقان، ويديّ تشتبكان،
ولقّنتني كلمات العبادة.

بواسطتها ارتضيت هذه الأَحزان،
وإِكرامًا لها، مُني قلبي بالجراح الخمسة.
وهي، استجابةً لتوسّلاتي، شدّت حقويّ،
لكي أَبذل هذه الجهود الحميدة في مواجهة الصلبان والعقبات.

ما عدتُ أَبغي سوى التفكير بأُمّي مريم،
كرسيّ الحكمة، ومنبع الغفران...

يا مريم المنزّهة من كلّ دنسٍ، يا جوهر الحبّ،
يا منطق الإِيمان القلبيّ الحيّ،
أَيّ خيرٍ لا أَقوى على فعله، إِن أَنا أَحببتكِ،
وإِن أَنا وقفت عليك وحدك الحبّ، يا باب السماء؟

الأب ليونس دي غرانميزون (١٨٦٨– ١٩٢٧)

Léonce de GRANDMAISON

عالمٌ شهيرٌ في تفسير الكتاب المقدّس، وضع هذه الصلاة ملتمسًا من العذراء ترياقًا يقيه من تصلّب القلب الذي قد ينجم عن الاعتماد المسرف على العقل:

«يا مريم القدّيسة، أمّ اللّه،
احفظي لي قلب طفلٍ،
صافيًا وشفّافًا مثل ماء نبعٍ.
أكسبيني قلبًا بسيطًا،
لا يستسيغ الأحزان،
قلبًا كريمًا في بذل ذاته،
رقيقًا في التعاطف مع الآخرين،
قلبًا وفيًّا وسخيًّا،
لا ينسى إحسانًا،
ولا يحقد على أيّة إساءةٍ.
اجعلي لي قلبًا وديعًا ومتواضعًا،
يحبّ ولا يقتضي مقابلاً،
ويفرح بالامّحاء في قلبٍ آخر،
قلبًا كبيرًا لا يُقهر؛
لا يغلقه نكران جميلٍ،
ولا يتقاعس حيال أيّة لامبالاةٍ،
قلبًا يؤرّقه همّ مجد يسوع المسيح،
قلبًا جريحًا بحبّ يسوع،
ولا يبرأ جرحه إلاّ في السماء.

البابا بيّوس العاشر (١٨٣٥– ١٩١٤)

تبوّأ السدّة البابويّة منذ العام ١٩٠٣ حتّى وفاته

أمومة العذراء

«أليست مريم أمّ الله؟ هي، إذن، أيضًا، أُمّنا.

فالمبدأ الذي ينبغي إقراره هو أنّ يسوع، الكلمة المتجسّد، هو، في الآن عينه، مخلّص الجنس البشريّ. فبما أنّه إلهٌ وإنسانٌ، جسدٌ نظير سائر البشر، وبما أنّه مخلّص جنسنا، للّه جسدٌ روحيّ، أو سرّيّ كما يقال، وما هذا الجسد سوى جماعة المسيحيّين المرتبطين به بالإيمان. «نحن الكثيرين لنا جسدٌ واحدٌ في المسيح» (رومانيّين ١٢: ٥)

ومن المحقّق أنّ العذراء لم تحمل ابن الله كي يصبح إنسانًا فحسب، بتلقّيه منها الطبيعة البشريّة، بل لكي يصبح، أيضًا، بفضل هذه الطبيعة التي تلقّاها منها، مخلّص البشر. وهذا ما يفسّر قول الملائكة للرعاة: «لقد وُلد لكم مخلّص هو المسيح الربّ».

هكذا، في أحشاء العذراء الطاهرة، حيث تلقّى يسوع جسدًا معرَّضًا للموت، اتّخذ أيضًا جسدًا روحيًّا مكوّنًا من جميع من سيؤمنون به، ومن ثمّ يسوغ القول إنّ مريم، بحملها يسوع في أحشائها، كانت تحمل جميع من ستكون حياتهم كامنةً في حياة المخلّص.

إذن، نحن جميعًا، المتّحدين بالمسيح، على حدّ قول الرسول، «أعضاء جسده، من لحمه ومن عظامه»، علينا أن نقرّ بأنّنا نشأنا في أحشاء العذراء التي خرجنا منها، يومًا، مثل جسدٍ متّصلٍ برأسه.

من أجل ذلك نحن مدعوّون، حقًّا، بمعنًى روحيٍّ مطلقٍ، أبناء مريم وهي، من جانبها، أُمّ جميعنا».

تيوفيل غوتييه (١٨١١–١٨٧٢)

Théophile GAUTIER

كاتبٌ وشاعرٌ رومنسيٌّ فرنسيٌّ

نذرٌ

مركبنا صغيرٌ، والبحر جمٌّ، جامحٌ.

الموجِ يقذفنا نحو سماءٍ غاضبةٍ،
والسماء تعيد الموج مجنونًا،
فلنصلّ راكعين، على مقربةٍ من الصاري المحطّم.

بيننا وبين اللحد خطواتٌ،
وسنرقد، هذا المساء
في سريرٍ مرٍّ، تحت كفنٍ باردٍ من زبدٍ أبيض،
في حراسة البروق.

فيا زهرة الفردوس، يا سيّدتنا العذراء القدّيسة،
العطوف على بحّارةٍ يجابهون خطر الموت،
هدّئي عنف الريح، وأخرسي الأمواج الصاخبة،
وبطرفٍ من إصبعك، ادفعي مركبنا صوب المرفأ.

وإن أنت نجّيتِنا، سنقدّم لك
ثوبًا جميلاً من أوراق فضّةٍ،
وشمعةً مزركشةً، زنتها أربعة أرطالٍ،
وسنقدّم ليسوعك قدّيسًا صغيرًا، يدعى يوحنّا.

ليكونت دي لِيل (١٨١٨–١٨٩٤)

Charles-Marie LE CONTE DE LISLE

شاعرٌ وكاتبٌ فرنسيٌّ

أيّتها الأرض، انسي، في يومٍ واحدٍ، بؤسك العتيق!
وأيّتها السماوات، اختلجي بهجةً كما تختلج البحار!
فالعذراء القدّوسة قد وُلدت في حضن اللّه!
وهي تحلّق، على ضوء قوس قزح الملتهب،
حمامةً تحمل إلى السفينة الملجأ،

غصن الزيتون الذي نجا من الطوفان.
وها إِنّ الوردة القدسيّة تعطّر الأَجواء،
ونجمة الصبح تنير البحار!

فيا أَيّتها الخلائق التي لا يُحصى عديدها، حيّي، وباركي،
تلك التي سيظلّلها العليّ بذاته،
والتي ستحمل في أَحشائها المباركة، وهي عذراء،
اللّه الكائن قبل الدهور اللامحدودة.

أَلفونس دوديه (١٨٤٠–١٨٩٧)

Alphonse DAUDET

روائيٌّ فرنسيٌّ. اشتهر بقصصه القصيرة.

كانت العذراء تهدهد ابنها يسوع،
في أَقمطته البيضاء التي خاطتها حديثًا.
هو كان يثغثغ مثل عشّ عصافير،
وهي كانت تهدهده، وتشدو له، بصوتٍ خافتٍ،
ما نشدوه لملائكتنا الصغار...
ولكنّ يسوع الطفل كان يأبى الإِغفاء.

كان دهشًا، مفتونًا بما يسمع،
يضحك في مغارته، وينطلق يغنّي،
مثل كاهنٍ قدّيسٍ، ومثل عضو جوقةٍ،
ضابطًا النغم بحركات ذراعيه.
وكانت العذراء القدّيسة حزينةً، حزينةً جدًّا
وهي تشهد يسوع يأبى الإِغفاء.

وقالت له أُمّه مرتجفةً: «يا يسوعي العذب،

أَخلد إِلى النوم، يا حَمَلي، يا حملي الأَبيض الجميل.
نَمْ، فقد فات أَوان النوم، وانطفأ المصباح،
وقد احمرّ جبينك، وتعبت أَعضاؤك.
نمْ، يا حبّي، نمْ بلا وجلٍ».
ولكنّ يسوع الطفل كان يأبى الإِغفاء.

«إِذا أَغفيت، بضع لحظات،
لوافت الأَحلام، مثل رفوف الحمائم
ولابتنت لها أَعشاشًا فوق جفنيك.
ستأتي إِليك، فنمْ، يا يسوعي العذب»
ولكن، وا أَسفاه، كان يسوع الطفل يأبى الإِغفاء.

وحينئذٍ، مريم، وقد غشى الدمع ناظريها،
أَمالت نحو ابنها جبينًا حزينًا، قائلةً:
«أَنت لا تنام، وأُمّك تبكي
أُمّك تبكي يا صديقي الجميل...»
كانت الدموع تنثال من عينيها،
وفي الحال استسلم يسوع للإِغفاء.

القدّيسة تيريز الطفل يسوع (١٨٧٣–١٨٩٧)

هذه القصيدة نظمتها القدّيسة تيريز، وهي على فراش الموت، مؤكّدةً بها مزايا العذراء مريم الحقّة، المستوحاة من الإِنجيل، بمنأًى عن كلّ مغالاةٍ عاطفيّةٍ، مبرزةً فيها فقر «أَمَة الربّ»، ومبرّرات حبّها المستمدّة من نشيد تسبيحها، والتي من أَجلها «تطوّبها الأَجيال».

قد لا تكون هذه القصيدة رائعةً أَدبيّةً، ولكنّها، بلا مراءٍ، رائعةٌ روحيّةٌ ولاهوتيّةٌ، وعنوانها هو:

لماذا أُحبّكِ، يا مريم؟

«آه! كم أَودّ أَنّ أُنشد، يا مريم، لماذا أُحبّك،

ولمَ يرتعش قلبي لدى ذكر اسمك العذب،
ولمَ لا يشيع في نفسي
التفكيرُ بعظمتكِ الفائقة، الخوفَ.
لو أنّني تأمّلتكِ رافلةً بمجدك الرفيع،
ومتخطّيةً روعةَ جَميع الأَبرار،
لما صدّقتُ أَنّني ابنتكِ، يا مريم،
ولأَغضيت عينيَّ، وأَطرقت أَرضًا، أَمامك.

لكي يحبّ ابنٌ أُمَّه،
ينبغي أن تبكي معه، وتقاسمه آلامه،
وأَنتِ، يا أُمّاه الحبيبة، المقيمة عند الضفّة الغريبة،
كم ذرّفت من دموعٍ، كي تجتذبيني إِليكِ!
بتأمّلي سيرتك في الإِنجيل المقدّس،
أَتجاسر على رفع أَنظاري إِليك، والدنوّ منك،
فلا يتعذّر عليّ الإِيمان بأَنّني ابنتكِ،
لأَنّني أَراك معرَّضةً للموت، ومتأَلّمةً مثلي.

عندما عرض عليك ملاكٌ من السماء أَن تكوني أُمًّا
للإِله الذي يملك حتّى الأَبد،
أَراك تفضّلين كنز البتوليّة الذي لا يحيط به وصفٌ،
ويا له من سرٍّ، يا مريم!

وهكذا أُدرك كيف تصبح نفسك، أَيّتها العذراء المنزّهة من الدنس،
أغلى لدى الربّ من مسكنه الإِلهيّ،
وأُدرك كيف تحتوي نفسك، الوادي المتواضع العذب،
يسوع، محيط الحبّ!...

آه! كم أُحبّك، يا مريم، وأَنتِ تعلنين ذاتكِ
أَمَة الله الذي فتَنْتِه بتواضعكِ.
تلك الفضيلة الخفيّة، جعلتك كلّيّة القدرة،

واجتذبت إِلى قلبك الثالوث الأَقدس.
وحينئذٍ غمرك روح الحبّ بظلّه،
وفيك تجسّد الابن المساوي للآب...

يا أُمّي الحبيبة، إِنّني رغم صِغَري،
أَمتلك، مثلك، في ذاتي، الكلّيّ القدرة.
ولكنّني لست أَرتجف وأَنا أَشهد وهني:
فكنز الأُمّ يخصّ الابن:
وأَنا ابنتك، يا أُمّي الحبيبة،
أَفليست فضائلكِ لي، وأَليس حبّكِ ملكي؟
ومن ثمّ حين تهبط القربانة البيضاء إِلى قلبي،
يخيّل ليسوع، حَمَلكِ الوديع، أَنّه يستريح فيكِ!...

إِنّك تُشعرينني بأَنّه لا يستحيل عليّ
اقتفاء أَثرك، يا ملكة المختارين.
فقد أَظهرت لنا درب السماء الضيّق،
بممارستك دائمًا أَكثر الفضائل تواضعًا.
وأَنا أَودّ، يا مريم، أَن أَبقى إِلى جانبك، صغيرةً.
إِنّني أَتبيّن بطلان أَمجاد هذه الدنيا،
ومن زيارتك للقدّيسة إِليصابات،
أَتعلّم ممارسة المحبّة المضطرمة.

ويا ملكة الملائكة الرقيقة، هنا أَسمع
النشيد المقدّس الذي تفجّر من قلبك.
إِنّك تلقّنينني إِنشاد التسابيح الإِلهيّة،
وافتخاري بيسوع مخلّصي.
إِنّ كلمات حبّك هي ورودٌ قدسيّةٌ
ستعطّر الأَجيال القادمة.
والعظائم التي صنعها فيكِ العليّ،

أُريد الإِمعان في تأَمّلها، لكي أُباركه بسببها.

وإِذ كان القدّيس يوسف الطيّب يجهل المعجزة
التي آثرتِ، في تواضعكِ، إِخفاءها،
تركتِه يبكي على مقربةٍ من الهيكل،
الذي يحجب جمال المخلّص الإِلهيّ!...
آه! يا مريم، كم أُحبّ صمتَكِ البليغ،
فهو لي معزوفةٌ رقيقةٌ، عذبة الأَنغام،
من عظمةٍ، وقدرةٍ كلّيّةٍ...
تشيد بما تزدان به نفسٌ
لا تنتظر عونًا إِلاّ من السماء.
وفي ما بعد، أَراكما في بيت لحم، يا يوسف ومريم،
وقد أَوصد الجميع الأَبواب دونكما،
وأَبى أَيّ فندقٍ استقبالكما،
فأَنتما غريبان فقيران، والأَمكنة محجوزةٌ للكبار...
الأَمكنة محجوزةٌ للكبار، وعلى ملكة الملائكة
أَن تضع وليدها في زريبةٍ.
فكم أَجدكِ جديرةً بالحبّ، يا أُمّي الحبيبة،
وكم أَراك عظيمةً، في هذا المكان البالغ الوضاعة!...

عندما أُشاهد الأَزليّ ملفوفًا بقُمُطٍ،
وأَسمع صرخة الكلمة الإِلهيّ الخافتة،
أُقلع، يا أُمّي الحبيبة، عن حسد الملائكة،
فسيّدهم العظيم هو أَخي الحبيب...
وكم أُحبّكِ، يا مريم، فقد أَنبتِّ، على شواطئنا، الزهرة الإِلهيّة.
وكم أُحبّك مصغيةً للرعاة والمجوس،
وحافظةً، بحرصٍ، كلّ هذه الأُمور، في قلبكِ!...

أُحبّكِ، وأَنتِ تقدّمين مخلّص نفوسنا

للشيخ البارّ الذي يضمّه بين ذراعيْه.
وأبتسم، أوّلاً، وأنا أستمع نشيده،
ولكن سرعان ما تستدرّ نبراتُه دموعي،
إذ إنّ سمعان غمس في المستقبل نظره النبويّ،
وقدّم لكِ سيف آلام.
وهذا السيف الموجع، سيظلّ يطعن قلبك،
يا ملكة الشهداء، حتّى مساء حياتكِ.

وفي ديار مصر، في صميم الفقر،
ظلّ قلبك يخفق فرحًا، يا مريم،
لأنّ يسوع هو أجمل وطنٍ.
وما همّ المنفى، ما دمتِ تمتلكين السماوات؟...
غير أنّ محيطًا من الحزن قد غمر قلبكِ،
عندما توارى يسوع عن حنانك، طيلة أيّامٍ ثلاثةٍ.
حينئذٍ عرفت المنفى، بكلّ شدّته...

... يا مريم، إنّ ابنكِ العذب يبتغي أن تكوني نموذجًا
للنفس التي تبحث عنه في ليل الإيمان.
وبما أنّ ملك السماوات شاء أن تنغمس أمُّه،
في الليل، وفي قلق القلب،
أيعني ذلك أنّه من الجيّد أن نتألّم على الأرض؟

أجل، إنّ ألم الحبّ، هو أنقى سعادةٍ!
إنّ كلّ ما وهبنيه يسوع، بوسعه استعادته،
فقولي له أن يفعل بي ما يشاء، بلا حرجٍ...
بوسعه أن يتوارى، وأنا عازمةٌ على انتظاره،
حتّى اليوم الذي لا مغيب فيه، حيث سينطفئ إيماني...

إنّني أعلم، أيّتها الأمّ المغمورة بالنِّعَم،
أنّك خُضتِ، في الناصرة، حياةً موغلةً في الفقر،

ولم ترغبي في سواها؛
لم تقتضي انخطافاتٍ، ولا معجزاتٍ، كفيلةً بتزيين حياتك،
يا ملكة المختارين!...

كثيرون هم فقراء الأَرض،
الذين يسعهم رفع أَبصارهم إِليكِ، بلا رعدةٍ،
فعلى الدرب العامّ، يطيب لك أَن تسيري،
كي تقوديهم إِلى السماء، أَيّتها الأُمّ المنقطعة النظير.

بانتظار السماء، يا أُمّي الحبيبة،
أُريد أَن أَحيا معكِ، وأَن أَقتفي خُطاكِ كلّ يومٍ.
يا أُمّاه إِنّني أَغرق في تأَمّلك، مسحورةً،
وأَكتشف في قلبكِ وِهاد حبٍّ.
نظرتك الأُموميّة تطرد كلّ مخاوفي،
وتعلّمني البكاء، كما تعلّمني البهجة.
فأَنتِ تزورين الأَفراح الصافية المقدّسة،
بل تحرصين على اقتسامها، وتتنازلين فتباركينها.

... ذات يومٍ قيل ليسوع إِنّكِ تودّين رؤيته،
وحينئذٍ أَسفر يسوع، أَمام الجموع المحتشدة،
عن حبّه الجمّ لنا، فقال:
إِنّما أَخي، وأُختي، وأُمّي
هم الذين يعملون بمشيئتي!
وأَنتِ، أَيّتها العذراء المنزّهة من الدنس، يا أَرقّ أُمٍّ،
سمعتِه، ولم تحزني،
بل ابتهجتِ لأَنّه بلّغنا أَنّ نفسنا قد أَمست أُسرته على هذه الأَرض.
ابتهجتِ لأَنّه وهبنا حياته، وكنوز أُلوهته اللامحدودة
فكيف لا أُحبّكِ، أَيّتها الأُمّ الحبيبة،
وأَنا أَرى كلّ هذا الحبّ، في كلّ هذا التواضع؟

إِنّكِ تحبّيننا، يا مريم، مثلما يحبّنا يسوع،
ومن أَجلنا ارتضيتِ الابتعاد عنه.
الحبّ هو بذل كلّ شيءٍ، حتّى بذل الذات،
وهذا ما أَثبتِّه عندما ارتضيتِ أَن تظلّي سندًا لنا.
كان الربّ يعرف حنانك الجمّ،
ويدرك أَسرار قلب الأُمّ فيكِ،
فأَوكلنا إِليك، يا ملجأ الخطأة،
عندما غادر صليبه، كي ينتظرنا في السماء.

يا مريم، أَراك في قمّة الجلجلة،
واقفةً أَمام الصليب، وقفة كاهنٍ أَمام الهيكل،
مقدّمةً للآب ذبيحةً، يسوعَك الحبيب، عمّانوئيل الوديع!...
لقد قال أَحد الأَنبياء، أَيّتها الأُمّ المفجوعة:
«ما من أَلمٍ يحاكي أَلمك!..»
وأَنتِ، يا ملكة الشهداء، ببقائك منفيّةً،
أَغدقتِ لنا كلّ دم قلبكِ...

... قريبًا، سأشخص إِلى السماء كي أَراكِ،
لقد جئتِ، فابتسمتِ لي في صباح حياتي.
فتعالي، وابتسمي لي، أَيضًا، يا أُمّاه...فقد حلّ المساء...
لم أَعد أَخشى تأَلّق مجدكِ الفائق.
معكِ تأَلّمتُ، والآن أُريد،
يا مريم أَن أُنشد على ركبتيكِ، معلنةً سبب حبّي لكِ،
وأَن أُؤكّد، إِلى الأَبد، أَنّني ابنتكِ!...

تيريز الصغيرة.

وفي حديثٍ لها مع أُختها ورئيستها في الكرمل، قالت:

لا، لن تكون العذراء، يومًا، خفيّةً عنّي، فأنا أُحبّها حبًّا جمًّا.

...كم تمنّيت أَن أَكون كاهنًا كي أَعظ عن العذراء مريم! ويبدو لي أَنّ عظةً واحدةً كانت كفيلةً بإِظهار كلّ فكرتي عنها.

ولكنتُ شرعتُ بتبيان كم حياة العذراء القدّيسة هي مجهولةٌ. فلا يسوغ أَن تُقال عنها أُمورٌ غير واقعيّةٍ، أو لا أَساس لها: كادّعاء أَنّها، وهي في الثالثة من عمرها، شخصت إِلى الهيكل، كي تقدّم ذاتها لله، تحدوها عواطف حبٍّ مضطرمةٌ، وتقوًى خارقةٌ، في حين أَنّها ربّما وافت الهيكل إِطاعةً لوالديها، لا غير....

وعلامَ يُقال، إِنّها، مذ سمعت أَقوال سمعان الشيخ النبويّة، ظلّت آلام يسوع ماثلةً أَمام ناظريها؟ «وأَنتِ سيخترق سيفٌ نفسك». أَلا ترين، يا أُمّاه، أَنّ هذه نبوءةٌ تندرج في المستقبل!

لكي تؤتي عظةٌ عن العذراء القدّيسة ثمارها، ينبغي أَن تُظهر حياتها الواقعيّة، كما يُلمح إِليها الإِنجيل، لا حياةً مفترضةً. ومن الإِنجيل يمكن استخلاص أَنّ هذه الحياة كانت عاديّةً... «كان خاضعًا لهما». هكذا بكلّ بساطة.

يحاول البعض تصوير العذراء بعيدة المنال، في حين ينبغي إِظهار إِمكانيّة الاقتداء بها، وهي تمارس الفضائل الخفيّة، والقول إِنّها كانت تحيا بالإِيمان، نظيرنا، وإِعطاء براهين عن ذلك مستخلصةً من الإِنجيل، حيث نقرأ: «فلم يفهما ما قال لهما»، وأَيضًا: «وكان أَبوه وأُمّه يتعجّبان ممّا يُقال فيه». هذا التعجّب يسفر عن شيءٍ من الدهشة. أَلستِ ترين ذلك، يا أُمّاه؟

من المعلوم أَنّ العذراء القدّيسة هي مليكة السماء والأَرض. ولكنّها أُمٌّ أَكثر ممّا هي ملكةٌ. وينبغي أَلاّ يُظنّ (كما سمعت غالبًا) أَنّها، من جرّاء امتيازاتها، تكسف مجدًا، جميع القدّيسين، مثلما تكسف الشمس، في شروقها، النجوم. ربّاه، يا لغرابة هذا القول! أُمٌّ تبدّد مجد أَبنائها! إِنّني أَعتقد أَنّها تفعل نقيض ذلك، وأَنّها تضاعف بهاء مختاريها.

لا ريب أَنّه يحسن الحديث عن امتيازاتها، على أَلاّ يُقتصر عليها. والأَحرى بنا الدعوة إِلى حبّها. فإِن حملتْ عظةٌ عن العذراء القدّيسة، من مطلعها حتّى نهايتها، على الهتاف: آه!... آه!... فهي تُفضي إِلى إِتعاب المستمع، ولا تدعوه إِلى حبّ العذراء والتمثّل بها. وربّما أَدّى الأَمر ببعض النفوس إِلى الشعور بالبعد عن خليقةٍ تمتاز بهذا القدر من الرفعة.

إِنّ امتياز العذراء القدّيسة الأَوحد، هو أَنّها عُصمت من اللوثة الأَصليّة، وكونها

أَمّ اللّه. وحتّى عن هذا الامتياز الأَخير قال يسوع: «إِنّ كلّ من يعمل بمشيئة أَبي الذي في السماوات هو أَخي وأُختي وأُمّي». (متّى٥٠:١٢)

ومن جانبٍ آخر، نحن أَوفر منها سعادةً... إِذ لم يكن لديها عذراءُ قدّيسةٌ تحبّها!... ثمّة مزيدٌ من العذوبة لنا، وعذوبةٌ افتقرت هي إِليها!...

آه! كم أَنا أُحبّها، مريم العذراء!

البابا القدّيس لاون الثالث عشر (١٨١٠–١٩٠٣)

(امتدّت بابويّته من عام ١٨٧٨ حتّى عام ١٩٠٣)

هذا الحبر الأَعظم الكبير أَسهب في تدوين الرسائل العامّة الكفيلة بإِضاءة تكريم المسيحيّين لمريم.

١ – ورديّة أُمّنا

«إِنّ الطبيعة ذاتها قد جعلت من اسم الأُمّ أَعذب الأَسماء كلّها، ومن حبّ الأُمّ النموذج الأَمثل للحبّ الرقيق الساهر. ومن ثمّ تشعر النفس التقيّة شعورًا من الشدّة بحيث يتعذّر التعبير عنه، كم تضطرم، في قلب مريم، شعلة حبٍّ عطوفٍ وفاعلٍ. فمريم هي أُمّنا، لا في إِطارٍ طبيعيٍّ، بل من خلال يسوع. فهي تعرف، خيرًا من كلّ كائنٍ، وترى بوضوحٍ كلّ ما يهمّنا: المساعدات التي نحتاج إِليها في الحياة؛ والمخاطر العامّة والخاصّة التي تتربّص بنا؛ الهواجس والشرور التي تحيق بنا؛ وخاصّةً مشاقّ الجهاد الذي نخوضه، في سبيل خلاص نفوسنا، مع أَكثر الأَعداء شراسةً. في كلّ هذه الأَحوال، وفي سائر المحن، لديها أَكثر من أَيٍّ سواها، الإِرادة والقدرة على أَن توفّر لأَبنائها الأَحبّاء، العزاءَ، والقوّةَ، وكلَّ ضروب العون. فلنتوجّه إِلى مريم بجرأةٍ، وحرارةٍ؛ ولنتوسّل إِليها باسم علاقات الأُمومة التي تربطها ارتباطًا وثيقًا بيسوع وبنا، ولنلتمس، بتقوًى عميقةٍ، أَزرها، مستخدمين الدعاء الذي أَشارت هي نفسها به إِلينا، والذي يرضيها. وحينئذٍ سيتسنّى لنا، بحقٍّ، أَن نستكين، بأَمانٍ وفرحٍ، تحت حماية خير الأُمّهات.

وقد كتب أيضًا:

«ليس لدينا ما هو أغلى وأشهى من أن نجدّد قوانا في ظلّ حماية مريم، بإيداعنا، بين يديها، أفكارنا وأعمالنا، وبراءتنا وندمنا، وهواجسنا وأفراحنا، وصلواتنا ورغباتنا، أي كلّ ما يخصّنا، ونحن واثقون كلّ الثقة من أنّ كلّ ما لا يليق أن نقدّمه لله بأيدينا، سيجد لديه استقبالاً حسنًا، إن قُدّم له بيدَي أُمّه القدّوسة».

٢ - فعل شكرٍ، بعد المناولة

صلاة نصح البابا لاون الثالث عشر الكهنة والعلمانيّين بتلاوتها بعد المناولة:

«يا مريم، أيّتها العذراء والأُمّ الكلّيّة القداسة، ها إنّي قد تلقّيتُ ابنك المحبوب، الذي حملتِه في حشاكِ المنزّه من الدنس، وأرضعته، وضممتِه، وغمرته بقُبَلٍ عذبةٍ جدًّا، ها إنّ ذاك الذي كانت رؤيته تبهجك وتفعمك متعةً، أُقدّمه ثانيةً، بتواضعٍ وحبٍّ، إلى ذراعيك، كي تضمّيه، وإلى قلبك كي تحبّيه، وإلى الثالوث الأقدس، تقدمة عبادةٍ، من أجل مجدك، ومن أجل احتياجاتي واحتياجات العالم كلّه. وأتوسّل إليك، أيّتها الأمّ الكلّيّة الرحمة، أن تلتمسي غفران خطاياي، ونعمةً وافرةً تؤهّلني، بعد الآن، لأخدمه بمزيدٍ من الأمانة، وأخيرًا نعمة المثابرة لكي لا أكفّ عن مديحه، معك، إلى دهر الدهور، آمين.

شارل بودلير (١٨٢١-١٨٦٧)

Charles BAUDELAIRE

قد يبدو اسم شاعر «زهور الشرّ» نشازًا، في مجموعةٍ مريميّةٍ. غير أنّ هذا الشاعر الذي عانى طفولةً تعيسةً، من جرّاء غياب الأب، وقسوة أُمٍّ تزوّجت ثانيةً، قد احتفظ دائمًا بتوقٍ إلى الحنان المفقود، الذي استشفّه في «الفائقة الجمال، والفائقة العطف، والمحبوبة جدًّا».

ما عساك تقولين، في هذا المساء؟

ما عساك تقولين، في هذا المساء، أيّتها النفس الوحيدة؟

وما عساك تقول يا قلبي الذي طالما ذبل،
للفائقة الجمال، الفائقة العطف، والمحبوبة جدًّا،
تلك التي جعلكَ نظرها الإلهيّ تزدهر، بغتةً، من جديد؟
سيكون موضع افتخارنا إنشاد مدائحها.
فلا شيء يضاهي رقّة سلطتها.
جسدها الروحيّ يفوح برائحة الملائكة،
وعينها تلبسنا ثوبًا من ضياء.

في الليل وفي الوحدة،
في الشارع ووسط الحشود،
يتراقص طيفها في الجوّ، تراقص مشعلٍ.
ويتكلّم، أحيانًا، فيقول: «إنّي جميلة، وآمر،
ألاّ تحبّوا سوى الجمال، حبًّا بي.
أنا الملاك الحارس، أنا ربّة الشعر، أنا السيّدة العذراء».

شارل پيغي (١٨٧٣–١٩١٤)

Charles PÉGUY

شارل پيغي شاعرٌ مجلٌّ، توفّي باكرًا في ساحة الحرب العالميّة الأولى، وكان، عقب محنة حيرةٍ دينيّةٍ، قد استعاد حرارة إيمانه الكاثوليكيّ، حيث تحتلّ العذراء مريم مكانةً مميَّزةً.
يتميّز بيغي بأُسلوبٍ فريدٍ يقوم على العفويّة، وعلى ترداد العبارات والمعاني ترداداً مستساغًا، عذب الموسيقى، سرعان ما يستمرئه مَنْ يحسن الإِصغاء إِلى إِيقاعه، ويستسلم لهدهدة نغماته.
وهو، في القصيدة التالية ترجمتها، يتكلّم عن حطّابٍ، أَبٍ لأَبناءٍ كُثُرٍ، انتابه عليهم القلق، فأوكلهم إلى العذراء. عنوان القصيدة:

كم من الأَبناء على ذراعيها

بهدوءٍ أَوكلهم إِليكِ،

بالصلاة وضعهم بين ذراعيكِ،
بكلّ هدوءٍ وضعهم بين ذراعَيْ من هي مثقلةٌ
بجميع آلام العالم.
فابنها قد أَخذ كلّ الخطايا،
والأُمّ أَخذت كلّ الآلام!

هناك أَيّامٌ، في الوجود، حيث يشعر المرء،
أنّه لم يعد بوسعه الاكتفاء بشفاعة القدّيسين،
(ولست أَبتغي، بقولي هذا، أَن أُهين أَحدًا)

فالخطر جسيمٌ، والشفعاء من القدّيسين لا يكفون، ولا بدّ من التطلّع إِلى أعلى، «والتعامل مع اللّه خيرٌ من التعامل مع قدّيسيه»

(وتلك التي أَخذتهم بين ذراعيها، كانت على قسطٍ كبيرٍ من الفتنة، ومن الطهر، إِنّها أُمّ اللّه، أُمّ يسوع، وأُمّ جميع البشر إِخوته، إِخوة يسوع)

يحسن، إِذن، التطلّع مباشرةً إِلى اللّه، وإِلى العذراء القدّيسة،

(وهي، التي كانت قد تلقّتهم، كانت تحمل على ذراعيْها أَولادًا كُثُرًا جميع أَبناء البشر، منذ الابن الأَوّل الذي حملته بين ذراعيها، ذلك الصغير الذي يضحك مثل جوهرةٍ، ولكنّه، منذئذٍ، سبّب لها أَوجاعًا كثيرةً، إِذ إِنّه مات من أَجل خلاص العالم.)

وهي التي كانت قد أَخذتهم على ذراعيْها،
كانت فائقة التقوى والطهر...
كانت على جانبٍ فريدٍ من الشباب والقدرة،
ومن النفوذ لدى اللّه،
كانت قادرةً جدًّا لدى الكلّيّ القدرة.
وهي التي أَخذتهم بين ذراعيْها،
كم كانت مثقلةً بالآلام،
وكم عانت منذ أَخذت بين يديها،
ذلك الطفل الذي كان يضحك وهو يرضع!
وهي، منذ زمنٍ طويلٍ، لم تَعُدْ أُمّ الآلام السبعة فحسب،

فالآلام السبعة كانت مجرّد بدايةٍ.
منذ زمنٍ طويلٍ قد غدت – لأنّنا نحن جعلناها –
أُمّ السبعين، بل السبعين مرَّةً سبعين ألَمًا.

هناك أيّامٌ لا يعود الشفعاء والقدّيسون كافين،
وحينئذٍ على المرء أن يتسلّح بكلّ جرأته،
ويتوجّه مباشرةً إلى من هي فوق الجميع.
عليه أن يكون جسورًا، ولو لمرَّةٍ واحدةٍ،
وأن يتوجّه، بجسارةٍ، إلى من هي جميلةٌ بلا حدودٍ،
لأنّها طيّبةٌ بلا حدودٍ،
إلى التي تتشفّع،
إلى الوحيدة التي يمكنها أن تتكلّم بسلطة أُمٍّ.
ينبغي التوجّه بجرأةٍ إلى الطاهرة بلا حدودٍ،
لأنّها رقيقةٌ بلا حدودٍ، أيضًا،
إلى من هي نبيلةٌ بلا حدودٍ
لأنّها، أيضًا، مهذّبةٌ بلا حدودٍ،
ومضيافٌ بلا حدودٍ،
ومرحّبةٌ، مثل الكاهن، الذي يهرع من صدر الكنيسة،
إلى الوليد القادم، عند عتبة الكنيسة،
في يوم عماده،
لكي يُدخله إلى بيت الله.
ولا بدّ من التوجّه إلى من هي غنيّةٌ بلا حدودٍ،
لأنّها فقيرةٌ بلا حدودٍ،
إلى من هي رفيعةٌ بلا حدودٍ،
لأنّها تواضعت تواضعًا لا نهاية له.
إلى من هي عظيمةٌ بلا حدودٍ،
لأنّها، أيضًا، صغيرةٌ بلا حدودٍ،
ومتواضعةٌ بلا حدودٍ،
وأُمٌّ شابّةٌ.

وإلى من هي شابّةٌ بلا حدودٍ،
لأنّها، أَيضًا، أُمٌّ بلا حدودٍ؛
إِلى من هي مستقيمةٌ بلا حدودٍ
لأنّها، أَيضًا، منحنيةٌ بلا حدودٍ.
إِلى من هي فرحةٌ بلا حدودٍ
لأنّها، أَيضًا، متوجّعةٌ بلا حدودٍ،
سبعًا وسبعين مرَّةً متوجّعةٌ.
إِلى من هي مؤثّرةٌ بلا حدودٍ،
لأنّها، أَيضًا، متأثّرةٌ بلا حدودٍ.
إِلى من هي عَظَمةٌ كلّيّةٌ، وإِيمانٌ كلّيٌّ،
لأنّها، أَيضًا، محبّةٌ كلّيّةٌ.
إِلى من هي إِيمانٌ كلّيٌّ، ومحبّةٌ كلّيّةٌ،
لأنّها، أَيضًا، رجاءٌ كلّيٌّ.
من حسن الطالع أنّ القدّيسين لا يغار بعضهم من بعضٍ،
وهم، مجتمعين، لا يغارون من العذراء القدّيسة.
بل إِنّ، في ما بينهم، ما يُدعى شراكة القدّيسين.
وهم يتعلّمون من هي العذراء، وأنّها،
بمقدار ما يفوق الطفلُ الكهلَ طهرًا،
تفوقهم هي، بل هي تفوقهم سبعين مرَّةً أَكثر، طهرًا.
وبمقدار ما يفوق الطفلُ الكهلَ شبابًا،
تفوقهم هي، بل إِنّها تفوقهم سبعين مرَّةً أَكثر (وتفوق أَعظمهم)
شبابًا وطفولةً.
وبمقدار ما يفوق الطفلُ الكهلَ رجاءً،
بنفس المقدار، بل سبعين مرَّةً أَكثر، تفوقهم هي (حتّى أَعظمهم)
إِيمانًا ومحبّةً ورجاءً.

ينبغي، إذن، ذات يومٍ، التطلّع
إِلى التي تشفع،

بعد الشفعاء، والشفيعات، والقدّيسين،...
إلى من هي الأَشدّ نفوذًا،
لأنّها، أيضًا، الأَكثر أُمومةً.
إلى من هي ناصعةٌ بلا نهايةٍ؛
لأَنّها، أَيضًا، أُمّ الراعي الصالح، الإِنسان الذي رجا،
(وكان مصيبًا في رجائه، لأنه أَفلح في استعادة النعجة الضالّة)؛
إلى من هي سماويّةٌ بلا نهايةٍ؛
لأنّها، أَيضًا، أَرضيّةٌ بلا نهايةٍ؛
إلى من هي أَبديّةٌ بلا نهايةٍ؛
لأَنّها، أَيضًا، زمنيّةٌ بلا نهايةٍ؛
إلى من هي، بلا نهايةٍ، أَسمى منّا؛
لأَنّها، بلا نهايةٍ، في ما بيننا.
إلى من هي أُمّ الملائكة ومليكتهم؛
لأَنّها، أَيضًا، أُمّ البشر ومليكتهم؛...
إلى من هي مريم؛
لأَنّها ممتلئةٌ نعمةً؛
إلى من هي ممتلئةٌ نعمةً؛
لأَنّها معنا؛
إلى من هي معنا؛
لأَنّ الربّ معها.
إلى التي تشفع؛
لأَنّها مباركةٌ بين جميع النساء؛
ولأَنّ يسوع، ثمرة حشاها، مباركٌ؛
إلى من هي ممتلئةٌ نعمةً؛
لأَنّها ممتلئةٌ نعمةً؛
إلى من هي ملكةٌ بلا نهايةٍ؛
لأَنّها أَكثر الخلائق تواضعًا؛

ولأَنّها كانت امرأةً بسيطةً، وامرأةً فقيرةً...
إلى من هي بعيدةٌ بلا حدودٍ؛
لأَنّها قريبةٌ، بلا حدودٍ،
إلى الأَميرة الأَرفع مقامًا؛
لأَنّها المرأة الأَكثر تواضعًا؛
إِلى من هي الأَوثق قربًا من اللّه؛
لأَنّها الأَوثق قربًا من البشر؛
إلى الأَكثر سلامةً، وخلاصًا؛
لأَنّها تُنقذ بلا حدودٍ؛
إلى من تحظى بأَعظم رضًى لدى اللّه؛
لأَنّها ممتلئةٌ نعمةً؛
ولأَنّها الأَجدى فائدةً؛
«الآن»،
لأَنّها ممتلئةٌ نعمةً ووفيرة الجدوى،
«وفي ساعة موتنا، أَيضًا»
لأَنّها حملتْ، ولأَنّها ولدتْ،
ولأَنّها غذّتْ، وأَخذتْ بين ذراعيها،
الإِنسانَ الذي خشي،
والإِنسان الذي رجا.

إلى من هي وحدها مليكةٌ،
لأَنّها أَكثر أَفراد الرعيّة تواضعًا؛
إلى الأولى بعد اللّه،
لأَنّها الأولى قبل الإِنسان،
والأولى قبل الرجال والنساء،
الأولى قبل الخطأة،
والأولى قبل القدّيسين والقدّيسات،
الأولى قبل الإِنسان الجسديّ،

والأولى، أَيضًا، قبل الملائكة أَنفسهم.

كلّ خليقةٍ تفتقر إلى شيءٍ ما، وهو ليس فقط عدم كونها الخالق.
فالخلائق الجسديّة، تفتقر إلى الطهر،
والمخلوقات الطاهرة تفتقر إلى جسدٍ،
مخلوقةٌ واحدةٌ
هي طاهرةٌ وجسديّةٌ.
لذلك
ليست العذراء القدّيسة هي البركة الكبرى التي هبطت على الأَرض فحسب،
بل هي البركة الكبرى التي هبطت على الخليقة كلّها.
وهي ليست فقط الأولى بين جميع النساء،
و«مباركة بين جميع النساء»،
وليست فقط الأولى بين المخلوقات قاطبةً،
بل هي مخلوقةٌ فريدةٌ، فريدةٌ بلا حدودٍ، ونادرةٌ بلا حدودٍ.

ولشارل پيغي، أَيضًا، هذه الصلاة:

عندما سنوضع في الحفرة الضيّقة،
وتتلى علينا صلاة الغفران،...
وبعد أَن نكون قد اختلجنا اختلاجاتنا الأَخيرة،
وصعّدنا حشرجاتنا الأَخيرة،
تكرّمي واذكري رحمتكِ.
يا ملجأ الخاطئ، نحن لا نلتمس
سوى المكان الأَخير في مطهركِ،
لكي نستفيض في ندب تاريخنا المأسويّ،
وكي نتأمّل، من بُعدٍ، بهاءكِ النضر.

فرانسوا كوبيه (١٨٤٢–١٩٠٨)

François COPPÉE

شاعرٌ ومسرحيٌّ فرنسيٌّ

على وقع حبّات المسبحة

١ – تذكّر الماضي، إذ كنتَ طفلاً،
وكان والدك ينهض رافعًا يده،
كي يعاقبك على خطأٍ فظيعٍ
كيف كانت أُمّك توقف اليد الهامّة بالضرب.

والرواية التي لا تخدع تقول
إنّ يسوع، على الصليب، أَشار إلى يوحنّا،
وقال لمريم: «هو ذا ابنك»! ولذلك أنا أَسألها
أن تلتمس لي الصفح في ساعة موتي.

فيسوع، إذ نفحها تلك الهبة القدسيّة،
أَوكل إليها الإنسانيّة المسيحيّة، قاطبةً،
وغدت أُمّك، يا ربّ، هي أُمّي.
فتشفّعي بي، إذن، يا أُمّاه.
في قعر راحة يدي أُشاهد مسبحتي،
وأَرى حبّاتها السوداء بذرةً
أَقذف بها صوب السماء الرحبة، برجاءٍ جمٍّ.

ويا للمعجزة الرائعة! لن تلبث أن تزهر
كلّ تلاوة «سلامٍ»، عند قدمَيْ ملكة السماوات.
ومثل أَريجٍ عذبٍ ستتصاعد صلاتي المزهرة،
برقّةٍ، صوب مريم العذراء.

٢ – في هذا المساء، تناولتُ المسبحة
التي شرعت حبّاتها تهترئ بلمسات أصابعي،
وتلوت «السلام» عشر مرّات، بل عشرين مرَّةً.
كنت قد خطئتُ، وغمرتني مرارة الحزن،
ولكن ببساطةٍ، ومثل طفلٍ أمام أُمّه،
ضممتُ يديّ، واغرورقت عيناي بالدموع،
وردّدت: «صلّي من أجلنا، نحن الخطأة»
وإذ بالسلام ينبعث، مجدّدًا، في قلبي.

إنّي أومن، ورجائي في الله راسخٌ، وأعلم أنّه سيّدٌ
رحومٌ، وطيّبٌ، ورؤوفٌ، وأبويٌّ.
غير أنّه، على عرشه الأبديّ،
هو ديّاني. وعندما أجيل الفكر في سيرتي
يتضّح لي كم أنا ملوَّثٌ، ومثقلٌ بالذنوب، فأَرتعد.
أجل، ولكنّ العذراء الطيّبة حاضرةٌ، وهي تتولّى الدفاع عنّي.

الأخت إليزابيت الثالوث (١٨٨٠–١٩٠١)

Sœur Elisabeth de la TRINITÉ

أنفقت عمرها القصير في محاولة اكتشاف سرّ الله. ومع ذلك، لم تغفل مريم التي قالت فيها:

مريم، نموذج الحياة الداخليّة

«لو تعرفين عطيّة الله!» ثمّة مخلوقةٌ عرفت عطيّة الله هذه، ولم تفقد منها ذرّةً، مخلوقةٌ من الطهر، ومن الإشعاع بحيث تبدو وكأنّها النور عينه، مخلوقةٌ من البساطة والانصهار في الله، بحيث يكاد يتعذّر قول أيّ شيءٍ فيها. إنّها «العذراء الوفيّة» تلك التي «كانت تحفظ كلّ الأَشياء في قلبها». كانت من الصغَر، والخشوع أَمام الله، في سرّ الهيكل، بحيث اجتذبت حُظوة الثالوث المقدّس.

«لأنّه نظر إلى حقارة أَمته، ها إِنّ جميع الأَجيال تطوّبني، بعد اليوم». لقد انحنى الآب على تلك المخلوقة الفائقة الجمال، والتي تجهل جمالها، وشاء أن تكون، في الزمن، أُمّ من هو أَبوه في الأَبديّة، وحينئذٍ وافى روح الحبّ الذي يتولّى كلّ أَعمال اللّه، وهتفت العذراء: «فليكن»: «ها إِنّني أَمَة الربّ، فليكن لي بحسب قولك»، وتحقّق أَعظم سرٍّ. وبانحدار الكلمة إِليها، غدت مريم، إلى الأَبد، فريسة اللّه.

يبدو لي أَنّ موقف العذراء خلال الأَشهر التي امتدّت بين البشارة والميلاد، هي نموذج للنفوس المتأمّلة، وللأشخاص الذين اختارهم اللّه كي يحيوا في الداخل، في أَعماق الهوّة التي لا قعر لها. بأيّ سلامٍ، وبأيّ خشوعٍ، كانت مريم تضطلع بكلّ مهامّها! وكم كانت تؤلّه أتفه الأَشياء! فهي، من خلال كلّ شيءٍ، كانت تعبد عطيّة اللّه. ولم يحل ذلك دون بذل ذاتها في الخارج، تلبيةً لنداء المحبّة. الإنجيل يقول لنا: «ومضت مريم مسرعةً إلى جبال يهوذا، كي تزور نسيبتها إِليصابات». فالرؤيا الفائقة الوصف التي كانت تتأمّلها في داخلها، لم تُنقص، في شيءٍ، محبّتها الخارجيّة...

إِنّ نفس مريم من البساطة، ومبادراتها من العمق، بحيث يتعذّر سَبْرها. ولكأَنّها تمثّل، على الأَرض، حياة الكائن الإِلهيّ، الكائن البسيط. إنّها من الشفافيّة والإِشعاع، بحيث تبدو وكأنّها هي النور، مع أَنّها ليست سوى «مرآة شمس العدل»... يبدو لي أنّها، أَكثر من أَيّة قدّيسةٍ أُخرى، حريّةٌ بأن يُقتدى بها، فقد كانت حياتها آيةً في بساطتها.

حسبي أَن أَرمقها بنظرةٍ، كي يملأني شعورٌ بالسكينة.

«وأَمّا مريم فكانت تحفظ تلك الأَقوال كلّها، وتتأمّل فيها في قلبها» (لوقا١٩:٢). يمكن إيجاز كلّ سيرتها في هذه الكلمات المعدودات. لقد عاشت في قلبها، وفي عمقٍ يعجز النظر البشريّ عن سبر أَغواره.

عندما أَقرأ في الإِنجيل أَنّ «مريم قامت ومضت مسرعةً إِلى الجبل»...لكي تضطلع بواجب المحبّة حيال نسيبتها إِليصابات، أَراها تمرّ، جميلةً، هادئةً، جليلةً، متخشّعةً، في داخلها، مع كلمة اللّه! على غراره كانت صلاتها دائمًا:

– ها أَنذا!

– من؟

– أَمَةَ الربّ، أدنى الخلائق، مع أنّها أُمُّه!

يبدو لي أنّه يسوغ القول بأنّ ما من أحدٍ نفذ إلى أعماق سرّ المسيح سوى العذراء. القدّيس بولس يتكلّم غالبًا عن «فهم الله» الذي أُعطيه، إلاّ أنّه، على غرار جميع القدّيسين، يبقى في الظلّ، عندما ينظر إلى أنوار العذراء! فهي، تستعصي على كلّ وصفٍ! والسرّ الذي تحفظه وتتأمّله في قلبها، لم يستطع لسانُ التعبير عنه، ولا قلمٌ ترجمته.

ليون بلوا (١٨٤٦–١٩١٧)

Léon BLOY

ليون بلوا، كاتبٌ مسيحيٌّ حادّ العبارة، وصف ببلاغةٍ لاذعةٍ، وبألفاظٍ من نارٍ، بؤس العالم، وحبّ الله. وهو من القلائل الذين تناولوا بكتاباتهم حدث ظهورات العذراء في «لاساليت»، ووضع فيه كتابًا بعنوان: «تلك التي تبكي».

هذه المقالة عن «دموع العذراء»، لم تكن تبارح منضدته، في أيّامه الأخيرة، ونجتزئ بمقاطع منها:

دموع أمّ الآلام

«إنّ دموع أُمّ الآلام تملأ الكتاب المقدّس، وتفيض على كلّ القرون. جميع الأمّهات، وجميع الأرامل، وجميع العذارى اللائي يبكين، لايُضفْنَ شيئًا إلى هذا الفيض الدفّاق، الذي يكفي لغسل قلوب عشرة آلاف عالَمٍ يائسٍ. جميع المجروحين، وجميع المحرومين، وجميع المقهورين، وكلّ ذلك الموكب الوجيع الذي تغصّ به دروب الحياة، يجد مكانًا رحبًا في ثنايا معطف سيّدة الآلام السبعة، اللازورديّ. فكلّما انفجر أحدٌ بالدموع، في زحمة الجموع أو في العزلة، فهي التي تبكي لأنّ كلّ الدموع هي ملكها، لكونها إمبراطورة السعادة والحبّ. إنّ دموع مريم ودم يسوع فيضٌ مزدوجٌ من قلبٍ واحدٍ، ويمكن القول إنّ تعاطف العذراء القدّيسة كان هو

الآلام، في أَكثر صيغها رهبةً. هذا ما تعبّر عنه كلماتها الموجّهة إلى القدّيسة بريجيت: «أَسى يسوع كان أَساي، لأَنّ قلبه كان قلبي. آدم وحوّاء باعا العالم من أَجل تفّاحةٍ واحدةٍ. وابني وأَنا افتدينا العالم بقلبٍ واحدٍ».

الدموع إِرث أُمّ الآلام، إِرثٌ من الرهبة بحيث إِنّ من يبدّده في مودّات العالم يرتكب جريمة تدنيس. كانت القدّيسة روز الليماويّة تقول إِنّ دموعنا هي ملك الله، وإِنّ كلّ من يسكبها ولا يفكّر فيه، إِنّما يسرقها منه. إِنّها ملك الله وملك التي أَعطت الله جسد إِنسانيّته ودمها. وإِن كان القدّيس أَمبروسيُس، في معرض ذكره لمونيكا (والدة القدّيس أوغسطينُس) يسمّي أوغسطينُس «ابن دموعٍ غزيرةٍ»، فبأَيّ عمقٍ ينبغي أَن ندرك أَنّنا أَبناء دموع المخلوقة المتميّزة، التي نالت حُظوةً منقطعة النظير، بصفتها أُمّ الله، حُظوة أَن تقدّم للآب الأزليّ تعويضًا يفي بالجريمة التي تستعصي على الوصف، ولا يُسبَر لها غورٌ، وبهذا التعويض افتدى يسوع العالم. عندما كانت مونيكا تبكي ضلال من سيصبح ملفان النعمة، كانت دموعها نهر مجدٍ يحمل ابنها الملحد على ذراعيْها الممدودتَيْن، بلا كللٍ، صوب باري النعمة. ومع ذلك لم تملك ما تقدّمه سوى دموعها، ولم تكن تبتغي سوى هداية ابنها الوحيد. ولكن عندما تبكينا مريم فدموعها هي طوفان دم ابنها الشامل، وهي موزّعته الفائقة، وهذا الفيض هو أَكثر التقادم كمالاً. فهي الأُمّ الوحيدة، حسب النعمة، القادرة على حمل جموع أَبنائها الآخرين، الذين لا يحصى عديدهم، على عبادة ابنها، بمجرّد قدرة دموعها...

پيير تيّار دي شاردان (١٨٨١-١٩٥٥)

Pierre Teilhard DE CHARDIN

في لاهوت الأب تيلار الشعريّ والكونيّ، تحتلّ مريم مكانةً مرموقةً، ومن أَقواله فيها:

«هل خطر لنا، يومًا، إِعمال الفكر في معنى سرّ البشارة؟

عندما حان الزمان الذي قرّر الله فيه تحقيق تجسّده، وإِظهاره للعيان، كان لا بدّ له من أَن يستنهض، أَوّلاً، في العالم، فضيلةً كفيلةً باجتذابه إِلينا. كان بحاجةٍ إِلى أُمٍّ تلده على الأَرض. فما الذي فعله؟ إِنّه خلق العذراء مريم، أَي إِنّه أَظهر على الأَرض طهرًا من العظمة بحيث تركّز في شفافيّته، وتجلّى طفلاً صغيرًا...

هذه هي قدرة الطهر على إيلاد الإلهيّ بين ظهرانينا، في أَكثر صِيَغ التعبير قوّةً وواقعيّةً.

لا شيء، في العالم، يحيا ويعمل بكثافةٍ أَكبر من الطهر والصلاة، المعلّقين، مثل نورٍ ثابتٍ، بين الكون والله. ومن خلالهما تتدفّق الموجة الخلاّقة مثقلةً بالقدرة الطبيعيّة وبالنعمة.

وهل العذراء مريم سوى ذلك؟»

صلاة

«يا ربّ، إنّي راغبٌ (في تحقيق مشيئتك).
فلتكن رغبتي هذه، دائمًا،
أشدّ امتلاءً، واتّساعًا، وكثافةً.
وليكن كياني، باطّرادٍ،
أشدّ انفتاحًا لتأثيرك، وأصفى شفافيّةً!
وهكذا فلأَشعر بأن عملك هو دائمًا أكثر قربًا،
وأنّ حضورك أوفر كثافةً، في كلّ مكانٍ من حولي:
فلتكن، فلتكن مشيئتك».

فرنسيس جيمس (١٨٦٨–١٩٣٨)

Francis JAMMES

لقد نظم هذا الشاعر الفرنسيّ قصيدةً بعنوان «السلام عليك يا مريم»، وأَنشدها المطرب براسّانس (Brassens)، فانحفرت في كلّ ذاكرةٍ.

النزاع

باسم الفتى الذي يحتضر إلى جانب أُمّه،

فيما أَترابه يلعبون في الحديقة،
وباسم العصفور الجريحِ الذي يجهل
كيف نزف جناحه، بغتةً، وهبط،
باسم الجوع والعطش، والهذيان المضطرم،
السلام عليك يا مريم.

الجَلْد

باسم الأَطفال الذين يوسعهم ضربًا أَبوهم السكّير، العائد إِلى البيت،
باسم الحمار الذي يتلقّى رفساتٍ في بطنه،
باسم مهانة البريء المعاقَب،
باسم العذراء التي بيعت وعُرّيت،
باسم الابن الذي شُتمت أُمّه،
السلام عليك يا مريم.

حمل الصليب

باسم العجوز المتعثّرة تحت العبء الباهظ،
والتي تهتف: «يا إِلهي»!
باسم البائس الذي لم تتمكّن ذراعاه
من الاتّكاء على أَيّ حبٍّ بشريٍّ،
كما اتّكأ صليب ابن الله على كتف سمعان القيرينيّ،
وباسم الحصان الذي وقع تحت العربة التي يجرّها،
السلام عليك يا مريم.

الصلب

باسم الآفاق الأَربعة التي تصلب العالم،
باسم جميع من تُمزَّق أَجسادهم وتنهار،
باسم من فقدوا أَقدامهم، وباسم من فقدوا أَيديهم،
وباسم البارّ الذي أُدرج في عداد القتلة،
السلام عليك يا مريم.

العثور على يسوع في الهيكل

باسم الأُمّ التي تتلقّى نبأ شفاء ابنها،
باسم العصفور الذي يذكّر بعصفورٍ وقع من العشّ،
باسم العشب العطشان الذي يتلقّف الندى،
باسم القبلة الضائعة، وباسم الحبّ المستعاد،
وباسم المستعطي الذي يعثر على دُرَيْهماته،
السلام عليك يا مريم.

(ويتابع الشاعر تعليقه على الجزء الثاني من الصلاة المريميّة فيقول):

«يا مريم القدّيسة، يا أَمّ اللّه القدّيسة»، صلّي من أَجل الشاعر الذي يهديك هذا الكتاب الذي نما مثل شجرةٍ مستديرةٍ، لا تنفكّ تستضيء، بالشمس والقمر، وكلّ ورقةٍ فيها تسبّح اللّه، منشدةً. إِنّ التفّاحة الحمراء العَطرة المعلّقة في وسطها... هي لابنك الصغير، فليقطفها ويضعها، عابثًا، على قلبه المقدّس.

«يا عذراء العذارى القدّيسة»، صلّي من أَجل الفتاة التي ترقص مرتديةً ثوبًا متألّقًا.... فليظلّ قلبها مثل شعلةٍ، يحميها فانوسٌ، مثل نار زهرة الجيرانيوم الثابتة في اللازورد. ولتنتزع، ذات يومٍ، من شعرها، زهرة العالم المتغيّرة، كي تستبدلها بزنبقة هياكلكِ...

«يا أُمّ المخلّص» صلّي من أَجل اللواتي يُعِدْن إِلى جَادّة الصواب النفوسَ الضالّة مثلما يُنتَشَل الغرقى من البحر....

«يا كرسيّ الحكمة»، صلّي من أَجلنا كي نستطيع تلقين شريعة اللّه للفتى الثاوي على ركبتينا، بما أَنّ ركبتيكِ كانتا مثوًى لمن كان يعلّمكِ.

«يا سبب فرحنا»، صلّي لأَجلنا لكي نشعر بأَنّنا نحلّق، حتّى فوق آلامنا، وأَشيعي فينا تلك البهجة المستعصية على الوصف التي تنشب بنا مثل قبلةٍ، عندما نطلّ على تجويفة «لورد» الصخريّة....

«يا باب السماء»، صلّي من أَجلنا، عندما سنطرق باب قلبك، مثلما يطرق الفقراء، علّنا نستطيع اجتياز عتبتكِ، وأَقدامنا غارقةٌ في رقّة يخضور الرحمة.

باسم الليل المنسحب متيحًا لنا
رؤية شجرة النسرين التي تضحك فوق قلب الفجر،
باسم جرس الفصح، ورنّاته المدوّية،
الذي، في يوم السبت المقدّس، يلفّ، بكلّ قوّته،
فم الوديان بهتافات هلليلويا،
السلام عليك، يا مريم.

باسم تصعيد الناسك الشاقّ
صوبَ القمم التي تقطنها طيور الحجل البيضاء،
باسم القطعان التي تتسلّق فجر السماء،
كي لا تتغذّى إلاّ بثلجٍ من عسلٍ،
وباسم صعود الشمس المجيدة،
السلام عليك، يا مريم.

باسم نيران الرعاة المنحدرة، ليلاً،
على جبين الهضاب، وكأنّها رُسُلٌ يصلّون،
باسم المرأة التي تطهو الحساء الأَسود، طعام الفقير،
باسم البرق الذي يُشعل به الروح، كما يُشعِل القشُّ
عدَمَ كلّ إنسانٍ، إشعالاً أبديًّا،
السلام عليك، يا مريم.

غيّوم أَپولّينير (١٨٨١–١٩١٨)
Guillaume APOLLINAIRE

نظم الشاعر هذه القصيدة في سنة وفاته، فقال على لسان العذراء:

«يا بنيّ، ها أَنت على الصليب،...
يا بنيّ، أَنت لم تعُد شيئًا سوى هذا الصليب...

أَنت الذي كنتُ أَنا نبعه...
إِنّك ترقد في الأُرجوان الامبراطوريّ
الملطّخ بالدم الذي أَعطيتك إِيّاه.
يا بنيّ، أَيّتها الزنبقة المنبعثة من جسدي،
يا ازهرار قلبي العذب،
يا كلّي، يا بنيّ، ها أَنت ميّتٌ..
يا بنيّ، قديمًا حملتكَ،
عندما كان وزنك يكاد لا يساوي شيئًا،
وبتُّ لا أَملك لبنًا يغذّي موتك،
مثلما غذّيت بلبني حياتك...
تكلّم يا بنيّ، ردّ على أُمّك،
فهذا صوتي الذي لقّنك الكلام...
لقد قمت بمساعٍ لا تصدَّق،
كي أَبلغ هذا المكان المحظور،
وإِذا بك ميتٌ، يا ابني الحبيب،
فما الذي فعلوه بك؟ لقد قتلوك.
لقد تضافروا على قتلك.
وبما أَنّهم كانوا ناقمين على دمي،
علامَ لم يعمدوا إِلى تجفيف نبعه،
ولم يأخذوا حياتي؟
لماذا، يا بنيّ أَخذوا حياتك، ولم يأخذوا حياتي؟

الأب سيرتيلانج (١٨٦٣–١٩٤٨)

P. A-D.SERTILlANGES

لاهوتيٌّ، وفيلسوفٌ، وخطيبٌ مفوّهٌ. قال في التي حُبل بها بلا دنسٍ:

«عندما ستصبح مريم، واقعيًّا، أُمّ يسوع، سيشعّ كلّ كيان «المرأة اللابسة الشمس» بالنور. غير أنّها، منذ الآن، مشعّةٌ مسبّقًا، لكيلا يُحجَب شيءٌ من نور الشمس. الأُخريات سيُطهّرنَ، أمّا هي، فإنّها الطهر عينه. إنّها أُمّ النهار، ولن يعرف الليلُ إليها سبيلاً. منها ومنه سينشأ طهرٌ واحدٌ، نصاعةٌ واحدةٌ مضطرمةٌ، ستكون ربيع البشريّة المتجدّدة، ونشوة العالم العذبة.

هذا الامتياز المنقطع النظير، والحصريّ الذي خُصّت به مريم، لن يكون يومًا، وهو منذ الآن، في فكر العناية الإلهيّة، كنزٌ للجميع. فمريم التي خلّصها ابنها، قبل أن يولد، هي غنيمة انتصاره الأولى، وعربونٌ لجميع الأُخريات. إنّها احتياطيّ المسيح في حربه على الشرّ.

إنّها المكان الأَمثل لتركيز قصيدة البراءة وقوّة عدواها، في حالةٍ واحدةٍ باهرةٍ. إنّ الزنبقة بيضاء في قمّتها؛ ولكنّ مريم ناصعة البياض منذ جذور تكوينها حتّى اكتمال مجدها. العروس بيضاء، يومًا واحدًا، بيضاء بماضيها وحاضرها، من سرٍّ مقدّسٍ إلى آخر، من معموديّتها حتّى زواجها. ومريم بيضاء دائمًا، ومن خلال كلّ شيءٍ، من خلال الحبّ والأُمومة. ومنذ الآن بها سيُشبّه كلّ بياضٍ.

مهما قال الملحدون، إنّ المنزّهة من كلّ دنسٍ تلبّي حاجةً أساسيّةً في طبيعتنا؛ الحاجة إلى تذوّق كلّ ما هو ناصعٌ، وكاملٌ، إلى ما تمثّله للشاعر غمامة السماء المتألّقة، والثلج الذي لم تطله لوثةٌ، وزهرة البرتقال، وفراشة نيسان، وكلّ أَصناف اليقظات، وكلّ الصباحات المشرقة.

أَيّها الشعاع الذي أَصبح امرأةً، يا بسمة الأَرض التي، بكِ، تحرَّرت من كلّ شرٍّ، واستعادت الرجاء، أَيّة بُشرى يعلنها جمالك المقدّس! إنّك غمامة بخورٍ تفعم بشذاها أَجواءَنا، إنّك طوفان عطرٍ يتدفّق على جنبات دروبنا، بفضلك غدونا نعرف، منذ هذه الدنيا، حياة الملائكة، وما عدنا نجهل ما هي آلاء النعيم. من طهرك الفطريّ تعلّمنا قيمة الطهر المكتسب... يا سيّدة البياض الناصع، يا سيّدة الزنبق!

پول كلوديل (١٨٨٥–١٩٥٥)

Paul CLAUDEL

في العديد من أعماله الشعريّة عزا كلوديل إِلى مريم، بحثه عن الله، فمريم هي أَساس التجسّد بامتيازٍ.

١ – العذراء في الظهيرة

«إِنّها الظهيرة، وأَرى باب الكنيسة مشرعًا. فلا بدّ من ولوجها.
يا أَمّ يسوع، أَنا لست آتيًا لأُصلّي،
فليس لديّ ما أُقدّمه، وليس لديّ ما أَطلبه.
لقد جئت فقط لكي أَرنو إِليكِ،
أَتطلّع إِليكِ، وأَبكي سعادةً، وأُدرك
أَنّني ابنك، وأَنّك، هنا حاضرةٌ،
فقط مدى لحظةٍ واحدةٍ، ساعة يتوقّف كلّ شيءٍ،
في الظهيرة!
لكي أَكون معك، يا أُمّي، في هذا المكان حيث تقيمين.
لا أَقول شيئًا، بل أَتملّى من تأمّل محيّاكِ،
وأَترك قلبي ينشد بلغته الخاصّة.
لا أَقول شيئًا، مكتفيًا بالإِنشاد، لأَنّ قلبي مترعٌ،
مثل الشحرور الذي يتابع فكرته في أَمداء مقاطع أَغانيه الفجائيّة.
لأَنّكِ جميلةٌ، ولأَنّك منزّهةٌ من الدنس،
لأَنّك المرأة التي استعادت النعمة، أَخيرًا،
لأَنّك الخليقة المتمتّعة بمجدها الأَصيل، وبازدهارها النهائيّ،
مثلما خرجت من يد الله، في صباح بهائها الأَوّل،
أَنت النقيّة نقاءً لا يوصف لأَنّك أُمّ يسوع،
فهو الحقيقة ثاويةً بين ذراعيك، وهو الرجاء الوحيد، والثمرة الوحيدة.
لأَنّك المرأة، عَدَن الحنان القديم المنسيّ،

أنتِ التي ينفذ نظرها إلى القلب في الحال، ويفجّر الدموع المتراكمة.
لأنّك خلّصتني..
لأنّها الظهيرة، ولأنّنا في نهار اليوم الحاضر.
لأنّك هنا دائمًا، ولمجرّد كونك مريم،
ولمجرّد كونك موجودةً،
شكرًا لك يا أُمّ يسوع.

٢ – مرحلة درب الصليب الرابعة

المرحلة الرابعة هي مريم التي تقبّلت كلّ شيءٍ.
ها هي ذي، عند زاوية الطريق، تنتظر كنز كلّ فقرٍ.
عيناها خاليتان من الدموع، واللعاب جفّ في فمها.
لا تتفوّه بلفظةٍ، بل ترمق يسوع قادمًا.
إنّها تتقبّل، وتتقبّل مرّةً أُخرى.
الصرخة مكبوتةٌ، كبتًا صارمًا، في قلبها القويّ الملتزم.
لا تتفوّه بلفظةٍ، وهي ترمق يسوع المسيح.
الأُمّ تنظر ابنها، والكنيسة ترمق فاديها.
نفسها تنطلق صوبه بعنفٍ، انطلاقة صرخة الجنديّ المحتضر!
إنّها تقف منتصبةً أمام الله، وتقدّم له نفسها كي يقرأ ما فيها.
ليس، في قلبها، ما يرفض أو يتخاذل،
وما من وترٍ في قلبها المطعون لا يرضى ويُقِرّ.
وكما أنّ الله نفسه هو، هنا، حاضرٌ، كذلك هي حاضرةٌ.
إنّها تتقبّل، وترمق الابن الذي حملته في أحشائها.
لا تتفوّه بلفظةٍ، وهي ترنو إلى قدّيس القدّيسين.
هنا تبلغ الآلام غايتها، ولكنّ التعاطف يتواصل.
لم يعُد المسيح على الصليب، بل هو مع مريم التي تلقّته:
مثلما تقبّلته وعدًا، تقبّلته، مكتملاً.
المسيح الذي تألّم على مرأًى من الجميع، عاد فتوارى في أحشاء مريم.

والكنيسة تتولّى، بين ذراعيْها، شأن حبيبها إلى الأَبد.
كلّ ما هو من اللّه، كلّ ما هو من الأُمّ، وكلّ ما يصنعه البشر.
كلّ ذلك يثوي تحت معطفها، وكلّ ذلك يواكبها إلى الأَبد،
لقد تناولته، وهي ترى، وتجسّ، وتصلّي، وتبكي، وتُعجَب.
إِنّها الكفن والحنوط، إِنّها الرمس والطيوب،
إِنّها الكاهن والهيكل، والإِناء المقدّس، والعلّيّة.

٣ – مريم عند أَقدام الصليب

عن مريم، عند أَقدام الصليب يقتصر الإِنجيل على القول إِنّها كانت هناك واقفةً. كانت منتصبةً، لا جسديًّا، بل نفسها هي التي كانت منتصبةً، مفعمةً قوّةً، وقدرةً، وفهمًا، وحبًّا، كلّيّة الاستقامة، واليقظة، والمراقبة. كيف لا، وهي المرأة القويّة، أُمّ اللّه، منعة الكنيسة؟ فهل تستسلم في تلك اللحظة الحاسمة، وهل تنهار؟ هذه الساعات الثلاث التي كان عليها إِنفاقها في مواجهة ابنها، ابنها الذي أَمست أَعضاؤه الأَربعة موثّقةً بعنفٍ، بحيث لم يعد بوسعه البعاد عنها، هل يسوغ أَن تحرمه لحظةً منها؟ وهل كانت تلك مناسبةً ملائمةً لكي تنهار، وتستسلم للإِغماء، وتنكفئ على ذاتها؟...

لدى سماعها ابنها هذا، ابن جسدها ونفسها، يهتف منتصرًا، ويصرخ صرخته المريعة: «لقد تمّ!»، في تلك اللحظة كان عليها أَن ترتعش، وتختلج من قمّتها إلى أَخمصها، فلم تكن تلك لحظة انتحابٍ. فلتهتزّ الأَرض، ولتحتجب الشمس، وليتمزّق حجاب الهيكل من أَعلاه إلى أَسفله. ولكنّ مريم تظلّ واقفةً، ولا تتزعزع. إِنّها ترى، وتعرف، وتنظر، وتشهد، وتعطي، وتقبل، وتوافق. ها أَنذا أَمَة الربّ.

ها إِنّها، في هذه النوبة، حقًّا، مرّةً أُخرى، أَمَة الربّ!»

تحدّى الشاعر كلوديل الحساسيّة العقلانيّة الشائعة حيال علامات السماء والتقوى الشعبيّة. وتجرّأ فحدّق وجهًا لوجه إلى «معجزة الشمس» في فاتيما، التي أذهلت الجموع في ١٣ تشرين الأوّل ١٩١٧، وغاص في سرّ العلامة ومغزاها، فكتب تحت عنوان:

٤ – الشمس والحبّ

«ها إِنّ ملكوت الله، الذي ظنّوا أَنّه عُطِّل إلى الأبد، يبادر إلى الهجوم – وأيّ هجومٍ! – ستّ نوباتٍ متتاليةٍ أَمام حضورٍ ما انفكّ يتضخّم حتّى كوّن جمهورًا حاشدًا! إِنّها الشمس في جوز السماء، الشمس في عزّ الظهيرة! بقِحَةٍ معلَنَةٍ أَزرت بكلّ السنن العلميّة، وأَخذت تعلن استقلالها!

... وعلى مرأًى من حشدٍ مذهولٍ رقصت، مثلما رقص داود أَمام تابوت العهد. وقد كُتِب لنا أن نحيا كي نشهد ذلك! وإِن نحن ارتبنا بأَحداقنا، فهناك الصور الفوتوغرافيّة، التي لا تُدحض لها شهادةٌ، تؤكّد هذا الحدث المذهل! لقد عاش الشاعر دانتي، قديمًا، رؤية الثالوث في صورة دوائر ثلاث لا تستطيع الانفكاك إِحداها عن الأُخرى. ولكنّنا لسنا نتحدّث، هنا، عن تخيّلٍ شاعريٍّ، بل نحن في صلب الواقع. فهذه الشمس، عامل أمننا الأَساسيّ، وسط كلّ وضعنا المادّي، لا تقتصر على إِنضاج بُقولنا، بل تصبح بطلة إِعلانٍ فائق الطبيعة. إِنّها تدور، وتدوّم، وتزوبع حول ذاتها، وتتقيّأ، في كلّ صوبٍ، سيول نارٍ من كلّ لونٍ، كان من شأن صوفيّي العهود الغابرة أَن يروا فيها صورًا لنفحات الروح القدس. إِنّها تنقضّ على الأرض وكأَنّها تودّ أَنّ تتناولها بقرصها، ثمّ تقفز عائدةً إِلى ذرى السماء. ولكأَنّها هي من عناها صاحب المزامير بقوله: «هناك للشمس نَصَب خيمةً، وهي كالعريس الخارج من خدره، وكالجبّار تبتهج في عدوها»...

مريم هي أُمّ يسوع... وحيثما يكون، يأتي بأُمّه معه...

وكما أَنّ مريم هي أَمّ المسيح، إِنّها أُمّنا، أَيضًا، وتتعاون مع كلّ ما فينا قادرٌ على إِيجاد يسوع. إِنّها تقرن قلبنا بقلبه، وهذا القلب، إِذ يُحيي قلبنا، يعلّمه كلّ ما يتوجّب فعله، بحيث نستطيع أَن نهتف، مع بولس: «لست أَنا من يحيا، بعد، بل إِنّ المسيح من يحيا فيّ».

في العذراء، كما في مرآة، نرى الله، ونرى ذواتنا، كما نحن، جوهريًّا، كما يُشير قول أَحد الصغار الثلاثة (الذين ظهرت لهم العذراء): إِنّها تخترق ظلماتنا وتُفهِمنا أَنّ «الله دعانا من غمرة الظلمة إِلى نوره العجيب» (بطرس ٢ : ٩).

إِنّها تتضافر مع جهودنا، وتتماهى مع كلّ ما فينا ينبذ القذارة الموروثة أَو المكتسبة.

إِنّها تطلب أَن تقيم فينا نبع قوتها المطهّرة. فإن كان القلب هو نبع الإِنسان، فالقلب المنزّه من الدنس هو نبع طهره.

وإِن كان القلب الجسديّ يحقّق وحدة الفرد، فإِنّ قلب مريم، المشترك مع قلبنا، في صدرنا، يحقّق وحدة الكنيسة في مسيحٍ واحدٍ مشتركٍ».

٥ - نشيد الميلاد

«دقّت ساعة منتصف الليل، فواصل سيرك وادخل.
أَيّ قلبٍ، مهما قسا، لا يذوب أَمام المشهد الماثل!
لقد أَحبّنا حبًّا جمًّا، فمن لا يقابله بالحبّ،
ومن لا تفيض عيناه بالدموع، وهو يأخذ هذا الفقير الصغير بين ذراعيه؟...
اليوم وُلد لنا ابنٌ، وأُعطينا طفلاً....
هو ذا جسدٌ من جسدنا، هو ذا «الطفل مع اللّه» الذي صنعناه،
والذي يعيد لنا كامل الإِرث الذي سلبنا إِيّاه إِبليس.
واسمه: الرائع، المشير، اللّه القويّ، أَبو الدهر الآتي،
أمير السلام!...»

٦ - سيّدة المعونة

«الوليد النحيل المدرك أَنْ ليس من يفخر به، ولا من يحبّه حقًّا،
إِذا ما حطّت عليه، اتّفاقًا، نظرةٌ رقيقةٌ،
تحمرّ وجنتاه، ويجسر على الابتسام، لكي لا يبكي.
هكذا، في هذا العالم الفاسد، الأَيتام والمعدمون،
من لا يملكون مالاً، ومن لا يملكون معرفةً وفكرًا،
مثلما هم يفتقرون إِلى كلّ شيءٍ، يفتقرون، أَيضًا، إِلى أَصدقاء.
الفقراء قلّما ينفتحون على الغير، ولكنّه ليس من العسير اكتساب قلوبهم.
حسبُهم شيءٌ من الاهتمام، ومن معاملةٍ كريمةٍ.
خذ هذه النظرة، أَيّها الفقير، من يدي، ولكن لا تولِها ثقتك،
فأنا سرعان ما سأنضمّ إِلى أَبناء جنسي، وأُقلع عن التفكير فيك.

ما من صديقٍ للفقير، جديرٍ بالثقة، إن هو لم يعثر على من يبزّه فقرًا.
ولذلك تعاليْ، يا أُختي المرهقة المقهورة، وانظري مريم.

أَيّتها المرأة المسكينة، يا من زوجها يعاقر الخمرة، وأَبناؤها مبتلون بالهزال،
يا من تفتقر إلى المال اللازم لمواجهة الاستحقاقات، والتي تتمنّى الموت،
يا من ينقصها كلّ شيءٍ، وتعاستها جسيمةٌ،
تعاليْ إلى الكنيسة، واصمتي، وحدّقي إلى مريم.
مهما كان الظلم اللاحق بنا جسيمًا، ومهما اشتدّ بؤسنا،
إلاّ أَنّ تعاسة الأُمّ أَجسم، عندما يتأَلّم أَبناؤها.
فانظري تلك الحاضرة هنا، لا تشكو، ولا ترجو،
مثل فقيرٍ التقى آخر يفوقه فقرًا،
ويرمق أَحدهما الآخر، بصمتٍ».

٧ - العذراء المصغية

«في الخارج الشمس ترين بكلّ لظاها....
ولكن، داخل الكنيسة، ها إنّ العذراء القدّيسة ماثلةٌ أمامي، حاضرةٌ من أَجلي.
في مثل نقاء جبلٍ جليديٍّ، وفي مثل برودته،
بيضاء، مع ابنها في ثوبه الناصع البياض، الطويل الذي لا ينحسر سوى عن طرف قدميه.
يا مريم، ها قد عاد إليك الرجل المسكين، يفيض هواجس ورغباتٍ!
آه! لن يتّسع لي أَبدًا وقتٌ للبوح لك بكلّ ما أَودّ قوله!
ولكنّها، هي، تظلّ مغضيةً ناظريها، بوجهها الذي يقرن الجدّ إلى الرقّة،
ترقب الكلمات على شفتيّ، مثل من يُصغي، ويتأهّب للفهم».

٨ - في نهاية الشهر الثالث

«في نهاية الشهر الثالث بعد البشارة، وهو شهر حزيران،
شعرت المرأة التي اتّصل بها الله نفسه

بنخزة ابنها الأولى، و بخفقة قلبٍ تحت قلبها.
وفي أحشاء العذراء المعصومة من الخطيئة، نشأت حقيقةٌ جديدةٌ،
والولد السابق لكلّ زمنٍ أخذ الزمن من قلب أُمّه.
ودخل النَفَسُ البشريّ إلى المحرّك الأوّل.
ومريم المثقلة بحملها، بعد أن حملت بفعل الروح القدس،
توارت عن عيون البشر، في غور معبدها الخفيّ،
مثل حمامة النشيد التي تلطو في ثغرة السور،
لا تبدي حراكًا، ولا تتفوّه بكلمةٍ، بل تعبد، صامتةً ساكنةً.
إنّها في روح العالم، ولم يعد اللّه خارجًا عنها،
فهو عملها، وهو ابنها، وصغيرها، وثمرة أحشائها.

الكون كلّه ساكنٌ، وقيصر أغلق هيكل جانوس،
الصولجان انتُزِع من داود، والأنبياء صمتوا.
هذا الفجر ليس من صنع لوسيفورُس، وهو أشدّ من الليل ادلهمامًا،
إبليس يسود، والعالم بأسره يقدّم له بخورًا وذهبًا،
وها إنّ اللّه ينسلّ مثل لصٍّ إلى فردوس الموت هذا.
امرأةٌ خُدعت، وامرأةٌ خَدعت الجحيم!
يا للّه المتواري في امرأةٍ!
يا للسبب المرتبط بهذا الرباط!
أورشليم تجهل، وليس ليوسف علمٌ بشيءٍ،
والأمّ وحيدةٌ مع ابنها، تتلقّى حركته المستعصية على التعبير.

فرانسوا موریاك (١٨٨٥–١٩٧٠)

François MAURIAC

كاتبٌ كاثوليكيٌّ شهيرٌ، ومن ألمع الروائيّين الفرنسيّين.

أُمّ النجّار

«أُمّ ذلك النجّار العامل، وقد دلفت إِلى الشيخوخة، كانت تبحث، في أعماق الظلّ، عن الملائكة الذين لم يكفّوا يؤنسون حياتها، طيلة الأيّام التي أعقبت البشارة. فهم الذين، في الليلة المقدّسة، كانوا قد أرشدوا الرعاة إلى طريق المغارة، وهم الذين، من غوْر تلك العتمة ذاتها، حيث كان الحبّ يرتجف مقرورًا في مذودٍ، كانوا قد وعدوا البشر سليمي النوايا بالسلام.

ملاكٌ، أيضًا، هو الذي كان، في الحلم، قد أمر يوسف باستصحاب الصبيّ وأُمّه، وبالفرار إِلى مصر، هربًا من غضب هيرودُس... ولكن، منذ عودة الأُسرة إلى الناصرة، كانت السماء قد انغلقت، وكان الملائكة قد تواروا.

كان لا بدّ من ترك ابن الله يتغلغل إلى أعماق الجسد البشريّ. وعامًا إِثر عامٍ، كانت أُمّ النجّار معرّضةً للظنّ بأنّها إِنّما حلمت، لولا حضور الآب والابن الدائم فيها، والذي كان لا يني يحيي في قلبها ذكرى الأُمور التي تحقّقت...

«وأنت سيخترق سيفٌ نفسكِ...!»

هذا القول لم يبارحها قطّ. هذا القول، بل هذا السيف الذي انغرس فيها منذ تلك اللحظة، وما برح منغرسًا. فهي تعلم علم اليقين أنّ لا شيء ينال منها إِلاّ من خلال ابنها، وأنّ كلّ ألمٍ، وكلّ فرحٍ لا يأتيانها إِلاّ منه».

عند أقدام الصليب

«انتصبت الجلجلة عند باب المدينة. وها إِنّ مريم هنا.... انتهزت سانحة فقدان ابنها للصوت والقوّة على ردعها وطفت، أخيرًا، من الصمت والظلّ، والسيف مغروسٌ في قلبها. ما من قدّيسٍ سيقوى على معانقة الصليب، في مثل شدّة معانقة مريم له. لقد اقترنت بالفداء، في صمتٍ».

لويس مرسييه (١٨٧٠-١٩٥١)

Louis MERCIER

شاعرٌ مسيحيٌّ، تميّز شعره بالعفويّة، والعذوبة، وعمق الإيمان.

١ - البشارة

اجتاز جبرائيل عتبة البيت،
فيما العذراء، التي لم تشعر بوجود ملاكٍ وراءها،
ظلّت مضمومة اليدين، جاثيةً، مستغرقةً في الصلاة:
الربيع قد تفتّح حديثًا، والنور متألّقٌ.

كتم الملاك نأمة طيرانه، وصَمَت،
معجبًا. مع أنّه قادمٌ من السماء، حيث مكانه،
هناك، في العلاء، إلى جانب العرش حيث يتوهّج اللّه.
إنّه واحدٌ من النسور التي ترنو إلى الشمس وجهًا لوجه.

إنّه قادمٌ من السماء. كيانه مرآةٌ متّقدةٌ
تعكس جلال الأقانيم الثلاثة.
وها إنّ السفير المجنّح، أمام مشهد إحدى بنات آدم،
يرتعد ويدهش.

أيمكن أن يضيء كلّ هذا السنى جسدًا بشريًّا؟
وهل يمكن أن يتفجّر كلّ هذا النور من نفسٍ
ما برح الطين يثقلها!
آه! إنّ السماء تحسد الأرض على هذه المرأة.

لولاها لبدت روائع المدينة المقدّسة ناقصةً،
ولفقدت بساتينها ملء جمالها...
قبل أن يغرس فيها الربّ هذه الوردة!

لقد تعرّف رئيس الملائكة سيّدته.
لقد رأى العروس التي اختارها الحبّ الأَبديّ لنفسه،
فلامس الثرى بركبته،
وبصوتٍ ترتجف فيه رعدةٌ مقدّسةٌ، قال: «السلام عليك...»

٢ - الانتقال

اذكري، يا عذراء، اللحظة التي شهدت فيها عيناك
النجمة البشريّة المسكينة تتوارى.
فقد كنت تخطّيت، آنذاك، تخوم أَجوائنا،
وبلغت الأَثير اللامأهول.

الأَفلاك، تحت قدميك، كانت تنثر وردًا من ذهب،
والملائكة إِذ استشعروا اقترابهم من الذرى الأَبديّة،
الملائكة الذين واكبوا بتحليقهم تحليقك،
باتت خفقات أَجنحتهم أَرحب مدًى.

كم كان يبدو، هناك، شاحبًا وحزينًا،
بصيص الأَرض في غور المدى!
غير أَنّ ناظريك لم ينفكّا يرمقان
ذلك الكوكب التائه.

فهو العالم الذي يولد ويموت فيه البشر،
وأَنت قد عشت بين ظهراني من يتنفّسون،
وقاسمتهم أَعباءهم ودموعهم،
ولحظات صفوهم، وبسماتهم.

وها أَنت، وقد غفلت، لحظةً،
عن روائع العرش الذي أَعدّه العريس الإِلهيّ لتكريم مفاتنك
حيّيت بلد الأَوجاع،
بدمعتك الأَخيرة.

فيا أُمّاه، اذكري هذا الوداع الأَخير،
ومن قمّة المجد الذي تجثمين عليه، يا ملكة،
أَلقي، أَحيانًا، أَنظار عطفكِ
على نجمتنا البشريّة المسكينة.

ماري روجيه، المعروفة بـ ماري نويل (١٨٨٣–١٩٦٧)

Marie NOËL

قرويّةٌ شبه أُمّيّةٍ، التمست من اللّه، في حرارة تقوى ابنة الخامسة عشرة، أَن تكون شاعرةً وقدّيسةً. وكانت العذراء ملهمتها. وهذه قصيدة لها بعنوان:

إِلهي بين ذراعيَّ

«يا إِلهي الغافي، واهيًا، بين ذراعيّ،
يا ابني الذي يشيع دفأه فوق قلبي الخفّاق،
إِنّي أَعبد، بين يديَّ، وأَهدهد، في ذهولٍ،
الرائعةَ التي وهبتنيها، يا اللّه.

لم أَحلم، يومًا، بابنٍ، يا إِلهي.
فأَنا عذراء، وفي حالي الوضيع هذا،
أَيّ برعم فرحٍ كان يمكن أَن ينبثق منّي؟
ولكنّك أَنت، أَيّها الكلّيّ القدرة، منحتنيه....

لم يكن لك فمٌ، يا إِلهي،
كي تكلّم القوم الضالّين، على أَرضنا...
وإِنّما فمك الغضّ الملتصق بثديي،
أَنا أَعطيتك إِيّاه، يا بنيّ.

ولم يكن لك يدٌ، يا إِلهي،

كي تشفي، بإِصبعٍ منها، أَجسادهم العليلة.
وإِنّما يدك، هذا البرعم الزهريّ الذي لم يتفتّح بعد، وما زال مرتبكًا،
أَنا أَعطيتك إِيّاها، يا بنيّ.

ولم يكن لك جسدٌ، يا إِلهي،
كي تكسر معهم خبز الحياة.
وإِنّما هذا الجسد الذي تكوَّن من ربيعي،
أَنا أَعطيتك إِيّاه، يا بنيّ.

ولم يكن لك موتٌ، يا إِلهي،
كي تخلّص به العالم، ويا للآلام!
وإِنّما موتك كإِنسانٍ، موتك القاتم، في الوحدة والتخلّي،
أَنا أَعطيتك إِيّاه، يا صغيري، ذات مساءٍ.

كارل بارث (١٨٨٦–١٩٦٨)

Karl BARTH

نشأ كارل بارث في جوٍّ بروتستانتيٍّ ليبراليٍّ، ولكنّه، عبر مسيرةٍ لاهوتيّةٍ عميقةٍ وجادّةٍ، عاد إِلى أَصالة قانون الإيمان القائل إِنّ يسوع المسيح «وُلد من العذراء مريم» بمعزلٍ عن تدخّل أَبٍ بشريٍّ. وقد كان بارث للبروتستانتيّين، ولكثيرين من الكاثوليكيّين الذين تغويهم تجربة العقلانيّة والحداثة، إِمام العقيدة الأصيلة الحقّة.

بتوليّة مريم، علامة الحبّ الإِلهيّ

ليس وجود يسوع، بصفته الإِنسانيّة، نابعًا من إِمكانيّةٍ كامنةٍ في طبيعة البشريّة، بل هو نابعٌ من وجوده الإِلهيّ في كيانه الأَبديّ، بصفته كلمة اللّه وابنه. وجوده في الزمن هو واحدٌ مع وجوده الأَبديّ بصفته الابن المولود من اللّه الآب. ولنذكر، هنا، أَنّ الابن، في الإطار البشريّ، يدين لأَبيه بكلّ ما يميّز وجوده الخاصّ: اسمه، وحاله المدنيّ، وحقوقه، وطباعه، وفرديّته، ومكانته التاريخيّة. وبالتالي فإِنّ ولادة يسوع من

أَبٍ بشريٍّ لا تصلح مطلقًا للدلالة على يسوع الإِنسان، بصفته الابن المولود من الآب أبديًّا، بل من شأنها أن تدلّ على شخصٍ وجوده مختلفٌ ومستقلٌّ عن وجود اللّه...

في كلّ إِنجابٍ طبيعيٍّ، يحتلّ المكانة الأولى الرجل الواعي لقدرته، القويّ بإِرادته، الفخور بطاقته الخلاّقة، المستقلّ والسيّد. وليست إِجراءات الإِنجاب الطبيعيّ هي الدلالة الملائمة على السرّ الذي نتطرّق له، هنا. بل هو علامةٌ على القدرة الكونيّة الكامنة في الرغبة الجنسيّة البشريّة. وللتعبير عن هذه القدرة بكلّ اتّساعها، كانت العلاقة الجنسيّة هي الأسلوب الأمثل. ولكنّ هذه العلاقة لا يسعها أن تعبّر عن الحبّ الإِلهيّ، ذلك الحبّ الذي لا يلتمس مصلحةً ذاتيّةً. فإِرادة السيطرة والسطوة لدى الرجل التي يعبّر عنها، خاصّةً، من خلال العمل الجنسيّ، تدلّ على شيءٍ آخر غير جلال الرحمة الإِلهيّة. ولذلك، إِنّ بتوليّة مريم، وليس اقتران يوسف بمريم، هي دليل الوحي، والمدخل إِلى إِدراك سرّ الميلاد.

لقد طبع العمل الذكوريّ التاريخ. ومن هذا المنظور، ندرك على نحوٍ أمثل، أبعاد سرّ الميلاد، الذي ينفي وجود أَبٍ أرضيٍّ ليسوع. فالرجل الواعي لإِرادته وقدرته، الرجل الخلاّق السيّد، لا يسعه الإِسهام في عمل اللّه... ولا بدّ من استبعاد الذكر عندما نحتاج إِلى إِشارةٍ للتعبير عن التجسّد.

جورج برنانوس (١٨٨٨-١٩٤٨)

Georges BERNANOS

كاتبٌ وروائيٌّ فرنسيٌّ، كاثوليكيّ النزعة والإِلهام. من روايته الشهيرة «مذكّرات كاهنٍ في الريف» نقتطف ما يلي:

لم تحرز العذراء القدّيسة انتصاراتٍ، ولم تُجرِ معجزاتٍ. فابنها لم يسمح بأن يلامسها المجد البشريّ، ولو بأدقّ طرفٍ من جناحه الوحشيّ الكبير. ما من كائنٍ عاش، وتألّم، ومات في مثل بساطتها، وفي مثل جهلها السحيق لكرامتها التي ترقى بها فوق مستوى الملائكة. فهي كانت قد وُلدت بلا خطيئةٍ، ويا لها من وحدةٍ مدهشةٍ! إِنّها نبعٌ من النقاء والصفاء، بحيث لم يكن بوسعها أن ترى انعكاس صورتها فيه، الصورة التي وُجدت من أجل فرح الآب وحده. ويا لوحدتها المقدّسة!

إنّ الأبالسة القدامى، الذين عقدوا مع البشر علاقاتٍ أليفةً، الأَسياد والخَدَمَة معًا، الآباء الرهيبين الذين قادوا خطوات آدم الأولى إلى عتبة العالم الملعون، أرباب الحيلة والكبرياء، هؤلاء أَراهم يرمقون، من بعيدٍ، هذه المخلوقة العجيبة، الواقفة على منأًى منهم، عزلاء، ولكن يتعذّر النيل منها. من المحقّق أَنّ جنسنا لا يساوي شيئًا، غير أَنّ الطفولة تحرّك دائمًا أَحشاءها، وجهل الصغار يجعلها تطرق أَنظارها، وتغضّ عينيها اللّتين تعرفان الخير والشرّ، عينيها اللّتين شاهدتا أَشياء وأَشياء...لقد كانت العذراء هي البراءة عينها. فما شأننا، حيالها، نحن الجنس البشريّ! إِنّها، فطريًّا، تمقت الخطيئة، مع أَنّها لم يكن لها أَيّة خبرةٍ، خبرةٍ لم تكن غريبةً عن أَيٍّ من كبار القدّيسين، حتّى الأَسّيزيّ الذي تميّز بملائكيّةٍ فذّةٍ. إنّ نظرة العذراء هي النظرة الطفوليّة الوحيدة، نظرة الطفل الوحيدة التي أَحاطت بخزينا وبؤسنا. أَجل، يا صغيري، لكي تدعوها دعاءً حسنًا، يجب أَن تشعر بنظرتها عليك، نظرةٍ لا تعبّر عن تسامحٍ – إذ لابدّ للتسامح من تجربةٍ مريرةٍ – بل هي نظرة تعاطفٍ رقيقٍ، نظرة مفاجأةٍ أَليمةٍ، نظرة شعورٍ أَعجز عن إدراكه ووصفه، يجعلها أَكثر شبابًا من الخطيئة، وأَكثر شبابًا من الجنس البشريّ الذي انحدرت منه، ومع كونها أُمًّا بالنعمة، فهي أُمّ النعمة، وصغرى الجنس البشريّ.

... إنّ يَديْ تلك المخلوقة السامية، يَديْها الصغيرتَيْن، يديها الممتلئتَيْن نِعَمًا، قد سكّنتا الصاعقة. كنت أَنظرهما، أَراهما تارةً، وتارةً أُخرى تغيبان عن ناظريّ. وإِذ كان يتفاقم أَلمي، وينتابني شعورٌ بأَنّني أَنزلق ثانيةً، أَخذت إِحدى يديها في يدي. كانت يد طفلٍ، طفلٍ فقيرٍ، يدًا أَنهكها العمل، وغسل الثياب. كيف لي أَن أُعبّر عن مشاعري؟ لم أَشأ أَن يكون ذلك حلمًا، ومع ذلك أَذكر أَنّي أَغمضت عينيّ. وكنت أَخشى، إِن أَنا فتحت جفنيّ، أَن يقع ناظري على الوجه الذي تجثو، أَمامه، كلّ ركبةٍ. ورأَيته، فإِذا به، أَيضًا، وجه طفلٍ، أَو وجه فتاةٍ صغيرةٍ جدًّا، لا أَلَق فيه. بل إِنّه كان وجه الحزن، ولكنّه حزنٌ لم أَشهد له، قطّ، نظيرًا، في أَيّ مكانٍ، حزنٍ قريبٍ إِلى قلبي، قلب الإِنسان البائس، ومع ذلك إِنّه حزنٌ بعيد المنال. فما من حزنٍ بشريٍّ يخلو من المرارة، ولكنّ ذلك الحزن كان عذوبةً، منزّهًا من كلّ ثورةٍ. كان يذكّر بلست أَدري أَيّ ليلٍ عظيمٍ، عذبٍ، لا محدودٍ. حزننا، نحن، يولد من تجربة مصائبنا، وهي تجربةٌ نجسةٌ دائمًا. أَمّا حزنها فكان براءةً.

وأَدركت، حينئذٍ، معنى بعض أَقوال الكاهن التي كانت تبدو لي غامضةً. ولا غرو أَنّ اللّه، قديمًا، قد حجب، بمعجزةٍ، هذا الحزن البتوليّ. فمهما كان البشر عميانًا وقساةً، لكانوا تعرّفوا، من علامة هذا الحزن، ابنتهم الثمينة، المولودة الأَخيرة من جنسهم العتيق، الرهينة الإِلهيّة التي تزأر الأبالسة من حولها، ولكانوا هبّوا جميعًا، وأَقاموا لها، من أَجسادهم الفانية، سور حمايةٍ.

موريس زوندِل (١٨٩٧–١٩٧٥)

Maurice ZUNDEL

هذا الكاهن السويسريّ دأب على تأكيد أَنّ العذراء هي الكنيسة، والإِيمان الحيّ، ومسكن اللّه.

مريم: كاتدرائيّة الصمت

لطالما حلُمت بإِشادة كنيسةٍ للصمت....أَوليست مريم هي هذه الكنيسة؟ وأَليست جميع قدرات مريم هي التي تدوّي بأَسرارٍ تتحقّق في صمت اللّه؟..

إِنّها لا تقول عن نفسها شيئًا، ولا تصنع من تلقاء ذاتها شيئًا، ولا تقحم ذاتها في أَيّ شيءٍ. ما من فكرةٍ، أو صورةٍ، أو كلمةٍ، تحدّ الفائق الوصف فيها، وسنى النور فيها لا يصطدم بأيّ ظلٍّ...

شفافيّتها لأنوار الشمس تجعل منها نافذةً نقيّةً، وسرّ يسوع يتألّق بكلّيّته فيها... إِنّها الحديقة المغلقة، والفناء الذي تسوده الوحدة، وصحن الكنيسة الهادئ، والمصباح الخاشع، والمحراب الوقور، والهيكل المشعّ، وبيت القربان الحيّ، وكاتدرائيّة الصمت.

فيها، أَكثر من أَيّة خليقةٍ أُخرى، يتماهى الفقر والحكمة، في تقدمة كلّ كيانها، الدائمة والأَمينة أَبدًا... وإِن هي كانت كرسيّ الحكمة، فلأَنّها، وعلى نحوٍ فريدٍ، المرأة الفقيرة، التي توغّلت، أَبعد من أَيّ كائنٍ آخر، في أَغوار التطويبة الأُولى، التي تنطوي على كلّ فرح الإِنجيل: «طوبى للفقراء بالروح، لأنّ ملكوت اللّه لهم».

جوزيف ماليغ (١٨٧٦–١٩٤٠)

Joseph MALÈGUE

لقد واصل جوزيف ماليغ، سحابة حياته التي بدأت نسكيّةً، ثم تحوّلت إلى العمل والتعليم، بحثًا حميمًا مرتكزًا على الجوهريّ. وقد أفضى به ذلك إلى اكتشاف حقائق أساسيّة، وإلى استبيان تشابك النور والظلمة في عطايا الله، نور الصليب والألم، وحقيقة فرادة العذراء.

هذه صفحاتٌ من كتابٍ نشره قُبَيْل موته:

«إنّها فريدةٌ على الأرض، إنّها قدّيسةٌ بين القدّيسين، المنزّهة من الخطيئة... مع تواريها في ظلّ الحياة البسيطة العامّة، وانهماكها بالمهامّ اليوميّة الوضيعة، كانت قدّيسةً من نمطٍ عدنيٍّ (نسبةً إلى فردوس عدنٍ). وُجدت مريم، جوهريًّا، من أجل الله، لكي توفّر لذلك العاشق الأكبر للنفوس أُسلوبًا فذًّا ومميّزًا للعبادة المتلقّية. إنّها النفس البشريّة الوحيدة التي استطاع الله أن يحطّ عليها بصره، ويعكس وجهه... بسبب هذه المنزّهة من الخطيئة وحدها، لم يُفسد الإنسان تنازل الله نحو البشر... ومع أنّها ولدت في زمن الانحطاط، ظلّت مريم البدء الجديد المنفرد لمصير عدنٍ...

في الجلجلة، يا أمّاه، ضربتِ لنا موعدًا... إنّنا، أخيرًا، أمام «النَعَم» الحقيقيّ، المريع، الذي كان يخفيه «النَعَم» الأوّل في ثناياه.

ولا ريب أنّ مريم كانت تعرف ذلك، ولم يكن بوسعها أن تجهله. لقد عرفته من خلال أشعيا، والكتب المقدّسة. وكان قد ألمح إليه سمعان، ومن المحقّق أنّ يسوع، أيضًا، كان قد أنبأها به.

وقد كان «نَعَمها»، أصلاً، يجأر بالقبول المطلق، أو بالحريّ كان يهمس به بصوتٍ خافتٍ، حازمٍ في صمتٍ مقدّسٍ، وخشوعٍ، وخضوعٍ...

وكانت مريم هناك، بين صلبان التلّة، حاضرةً، مشاركةً في الفداء، منزّهةً من كلّ دنسٍ. كانت الكائن البشريّ الوحيد الذي لم يكن جوهره الروحيّ يجعله غير ملائمٍ لهذا الإسهام في افتداء البشر. كانت هناك، في امّحائها المألوف، بمنأًى عن ملاحظة الجمهور، ضائعةً في أقنعتها وصمتها، بحيث لم يرَها ثلاثةٌ من الإنجيليّين، أو ما عادوا يذكرونها. وما كنّا، نحن، لنعرف ذلك، لولا الإنجيليّ الرابع، ذاك الذي سيصبح ابنها...

عند أَقدام الصليب اشتركت مريم بمعاناة الاستشهاد. عانته بكلّ ملئه، بمنأًى عن محاولات التخفيف البشريّة، فلا هروبٌ إلى الإغماء، ولا استغراقٌ في اللاوعي، ولا وقوعٌ على الحضيض. فالإنجيل يقتصر على القول إِنّها كانت هناك واقفةً.

كانت واقفةً أَمام الصليب الكبير الخشن، على تلك التلّة التي تفوح منها رائحة الدم، في مواجهة عري الضحيّة، تحت القطرات القانية المنثالة، تحت الأَقدام المتورّمة والملتوية، في كارثةٍ تستعصي على الفهم، حيث تلاشى للجميع، سواها، رجاء القيامة، وجزءٌ من كلّ رجاءٍ آخر.

وكانت شريكةً في ذلك النزاع....

وفي تلك اللحظة عينها، وباتّفاقٍ روحيٍّ خطير، بدأت مرحلة امتدادٍ جديدٍ وحاسمٍ لبطولة مريم. هنا، أَيضًا، وفي دقائق حياته الأَرضيّة القصوى، تصرّف يسوع بمصير أُمّه، بقدرته السامية، الساكنة، المعهودة. فمريم هي النفس البشريّة المميّزة التي يستطيع اللّه أَن يتصرّف بها دائمًا بسكونٍ فائقٍ.

هل هي ظنّت، بعد أَن أَمست وحيدةً على الأَرض، وفقدت حبّها الوحيد، أَنّه سيسعها مبارحة الجلجلة، مغمضة العينين عن العالم، محتفظةً في قلبها، إلى الأبد، بمأساويّة الفواجع الكبرى؟...غير أَنّ يسوع صرف نحو العمل ونحو الرسالة هذا الحنان المصلوب الذي لا ينضب. هذا القلب الخيّر، هذا القلب المحسن الذي لم يمتلك ذاته أَبدًا، لم يتمتّع بحقّ الانسحاب والتقاعد الذي يلي فواجع الموت التي لا دواء لها. هذا النمط من العزاء الذي يبكي ويتوارى في وهاد الحزن، هذا الضماد الذي يساعد على التئام جرح العواطف، تلك الاستكانة إلى الذكريات، كلّ ذلك أُمِرت العذراء بالتضحية به:

– يا امرأة، هو ذا ابنك!

أَهو وحده، يوحنّا هذا الذي كان يرافقها؟ بل معه، ومع من سيترسّمون خطاه، سيكون، أَيضًا، أُولئك المتوحّشون السمجاء، الذين يدقّون المسامير، وفضوليّو المشاهد الكبرى، والفرّيسيّون الذين يطبقون أَفواهًا تقطر بغضًا، والعبيد الذين يشاركونهم الصفير، والإداريّون الظالمون الذين سمحوا بموت البريء، وكم من الأَرذال، وكم من المجرمين، على مدى القرون!

وسّعي قلبكِ، يا أَمّ جميع هؤلاء!...

ولا بدّ من العودة إلى مستوى القوم العاديّين، إلى مستوانا، إلى قوم كلّ زمانٍ.

– يا امرأة، هو ذا ابنكِ!

لقد كنّا هناك، لكي نكون الخلفاء، ونتابع المسيرة، لكي نوفّر لتلك المرأة المعذّبة ما يشبه تعويضًا مريعًا، كان ابنها يطالبها بقبوله. وكان على مريم أَن تستبدل ابنها بهؤلاء الأبناء: نحن الأَرضيّين، نحن اللامبالين، نحن الجبناء، نحن البائسين جوهريًّا، نحن البشر! بنفوسنا الهزيلة، ونوايانا المشكوك في صدقها، كنّا هناك، وقد جعَلَنا قوله الإلهيّ أبناء، مثلما كان قد جعل من حفنة ترابٍ بشرًا، في عهد عدنٍ. هذه القرابة الفعليّة والإيجابيّة، والتي لا تتدنّى عن العلاقة البيولوجيّة وقرابة الدم، أُوجدت بواحدةٍ من تلك الكلمات التي تقذف الأشياء إلى الوجود. لقد كنّا هناك أَبدًا. كنّا في حاجةٍ إلى من يُعنى بنا. ولم نتغيّر!

وما الذي نعنيه بقولنا: نَحن؟ أَوّلاً هذا التجمّع البدائيّ الذي ضمّ مئةً وعشرين نفرًا سيكونون الكنيسة، بل كانوا الكنيسة، آنذاك. خمس كلماتٍ صغيرةٍ، في صدر سفر «أعمال الرسل»، تلقي على الصمت الجوهريّ الذي أَلِفت مريم الاستغراق فيه، نورًا أَكيدًا ضئيلاً، كلمات تنبئنا بأنّها كانت تحيا، وتصلّي، وتقيم معهم. إِنّها تُميط الحجاب عن عون حياتها الخفيّة... وتجعلنا ندرك سبب عزو مفكّرين عظماء لأُمّنا العذراء، زخمَ انتشار الكنيسة، وشبابَها المدهش، وحرارة إيمان الشهداء الأوائل، والغابةَ التي كانت كامنةً في ذلك البرعم الأوّل.

ثمّ إِنّ كلّ فردٍ منّا خاضعٌ لسُننٍ نابعةٍ من أَعماق قراباتنا البيولوجيّة، ومن تبعات الخطيئة الأصليّة...هذة المعطيات لا تغيّرها مريم. إِنّها نتائج حرّيّتنا الجوهريّة، وموهبة الخلق الرهيبة التي أُعطيناها، ومن ثمّ فإنّ الله نفسه يمتنع عن تغييرها. غير أَنّنا نكشف دعمًا سماويًّا في عينيْ أُمٍّ مصوّبتَيْن نحونا. هذا الدعم يجعل تخلّينا عن أَنانيّتنا، وعن أَنانا الفظّ، الشهوانيّ، المحدود الآفاق، أَكثر يُسرًا، ويمكّننا من اقتحام الشمول والمسكونيّة، أي ما يُدعى، باللغة المسيحيّة، الاتّحاد العميق بالله... وحينئذٍ ستمرّ على وجه الشدائد بسمةٌ، فتُضفي عليها منظرَ المؤقّت، السريع الزوال، المسلّم به، المقدّم بفرحٍ. ولكأَنّ، ثمّة، من يهمس: «وما شأن ذلك؟ إِنّه عابرٌ، ولا قيمة

له». وسيلحظ المسيحيّ، في كلّ مرحلةٍ من مراحل هذا الدرب، أنّ ثمّة من يقوده، فيسير تحت أنظار مريم، ويده بيدها.

وقد أُوتينا، نحن الكاثوليكيّين، حظوةً كبرى، تضاف إلى كلّ ما أُوتيناه: فكلّما رفعنا قلوبنا إلى العلاء، وثبّتناها في الربّ، ظفرنا بترحيب حضورٍ غريبٍ: دفق حنانٍ، ورقّةٍ، وعطفٍ أُنثويٍّ، وضربٍ من القربى البشريّة العذبة.

المسيحيّة الحقّة هي تنازل الله المدهش إلى الإنسان. فعلاقتنا ليست محصورةً بقدرةٍ كلّيّةٍ محض إلهيّةٍ، ممتلئةٍ بجسامة الله، وليس فقط بالمسيح، ذلك الجريح بحبّ النفوس، هذا الله الذي صار واحدًا منّا، بل نحن نتمتّع، أيضًا، برهافة أُمٍّ، في قلب المطلق.

ولا تخشينّ المغالاة في تأكيد عظمة مريم الروحيّة، فاللامحدود، الأبديّ، والكلّيّ القدرة.... قد اختار أن ينحني على تلك النفس البشريّة الكاملة، وأن يعكس فيها حبّه، وكأنّه يعكسه في أعماق بحيرةٍ صافيةٍ.

مريم هي الكائن الذي يستطيع القول لله، متحدّثًا عن يسوع: «هذا ابننا المشترك»، ومع ذلك لا تمسّ بالجوهر اللانهائيّ، ولا تخرج عن تواضعها اللامحدود...

بسبب مريم، على صلاتنا أن ترتدي لهجة ثقةٍ واستسلامٍ، وطابعًا بنويًّا، ونبرة طفولةٍ. فعندما تتجاسر هذه الصلوات على نشدان الله في لا نهائيّته، فهي تصادف ترحيبًا مطمئنًا من سفارةٍ رقيقةٍ. ولكأنّ العطف السامي، في بحثه الإلهيّ يطارد، برقّةٍ، من ملجأٍ إلى ملجأٍ، مخاوفنا وخطايانا، إلى أن يحصرها، أخيرًا، بين يديْ أُمٍّ.

لكي نفهم مريم ينبغي أن نحفر أعماق طفولتنا. فقد كان، ثمّة، قلبٌ يحبّنا، ولكنّه لا يلبّي كلّ نزواتنا. ولكنّه، لم يعاقبها، بالمعنى الصحيح للعقاب. فما من قصاصٍ صارمٍ وحتميٍّ، بل مجرّد شعورٍ بالفرح، أو بالحزن، في قلبٍ يحبّنا.

هذا القلب كان يرتكز، تلقائيًّا، في صميم تطلّعاتنا، وحدْسنا الطفوليّ؛ يفهمنا، ويستبق مشاعرنا بفضل حبّه الشديد الفهم. هذا التبصّر الذي لا يملّ، أبدًا، كان ينحني علينا، ليل نهار. حبٌّ لا ينام كان يسهر علينا، قلبٌ يحترم نوازع استقلالنا

الصغيرة، كلّيّ القدرة، قويٌّ ورقيقٌ...القلب الوحيد الذي كان يشيع فينا الثقة. وكنّا نقيم في ذلك الحنان، وعلى شفاهنا بسمة أطفالٍ سعداء، راقدين على الأذرع.

أيّتها الأمّ الكلّيّة القداسة، يا ملكة الصمت البطوليّ، وموزّعة خيراتٍ لا تحصى، يا شباب الأبديّة.

القدّيس مكسيمليان كولبي (١٨٩٤-١٩٤١)

كاهنٌ ومرسلٌ بولونيٌّ، تميّز بحبّه لأمّ الله. سجن في معتقلٍ نازيٍّ، حيث وقعت، يومًا، قرعة الإعدام على ربّ أسرةٍ، فقدّم ذاته بديلاً عنه. طوّبه البابا يوحنّا بولس الثاني.

١ - «لاريب أنّ المنزّهة من الدنس هي صنيعة الله، وبالتالي هي أدنى منه، بلا قياسٍ، وتعتمد كلّيّةً على خالقها. غير أنّها الصيغة الأكثر كمالاً، وبساطةً. وعلى حدّ قول القدّيس بوناڤانتورا، كان بوسع الله أن يخلق عالمًا أكبر وأكمل، ولكن لم يكن بوسعه أن يحقّق شيئًا أرفع كرامةً من مريم».

٢ - «ستكون الأزمنة الحديثة تحت سيطرة إبليس، وستتفاقم هذه السيطرة في المستقبل. ولن يكون قِبَلٌ للبشر، حتّى أوفرهم ذكاءً، على خوض المعركة على قوى الجحيم. فوحدها المنزّهة من الدنس تلقّت من الله وعدًا بالانتصار على إبليس.

ولكنّها، منذ انتقالها إلى السماء، ما انفكّت أمُّ الله تطلب تعاوننا، وتنشد نفوسًا تكرّس ذاتها، كلّيّةً، بها، لكي تكون، بين يديها، أدواتٍ طيّعةً ومجديةً، فتُلحق الهزيمة بإبليس، وترسّخ ملكوت الله على الأرض».

جان پول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠)

Jean-Paul SARTRE

إنّ وجود نصٍّ لجان پول سارتر، المعروف بإلحاده، بين نصوصٍ منتقاةٍ عن العذراء، يثير الدهشة. والواقع أنّ سارتر كان رفيق معتقل كهنةٍ وإكليريكيّين باتوا له أصدقاء وملهمين. وقد طلبوا منه كتابة نصٍّ مسرحيٍّ عن الميلاد، فتفجّرت من أعماقه كلماتٌ حارّةٌ، صادقةٌ، تعبّر عن إيمان طفولته، وتُداني، روعةً، أجمل ما كتبه الشعراء المسيحيّون. وكان هذا النصّ:

العذراء شاحبةٌ وتحدّق إلى الصبيّ. ما يتوجّب رسمه من قسمات وجهها هو دهشةٌ قلقةٌ لم تظهر سوى مرّةٍ واحدةٍ على محيًّا بشريٍّ. فالمسيح هو ابنها، جسد جسدها، وثمرة أحشائها. لقد حملته مدى تسعة أشهرٍ، وأرضعته من صدرها، وسيصبح لبنها دم اللّه. في لحظاتٍ، تجتاحها تجربةٌ من القوّة بحيث تنسى أنّه اللّه، وتشدّه بين ذراعيها قائلةً: «يا صغيري».

وفي لحظاتٍ أُخرى، تقف أَمامه مذهولةً، وتجيل في فكرها: إنّ اللّه هنا، وتستولي عليها رعدةٌ دينيّةٌ حيال هذا اللّه الصامت، هذا الابن المريع: جميع النساء يتوقّفن هكذا، لحظاتٍ، أَمام تلك الشذرة المتمرّدة من جسدهنّ التي تمثّل ابنهنّ، ويشعرنَ بغربةٍ أَمام هذه الحياة الجديدة التي صُنعت من حياتهنّ، والتي تقطنها أَفكارٌ غريبةٌ. ولكن ما من ابنٍ انتُزع عن أُمّه، في مثل القسوة والسرعة اللّتين انتُزع بهما يسوع. فهو اللّه، ويتخطّى، من كلّ جانبٍ، كلّ ما كان بوسعها تصوّره...

ولكن يُخيّل إليّ أَنّها، في لحظاتٍ أُخرى سريعةٍ ومنزلقةٍ، كان ينتابها شعورٌ بأَنّ المسيح هو ابنها، صغيرها، وأَنّه اللّه. فكانت ترمقه مُجيلةً في خاطرها: «هذا اللّه هو ابني. هذا الجسد الإلهيّ هو جسدي، إِنّه مصنوعٌ منّي. له مثل عينيّ وشكل فمه هو شكل فمي. إِنّه يشبهني. إِنّه اللّه، وهو يشبهني».

ما من امرأةٍ أُخرى أُعطيَت أَن يكون اللّه لها وحدها. إلهٌ مغرقٌ في الصغر، يمكن أَخذه على الذراعيْن وغمره بالقُبل، إلهٌ حارٌّ يبتسم ويتنفّس، إلهٌ يمكن لمسه، ويضحك. ولو كنت رسّامًا لرسمت مريم في تلك اللحظات.

الكردينال ستيفان ڤيزنسكي (١٩٠١–١٩٨١)

Stefan WYSZYNSKI

هذا الأُسقف الشهيد، الذي تميّز بإرادةٍ فولاذيّةٍ، وبعبقريّةٍ نادرةٍ، أَثبت قدراته القياديّة الفذّة، وزعامته الأَكيدة لبولونيا التي ضرب لها مثلاً فريدًا في النضال، والصمود، والبطولة، فسُجن، وسيم أَكثر ضروب التنكيل والتعذيب وحشيّةً، ولم يتراجع عن ذرّةٍ من عقيدته. وقد سُئل عن سرّ صموده، فأجاب: إِنّه العذراء القدّيسة.

وكان قد كرّس نفسه للعذراء في ١٩٥٣/١٢/٨ وفي ١٩٥٦/٥/٨ دوّن في مذكّرات سجنه:

١ – «يدعونني «رئيس أساقفة مريم»، ولكم أودّ أن تبرّر حياتي هذا اللقب! ولن أُفلح في ذلك إلاّ بالاقتداء بكِ، يا ملكة حياتي. لقد أصبحتِ خادمة اللّه، فساندني لكي لا أكون إلاّ خادم ابنكِ. لقد أعطيتِ الإنسان اللّه دمكِ المنزّه من كلّ دنسٍ، فساعديني على ألاّ أضنّ بدمي من أجل المسيح».

٢ – وللكردينال فيزنسكي، أيضًا، هذه الصلاة:

«كيف لي أن أُشيد بمجدكِ؟

أبالكلام؟ وكلامي فيكِ إن هو إلاّ ورقة شجرةٍ يابسةٌ، يا أُمّ الكلمة المتجسّد! كلامي مثقلٌ بالخطيئة الأَصليّة، متعثّرٌ، ضارٌّ مثل البَرَد المتساقط على بتلات الورد. كلماتي كفيلةٌ بجرح طهرك، وخدش امتلائك، وانتهاك جمالك وكمالك، وتلويث صورتك النقيّة الناصعة.

أَ أُمجّدك بتوثّبات قلبي؟ إنّ توثّب قلبي دنسٌ يلقي ظلالاً على العذراء المرتدية الشمس. وأجمل مشاعري، ليست سوى سرابٍ يتوارى أمام تألّق ألوانك التي لم يطلها دنسٌ!

أَ أمتدحك بفكري! إنّ ذلك العصفور المتهوّر يهشّم أَجنحته، ويهوي في طيرانه.

سأُمجّدك، إذن، بدموعي، فربّما هي كانت أطهر ما أَملك!

لست أجسر على التحديق إليكِ، خشية تشويه كمالكِ المتألّق... وأُوثر أن أراك في داخلي، غير مستعينٍ بصورةٍ. وعندما أَراكِ، لا أعود أَرغب في شيءٍ، ويشيع، في داخلي، الصمت».

٣ – «أَحبّ من يحبّوني»

«تقول مريم لمكرّميها: «إنّي أُحبّ من يحبّوني». في سبيل هذا الحبّ، أُناضل، قلقًا. أَظنّ أنّي أُحبّكِ، ولن أقوى على الحياة، يومًا، بمنأى عنكِ، وعن التلفّظ باسمكِ، وعن تلاوة «السلام عليكِ يا مريم»، وعن المسبحة الورديّة، وعن فعل خضوعٍ. ما عسى يحلّ بي لو نسيتُكِ؟ لا، لن أقوى على ذلك، حتّى لو جعلتني وحدتي وآلامي أصمّ. بل إنّني من أعماق هوّتي سأهتف: «السلام عليكِ يا مريم»!...

إِنّني أُحبّكِ، إِذن. هذه الخلاصة الفرحة تُشيع فيّ الطمأنينة. «أُحبّ من يحبّوني». هذا هو جوابك. وأنا لم أَشكّ، يومًا، بحبّكِ. أَنتِ تتأثّرين بحبّ الآب الذي كان المبادر إلى حبّكِ. الآب يولّد الحبّ. والأُمّ تتمثّل به. ستحبّين، لأنّ الآب يحبّ. إِنّكِ تحبّين قبل أن تُحَبّي. وأنا أُحبّكِ لأَنّكِ جئتني بحبّ الآب».

٤ – وساطة مريم

«لا شيء يوفّر سكونًا عميق الغور كذاك الذي توفّره صلاةٌ بواسطة مريم... قد ينتابنا انطباعٌ بأَنّ صلواتنا لم تُسمَع، ولكنّها خلّفت، دائمًا، أَثرًا».

٥ – معطف مريم

«الملوك يتدثّرون بمعاطف فاخرةٍ. أمّا ابنك، يا مريم، فقد تلفّع بمعطفٍ من دمٍ، هو دم دمكِ.

إكليلكِ هو الوحيد الذي يُسيل الدم من جبين الملك. الآخرون يسفكون دماء رعاياهم. وابنكِ وحده، ضنّ بدماء الشعب، ولكنّه لم يضنّ بدمه. إِنّ شوكةً في إِكليله لأَعزّ عليّ من كلّ ذهب الدنيا».

٦ – التحدّث إلى مريم

«حتّى إِن لقيت وجه ربّي قبل أَن تسمعيني، فسأعدّ أَعظم نعمةٍ نلتُها في حياتي هي تحدُّثي إِليك».

جان كلود رينار (١٩٢٢–٢٠٠٢)

Jean Claude RENARD

شاعرٌ فرنسيٌّ حديثٌ

أَيّتها المرأة المصلوبة مع ابنها الميت،
أَيّتها المرأة التي احتفظ كلّ حبّها بسمة الجراح والقبر،
أَيّتها الأُمّ التي ما زالت تموت بموت ابنها،

لكي تنبت الحياة مجدّدًا من الموت،
وكي يولد الصيف من الثلج والنار من الليل،
والتي فيها ينبعث الجسد، باستمرارٍ، إلى حياةٍ جديدةٍ.
فكلّما ووري يسوع الثرى ثانيةً،
بسبب إدانة العالم له، وبسبب إغفاله له،
وحدها قداستك ما برحت تربط الإنسان بالآب،
وتربط العالم الآخر بعالمنا الأرضيّ.

صلاة امرأةٍ زنجيّةٍ مسلمةٍ للسيّدة للعذراء

يا أمّاه، أنا ابنتكِ! فأصغي إليّ في هذا المساء.
فرحٌ جمٌّ يغمرني إذ آتي لأكلّمك، وأفتح لك قلبي!
وستصغين إليّ، ولن تكلّي...
هل تعلمين؟ لقد حلمت دائمًا بأمٍّ مثلكِ!
إنّ أمّهاتنا الأفريقيّات طيّباتٌ، وأنتِ تعلمين ذلك...
ولكن ما أكثر ما يسبّبه لهنّ أبناؤهنّ من همومٍ ومشقّاتٍ!
إنّهنّ يحملنَهم على ظهورهنّ، فيما سلالٌ ثقيلةٌ تبهظ رؤوسهنّ.
إنّهنّ، حقًّا، لا يملكنَ دقيقةً للتنفّس!
وعلى نقيضهنّ، أنت بكلّيّتك لنا...
وربّما أنتِ أقرب إلى أبنائكِ الأفريقيّين،
منكِ إلى كلّ أبناء العالم الآخر.
أفلم تلجأي إلى ديارنا،
عندما طُردتِ من بلادكِ؟
كان بوسعكِ التوجّه شطر الشمال، أو الشرق، أو الغرب،
ولكنّكِ آثرتِ انتهاج درب الجنوب، واخترت أفريقيا.
عندما كنت تعدّين الطعام كنت تجلسين القرفصاء نظيرنا،

أَمام نارٍ خافتةٍ، وقصعةٍ من فخّارٍ.
وعندما كنت تحتاجين إلى الماء، لم يكن لديك صنبورٌ يلتمع،
ولا كانت لديك آنيةٌ أُخرى معقّدةٌ.
بل كنت، ببساطةٍ، تشخصين إلى النبع،
وتعودين، وأَنتِ تغنّين... والجرّة على كتفكِ،
تسيرين، مثلنا، حافية القدمين، فوق الحصباء.
وعندما لم يكن يتوفّر ليوسف، عملٌ، أَلم تعاني، مثلنا، الجوع؟
لهذه الأَسباب كلّها ينبغي أَن تدركي، كم نحن في حاجةٍ إليكِ.
إنّنا، على غرار أَبنائك الآخرين، بل أَكثر من الآخرين،
نحتاج إلى فرحكِ المتميّز، المختلف عن هذيان رقصاتنا الجامحة،
التي تمتدّ آناء الليل كلّه.
فرحكِ ينبع من عملكِ، ومن نسيانكِ ذاتكِ.
أَيّتها العذراء مريم، في هذا المساء تنفخ الرغباتُ قلبي،
فخذيها كلّها بين يديكِ، أَيّتها الأُمّ.
وشكرًا.

هنري هولستين (١٩٠٦–١٩٨٠)

Henry HOLSTEIN

هذا اللاهوتيّ اليسوعيّ، الذي عهد إِشعاعًا واسعًا، آلمته الخلافات التي أَعقبت المجمع الفاتيكانيّ الثاني، فلزم الصمت، وتوجّه إِلى العذراء مصلّيًا:

«في هذه السنوات العصيبة التي نخوضها، لن يخيب، أَيضًا، رجاؤنا، إن هو انسكب في قالب صلاة العذراء مريم، خلال أَيّام وجودها الأَخيرة على الأَرض. إِنّنا نتساءل عمّا عسى سيحدث، وما الذي ستكون عليه كنيسة الغد؟ لقد أَبت مريم الإِجابة على هذه التساؤلات، التي لم يكن بوسعها إِلاّ طرحها، سوى بيقين صلاتها الصامتة بأَنّ هذه الكنيسة ستكون الكنيسة التي ولدها يسوع على الجلجلة، والتي انبثقت من جنبه المطعون... كنيسة الوفاء لله. وكم يجدر بنا أَن نستمدّ العزاء من إِيمانها، وأَن نستمدّ الجرأة من الدعاء إلى عذراء الصمت».

يورغن مولتمن (من مواليد ١٩٢٦)

Jurgen MOLTMANN

استخدم بعض رجال الدين المتطرّفين، ولاسيّما بين صفوف لاهوتيّي التحرّر في أَميركا اللاتينيّة، نشيد العذراء للدعوة إلى الثورة السياسيّة المسلّحة. وانبرى لاهوتيّون آخرون لتصويب هذه النزعة، وإبراز المعنى المسيحيّ الحقّ لنشيد تسبيح العذراء. وقد كتب «مولتمان» في هذا السياق:

«لقد قلب اللّٰه أولي السلطان عن عروشهم، ورفع المتواضعين. أَغدق الخيرات على الجياع، وأَعاد الأَغنياء فارغي الأَيدي... ومع ذلك ليس اللّٰه حزبيًّا... بل إِنّه يحبّ الناس أَجمعين.

إِنّه يشتّت المتكبّرين لكي يُقلعوا عن لاإِنسانيّتهم، ويصبحوا، أَخيرًا، إِنسانيّين. وهو يُنزل المتسلّطين عن عروشهم، لكي يَستعيدوا تواضعهم، ويصرف الأَغنياء فارغي الأَيدي لكي يعملوا في سبيل خير إِخوتهم.

إِنّ حرّيّة الفقراء والمقهورين مختلفةٌ عن حرّيّة الأَغنياء والأَقوياء. وليس المقهورون مدعوّين إلى الانتقام من ذوي السلطان، بل هم مدعوّون إلى سلام اللّٰه وإلى الإِخاء. لا يبتغي اللّٰه تحويل عبيد الأَمس إلى تجّار عبيدٍ، ونخّاسين، بل هو حرّرهم لكي يلغي كلّ ضروب العبوديّة.

البابا بولس السادس (١٨٩٧–١٩٧٨)

امتدّت بابويّته من عام ١٩٦٣ حتّى وفاته عام١٩٧٨

١ – مريم القدوة

«لقد قدّمت الكنيسة العذراءَ مريم، مثالاً يجدر بالمؤمنين الاقتداء به، لا في أَسلوب العيش الذي نهجته، ولاسيّما أَنّ الوسط الاجتماعيّ والثقافيّ الذي اندرجت فيه حياتها، قد تجاوزه عهدنا في كلّ مكانٍ، بل لأَنّها، في ظروف حياتها الواقعيّة، التزمت، كلّيّةً، بمشيئة اللّٰه، التزامًا حرًّا؛ لأَنّها رحّبت بكلمته، وعملت بها، لأَنّ

المحبّة وروح الخدمة هما اللّذان أَلهما عملها؛ وبالإِجمال، لأَنّها تلميذ يسوع المسيح الأَوّل والأَكمل. ولكلّ ذلك قيمة مثالٍ شاملٍ ودائمٍ.

٢ – ولادة العذراء

يا مريم، لقد ظهرت في العالم،
ظهورَ الفجر الذي يسبق نور الخلاص،
المسيح يسوع،
مثلما تنبثق، من تربةٍ تغشاها حمأة الخطيئة،
الزهرةُ الأَكثر جمالاً،
والتي لا تذبل أَبدًا،
في حديقة العالم المدمّرة.

ولادتك هي ولادة أَوفر الخلائق البشريّة
طهرًا، وبراءةً، وكمالاً،
وتطابقًا مع الوصف الذي أَطلقه الله نفسه
على الإِنسان، عندما خلقه، أَي: صورة الله،
الجمال الأَكمل، والأَعمق،
المثاليّ في صيغته، وفي واقعه،
الصادق في تعبيره الحيّ،
بحيث يتيح لنا تخمين ما أُعدّت له تلك الخليقة الأُولى،
من حوارٍ، وحبٍّ، حباها إِيّاهما الخالق،
في فيض سخاءٍ يتعذّر وصفه،
من الأُلوهة السعيدة والتي تشيع السعادة.

ما كان سيتجلّى لحوّاء، وفقدته فقدانًا محزنًا،
أَعاد الله إِحياءه فيك، يا مريم،
بقصد رحمةٍ لامتناهيةٍ.
أَنتِ، يا مريم، وُلدتِ،

أَنتِ، يا مريم، خاصّتنا،
أَنتِ، يا مريم، تعيدين لنا صورة الإِنسانيّة الكاملة،
إِذ نُزّهتِ من الدنس في الحبل بكِ
حبلاً يتطابق تطابقًا رائعًا مع الصورة التي رسمها
الروح الإِلهيّ لمخلوقةٍ جديرةٍ بأَن تكون ملكة العالم.

يا مريم، يا فرحًا يفتن نفوسنا،
ولا يشدّ إِليكِ أَبصارنا،
إِلاّ لكي يحملها إِلى الأَبعد،
إِلى معجزة النور، والقداسة، والحياة،
التي بشّرتْ بها ولادتك،
أَي إِلى حَمْلك المسيح الربّ، ابنك، وابن الله،
الذي تلقّيتِ منه كلّ شيءٍ.

يا مريم، حاملة النور الإِلهيّ،
أَيّها الباب الذي تلج منه السماء إِلى الأَرض،
أَيّتها الأُمّ التي تقدّم الحياة البشريّة
لكلمة الله،
أَنتِ حَدَث خلاصنا.

٣ – مريم فجر الخلاص

يا مريم، أَنتِ البشرى،
أَنتِ مقدّمة المعزوفة الموسيقيّة،
أَنتِ الفجر، أَنتِ عشيّة العيد،
أَنتِ تمهّدين للحدث الوشيك، الذي يتوّج ويتمّم
مسيرة مخطّط الفداء الإِلهيّ، الدهريّة.
أَنتِ الغاية التي أَشارت إِليها النبوءات،
ومفتاح سرّ الرسائل المسيحانيّة،

وغاية شوط فكر اللّه...
ظهوركِ، يا مريم، في تاريخ العالم،
هو إشراق النور في الظلمة،
هو نور الصباح، الذي ما برح باهتًا، مغلّفًا بالغمام،
ولكنّه فائق العذوبة والجمال.
ها إنّ المسيح، نور العالم، آتٍ،
وقد بات مصير البشريّة السعيد، وإمكانيّة الخلاص، مضمونَيْن،
فأنت تأتين بهما معكِ.

٤ – بانتظار الميلاد

يا مريم، يا أُمّ اللّه وأُمّنا،
أنتِ الطريق المركزيّ المباشر، الذي يقودنا إلى المسيح.
إن شئنا التوغّل في روح الميلاد، فعلينا التقرّب منكِ،
يا حاملة اللّه، يا حاملة المسيح إلى العالم.
من خلال أُمومتك البتوليّة،
نستطيع بلوغ إنسانيّة المسيح، اللّه الإنسان.
وها نحن نحيّيكِ، يا مريم،
بكلمات القدّيس كيرلّس الإسكندريّ، بطل مجمع أفسس:
«سلام، يا مريم، أمّ اللّه،
أيّها الكنز الذي يتعيّن على الكون كلّه إجلاله،
أيّها النور الذي لا يخبو أبدًا،
يا تاج البتوليّة المتألّق،
أيّها الهيكل الذي لا يُدمَّر،
أيّتها الأُمّ والعذراء، معًا،
فمنكِ وُلد من قال عنه الإنجيل:
«مُباركٌ الآتي باسم الربّ»
ونحن، إذ نكرّر هذه الأقوال،
نصعّد، من قلوبنا، المديح عينه، لكِ،

أَيّتها المبارَكة التي جاءت العالم بنور الخلاص.
آمين»!

٥ - لكي نكون مسيحيّين...

إِنّنا نشهد المسيح بين ذراعَيْك، يا مريم،
إِنسانًا نظيرنا، وأَخًا لنا، بفضل أُمومتكِ.
إِن ابتغينا أَن نكون مسيحيّين، فعلينا أَن نكون مريميّين.
ولذلك علينا أَن ندرك العلاقة الجوهريّة،
العلاقة الحيويّة، التي قرّرتها العناية الإِلهيّة التي تجمع العذراء بيسوع،
والتي تُشرع لنا الطريق المؤدّية إِليه.
إِنّها طريقٌ مزدوجةٌ: طريق المثل، وطريق الشفاعة.

لكي نكون مسيحيّين، متمثّلين بالمسيح، علينا التحديق إِليكِ، يا مريم.
ففيك نجد الشبه الأَكمل مع المسيح.
إِنّكِ النموذج، والصورة المثلى التي تعكس الربّ،
إِنّك، كما يقول المجمع: «المثال الأَسمى للإِيمان والمحبّة».
كم هو عذبٌ، ومصدر عزاءٍ أَن تكوني لنا، يا مريم،
أَن تكون صورتك، وذكراكِ، وطهركِ، وعظمتكِ،
أَمامنا، نحن الراغبين في السير على خطى الربّ!

ثمّ إِنّكِ تُشرعين لنا دربًا آخر، يا مريم،
كي نبلغ الخلاص في المسيح الربّ،
وهو درب حمايتكِ.
فأنت حليفتنا ومحاميتنا،
فيكِ يضع الفقراء، والمتواضعون، والمتأَلّمون، ثقتهم،
وأَنتِ، أَيضًا، ملجأ الخطأة.
إِنّك تبلّغين رسالة رحمةٍ، وعطفٍ، وشفاعةٍ للجميع.
إِنّك مؤاسية كلّ الآلام،

وتعلّميننا أَن نكون طيّبين، وأَقوياء، ومتعاطفين مع الجميع.
إِنّكِ أُمّ الكنيسة...
ولن ننسى، أَبدًا، أَن نرفع أَنظارنا نحوكِ،
فأنتِ «حاميتنا الكبرى».
آمين.

صلوات

١ - صلاة من أَجل الإِكليرس (١١/١٠/١٩٦٣)

«يا مريم، اجعلي هذه الكنيسة التي تخصّ ابنك وتخصّك، عندما تحاول تحديد هويّتها، أَن تكتشف فيكِ أُمّها، وابنتها، وأُختها، الفريدة في تميّزها، والمنقطعة النظير، ومثالَها الأَسمى، ومجدها، وفرحها، ورجاءَها.

وإِنّنا نسألكِ، الآن، أن تجعلينا جديرين بتكريمكِ لما أنتِ، ولما تفعلنيه، في مخطّط الخلاص الرائع، المفعم حبًّا.

«يا مريم، انظري إِلى أَبنائك. انظري إِلينا، نحن إِخوة يسوع، وتلاميذه، ورسله، ومتابعي عمله. اجعلينا نعي دعوتنا ورسالتنا، فلا نكون، في ممارسة كهنوتنا، وفي أَقوالنا، وفي تقدمة حياتنا من أَجل المؤمنين الموكلين إِلى عنايتنا، غير جديرين بمهمّة تمثيل المسيح وتجسيده التي انتُدبنا لها. ويا أَيّتها الممتلئة نعمةً، اجعلي الكهنوت الذي يكرّمك، هو أَيضًا، مقدّسًا ومنزّهًا من الدنس».

٢ - صلاة من أَجل البشريّة (١١/١٠/١٩٦٣)

«يا مريم، انظري إِلى البشريّة جمعاء، هذا العالم الحديث الذي دُعينا إِلى العيش والعمل فيه. إِنّه عالمٌ يدير ظهره لنور المسيح، ثمّ يئنّ رعدةً من الظلمات المريعة التي يُشيعها من حوله. إِنّ صوتكِ الرقيق المفعم إِنسانيّةً، أَنت يا أَجمل العذارى، ويا أَكثر الأُمّهات وقارًا، المباركة بين النساء قاطبةً، يهيب به أَن يرنو صوب الحياة، يا نور البشر، صوبك، أَنت النور الذي يسير أَمام المسيح، نور العالم الأَوحد والأَسمى.

صوتك يلتمس للعالم معرفة وجوده الخاصّ معرفةً صحيحةً، ويلتمس له فرح الحياة كخليقة اللّه، ومن ثمّ الرغبة في مخاطبة خالقه، والقدرة على ذلك، بواسطة الصلاة، إذ إنّه انعكاسٌ لصورة اللّه البشريّة السامية. التمسي للعالم معرفة اكتشاف عطيّة اللّه في كلّ شيءٍ، ومن ثمّ السلوك سلوكًا طيّبًا، واستخدام هذه العطايا استخدامًا مجديًا وحكيمًا. والتمسي للعالم السلام، علّه يوطّد الإخاء بين بشرٍ ما زالوا مغرقين في الانقسام، ويقودنا إلى مجتمعٍ أوفر انتظامًا ووحدةً.

«وفّري العزاء لمن يتألّمون، الذين تضخّم الكوارث الحديثة أعدادهم، ووفّري للأموات الراحة الأبديّة.

«وأظهري لنا أنّكِ أمٌّ، أيّتها العذراء مريم، الكلّيّة الرأفة والحنان. آمين.»

٣ – صلاة في أثناء المجمع المسكونيّ الثاني (٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤)

«يا مريم العذراء، أُمّ الكنيسة، نوكل إليك الكنيسة جمعاء، ومجمعنا المسكونيّ... أنت، يا من قدّمكِ ابنكِ الإلهيّ، لحظة موته الفادي، أُمًّا لتلميذه المحبوب، اذكري الشعب المسيحيّ الذي يوكل إليك ذاته.

اذكري جميع أبنائكِ. أكسِبي صلواتهم لدى اللّه غنىً؛ رسّخي إيمانهم؛ قوّي رجاءهم؛ ضاعفي محبّتهم.

اذكري أولئك الذين يواجهون الاضطرابات، والعَوَز، والمخاطر، والذين يعانون الاضطهاد، والمسجونين بسبب إيمانهم. هبي هؤلاء القوّة، يا عذراء، وسرّعي يوم الحرّيّة التي يستحقّونها.

انظري بعطفٍ إلى إخوتنا المنشقّين عنّا، وتكرّمي بتوحيدنا، يا من ولدت المسيح الجسر الذي يربط اللّه بالبشر.

يا هيكل النور المنزّه من كلّ ظلٍّ أو لوثةٍ، تشفّعي لدى ابنك الوحيد، وسيط مصالحتنا مع اللّه (روما ٥: ١١)، كي يرأف بنا، ويصفح عن خطايانا، ويزيل كلّ خلافٍ ما بيننا، واهبًا نفوسنا فرح الحبّ.

وأخيرًا، نوكل إلى قلبك الكلّيّ الطهر الجنس البشريّ بأكمله. قوديه إلى معرفة

مخلّصه الوحيد الحقّ، يسوع المسيح. أَقصي عنه الكوارث الناجمة عن الخطيئة. هبي العالم أَجمع السلام، في الحقيقة، والعدل، والحرّيّة، والحبّ.

ومكّني الكنيسة المحتفلة بجلساتها المسكونيّة الكبرى، من أَن ترفع إلى إِله المراحم نشيد التسبيح والشكران المهيب، نشيد الفرح والابتهاج، لأَنّ الربّ صنع بك عظائم، يا حنونة، يا رؤوفة، يا مريم العذراء».

٤ – صلاة باسم الكنيسة (٢٥/١٠/١٩٦٩)

«نسأَلك، يا مريم، هبة الحبّ، حبّ المسيح، الحبّ الوحيد، الحبّ الأَسمى، الحبّ الكلّيّ، الحبّ العطاء، الحبّ التضحية. علّمينا ما نحن نعرفه ونعترف به بتواضعٍ وأَمانةٍ: أَن نكون، نظيرك، منزّهين من الدنس، عفيفين، أَي أَن نكون أَوفياء لالتزامنا الرهيب والسامي، التزامنا بالعزوبة المكرّسة، التي باتت، اليوم، موضع نقاش البعض، أَو عدم فهمهم. نحن نعرف ما هو هذا الالتزام: إِنّه أَكثر من حالةٍ، إِنّه فعلٌ متواصلٌ، شعلةٌ متّقدةٌ بلا انقطاعٍ؛ إِنّه فضيلةٌ فائقةٌ، وبالتالي هي تحتاج إلى سندٍ فائق الطبيعة. فأَنتِ، يا مريم، الدائمة البتوليّة، اجعلينا ندرك، الآن، ليس فقط جوهر هذا الوضع المفارقة...بل أَيضًا، قيمته السامية: فهو بطولةٌ، وجمالٌ، وفرحٌ، وقوّةٌ؛ إِنّه فرح خدمةٍ تصبو نحو البذل والتضحية في سبيل البشر، وهو شرفها؛ إِنّه صَلْب الجسد، بُغيةَ ملكوت الله. فساعدينا يا مريم، كي نفهم، من جديدٍ، هذه الدعوة القدسيّة إلى اتّباع المسيح بلا قيدٍ. وأَعينينا كي نحبّ على هذا النحو.

«ويا أَيّتها العذراء الوفيّة... لقد أَشاد المجمع بالفضيلة الأُولى، لديكِ، التي توحّدك بالله: الإِيمان. إِنّ من يتقصّى احتياجات هذه الساعة العاصفة التي يحياها المجتمع، وبالتالي كنيسة الله، يدرك أَنّ ما هو أَشدّ لزومًا للكنيسة كي تكون في تواصلٍ مع المسيح، ومن ثمّ مع الله ومع البشر، هو، في المقام الأَوّل، الإِيمان، الإِيمان بما يفوق الطبيعة، الإِيمان البسيط، الكامل، القويّ، المستقى من النبع الحقّ، كلمة الله، ومن قناته المنيعة، السلطة التي أَسّسها المسيح وكفلها، الإِيمان الحيّ. فأَنتِ المغبوطة لأَنّكِ آمنت، أَيّدينا بمثالكِ. اظفري لنا بهذه النعمة، إِذ كيف لنا أَن نتبّع المسيح إِن كان الشكّ والرفض يوهنان يقيننا؟ وكيف لنا أَن نشهد، بصفتنا رُسُلاً، إِن كانت حقيقة الإِيمان مظلمةً في عقولنا؟

«ثمّ إِنّنا، يا مريم، نلتمس من مثالكِ ومن شفاعتكِ، الرجاء... فكم نحن نفتقر، أيضًا، إلى الرجاء! إِنّكِ، يا مريم، صورة الكنيسة، وبدء الكنيسة التي ستكتمل في الزمن الآتي، وأنت، على الأرض، تتألّقين الآن، أمام شعب الله، علامة رجاءٍ أكيدٍ، ومبعث عزاءٍ، يا أُمّ الكنيسة».

عن الحبل بمريم، بلا دنسٍ

«إنّه سرّ الامتياز، والاستثناء، والفرادة، وكمال مريم العذراء الكلّيّة القداسة، المخلوقة البشريّة الوحيدة، التي، بمقصدٍ إلهيٍّ، انطوى على جمٍّ من الحكمة والحبّ، وبفضل استحقاقات المسيح، مصدر خلاصنا الوحيد، قد وُقِيَت من كلّ عيبٍ، ومن كلّ عدوى بالخطيئة الأَصليّة، من كلّ تشويهٍ لنموذج البشريّة الأوّل؛ فكانت، من ثمّ، الوحيدة التي عكست، بأمانةٍ، فكرة الله الخلاّقة، وتحقّقت فيها مواصفات الإِنسان الكاملة والأَصليّة: أي صورة الله! النور، والفهم، والرقّة، وعمق الحبّ، وبإيجازٍ، الجمال. كلّ هذه تتجلّى على محيّا العذراء النقيّ والبريء. هذه الفكرة كفيلةٌ ببعث النشوة في قلوبنا المتعطّشة إلى الجمال البشريّ ولاسيّما أَنّ الصورة البشريّة المقدّمة لنا، اليوم، في شتّى مظاهر الرسم التصويريّ، هي زائفةٌ، فاسقةٌ، شوهاء، بائسةٌ.

فليتوقّف عند هذه الفكرة كلّ من يشاء أَن يُعيد إلى عالم الجمال أَصالته، بتبيّن علاقاته الفائقة، وبغية اكتساب الفرح الداخليّ، ونصاعة السلوك الخارجيّ، باكتشافه، لدى مريم، التعبير الأَسمى والأَصدق والأَكثر تمثيلاً لجمال الإِنسان الروحيّ.

فلننقع الآن، لدى هذا النبع البالغ الصفاء، عطشنا إلى إِنسانيّةٍ صالحةٍ وجميلةٍ، إِنسانيّةٍ تُحدث فيها النعمة معجزةَ تجديدها، وبإيجاز إِنسانيّةٍ مسيحيّةٍ.

«من الأهمّيّة بمكان أَن ترتفع صورة العذراء المنزّهة من الدنس فوق درب جميع من يشاركوننا نشدان ملكوت الله. فهي تنير هذا الدرب، وتدعم خطانا، وتعلّمنا، بمثالها الواقعيّ، أَنّنا نستطيع، بعون الربّ، أَن نكون مسيحيّين حقيقيّين وقدّيسين. إِنّها تشجّعنا على ممارسة الجرأة والرجاء، فهذه الممارسة ليست واجبًا علينا فحسب، بل نحن قادرون عليها.

وإِنّ مُثُلنا المسيحيّة تكتسب منعةً، وقدرةً على تحقيق غاياتها، بقدر ما يدفعنا كَلَفنا بتكريم مريم نحو الاقتداء بيسوع، والسعي إلى ترسيخ ملكوته.»

«يا أُمّي، ويا ثقتي»

في أَثناء زيارة قداسة البابا بولس السادس إِلى إِكليريكيّةٍ في روما، في ٨ شباط ١٩٦٤، دعا إِلى اكتشاف علاقةٍ وثيقةٍ بين السيّدة العذراء، وكلّ نفسٍ، علاقةٍ بوسع كلّ نفسٍ أَن تستمدّ منها فائدةً خلاصيّةً، بحيث تغدو، في الآن عينه، واجب تكريمٍ وحبٍّ لمريم، ومنبع نِعَمٍ من كلّ نوعٍ لكلّ مَن يتجرّأ فيدعو العذراء: «يا أُمي، ويا ثقتي». وقال:

«نودّ الاعتقاد بأَنّ هذه الحميميّة البنويّة والشخصيّة مع مريم، وأَنّ هذا الحوار المقتضب والحارّ والمتجدّد دائمًا مع السيّدة العذراء، وأَنّ إِقحام ذكرها وفكرها، وصورتها، ونظرتها العميقة والأُموميّة، في صلب عبادتكم الشخصيّة، قد باتت أَليفةً لديكم...

«إِنّ تكريم العذراء القدّوسة، الذي يبلغ هذا المستوى من الحميميّة، يؤتي فضائل رائعةً: فهو، أَوّلاً، يظفر بحماية العذراء، وبفيض نعمها وعونها، ثمّ إِنّه يظفر بوفاءٍ ثابتٍ وسهلٍ لكلّ واجبٍ يحمل دمغة مشيئة الله، والاقتداء بيسوع. ومن ثمّ، ينطوي هذا التكريم على فائدةٍ تربويّةٍ خارقةٍ: صمودٍ فريدٍ يسند إِرادة اختيار الأَفضل، وثباتٍ في الالتزام؛ والقدرة على التضحية؛ وفي الآن عينه نضارة المشاعر التي خلصت من كلّ خطرٍ وملتبسٍ، نضارةٍ تفعم النفس التقيّة طاقاتٍ داخليّةً، وثمار الروح. وهكذا يغدو تكريم العذراء قوّةً وشعرًا.

«أَيّها الأَبناء الأَعزّاء، إِنّ ما يبدو لنا فائق الجمال والأَهمّيّة، في التربية الإِكليريكيّة هو التزامها بمقتضيات الصرامة، والتقشّف، والتجرّد. ولكن، على هذه التربية أَلاّ تفتقر إِلى الحيويّة الروحيّة الخاصّة بالنعمة، والتي ليست مقبولةً فحسب، بل ينبغي أَن تنمّى في القلب الذي جعل من عالم النعمة موضع اهتمامه الأَقصى والأَوحد. وإِنّكم ستخبرون هذه التجربة العذبة إِذا وهبتم دعوتكم كلّ قلبكم، وإِذا دعمتم هذا القلب الذي يشحذه حنانٌ سامٍ، واستسلامٌ تامٌّ، وغفرانٌ متسامحٌ، ورجاءٌ لا يُقهر، بسند التكريم الكهنوتيّ البنويّ، الخالي من كلّ واهنٍ ونافلٍ، الحميم والمفعم حبًّا، لمريم القدّوسة: «**أُمّي وثقتي**».

تكريم العذراء

«يتّهم البعض الكنيسة الكاثوليكيّة بإيلائها شأنًا مفرطًا لرسالة مريم العذراء ولتكريمها، وإنّما هم، بذلك، يهينون سرّ التجسّد الأساسيّ، ويحطّون من شأنه التاريخيّ واللاهوتيّ. إنّ تكريم الكنيسة لمريم لا يضير، في شيءٍ، العبادة الكلّيّة والحصريّة المتوجّبة فقط لله، وللمسيح، بصفته ابن الآب والمشارك له في الجوهر، لا بل إنّه يقودنا ويضمن وصولنا إلى الله، إذ إنّ هذا التكريم يصعّد بنا على الطريق الذي انحدر منه المسيح كي يصير بشرًا.

«يبلغ تكريم العذراء ملئه، والتعبير الأصدق عن جوهره عندما يصبح دربًا إلى الربّ، ويقود إلى حبٍّ أعظم له، على غرار ما فعلت العذراء نفسها، إذ جمعت، في اندفاعٍ واحدٍ، حنان الأمّ، وتقوى الخليقة».

بتوليّة المكرّسين

«إن تأمّلنا في مريم، أمّ المسيح العذراء، ينير، في ضميرنا، قرارنا الحرّ والسامي بالتزام العزوبة والبتوليّة، بإلهامٍ نابعٍ، أصلاً، من نعمةٍ أكثر ممّا هو نابعٌ من فضيلةٍ؛ وبوسعنا أن نقول مع يسوع: «ليس الجميع يفهمون هذا الكلام، بل أولئك الذين أوتوا ذلك وحدهم». ويعلّمنا القدّيس توما أنّ «لدى الإنسان مؤهّلاتٍ ساميةً تحدوه إليها نفحةٌ إلهيّةٌ». تلك هي الهبات والنعم التي تقود المرء، بفضل غريزةٍ داخليّةٍ تعمل بإلهامٍ إلهيٍّ. تلك هي الدعوة! الدعوة إلى بتوليّةٍ مقدّسةٍ، إلى عزوبةٍ مكرّسةٍ؛ دعوةٌ، عندما تُدرَك ويُرحَّب بها، تغذّي الروح بالحبّ حتّى الامتلاء، بحيث ينقلب تضحيةً، ولكنّها تضحيةٌ يسيرةٌ وسعيدةٌ، محرَّرةٌ من الحبّ الطبيعيّ، ومن أهواء الأحاسيس، تجعل من البتوليّة «تأمّلاً لا ينضب»، وارتواءً روحيًّا مثقلاً، دائمًا، بتوترٍ سامٍ، وقادرًا، أكثر من أي حبٍّ آخر، على أن يتدفّق عطاءً، وخدمةً، وتضحيةً بالذات من أجل إخوةٍ مجهولين، يحتاجون إلى خدمة محبّةٍ تحاكي محبّة يسوع للبشر، وتجهد في سبيل موازاتها. وإنّه لأسهل عيش هذه الحالة من وصفها».

الحبل بلا دنس

«قمّة تكريمنا للعذراء تكمن في الحبل بها بلا دنسٍ، أَي في إِيثار اللّٰه لخليقته هذه رغبةً منه في أَن يرى فيها، مجدّدًا، البراءة الأولى المتمثّلة في كائنٍ مُبدَعٍ على صورة اللّٰه ومثاله، لا اضطراب فيه، ولا عدوى بأَيّة لوثةٍ، أَو أَيّ عيبٍ يشترك بهما جميع أَبناء حوّاء، والجنس البشريّ بأَكمله، ما خلا المسيح والسيّدة العذراء. إِنّها خاطرةٌ، حلمٌ إِلهيٌّ، تحفة الجمال البشريّ، غير المصطنع وفق نموذجٍ موضوعٍ، بل الجمال المحقّق في القدرة الذاتيّة والمنقطعة النظير على التعبير عن الروح من خلال الجسد، وعلى إِبراز الشبه الإِلهيّ في محيًّا بشريٍّ، والجمال اللامرئيّ في هيئةٍ جسديّةٍ».

طوبى للّتي آمنت (١٠ أَيّار ١٩٦٧)

«بوسعنا العثور على تأكيد فضيلة السيّدة العذراء الأُولى هذه في جميع صفحات الإِنجيل التي تورد ما كانت، وما قالت، وما فعلت، بحيث يتملّكنا الشعور بأَنّ علينا احتذاء مثالها، فنكتشف، في السلوك الذي يميّز وجه مريم المنقطع النظير حيال سرّ المسيح الذي يتحقّق فيها، المواقف المثلى التي يتعيّن على المتديّنين اتّخاذها، وفقًا لمخطّط خلاصنا الإِلهيّ. إِنّها مواقف إِصغاءٍ، ومراقبةٍ، وقبولٍ، وتضحيةٍ؛ وهي، أَيضًا، مواقف تأَمّلٍ، وترقّبٍ، وتساؤلٍ، وسيطرةٍ على الذات، وثقةٍ هادئةٍ وساميةٍ في الحكم والعمل، وامتلاءٍ لا محدودٍ صلاةً وتواصلاً.

لا غرو أَنّ هذه المواقف هي خاصّةٌ بتلك النفس الفريدة، الممتلئة نعمةً، والمحاطة بالروح القدس، ولكنّها، أَيضًا، مواقف مفعمةٌ إِيمانًا، ومن ثمّ قريبةٌ منّا، بوسعنا ليس فقط تأَمّلها بإِعجابٍ، بل، أَيضًا، التمثّل بها.

فلنسأَل مريم هبة الإِيمان العليا، هذه الهبة التي غدت اليوم ثمينةً بقدر ما باتت مهملةً ومهمّشةً؛ هذه الهبة التي، أَكثر من أَيّة هبةٍ أُخرى، تؤهّلنا للتمثّل بالعذراء، ولتكوين كلمة اللّٰه في داخلنا، مثلما هو تجسّد في أَحشائها؛ تلك الهبة الكفيلة بالانطلاق بنا من غروب هذه الحياة الحاضرة إِلى فجر النهار الأَبديّ».

إيمان مريم

«عبر المِحَن التي اجتازتها، ظلّت مريم ثابتةً، أبدًا، على إيمانٍ لا يتزعزع. وحتّى قبل بلوغها ملء وضوح الرؤية، التزمت التزامًا كاملاً بكلّ واقع سرّ الخلاص، وبشخص المخلّص. ومن خلالها، رحّب كلّ الجنس البشريّ بمخلّصه، وشاركه فعل خلاصه. وهي ما انفكّت تساعد كلاًّ منّا على أن يجدّد في ذاته، ومن أجل ذاته، عمل الإيمان هذا.

«فلنسأل العذراء أن تنال لمسيحيّي اليوم إيمانًا صافيًا، قويًّا، منيعًا، صبورًا، وفيًّا في الظلمات والمِحَن، الإيمان الذي يصفه القدّيس يوحنّا (في رسالته الأولى) بأنّه هو غلبتنا على العالم؛ إيمانًا راسخًا مثل إيمانها، لا ينفصل عن القبول، والطاعة، والحبّ، ويلتزم بالحقيقة التي تجلّت في ابنها، الإيمان الذي بلّغنا إيّاه تقليد الكنيسة الحيّ».

العذراء هي الأقرب إلى المسيح

«إنّ السيّدة العذراء هي، بكلّيّتها، في المسيح: إنّها به، وله، ومعه. ولا يسعنا أن ننسى، لحظةً، تلك العلاقة الأُخرى التي تحدّد مريم، أُمّ يسوع، التي تحيا بكلمته، وتشاركه آلامه. هذه العلاقة تفسّر كلّ امتيازاتها، ومواطن عظمتها، وكلّ ما يجعلها جديرةً بتكريمنا اللامحدود لها، وبحبّنا، وبثقتنا...

«ما من خليقةٍ بشريّةٍ كانت أوثق منها قربًا من المسيح، وأكثر منها انتسابًا إليه، وامتلاءً نعمةً. ما من خليقةٍ تضاهيها اتّحادًا بيسوع من مريم، أُمّه، وما من خليقةٍ حظيت بحبّه، كتلك التي ولدته بعمل الروح القدس، تلك التي رحّبت بكلمته، بقولها «نَعَمًا» دمغ حياتها كلّها، وتلك التي ساهمت، طوعًا، بكلّ سرّ الخلاص الذي جاء به.

«ما من أَحدٍ آمن به مثلها؛ وما من أَحدٍ وثق، مثلها، بعطف يسوع الفعّال. ومن السهل الاعتقاد بأَنّ ما من أَحدٍ أَحبّ يسوع مثل حبّ أُمّه له، ليس فقط من جرّاء كَلَف الأُمّ الفائق بثمرة أَحشائها، بل، أَيضًا، من جرّاء محبّة الروح القدس التي كانت، فيها، مبدأ أُمومتها الإلهيّة، المفعم حيويّةً وحبًّا، تلك المحبّة التي أَشركتها في

آلام ابنها، والتي غمرت قلبها، في العنصرة، ووسّعته حتّى جعلت منها أُمّ الكنيسة الوليدة الروحيّة، لا بل أُمّ كنيسة جميع الأَجيال القادمة التي ننتمي إِليها...»

معرفة مريم والتوسّل إِليها

«وصيّتي الأُولى، وهي أَساسيّة: معرفة السيّدة العذراء معرفةً فُضلى بصفتها نموذج البشريّة المفتداة، الأَصيل والمثاليّ. فلنلقِ، إِذن، نظرةً متأَنّيةً على تلك المخلوقة الفائقة النقاء، على هذه الحوّاء المنزّهة من كلّ خطيئةٍ، على ابنة الله هذه التي يعكس كمالها البريء والمذهل فكرة الله الفريدة، الصافية. إِنّ مريم هي الجمال البشريّ، لا الجمال الشكليّ فحسب، بل الجمال الجوهريّ، الجمال الكيانيّ المتوافق مع الحبّ الإِلهيّ، والتواضع، والروحانيّة، وسداد الرؤية، وكلّ ما يعبّر عنه نشيد تعظيمها للربّ. إِنّها العذراء، إِنّها الأُمّ بكلّ ما لهذه اللفظة من صفاء الدلالة وأَصالتها؛ إِنّها المرأة المتلفّعة بالشمس، والتي يبهر منظرها عينينا اللَّتين غالبًا ما تهينهما وتعميهما صُوَر المحيط الوثنيّ المنحلّ، صُوَرٌ دنيئةٌ ومدنّسةٌ تحيط بنا وتهاجمنا.

«إِنّ السيّدة العذراء هي النموذج الأَسمى للبشريّة السائرة على دروب الإِيمان؛ إِنّها صورة الكنيسة...

«وصيّتي الثانية، وهي ليست أَقلّ شأنًا: علينا أَن نثق في جدوى اللجوء إِلى شفاعة السيّدة العذراء. علينا أَن ندعوها، ونتضرّع إِليها. إِنّها رائعةٌ في ذاتها ومحِبّةٌ لنا. ومثلما نراها في الإِنجيل، إِنّها تتدخّل لدى ابنها، وتنال منه خوارق غير مأْلوفةٍ. إِنّها طيّبةٌ وقديرةٌ. وهي ملمّةٌ باحتياجات البشر وبآلامهم. علينا، إِذن، أَن نعيد النضارة لتكريمنا للعذراء، إِن نحن شئنا الظفر بالروح القدس، واتّباع يسوع المسيح بصدقٍ. وليدخلنا إِيمانها إِلى واقع الإِنجيل...»).

التمثّل بفضائل العذراء

«على المؤمنين أَن يذكروا أَنّ تكريم العذراء الحقّ ليس عاطفيّةً عقيمةً عابرةً، ولا هو اعتقادٌ ساذجٌ باطلٌ، بل هو ينبع من إِيمانٍ صادقٍ يحملنا على الاعتراف برفعة أُمّ الله، ويحثّنا على إِيلائها حبّ الأَبناء لأُمّنا، وعلى التمثّل بفضائلها».

الروح القدس ومريم العذراء

«إِنّ الروح القدس هو الذي ملأ شخص مريم نعمةً، منذ لحظة وجودها الأُولى، وافتداها على أَسمى وجهٍ، نظرًا لاستحقاقات المسيح، مخلّص الجنس البشريّ، وبذلك عصمها من كلّ دنس. والروح القدس هو الذي أَلهمها أَن توافق، باسم الجنس البشريّ، على حمل ابن العليّ، حملاً بتوليًّا، وأَخصب أَحشاءها كي تضع المخلّص، ملك الملكوت الأَبديّ. والروح القدس هو الذي أَترع نفسها فرحًا وشكرانًا عبّرت عنهما بنشيد تعظيمها للّه مخلّصها. والروح القدس هو أَوعز إِليها الحفاظ بأَمانةٍ، في قلبها، على ذكرى الأَقوال والأَفعال الخاصّة بمولد ابنها الوحيد وبطفولته، والتي أَسهمت فيه إِسهامًا حميمًا زاخرًا بالحبّ. والروح القدس هو الذي حدا مريم إِلى أَن تلتمس، برقّةٍ، من ابنها، تحويل الماء خمرًا، فحدثت معجزته الأولى التي استفزّت إِيمان تلاميذه به. والروح القدس هو الذي ساند أُمّ يسوع الواقفة عند أَقدام صليبه، وأَلهمها، مثلما كان قد فعل لحظة البشارة، أَن تتمّم مشيئة الآب، الذي شاء مشاركة الأُمّ في تضحية ابنه، من أَجل فداء الجنس البشريّ. والروح القدس هو الذي أَفعم قلب أُمّ الآلام حبًّا جمًّا، كي تتلقّى من شفتي ابنها وصيّته الأَخيرة: رسالة أُمٍّ ليوحنّا، التلميذ الذي كان يسوع يحبّه، أُمومةٍ كانت ترمز إِلى أُمومةٍ روحيّةٍ حيال البشريّة جمعاء. والروح القدس هو الذي ارتقى بمريم، على أَجنحة المحبّة الأَشدّ اتّقادًا، لكي تضطلع بدور المصلّية بامتيازٍ، في العلّيّة، حيث كان تلاميذ يسوع «كلّهم مواظبين على الصلاة، بنفسٍ واحدةٍ، وكان معهم بعض النسوة، ومريم أُمّ يسوع»، بانتظار الروح القدس الموعود. وأَخيرًا، الروح القدس هو الذي أَضرم في فؤاد مريم، الحاجّة على هذه الأَرض، التوق إِلى الالتحاق بابنها الممجّد، وبذلك أَعدّها بجدارةٍ، للامتياز الذي توّج كلّ امتيازاتها الأُخرى: أَي انتقالها إِلى السماء بجسدها ونفسها...

«ولا تنفكّ مريم، بعلاقةٍ دائمةٍ مع الروح القدس، تقود النفوس إِلى يسوع، وتصوغها على مثاله، وتوحي لها بنصائح سديدةٍ تكوّن علاقة حبٍّ بين يسوع والمؤمنين».

جمال مريم البريء

«هذا الجمال الذي طالما حاول قدّيسون وفنّانون إِيداعه في صُوَرٍ شهيرةٍ وشعبيّةٍ،

يعدّها الشعب المؤمن كنزًا خاصًّا به، وانعكاسًا لحلمٍ فطريٍّ، حلم شكلٍ نموذجيٍّ سامٍ، وفي الآن عينه، مرآةً مدهشةً لفكرة كمالٍ إلهيٍّ.

إنّه جمالٌ بشريٌّ يتعرّف فيه كلّ فردٍ وجه أُمّه الأليف، ومثالاً أسمى. وهو جمالٌ سماويٌّ حيث البهاء الملائكيّ المنبعث تلقائيًّا من ذلك المحيّا العذب، يفتن النظر، ويحول دون التأثّر بكلّ جمالٍ خدّاعٍ خسيسٍ، إذ إنّه يدعو طاقات الرؤية الروحيّة إلى جهدٍ تأمّليٍّ فائق الطبيعة، مفعمٍ فرحًا يندّ عن الوصف. إنّ مريم الكلّية البهاء، هي بؤرة النور حيث تلتقي أشعّةٌ متواضعةٌ، ولكنّها صافيةٌ منبعثةٌ من فلك الأرض، بأشعّةٍ ساميةٍ، ولكنّها باتت قريبة المنال، منبعثةٍ من الفلك السماويّ. إنّنا بحاجةٍ إلى هذا الجمال لكي نرمّم في ذواتنا، وفي أفكارنا، بل خارج ذواتنا، في سلوكنا، فكرة ما هو جميلٌ حقًّا، الفكرة التي تؤتي الفرح.

«وخليقٌ بالتذكير أنّ فكرة الجمال، إذا ما عزلت عن جذور الكمال الجوهريّة، وعن النقاء، وعن الانضباط، تُطلَق على قيمٍ متنوّعةٍ، غالبًا ما تفتقر إلى الإنسانيّة، مثل مجرّد المشهد الفنّيّ، ورعشة اللذّة، الفنّ المنفصل عن التضامن مع الحياة، والتعبير الذي يدغدغ الحواسّ ولكنّه ينتهك الحياءَ، واستعراض النوايا المخجلة، لا بل حتّى الجنوح. هذه الإباحيّة المتاحة لجمالٍ زائفٍ، غالبًا ما تبرّر مشاهدَ، وأدبًا، وأخلاقًا مغرقةً في الوبال، متواطئةً مع انحطاطٍ حضاريٍّ شاملٍ، وهبوط الأخلاق والروح.

«نحن، تلاميذ الحكمة المسيحيّة، المتواضعين والمحبّين، ما زلنا نذكر أنّ الجمال الحقّ لا ينفصل عن الخير. ولا يغرب عن بالنا جمال مريم، ذلك الجمال البريء، فهو لنا منبع نورٍ وإلهامٍ.

«جمال العذراء لم يفسده عيبٌ، وقد سما إلى مرتبةٍ من المثاليّة والبهاء يتعذّر علينا إدراكه إدراكًا وافيًا. إنّ مريم هي الممتلئة نعمةً والتي يغمرها الروح القدس.إنّها امرأة رؤيا يوحنّا المتّشحة بالشمس. إنّها سعادة العالم، وتحفة الله بين البشر.

«إنّها خاصّتنا. وهي متواضعةٌ، وَرِعةٌ، رقيقةٌ، فقيرةٌ، كلّيّة الطهر. إنّها الابنة المثاليّة، والأُخت الصديقة، ومحامية البشريّة الرحيمة.

«تدعونا السيّدة العذراء إلى صوغ حياتنا العليلة المعرَّضة للفناء، على غرار كمال

حياتها، وإلى إِضفائنا على تلك الحياة المسكينة، الإِحساس بالجمال، وتذوّقه، والرغبة فيه؛ فما الجمال سوى انعكاس الروح على الشكل المحسوس. وبالتالي، تدعونا العذراء إِلى تعلّم الطهر وإِلى ممارسته. فقد تمادى عالم اليوم في انتهاكه، وتكاد ترفضه أَساليب السلوك الشائعة، التي كان من واجبها الذود عن حياضه وتلقينه. وإِلى ذلك تدعونا العذراء إِلى فرح الحياة المتناغمة مع العالم الخارجيّ المحسوس، الذي، من جرّاء انقياده لانفلات الغرائز، أَمسى بحاجةٍ إِلى كابح التضحية، لكي تترسّخ سيادة الروح القويّ المتواضع، النيّر...»

العذراء مبعث رجاء

«لإِنسان اليوم الممزّق، غالبًا، بين القلق والرجاء، المرهق بشعور محدوديّته، في حين لا تني تساوره تطلّعاتٌ لا حدود لها، المضطرب النفس، المجروح القلب، الذي يطغى على تفكيره لغز الموت، وتسحقه الوحدة في حين هو يتطلّع إِلى التواصل، تُقَدِّم العذراء، المتأمّلة في حياتها على الأَرض، وفي واقعها المجيد، في مدينة الله، نظرةً ساجيةً، وكلمةً تشيع الطمأنينة: انتصار الرجاء على القلق، والتواصل على الوحدة، والسلام على الاضطراب، والفرح والجمال على القَرَف والاشمئزاز، والتطلّعات الأَبديّة على التطلّعات الزمنيّة، والحياة على الموت».

مقتطفات من «قانون إِيمان البابا بولس السادس المريميّ»، الذي أَعلنه في ختام «سنة الإِيمان»، في ٣٠ حزيران ١٩٦٨:

«نؤمن أَنّ مريم هي الأُمّ التي ظلّت عذراء للكلمة المتجسّد، إِلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح، وأَنّها، بسبب هذا الاختيار المنقطع النظير، وبفضل استحقاقات ابنها، قد افتُديت أَسمى فداءٍ، ووُقيت من أَيِّ أَثرٍ للخطيئة الأَصليّة، وأَنّ النعمة أُغدقت عليها بوفرةٍ أَكثر من جميع المخلوقات.

«إِنّ العذراء القدّوسة، التي ارتبطت بأَسرار التجسّد والفداء، ارتباطًا وثيقًا لا تنفصم عُراه، والتي حُبل بها بلا دنسٍ، قد رُفعت، في نهاية حياتها الأَرضيّة، جسدًا ونفسًا، إِلى المجد السماويّ، على غرار ابنها الذي قام من الموت، مستبقةً، بذلك، مصير جميع الأَبرار. وإِنّنا نؤمن أَنّ أُمّ الله القدّوسة، حوّاء الجديدة، أُمّ الكنيسة،

ما برحت تضطلع، في السماء، بدور الأُمّ، حيال أَعضاء المسيح، مشارِكةً في ولادة الحياة وازدهارها في نفوس المُفتدين».

مريم هي الدرب إلى يسوع

«مريم هي، أَبدًا، الدرب المؤدّي إِلى يسوع. التقاؤنا بها يفضي، دائمًا، إِلى التقائه، هو. وما لجوؤُنا المطّرد إِلى السيّدة العذراء سوى نشداننا المسيح مخلّصنا، بين يديها، وفيها، وبها، ومعها. فَوسط أَمواج التيه، ومخاطر هذا العالم، يشعر البشر بحاجة الالتجاء إِلى من يمثّل لهم مرفأ السلام، ومنبع الحياة الفائقة الطبيعة. وإِنّما هذا اللجوء هو واجبٌ عليهم».

ثنائيّ مريم ويوسف

«عند عتبة العهد الجديد، كما عند مدخل العهد القديم، انتصب زوجان. ولكن فيما كان ثنائيّ آدم و حوّاء منبع كلّ الشرّ الذي تدفّق على العالم، كان ثنائيّ يوسف ومريم القمّة التي فاضت منها القداسة على الأرض. لقد استهلّ المخلّص عمل الخلاص بهذه الوحدة البتوليّة والمقدّسة حيث تجلّت إرادته الكلّيّة القدرة بتطهير الأُسرة وتقديسها، فالأسرة هي محراب الحبّ، ومهد الحياة».

القسّ البروتستانتيّ «شوان سينغ سونغ» من تايوان

«في رحم مريم، يخلق الهوى الإِلهيّ والهوى البشريّ حياةً جديدةً تنير التاريخ وتفتديه. إِنّ بذرة الحياة في رحم مريم، هي إِذن، نهاية الخلق القديم، وبداية خلقٍ جديدٍ. ويسوع المسيح هو الخليقة الجديدة، التاريخ الجديد، الكائن البشريّ الجديد...

... يدخل اللّه إِلى تاريخ البشر من خلال الرحم البشريّ، وهكذا يخلق حياةً جديدةّ، ويضع أَساس جماعةٍ بشريّةٍ جديدةٍ مبنيّةٍ على الحبّ، والعدل، والسلام. بها يُستهلّ ملكوت اللّه الذي يجمع البشريّة في قربى مشتركةٍ، ووشائج دمٍ».

(وعلى هذا المقال علّق قسٌّ بروتستانتيٌّ آخر هو J.P.GABUS، قائلاً:)

«حَدَثُ الخلق العجيب هذا يبدأ، إذن، مع مريم. لم يخشَ القسّ «سونغ» من القول إنّ مريم أَصبحت شريكة الله في الخلق، بالمعنى الحقّ للكلمة، بكلّ حبّ الأُمّ المتألّم، الذي هو، أيضًا، حبّ الله المتألّم للبشريّة. فالخلق هو، دائمًا، فعل حبٍّ يتضمّن بذل الذات الكلّيّ، والألم، والمخاطرة، والجهاد، ولكن، جوهريًّا، أيضًا، الفرح. إنّ المرأة التي تضع ابنًا تَخبر، مباشرةً، خبرة قلب الله، إلهٍ يخلق العالم ويخلّصه، في حبٍّ ينطوي على مخاطرةٍ، وألمٍ، وفرحٍ، ورجاءٍ. إنّ ما يجري في أحشاء أُمٍّ ما هو إلاّ تكريسٌ لحبّ الله للعالم، حبّه الخلاّق والفادي. إنّ تسبيح العذراء يعبّر تعبيرًا لا يُضاهى عن الفرح والبهجة اللّذين تُعطاهما أُمٌّ تنفذ إلى حميميّة قلب الله المحبّ والمتألّم...».

مارت روبان (١٩٠٥-١٩٨١)

صوفيّةٌ فرنسيّةٌ دمغها الربّ بسمات صليبه.

١ - صلاة

«أيّتها الأُمّ الحبيبة، بما أَنّكِ تعرفين جيّدًا دروب القداسة والحبّ، علّمينا أن نرفع، باطّرادٍ، فكرنا وقلبنا صوب الثالوث، وأن نحدّق إليه بانتباهٍ مفعمٍ احترامًا ومحبّةً. وبما أَنّكِ تسيرين معنا على دروب الحياة الأبديّة، لا تكوني غريبةً عن الحجّاج المساكين الذين ترغب محبّتكِ في استقبالهم. الفُتي نحونا أَنظار رحمتكِ، واجتذبينا إلى مواطن نوركِ، واغمرينا بمبادرات رقّتكِ، وامضي بنا صوب النور والحبّ، وتوغّلي بنا إلى الأبعد والأعلى في سنى السماوات. واجعلي أَلاّ يقوى شيءٌ على تعكير سلامنا، أو على إقصائنا عن التفكير بالله، بل فلتدخلنا كلّ دقيقةٍ إلى أبعاد السرّ الجليل، حتّى اليوم الذي يتسنّى فيه لنفسنا، وقد ازدهرت ازدهارًا كلّيًّا بأنوار الاتّحاد بالله، أن تشاهد كلّ شيءٍ في ضوء الحبّ الأبديّ، وفي الوحدة. آمين».

٢ – (وقد كتبت أيضًا، بمناسبة عيد انتقال السيّدة):

«عيد انتقال العذراء: يوم سعادةٍ وفرحٍ، مع أنّي تألّمتُ كثيرًا، اليوم. لقد جدّدتُ تسليم ذاتي للّه، وجدّدتُ قصدي: أن أكون دائمًا، وبلا تحفّظٍ، ابنة مريم، وأن أتمثّل بها، بخضوعٍ، وبكلّ استطاعتي، وأن أُحيطها باحترامي، ورقّتي، وحبّي، وفقًا لما يقتضي يسوع منّي. ليت العالم يعرف كم عذبٌ وحميمٌ الاتّحاد الذي تتذوّقه وتتمتّع به النفوس التي تحيا في أُلفةٍ مع أُمّ يسوع، أُمّنا!» (١٥ آب ١٩٣٠)

٣ – (وفي ١٩٣٠/١٢/٨ كتبت):

«الأوجاع تتفاقم، والليل يزداد صفاقةً. فيا أُمّي الحنون، أكّدي ليسوع، وإن هو ظلّ متواريًا، أنّني أُريد كلّ شيءٍ وأقبله حتّى النفس الأخير، إن كان هذا هو سرّه... أنتِ تعلمين، يا أُمّي القدّوسة، أنّ طموحي هو أن أكون أكثر تواضعًا، بإمعاني في المحبّة... أيّتها العذراء المفعمة عطفًا، يا رفيقة الباكين الرقيقة، اجعليني، معكِ، معزّية المحزونين! إنّ كلمة العطف تداعب النفس. وأنا على فقرٍ مدقعٍ غير أنّ كنز أُمّي لا ينضب... مريم تقول لي: إنّي أُعطي الجميع، ولا أطلب بالمقابل سوى قلبٍ محبٍّ ووفيٍّ.... ونحن على جانبٍ عظيمٍ من الوهن والهشاشة، بحيث ننزع دائمًا إلى الإفلات من ذراعيها. ولذلك علينا ألاّ نكفّ، يومًا، عن العطاء، وأن نعود إلى اللجوء تحت معطف أُمومتها، وتحت نورها الساطع. وهكذا سيكون بوسع كلٍّ منّا أن يقول: مريم هي أُمّي إلى الأبد».

٤ – «لو عرفت الفتاة كيف تلطو بين ذراعي تلك العذراء، تلك الأُمّ الحنون، كي تحمي طهرها، ولو عرف الخاطئ الارتماء بين يدَيْها، ناشدًا ملجأً ونجاةً من العقاب، ولو جاءها العليل بجراحه كي تضمّدها، وجاءها الفتى ببراءته كي تقيها، ولو جاءها الفقير ببؤسه كي تؤاسيه، وجاءها بآلامه كي تعزّيها، ولو جاءها الشيخ واليتيم بقلبهما كي تشيع فيه الدفء، وبدموعهما كي تكفكفَها، لكانت الحياة أقلّ حزنًا».

٥ – صلاة

«يا أُمّي، أيّتها العذراء مريم المنزّهة من كلّ دنسٍ، لقد كانت حياتك تصعيد حبٍّ

متواصلاً، فساعديني على التصعيد المطّرد في معارج الفضيلة الإلهيّة، لا دفعةً واحدةً، ولا في رؤيا انخطافٍ، بل يومًا فيومًا، ولا وفق رغباتي، بل وفق مقاصد العناية الإلهيّة. وهكذا، وأنتِ تقودينني من ضياءٍ إلى ضياءٍ، حتّى النور الكلّيّ، أستطيع مشاهدة المحبّة الإلهيّة في ظلّ جمالها الفتّان، كما يحتاج الصغار إلى معرفتها، علّني أعثر على سرّ الحياة والموت، في نار الحبّ. أيّتها العذراء القدّيسة، أنتِ التي غزتْ نفسي وأسرتْها، احفظيني الآن، بكاملي، وللأبد، في حبّ ابنكِ الإلهيّ».

فرَنس كيري

France QUÉRÉ

كاتبةٌ بروتستنتيّةٌ معاصرةٌ

عرس قانا

يوم عرسٍ في قانا... نفدت الخمرة... وتبيّن المدعوّون ذلك. لفتت مريم نظر يسوع إلى الأمر، وهي مدركةٌ أنّ له به علمًا. لم تستهدف إعلامه، بل كانت تتطلّع إلى أبعد من حدَثٍ عابرٍ، كانت تتأمّل ابنها في ما يتخطّى ابنها، كانت تلتمس المسيح في أعماق يسوع.

جواب يسوع ينبئ بأنّه لم يلبث أن تفهّم قصدها:

– يا امرأة، ماذا تبغين؟...

يسوع، هنا، يردّ مداخلةً في غير أوانها... إنّه يقول: «مالي ولكِ؟». هذه العبارة، في الإنجيل، لم يستخدمها سوى الأبالسة. إنّها صيحة احتجاج الروح النجس، الذي انتفض بقسوةٍ وتخبّط، وأبى أن يُطرَد. ولكنّ مقاومته لا طائل منها، فهو يعرف أنّه مهزومٌ... في هذه الرواية، يسوع هو الذي يتكلّم كالشيطان، وأُمّه هي التي تحتلّ مكانة المسيح. إنّها تنتشله من سكونه، وتنتزع منه الرعشة. إنّها تفعل ذلك، بتكتّمٍ ورقّةٍ، ولكنّ صوتها لا يُقاوَم، ودعوتها مخيفةٌ. فعليه أن يخرج من

ذاته كي يقود العالم إلى الخلاص! إنّه، مثلها، يعرف مآل رسالته، وبدءَها: إنّ تلك التي ولدته تقوده صوب القبر. وخمرة التفاؤل ستتحوّل دمًا. هذه الإشارة، هما وحدهما يستشّفانها! والصيحة التي تُفلت من صدره:

– إنّ ساعتي لم تأتِ بعد

تترجم هذه الرعدة، وردّة فعل الحيّ على أَمارات النزاع الأولى. وهذه العبارة التي تكاد تكون فظّةً:

– مالي ولكِ، يا امرأة

إنّما هي أنّة المصير المخيف الذي لابدّ من الإقدام عليه. مريم تستخدم لغة الله التي لا تُقهَر. والابن يرتعش، وينطلق في دربه.

كانت مريم قد ولدت يسوع، وها هي الآن، تلد المسيح».

تاتيانا غورتشيفا

إنّها بنت جيلٍ روسيٍّ نشأ على الإلحاد، على أيدي والدَيْن ملحدَيْن، وقُيّض لها أن تكتشف القِيَم المسيحيّة. وقد أَسّست، مع نساءٍ أُخرياتٍ شاركنها اكتشافها، حركةً نسائيّةً شديدة الاختلاف عن الحركات النسائيّة في سائر العالم الغربيّ، ليس هدفها مقاومة السيطرة الذكوريّة، بقدر ما هو مقاومة النظام الماركسيّ الذي يشوّه مصير الرجال والنساء، معًا. تلك الحركة تأسّست تحت راية العذراء. فبعد أن خبرت تاتيانا مأساة الثقافة الملحدة المدمّرة، اكتشفت، في مريم، مبدأ توازنٍ. وقد أَفصحت عن مسيرتها في الحوار التالي، بتاريخ ١٥ آذار ١٩٨٢:

«وُلدتُ في أُسرةٍ ملحدةٍ. واهتممتُ بالفلسفة... درستُ الوجوديّة، واعتنقتُ مذهب سارتر وكامو، وتحت التهديد ترجمتُ أَعمال هيدغر. ذلك الدرب... فوق شفرة سيفٍ، وفوق الهوّة، كان دربنا... وحينئذٍ شاع الكَلَف بعاداتٍ شرقيّةٍ، وشرع كثيرون يهتمّون بممارسة اليوغا. ولم تكن اليوغا تخيفنا بقدر ما تخيفنا المسيحيّة، إذ إنّ اليوغا، إلى حدٍّ ما، إنّما هي تفسيرٌ لبعض مظاهر الإنسان المادّيّة. لا ريب أنّه الإنسان بكامله، بجسده وروحه، ولكن من وجهة نظرٍ مادّيّةٍ... غير أنّ اليوغا علّمتنا

معنى التجربة الروحيّة. ولكنّ الطريق نحو المسيح كانت ما برحت طويلةً، إذ إنّ الإله المسيحيّ، وإله اليوغا هما، عمليًّا، فكرتان متناقضتان.

وذات يومٍ، إذ كنت مستغرقةً في التأمّل، تلوتُ دعاء «أبانا»، وهو دعاءٌ مقبولٌ في ممارسة اليوغا بصفته ضربًا من التأمّل. وأنا كنت أتلو هذا الدعاء، بمنأًى عن الإيمان بأنّ هناك إلهًا في السماء. وبعد أن كرّرته خمس أو ستّ مرّاتٍ، لم أفهم فقط، بل، أيضًا، تحقّقتُ، فجأةً، أنّ هذا الأب ليس موجودًا فحسبُ، بل أنّه هو الذي خلق كلّ شيءٍ من حولي. وهذا الوعي ما انفكّ يواكبني حتّى هذا اليوم. واكتشفتُ أنّني امرأةٌ.

على هذا النحو يعود اليوم إلى اللّه، في روسيّا، شبّانٌ كُثُرٌ، فتيانٌ وفتياتٌ. في ما بعد، واكبتْ هذه التجربةَ لديّ، تجربةٌ أُخرى، تجربة ولوجٍ متدرّجٍ في الليتورجيّا، تجربةٌ كنسيّةٌ. واكتشفت ذاتي كائنًا بشريًّا، وامرأةً، في تواصلٍ مع أُمّ اللّه.

تجربة التواصل هذه القائمة على الحبّ، والعلاقة، والتبادل مع أُمّ اللّه، هي التي تكوّن أساس حياتنا في روسيّا. وعندما وافيتُ الغربَ اتّضح لي، في الأوساط المسيحيّة التي غشيتُها، أنّ مفهوم أُمّ اللّه كان مغرقًا في الطهر والمثاليّة، وأنّه يوحي، أحيانًا، بالخشية، وأنّه، غالبًا، مرفوضٌ.

مثل ذلك مستحيل الوجود لدينا، فأُمّ اللّه، عندنا، ليست فكرةً مجرّدةً، ولا مثالاً أسمى. بل هي أقرب إلينا ممّا نحن قريبون من ذواتنا. إنّها، لنا، كائنٌ واقعيٌّ، كائنٌ كاملٌ، متجلٍّ، يساعدنا في مسيرة تجلّينا الذاتيّ.

عندما أقول ذلك في الغرب يبدو لبعضهم أنّنا نُحلّ مريم محلّ المسيح، أو قبل المسيح.

من المؤكّد أنّ هذا الادّعاء خاطئٌ. فالمسيح هو اللّه «أحد أقانيم الثالوث الأقدس»، وهو، كما ننشد في الليتورجيّا «إلهٌ حقٌّ وإنسانٌ حقٌّ» مثلما أقرّ المجمع الخلقيدونيّ. وأُمّ اللّه لا تحجب المسيح، بل هي تقود إلى المسيح. المسيح تجسّد فيها، وهي، لنا، صورة الكنيسة. وفي الآن عينه، فضلاً عن كونها عضوًا في الكنيسة، تتبوّأ فيها مكانةً مميّزةً: إنّها أُمّ اللّه، والدرب المؤدّي إلى المسيح. إنّها حاضرةٌ في حياتنا بقدر ما هو حاضرٌ، على نحوٍ مؤكّدٍ وملموسٍ، بحيث يستحيل اعتبارها مفهومًا مجرّدًا.

نحن نؤمن أنّ مجرّد كوننا حيينا، وبُعثنا إلى حياةٍ جديدةٍ، عبْر كلّ المحن التي عهدتها بشريّة القرن العشرين، وعبْر كلّ الحروب الحافلة بالكوابيس، ومعسكرات الاعتقال، إنّما هو دليلٌ على وجود الروح القدس. إنّ الروح القدس حقيقةٌ، واقعٌ. وأَمّ اللّه، بفضل تجربتها ولادة اللّه، الفريدة فرادةً مطلقةً، هي الكائن البشريّ الأَوّل الذي أَناره الروح إِنارةً كاملة».

(هذه التجربة أَوحت إلى تاتيانا رسالةً إلى امرأةٍ روسيّةٍ أُخرى، نُشرت في مجلّةٍ نسائيّةٍ، فأدّت إلى طرد تاتيانا من الاتّحاد السوفييتيّ. في ما يلي مقتطفات من تلك الرسالة):

«في هذا اليوم الذي نحتفل فيه بعيد انتقال أُمّ اللّه، أَودّ أَن أُفصح لك عمّا تمثّله لي (العذراء)، وكيف ساعدتني على اكتشاف ذاتي، والتقاء اللّه ثانيةً...إِنّها تزيل اللعنة التي أَلقتها جميع الديانات السابقة على المرأة. فعشتروت كانت عدوّة يهوه. وجدّة الديانات الوثنيّة كانت تجسّد اللامنطق، وقوى الظلام، والجسد. في المسيحيّة وحدها تحقّق تأليه الجسد الكامل بالتجسّد. وحدها المسيحيّة أَلغت ازدواجيّة الجسد والروح. ففي المسيحيّة حلّ اللّه في جسدٍ... وبلغ ارتباط الروح بالجسد، وتبعيّتهما المتبادلة، درجةً ساميةً من الرفعة... ولذلك لا يعاقب هذا الدين الخطيئة المرئيّة وحدها، بل إِنّ حتّى الرغبات الخفيّة هي خطايا فعليّة: «من رمق امرأةً بنظرة شهوةٍ فقد زنى بها في قلبه».

إِنّ العذراء القدّيسة، في طهرها، سمت فوق الملائكة. إِنّها الطهر الفريد. إِنّها كنيسة المسيح. إِنّها الكلّيّة الجمال. منذ طفولتها لم تراود أُمَّ اللّه رغبةٌ دنيئةٌ، ولا رغبةٌ شهوانيّةٌ. ما من نجاسةٍ كان بوسعها أَن تجد إِليها سبيلاً. ومع العذراء القدّيسة، وللمرّة الأولى في تاريخ البشريّة، تحقّق تطهّرٌ كاملٌ للجسديّ وللّاوعي. إِنّ الأُنوثة التي انحدرت بها الديانات الوثنيّة إلى مستوى الشيطانيّ، قد لقيت هنا تقديسًا فذًّا، ورُقّيت إلى قممٍ لا تطال، بحيث جعلتها الإِناء الذي يتلقّى الروح القدس. «أَحشاؤكِ أَرحب من السماوات». فابتهجي، يا هيكل الروح الذهبيّ.

كلّ هذه الأُمور اعتلنت لي خلال شفائي الروحيّ، وعودتي إلى حضن الكنيسة. فالقدّيس أوغسطينُس قال: «المسيح هو الحلّ لجميع الشرور. وكذلك هو أمر ملكة السماوات، الكائن المثاليّ، والمرأة المثاليّة».

(وبعد أَن تبيّنت تاتيانا ما أَفضى إِليه الانفلات الجنسيّ من وبالٍ في المجتمع وفي حياة النساء، خلصت إِلى تأكيد أَنّ الحلّ هو مريم):

«لقد جاءت إِلينا، تلك التي تأتي لخلاص الأَموات، والتي نهتف لها: «إِفرحي، يا باب الخلاص». إِنّ الصلاة الموجّهة إلى أُمّ اللّه قد ساعدتني على أَن أَكتشف، وأَحيى في ذاتي، من جديدٍ، المبدأَ النسائيّ، في كلّ نقائه. وكان أَوّل ما تبيّنتُه هو المعنى الروحيّ للفضيلة الأَساسيّة: العفّة. كنت، سابقًا، أَسخر من العفّة، وكأَنّها أمرٌ مندثرٌ... لقد كانت أُمّ اللّه عفيفةً، عفّةً مارسها، في تيّارها، الرهبان، وكذلك جميع من يحيون زواجًا مسيحيًّا... وكما أَنّ آدم الجديد افتدى خطايا آدم القديم، كذلك حوّاء الجديدة قد حرّرت حوّاء القديمة من اللعنة التي كانت ترين عليها، وأَصبحت الممثّلة الأولى للكنيسة. إِنّ أُمّ اللّه توفّر مبرّر الوجود للأُنوثة، وللكائن البشريّ عمومًا. وتقدّم لنا صورةً عن الكائن الكامل...»

(وقد ردّت على رسالة تاتيانا مراسلتها سفيتلانا سانوفا، بقولها):

«أُختي العزيزة في اللّه،

رسالتكِ التي تعلمني كيف تقدّست حياتك بفضل الصلوات إلى مليكتنا، العذراء القدّيسة مريم، كان لها أعمق أثرٍ في نفسي، المتأثّرة بحالةٍ مماثلةٍ، وأَيقظت فيّ رغبة المشاركة في ثمار خبرة صلاتي الخاصّة...

لقد وصفتِ ملكة السماء بأَنّها عذراء أَبديّة العفّة والطهارة، بمنأًى عن كلّ هوًى مدمّر، ومعلّمة الرهبان والكهنة. وأَنا أَرى لها وجهًا آخر، في حياتي، بصفتي أَمًّا: إِنّ أَمّ اللّه، بفضل الحظوة التي جعلتها أُمّ اللّه، قد قدّست الأُمومة.

أَنا لا أَملك لا القدرة ولا الحقّ على مناقشة عقيدة الحبل بلا دنسٍ التي يهاجمها المتطرّفون والعقلانيّون من كلّ مشربٍ. أَمّا نحن، الأورثوذكسيّين، فنقرّها، وكذلك يفعل الكاثوليكيّون، وننحني أَمامها انحناءنا أَمام سرٍّ لا يحيط به العقل».

جيلبير سيسبرون (١٩١٣ – ١٩٧٣)

Gilbert CESBRON

كاتبٌ وقصصيٌّ فرنسيٌّ كاثوليكيُّ النفحة

يقول معلّقًا على صورةٍ للعذراء تحمل طفلها:

«بوقار الأُمّهات الفتيّات الساجي، تجلس العذراء، ولكأنّها على عرشٍ، في مركز العالم، والإِنسانيّة، والتاريخ. إِنّها ساكنةٌ، ولكنّ الهالة التي تحيق بمحيّاها، والنجوم التي تسهر عليها، قد اصطبغت بلونٍ أُرجوانيٍّ، والطفل الذي تحمله على ركبتَيْها تبدو على وجهه ملامح الرجولة وقد أَصبح ثوبه بلون الدم... هي تحمل ابنها، وهو يحمل الكون».

البابا يوحنّا بولس الثاني (١٩٢٠–٢٠٠٤)

١ – المسبحة الورديّة

«المسبحة الورديّة هي صلاتي المفضّلة. إِنّها صلاةٌ رائعةٌ، رائعةٌ في بساطتها وعمقها. بها نكرّر، مرّاتٍ عديدةً، أَقوال الملاك وإليصابات للعذراء مريم، أَقوالاً تشترك بها الكنيسة كلّها... من خلال «السلام عليكِ يا مريم»، تتوالى حقَب حياة يسوع الرئيسة، وتتجمّع في أَسرارٍ فرحةٍ، وأَليمةٍ، ومجيدةٍ، ولكأنّها توثّق اتّصالنا الحيّ بيسوع من خلال قلب أُمّه. وفي الآن عينه، يسعنا أَن نجمع، في هذه العشرات من الحبّات، كلّ أَحداث حياتنا الفرديّة، والأُسرويّة، وحياة بلادنا، والكنيسة... وهكذا تندرج صلاة المسبحة البسيطة على إِيقاع الحياة البشريّة» **(٢٩/١٠/١٩٧٨)**

وقبيل وفاته، قال البابا، في المسبحة الورديّة:

«أَيّتها المسبحة الورديّة التي باركتها مريم،
أَيّتها السلسلة العذبة التي تربطنا بالله،
يا رباط الحبّ الذي يجمعنا بالملائكة،

يا برج الحكمة، في مواجهة هجمات الجحيم،
يا مرفأ الأمان، في الطوفان الشامل،
لن نتخلّى عنكِ، بعدُ، أبدًا.
ستكونين عزاءَنا، في ساعة نزاعنا،
وفي حياتنا الآخذة بالانطفاء، ستكون لك قبلتنا الأَخيرة،
واسمكِ العذب، يا سيّدة الورديّة، سيكون النغمة الأَخيرة على شفاهنا،
يا أُمّنا الغالية، يا ملجأ الخطأة، ويا معزّية المفجوعين الفائقة.
فلتكوني مباركةً في كلّ مكانٍ، اليوم ودائمًا،
على الأَرض وفي السماء!»

٢ - مريم العذراء والكنيسة

«في جميع حِقَبها، منذ علّيّة العنصرة، أَحاطت الكنيسةُ مريمَ بتكريمٍ خاصٍّ، وتوجّهت إِليها بثقةٍ خاصّةٍ...

«إنّ حضور مريم في سرّ الكنيسة، أَي، في الآن عينه، في حياة شعب الله اليوميّة، في العالم كلّه، هو حضور أُمٍّ بامتيازٍ، ولكأنّ مريم تسبغ على عمل خلاص ابنها، وعلى رسالة الكنيسة، طابعًا مميّزًا، هو طابع الأُمومة...»

٣ - العذراء مريم والدعوات الكهنوتيّة:

«لمريم، أُمّ النعمة الإِلهيّة، أُوكل الدعوات الكهنوتيّة والرهبانيّة. فليكن ربيع الدعوات، وتكاثرها في الكنيسة كلّها، دليلاً مميّزًا على حضورها الأُموميّ في سرّ المسيح، اليوم، وفي سرّ كنيسته على الأَرض كلّها. فمريم، وحدها، هي تجسيدٌ حيٌّ للتكريس الكلّيّ والكامل للمسيح، ولعمله الخلاصيّ، الذي يجد أَصحّ تعبيرٍ عنه في كلّ دعوةٍ كهنوتيّةٍ ورهبانيّةٍ. ومريم هي التعبير الأَكمل عن الوفاء التامّ للروح القدس، ولعمله الداخليّ. إِنّها تعبيرٌ عن الوفاء الذي يعني تعاونًا مستمرًّا مع نعمة الدعوة».

٤ - العذراء والشبيبة

«نحو أُمّ الحبّ الجميل، أَودّ أّن أُوجّه، بنوعٍ خاصٍّ، شبيبة العالم كلّه، وشبيبة الكنيسة كلّها. فهي تحمل، في ذاتها، علامة شبابٍ لا يذبل، وجمالٍ لا يزول. وإِنّني أُهيب بالشبّان أَن يمضوا إِليها، ويثقوا بها، ويوكلوا إِليها الحياة الممتدّة أَمامهم، ويقدّموا لها حبّ قلوبهم البسيط والحارّ. فهي، وحدها كفيلةٌ بالاستجابة، استجابةً فائقةً، لهذا الحبّ».

٥ - تكريس العالم للعذراء (١٩٧٩/٥/٢)

«إِنّني أُكرّس العالم كلّه، كلّ أُمم الأَرض، وجميع البشر، لأُمّ المسيح، لأَنّها أُمّ جميعهم. أُكرّس لها، على نحوٍ خاصٍّ، مَن حياتهم هي الأَكثر مشقّةً، وقسوةً، مَن يعانون جسديًّا وروحيًّا، مَن يقاسون البؤس، ويتعرّضون للمظالم والأَذى».

٦ - العذراء نموذج حياة

«لقد عاشت إِيمانها في موقف تعميقٍ مستمرٍّ، واكتشافٍ مطّردٍ، مجتازةً أوقات ظلمةٍ عصيبةً، بدءًا بأَيّام أُمومتها الأُولى، أوقاتًا تخطّتها بوقوفها موقف إِصغاءٍ وطاعةٍ مسؤولاً حيال كلمة الله. فعلينا، نحن أَيضًا، أن نجهد في تعميق إِيماننا، وترسيخه، بالإِصغاء إِلى كلمة الله، واستقبالها، وإِعلانها، وتكريمها، وبتبيّن علامات الأَزمنة، وبتفسير أَحداث التاريخ على ضوء هذه الكلمة.

«تتجلّى لنا مريم مثالاً للرجاء الجريء، وللمحبّة الفاعلة. فقد سارت على دروب الرجاء باندفاع الطاعة، متخطّيةً الرجاء اليهوديّ إلى الرجاء المسيحيّ، ومارست المحبّة، منفّذةً كلّ مقتضياتها حتّى بذل الذات الكامل، والتضحية العظمى. وعلى غرارها، علينا أَن نكون أَوفياء، صامدين في الرجاء، عندما تتراكم غيومٌ مثقلةٌ بالعواصف، فوق الكنيسة التي تتقدّم مثل سفينةٍ وسط أَمواج أَحداث هذا العالم، وهي، غالبًا، أَمواجٌ معاكسةٌ. وعلينا، نحن أَيضًا، أَن ننمو في المحبّة، بتنمية التواضع، والفقر، والجاهزيّة، وطاقة الإِصغاء والاهتمام، وبالالتزام بكلّ ما علّمتنا العذراء، من خلال شهادة حياتها.

«مريم هي، أيضًا، «المرأة الجديدة». فيها أبرز الله ملامح حبّ الأُمّ، وكرامة الإِنسان المدعوّ إلى التواصل مع الثالوث، وبهاء المرأة التي تبلغ، هكذا، قمّة البشريّة في جمالها الفائق الطبيعة، وفي حكمتها، وفي بذل الذات، وفي التعاون النشيط والمسؤول الذي به تصبح خادمة سرّ الفداء.

«إنّها تريد أن نتمكّن من المشاركة في غبطتها ذاتها، وبإِيماننا مثلما آمنتْ، وبإِصغائنا إِلى كلمة الله ومشيئته، وبالعمل بهما، كما أَصغت هي، وعملتْ.

«كلّ وجودٍ يستمدّ قيمته من صفات الحبّ. ومريم تقود أَبصارنا، وقلوبنا، وأَيدينا، نحو الآخرين، مثلما هي فعلت في بيت إِليصابات، وفي قانا».

٧ - عذراء الصلاة

«في أثناء زيارتها لإِليصابات، فاضت نفس مريم بعبارات تمجيدٍ لله، وتواضعٍ، وإِيمانٍ، ورجاءٍ. وكان نشيدها صلاةً بامتياز. لقد كانت عذراء الصلاة في قانا، وعذراء الصلاة في العلّيّة. وما برحت حاضِرةً مصلّيةً في الكنيسة، في الكنيسة الوليدة، وفي كنيسة كلّ زمنٍ، فبارتقائها إلى السماء، لم تتخلَّ عن رسالتها، رسالة الشفاعة والخلاص».

٨ - العذراء والكنيسة

«معها انتهت النبوءات، وانتهى العهد القديم كلّه، ووُلدت كنيسة العهد الجديد، المنزّهة من كلّ لوثةٍ وغضَنٍ، في ملء الروح القدس.

إِنّها تضيء شعب الله بالنور الإِلهيّ الذي يعكس، على أَكمل وجهٍ، نور الكلمة الأَزليّ.

إِنّ حضور مريم في سرّ الكنيسة، أَي، في الآن عينه، في حياة شعب الله اليوميّة، وفي العالم كلّه، هو، خاصّةً، حضور أُمٍّ. ولكأَنّ مريم تسبغ على عمل خلاص ابنها، وعلى رسالة الكنيسة، طابعًا مميّزًا، هو طابع الأُمومة.

في جميع حِقَبها، منذ علّيّة العنصرة، أَحاطت الكنيسةُ مريمَ بتكريمٍ خاصٍّ، وتوجّهت إِليها بثقةٍ خاصّةٍ...».

٩ – مقتطفات من رسالة قداسته العامّة «فادي البشر» (Redemptor hominis) (١٩٧٩/٣/٤)

«إن نحن كنّا نشعر، في هذه الحقبة العصيبة والأساسيّة من تاريخ الكنيسة، وتاريخ البشريّة، بحاجةٍ خاصّةٍ إلى التطلّع نحو المسيح، سيّد الكنيسة، وسيّد التاريخ البشريّ، بفضل سرّ الفداء، فنحن موقنون بأنّ مريم هي خير من يدخلنا إلى أبعاد هذا السرّ الإلهيّة والإنسانيّة. فالله نفسه لم يُدخل أحدًا إلى أعماق هذا السرّ مثلما أدخل مريم. هنا يكمن ما تتّسم به نعمة الأُمومة الإلهيّة من طابعٍ استثنائيٍّ. وليست كرامة هذه الأُمومة هي وحدها الفريدة والمتميّزة تميّزًا مطلقًا في تاريخ الجنس البشريّ، بل إنّ ما هو، أيضًا، فريدٌ في عمقه، واتّساع رقعة فعله، هو مشاركة مريم، بحكم هذه الأُمومة عينها، في مخطّط خلاص البشر، من خلال سرّ الفداء.

هذا السرّ تكوّن في قلب عذراء الناصرة، عندما أعلنت موافقتها على بشارة الملاك. ومنذ تلك اللحظة، غدا ذلك القلب البتوليّ والأُموميّ، في آنٍ واحدٍ، والخاضع لعمل الروح القدس الخاصّ، يواكب، باطّرادٍ، عمل ابنه، ويمضي إلى جميع من شملهم، وما انفكّ يشملهم، دائمًا، بحبّها الذي لا ينضب. ولذلك قلب الأُمّ، هذا، لا ينضب. إنّ ميزة هذا الحبّ الأُموميّ الذي تُدخله أُمّ الله إلى سرّ الفداء، وإلى حياة الكنيسة، يتجلّى من خلال قربها الوثيق من الإنسان ومن كلّ حياته. هنا يكمن سرّ الأُمّ. والكنيسة التي تتطلّع إلى العذراء بجمٍّ من المحبّة والرجاء، تودّ امتلاك هذا السرّ، والمضيّ قُدُمًا إلى أعماقه. هنا، أيضًا، تتبيّن الكنيسة درب حياتها اليوميّة المتمثّل في كلّ إنسانٍ.

إنّ حبّ الله الأبديّ الذي تجلّى في تاريخ البشريّة، من خلال الابن، الحبّ الذي جعله «يبذل ذاته لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة»، يمسي على مقربةٍ من كلٍّ منّا، بفضل هذه الأُمّ، ويظهر على نحوٍ أشدّ وضوحًا، وأوثق صلةً بكلّ إنسانٍ. ومن ثمّ، فلا بدّ من أن توجد مريم على جميع دروب حياة الكنيسة اليوميّة. وبفضل حضور تلك الأُمّ، تتيقّن الكنيسة من أنّها تحيا سرّ الفداء، بكلّ عمقه، وبملء حيويّته. وهذه الكنيسة عينها، الراسخة الجذور في قطاعاتٍ عديدةٍ ومختلفةٍ من حياة البشريّة المعاصرة كلّها، تكتسب اليقين، لا بل الخبرة، بأنّها قريبةٌ من الإنسان، كلّ إنسانٍ، وبأنّها كنيسته، كنيسة شعب الله».

جيرترود فون ليفور (١٨٧٦–١٩٧١)

Gertrude VON LE FORT

كاتبةٌ ولاهوتيّةٌ ألمانيّةٌ

لكلّ أُمٍّ ستحين ساعة...

«لكلّ أُمٍّ ستحين، عاجلاً أَو آجلاً، ساعةٌ ستنطلق فيها، مثل مريم، باحثةً، متألّمةً، عن ابنها، وستحين ساعةٌ أَثقل وطأةً، حين ستسمع جوابه: «مالي ولكِ؟»...

ما من وحدةٍ تحاكي وحدة أُمٍّ، فالكائن الحبيب الذي يغادرها إِنّما هو جزءٌ منها: سيخترق السيف نفسك«(لوقا٢: ٣٥). سيقتطع السيف بعضًا من لحمها، وسيفرغها من دمها.

وهكذا، عاجلاً أَو آجلاً، في السرّ أَو في العلن، سيتجلّى في كلّ أُمٍّ وجه أُمّ الآلام، وجه «المفجوعة».

كتاب القدر يحدّد، بأَشكالٍ مختلفةٍ، أَلم الأُمّهات هذا: فهذا ابنٌ، عملاً بسنّة الطبيعة، ينهج دربه الخاصّ. إِنّه فراق الأَجيال المأسويّ. وهذا ابنٌ يُفقَد بفعل الصدفة، أَو بجريرة الموت. ولكن، في التعبير الدينيّ، آلام الأُمّهات كلّها لا تحمل سوى اسمٍ واحدٍ: الصليب».

ميشيل كواست (١٩٢١–١٩٩٨)

Michel QUOIST

كاهنٌ فرنسيٌّ، وباحثٌ اجتماعيٌّ، ومحاضرٌ مفوّهٌ، وكاتبٌ خصب الانتاج. وقد تُرجمت بعض مؤلّفاته إِلى عشرات اللغات، وطُبعت منها ملايين النسخ. من أَشهر مؤلّفاته: «صلوات»، «النجاح»، «حدّثني عن الحبّ».

أمّ للجميع

١ – أجمل اختراعاتي هو أُمّي

اختراعي الأجمل، يقول الله، هو أمّي. كنت أفتقر إلى أُمٍّ. وقد ابتدعتُها. صنعتُ أُمّي قبل أن تصنعني. فهذا أوفر ضمانًا.

وها أنا الآن، إنسانٌ نظير كلّ البشر.

لم يعُدْ ما أحسدهم عليه، فقد حصلتُ على أُمٍّ. أُمٍّ حقيقيّةٍ كنت أَفتقر إليها.

أُمّي تدعى مريم، يقول الله

نفسها طاهرةٌ طهرًا مطلقًا، وهي مملتئةٌ نعمةً.

جسدها جسد عذراء، يقطنه نورٌ فائقٌ، بحيث لم أملّ، قط، و أنا على الأرض، من تأمّلها، و الإصغاء إليها، والإعجاب بها.

جميلةٌ هي أُمّي، بحيث إنّني بعد أن هجرت روائع السماء، لم أشعر بأيّة غربةٍ، وأنا قريبٌ منها.

ومع أنّني، يقول الله، خبرتُ الحملان على أيدي الملائكة، صدّقوني، هذا لا يساوي ذراعي أُمٍّ.

لقد ماتت أُمّي، يقول الله، فمذ أنا صعدت إلى السماء، ما انفككتُ أتوق إليها، وهي تتوق إليّ.

فلحقت بي، مباشرةً، بنفسها وبجسدها.

لقد تحتّم عليّ أن أفعل ذلك. فهو واجبٌ، وهو أوفر لياقةً.

فالأنامل التي لامست الله، لم يكن لائقًا بها أن تتجمّد.

والعينان اللّتان رمقتا الله، لم يكن لائقًا بهما أن تغمضا،

والشفتان اللّتان قبّلتا الله، لم يكن ممكنًا أن تتحجّرا،

وذلك الجسد الفائق الطهر الذي أعطى الله جسدًا، لم يكن بوسعه أن يتعفّن، وأن يمتزج بالتراب...

لم أستطع القبول بمثل هذا المصير، فقد كان مستحيلاً أن يحصل، و لو حصل لأرهقتني.

فمع أنّي اللّه، أنا ابنها، و أنا الآمر.

ثمّ إنّي، يقول اللّه، قد فعلت ذلك من أجل إخوتي البشر، كي تكون لهم أُمٌّ في السماء، أمٌّ من عندهم، جسدًا ونفسًا، هي أُمّي.

وها إنّ الأمر قد قُضي، وها هي أُمّي معي، منذ لحظة وفاتها، منذ انتقالها، كما يقول البشر.

لقد استعادت الأمّ ابنها، واستعاد الابن أمّه، جسدًا ونفسًا، وبات أحدهما إلى جانب الآخر أبديًّا. آه! لو أدرك البشر روعة هذا السرّ!

أخيرًا اعترفوا به اعترافًا علنيًّا.

وإنّه لمن دواعي سروري، يقول اللّه، أن أرى آلائي موضع تقدير، مذ استشفّ الشعب المسيحيّ هذا السرّ الجمّ، سرّ حبّي البنويّ والأخويّ.

والآن، فلينعموا به أكثر، يقول اللّه.

فقد باتت لهم، في السماء، أُمٌّ تحبّهم بكلّ قلبها، قلبها البشريّ،

وهذه الأمّ هي أُمّي، التي ترمقني بالعينين ذاتيهما، وتحبّني بالقلب عينه.

فلو كان البشر فطنين، لاستفادوا من ذلك، إذ عليهم أن يدركوا أنّني لا أستطيع أن أرفض لها شيئًا...

كيف لا، فهي أُمّي، و أنا أردتها، و لستُ أشكو من ذلك.

فكلٌّ منّا إزاء الآخر، جسدًا ونفسًا، الأمّ وابنها،

إلى الأبد، أمٌّ وابنها.

٢ - مريم على درب الصليب

إنّي أُشفق على أُمّك المسكينة، يا ربّ!

فهي تتبع،

تتبعك،

وتتبع البشريّة على درب صليبها.

إِنّها تسير، تائهةً، وسط الحشود، مُغْفَلَةً، ولكنّ أَنظارها محدّقةٌ إِليك فلا تغيب عنها حركةٌ من حركاتك، أَو تنهيدةٌ من تنهيداتك، أَو ضربةٌ تصيبكَ، أَو جرحٌ من جراحك.

إِنّها محيطةٌ بآلامك

وتتألّم بآلامك.

وهي، إِن لم تدنُ منكَ،

وإِن لم تلمسكَ،

وإِن لم تكلّمكَ،

تخلّص العالم معك، يا ربّ!

إِنّني غالبًا ما أَختلط بالبشر، وأُواكبهم على درب صليبهم،

فيسحقني الأَلم،

ويوجعني عجزي عن خلاص العالم، فالعالم ثقيلٌ، ومغرقٌ في التعفّن. وكلّ يومٍ، أَكتشف، عند منعطف طريقٍ، مظالم جديدةً، ونجاساتٍ جديدةً.

فيا ربّ، أَرِني أُمَّك مريم،

تلك التي قد يراها العالم عديمة الجدوى،

ولكنّ اللّه يراها شريكةً في الفداء.

وساعدني على مواكبة البشر، حريصًا على تبيّن أَلمهم وخطاياهم،

وأَعنّي لكيلا أُغمض عينيّ، أَبدًا،

ولكيلا أُغلق، أَبدًا، قلبي، علّني، بتقبّلي أَلم العالم، أَتأَلّم أَيضًا،

وأَفتدي، على غرار مريم، أُمّك.

بيتي أودو

Bethy OUDOT

مثل ابنٍ تائهٍ

مثل ولدٍ ضائعٍ أُوكل ذاتي إِلى عنايتكِ،
أنا لكِ، يا مريم.
مثل ولدٍ رعديدٍ يخشى الذئب خشيةً كبرى،
أَبقى ملتصقًا بكِ، يا مريم.
مثل ولدٍ مدلّلٍ، لا حدّ لرغباته،
آتي إِليكِ، سائلاً، يا مريم.
مثل ولدٍ جريحٍ انهالت عليه الضربات،
أَلجأ إِليكِ، يا مريم.
مثل ولدٍ خجولٍ، راغبٍ في الانتصار،
أَودّ الانتصار معكِ، يا مريم.
مثل ولدٍ متعطّشٍ إِلى الطهر والجمال،
آتي كي أَتأمّلكِ، يا مريم.
مثل ولدٍ يبكي لأَنّه وقع أَرضًا،
أَنتظر غوثكِ، يا مريم.
مثل ولدٍ يبحث عن مكمن الحقيقة،
أَعلم أَنّكِ ستقودينني إِليها، يا مريم.
مثل ولدٍ يدفعه الفضول إِلى القراءة في نظر اللّه،
أَودّ أَن تكون لي عيناكِ، يا مريم.
ومثل فتًى صغيرٍ، يودّ المثول بين يدي أَبٍ عظيمٍ،
أَودّ أَن أُمسك بيدكِ، يا مريم.

آلان ليربريه (من مواليد ١٩٣٧)

Alain LERBRET

نشيد العذراء

يا اللّه، يا فرحي،
أَنت نسمة حياتي،
ونبع نشيدي،
وأَنت النار التي استولت عليّ.

يا اللّه، يا فرحي،
لقد جعلت من فقري
مسكن صمتك،
حيث يستطيع كلّ كائنٍ
عبادة سرّ حضورك.

يا اللّه، يا فرحي،
أَنت وحدك قدّوسٌ؛
حبّك قدوةٌ،
وفي يديك، يولد الكون.

يا اللّه، يا فرحي،
إِنّك تشتّت المتكبّرين،
كما تذرو الريحُ العصافةَ.
ولكنّك تعزّ البائسين معزّة أَبٍ لابنه.

يا اللّه، يا فرحي،
إِنّك تقلب الملوك، وتجرّد الميسورين،
ولكنّك تغدق عطاياك على الصغار،

الذين في قلبهم جوعٌ إِليك.

يا اللّه، يا فرحي،
إِنّك وفيٌّ لوعودك، أَمسِ واليوم،
لأَنّ حنانك بلا نهاية.

الكردينال إتشيغاراي

CARDINAL ETCHÉGARAY

سيّدة التطويبات

يا مريم العذراء القدّيسة،
أَنت تساعديننا على تقبّل عظة الجبل
تلك التطويبات التي يكثر الحديث عنها،
وقلّما تُمارَس،
لأَنّها تعاكس التيّار...

يا مريم العذراء القدّيسة،
إِنّك تساعديننا على أَن نصبح شعب الكلمة،
شعب الإِفخارستيّا، وشعب الرسالة.
ما جدوى حثّ الخطى، لمن لا يدري غاية مقصده،
وما جدوى مضاعفة الإِنتاج لمن لا يعرف المشاركة؟
ما نفع الفقراء في الاغتناء،
وما نفع الأَغنياء في الافتقار،
إِن لم يعرف هؤلاء وأولئك
أن يحيوا حياة المسيح؟

يا مريم العذراء القدّيسة،
إِنّك تلقّنين عالمًا يسوده المال،

سخاءً نظير سخائك،
ولعالمٍ كَلِفٍ بالبهرج والنفاق،
تظهرين شفافيّتك.

لعالمٍ مستهزئٍ قذرٍ
تقدّمين طهرك،
وتواجهين بالرقّة
عالم عنفٍ وحقدٍ

يا مريم العذراء القدّيسة
كان عليك أن تبتدعي، كلّ يومٍ،
أُسلوب قول «نَعَم» للّه،
وكان عليك أن تستأنفي، كلّ يومٍ،
سعيك إِلى اكتشاف اللّه في حياتك،
على نحوٍ لم تتوقّعيه.
فعلّمينا أَلاَّ نكون صفحةً أُنجز طبعها،
بل أن نكون صفحةً بيضاء
يدوّن فيها روح اللّه
ما يحقّقه من عظائم فينا.

جان پيير لومير (من مواليد ١٩٤٨)

Jean Pierre LEMAIRE

شاعرٌ فرنسيٌّ

١ – تقدمة يسوع إلى الهيكل

ما سيكون مصير هذا الطفل؟ وكم يبدو بعيدًا، وهو على أَيدينا التي تقدّمه لك!

سنقوم بتنشئته، وسيشبهنا، ولكن سيتجلّى فيه، أَيضًا، شبهك، ذلك الوجه المجهول، الذي قد يكون رهيبًا، والذي سيحرق أَقنعة القلوب.

أنا لا أَطلب أَن أُعفى من الأَلم، بل أَلتمس رؤية حصّتك فيه تنمو ببطء، وأَن أَنمو، أَنا، معها، في أَثناء المهمّة التي توكل إِلينا فيها العناية به، وما دام يوسف يحمينا.

إِنّني أَعرف أَنّك ستكلّمه، ذات يومٍ، ولن نعود نسمع. وسينفصل بصمتٍ، مثل ثمرةٍ ناضجةٍ. وحينئذٍ رسّخ في يقيننا أَنَّه سيجد، بمفرده، الطريق إِلى الهيكل.

٢ - الجلد

لقد شرعت الضربات الأولى تنهمر، والتلاميذ مضوا بحثًا عن ملجإٍ آمنٍ. ولكن دعني أَنا، على مقربةٍ منك، تحت المطر، في بيتٍ لا جدران فيه، حيث تستقبل جميع المُذَلّين والمهانين.

سيعود الآخرون لاسترجاع قميصٍ، أَو رأسٍ، أَو قلبٍ، هجروها كي ينجوا بأنفسهم من الضربات. لكن أَبقيني هنا، تحت مطر الازدراء الأَسود، أَبقيني معك، ومع السيوف السبعة التي تحرس قلبي.

جان ڤانييه

Jean VANIER

إِنّه ابن حاكم كندا الأَسبق. وُلد عام ١٩٢٨، واستهلّ حياته ضابطًا في البحريّة الكنديّة. ثمَّ حصل على شهادة دكتورا في الفلسفة، وعلّم الفلسفة في جامعة تورنتو، قبل أَن يهجر كلّ شيء، وينقطع للعناية بنفرٍ من المعاقين عقليًّا في فرنسا، حيث أَنشأ، عام ١٩٦٤، مؤسّسته «السفينة»، التي أَمست لها فروعٌ في مختلف بلدان العالم. ثمّ اشترك في تأسيس جماعة «إِيمانٍ ونور».

له العديد من المؤلّفات الروحيّة.

وجوه العذراء

١ - تمهيد

في الزمن المقرّر من التاريخ، تجسّد الكلمة، في قرية الناصرة، في الجليل. تجسّد

في جسد فتاةٍ تدعى مريم، كي يبثّ حياة الله، إذ إنّ الله مشاركة. وقد عاش حياة مشاركة القلوب هذه معها. عاشها، أوّلاً، في أحشائها، ثمّ بعد ولادته، عندما كان يتّكئ على قلبها، ويتغذّى منها. عاشها في الصغر والوهن.

كان حبّ مريم له ضروريًّا، مثلما كان حبّه ضروريًّا لمريم. فكلّ ولدٍ يكشف لأُمّه جمال الأُمومة وحنانها.

كلّ ما احتوته تلك المرأة من جمالٍ، وحبٍّ، ونورٍ، أتاها من الكلمة الذي أعدّها، واصطفاها، لكي يجد فيها مسكنًا، ويحيا في شراكةٍ معها.

ليس وجه مريم شيئًا بمعزلٍ عن وجه يسوع. وليس كيانها بشيءٍ بمنأًى عن كيان الكلمة، الذي تجسّد فيها.

والكلمة هو أبسط بني البشر وأصغرهم.

ابن البشر فقيرٌ، وخاضعٌ كلّيّةً للآب، لا يقول ولا يفعل إلاّ ما يوعز إليه الآب بقوله وفعله. فهو يحيا معه ملء المشاركة.

مدى ثلاثين عامًا عاش يسوع في الناصرة، كي يُظهر للرجال والنساء كيف يحيون متجذّرين في أرضٍ، وأُسرةٍ، وثقافةٍ، وإيمانٍ.

وقد عمل ابن البشر بيديه، وأكل، ونام، وصلّى، وأحبّ. كان قريبًا من جيرانه، مرحّبًا بهم، مفعمًا طيبةً، محقّقًا في كلّ شيءٍ، ومع كلٍّ منهم، شراكة القلوب، تلك الشراكة التي عاشها، أوّلاً، مع مريم ويوسف، والتي كانت تنبع من تواصله مع الآب.

ولذلك مريم هي أكثر النساء بساطةً وتواضعًا. إنّها تحبّ الأرض، والحياة اليوميّة. وكلّ ما تقوم به يُسفر عن الحبّ.

لا تتميّز مريم عن الآخرين، كفاءاتٍ وجمالاً. إنّها متواريةٌ، موقوفةٌ على يسوع. إنّها تعي أنّها ليست، بذاتها، شيئًا، وتريد أن يتحدّث الناس عن يسوع. إنّها توجّه دائمًا شطر النبع: «افعلوا ما يشير عليكم بفعله». إنّها تنشد: «تعظّم نفسي الربّ، وتبتهج روحي بالله مخلّصي، لأنّه نظر إلى حقارة أَمَته. أجل ستطوّبني جميع الأجيال بعد اليوم، لأنّ القدير صنع فيّ عظائم. قدّوسٌ هو اسمه».

إنّ يسوع ممتنٌّ لأُمّه التي منحته جسدًا مكّنه من التواصل معها ومع آخرين. وهو يريد أن يتكلّم الناس عنها، لأنّها مثالٌ لمن يرحّبون به، ويصغون إليه، ويرغبون في المشاركة والتواصل معه.

يودّ يسوع أن يذكرها الناس بصفتها امرأةً لم تقم بأيّ عملٍ خارقٍ، ولكنّها أَحبّت. والحبّ هو الحياة في تواصلٍ مع آخر، ومساعدته على النموّ. مريم تتمثّل بيسوع الذي جثا كي يغسل أرجلنا، ولكي نكبر في الحبّ، ونحذو حذوه.

إنّها تقدّم ذاتها للآب، من أجل كلّ أبنائها، أيّةً كانت ثقافتهم، وأيًّا كان دينهم، وأيّةً كانت كفاءاتهم وحدودهم: فكلّ كائنٍ بشريٍّ جميلٌ، لأنّه خليقة الله، ومخلوقٌ من أجل الله.

ومثلما كان يسوع قريبًا من الأشدّ وهنًا، وصغرًا، من المرضى والمعاقين، كذلك هي مريم. إنّها، في كلّ شيءٍ، وجه يسوع. ومثلما آتت يسوع عزاءً، بتواصلها وشراكتها معه، ساعة صلبه، هي، أبدًا، قريبةٌ من مصلوبي العالم، وتؤتي كلاًّ منهم العزاء.

ومع أنّ تأمّل وجه مريم عذبٌ، إلاّ أنّها لا تني تدعونا للتحديق إلى وجه ابنها، وهي ترسلنا، بلا انقطاعٍ، للإقامة على تواصلٍ مع الصغار والفقراء، ومتألّمي هذا العالم، الذين يكشفون لنا عن وجه يسوع اليوم. إنّه وجه فرحٍ، ولكنّه، أيضًا، وجهٌ مشوّهٌ لا رُواء فيه، ولا أَلَق.

رغبتها هي رغبة يسوع في أن يكون الجميع واحدًا، مثلما الآب والابن واحدٌ، وأن يحيا الجميع بالشراكة المتفجّرة من قلب الثالوث.

مفارقة مريم، هي مفارقة يسوع عينها، تتمثّل في كونها أوفر المخلوقات جمالاً، ونبلاً، ومجدًا، وهي، في الآن عينه، الأكثر امّحاءً، وبساطةً، وتواضعًا، وتجرّدًا، لأنّها تعلم أنّ كلّ شيءٍ يأتي من الكلمة الذي تأنّس فيها. وهي لا تني تؤكّد لنا: «يسوع يحبّك، مثلما يحبّني، وأنت مدعوٌّ إلى مواصلة عمل ابني، بمنح الحياة، وبالوقوف إلى جانب الفقراء، من أجل مجد الآب».

وليست مريم، فقط نموذجًا لبضع نساءٍ مزوّجاتٍ أو مكرّساتٍ، بل هيَ اليوم، حيّةٌ مع يسوع، مفعمةٌ عطفًا وطيبةً، حيال كلّ رجلٍ وكلّ امرأةٍ، أيًّا كان وضعهم،

وأَلمهم، ووحدتهم، وخطيئتهم، وجرحهم الكمين. وهي تبتغي مساعدة كلٍّ منهمٍ، كي يكتشفوا في أعماق ذاتهم، نبع كلّ حياةٍ، وحضور يسوع، فيزدادوا حياةً، ومحبّةً، وحرّيةً.

٢ – مريم أُمّ اللّه

لقد أَحبّ اللّه العالم حبًّا جمًّا بحيث أَرسل ابنه الحبيب، لا من أَجل محاكمته وإِدانته، بل من أَجل شفائه وخلاصه. أَرسله لكي يزوّد كلّ رجلٍ، وكلّ امرأةٍ، بحياة اللّه عينه، حياة مشاركةٍ ونورٍ تجمع الكلمة باللّه.

ولكي يلج ابن اللّه العالم كان في حاجةٍ إلى أُمٍّ تهبه جسده. وتجسّد الكلمة، وصار كائنًا بشريًّا صغيرًا، واهنًا، في أَحشاء امرأةٍ، هي مريم.

كان في حاجةٍ إِليها لكي تطعمه، وتُعنى به، فالطفل لا يقوى على تدبير أُموره بمفرده. ولكي ينمو، يحتاج الطفل، قبل أَيّ شيءٍ إلى الحبّ. نموّه مرهونٌ بهذا الحبّ. وفي حبّ الحنان هذا، يجد أَمانه وحياته.

وكانت مريم الأُمّ الحبيبة للكلمة المتجسّد، الكلمة الذي هو اللّه.

من المألوف أَن يسبق الآباء الأَبناء، وأَن يكون لهم أَبناء باختيارهم، ولكن لا يسعهم أَن يختاروا مصير ابنهم. غير أَنّه عندما تعلّق الأَمر بالكلمة المتجسّد، ابن اللّه، اللّه نفسه هو الذي اختار مريم مع يوسف، ليكونا له الأُمّ، والأَب المتبنّي.

لقد سبقهما، وصاغهما، وأَعدّهما لاستقباله: وصار اللّه طفلاً.

إِنّ فهم سرّ مريم في تاريخ العالم والخلاص، يقتضي التأمّل في هذا الإِله الذي أَمعن في التصاغر، والذي اتّخذ له جسدًا لكي يحبّ ويبذل ذاته، وينبغي تأمّله في أَحشاء تلك المرأَة التي أَصبحت أُمّه، وعلى ذراعَيْها.

٣ – زمن الانتظار

الحبّ والمشاركة لا يُفرَضان، ولا وجود لهما إِلاّ إِذا رُحِّب بهما طوعًا وحبًّا. هكذا، قبل أَن يتجسّد الكلمة، كان لا بدّ من أَن يطلب اللّه قلب امرأَةٍ، بواسطة الملاك جبرائيل.

وهي لم تدرك إدراكًا كاملاً السرّ الذي هبط عليها، ولكنّها، في النور والسلام اللّذين غلّفاها، لدى سماعها الملاك، أعلنت رضاها: «فليكن لي بحسب قولك».

تلك الفتاة كانت قد أُعدّت منذ بدء العالم، منذ خلق الرجل والمرأة، منذ ابراهيم. لقد تكوّنت في قلب الله، قبل أن تتكوّن في أحشاء أُمّها. وأُعدّت للاستجابة لهذه الدعوة، ولتصبح أُمّ ابن الآب الحبيب.

وكانت البشريّة، بحدْسٍ مُبهمٍ، تنتظر، جيلاً فجيلاً، لحظة مجيء الله إلى ما بيننا، كي ندرك أنّ الله هو أبٌ، وصديقٌ، وزوجٌ، وأنّه يحوّل العنف صفحًا، والحرب سلامًا. لقد كانت البشريّة تنتظر أمير السلام.

وفي لحظةٍ معيّنةٍ من التاريخ، تكوّنت تلك الفتاة، مريم. وفق التقليد، كان أبواها يُدعيان حنّة ويواكيم. وثمّة تقليدٌ آخر، أقرّته الكنيسة، يؤكّد أنّ تلك الفتاة قد كُوِّنت ممتلئةً بالله، ولم تقُمْ، قطّ، فيها، عقبةٌ دون الله. وعندما ترعرعت وضع الله في قلبها عطشًا إلى معرفة المسيح، عطشًا إلى اعتلانه في صميم شعبه، لكي يتقبّل الجميع المعاهدة الإلهيّة. ويقول القدّيس أُوغسطينُس إنّ العطش إلى الله المتلظّي في مريم، قد عجّل حلول الكلمة فيها.

٤ - زمن الفرح

جسد مريم يزدهر بالأُمومة. إنّها فَرحةٌ بالتواصل مع ثمرة أَحشائها، ومع يوسف زوجها. إنّها فرحةٌ بالحنان: تأمُّل عينَي ابنها الذي يتأمّلها، والعبث معه، والضحك معه، والغناء، والحديث، والمشاركة معه. كلّ شيءٍ فيها نعمةٌ ورقّةٌ.

كلّ شيءٍ فيها نبع تواصلٍ مع الله. فرح مريم هو تواصلها الكامل مع الله، ويقينها بأنّه يسهر عليها، ويحميها، ويقود خطاها. فرحها أنّ ثمرة أَحشائها هو، أيضًا، ملكها وإلهها. كلّ شيءٍ فيها موحَّدٌ: جسدها، وروحها، وقلبها، وعواطفها، وعقلها. إنّها تحيا، في آنٍ واحدٍ، سعادةً بشريّةً، وغبطةً إلهيّةً.

لقد عهدت مريم فرح القران الإلهيّ ووَجْدَه، لمّا تجسّد فيها الكلمة. وعهدت فرح الأَشهر التي كان فيها الولد ينمو داخلها، وكلّ جسده يتحوّل. وعهدت فرح الولادة عندما، للمرّة الأُولى، تأمّلت ولمست يسوع ابنها الحبيب، وابن الله. وعهدت فرح

السنوات التي قضتها مع يسوع، محبوبةً، مصانةً، محميّةً، يقود خطاها يوسف، والآب السماويّ.

فرح مريم هو فرح الثالوث نفسه. هذا الفرح كانت تحياه في البساطة والفقر، بين ظهراني فقراء القرية. لم تضطلع مريم بأيّ عملٍ مدهشٍ، بل قامت بالأعباء اليوميّة من طهوٍ، وترتيب المنزل، وغسل الثياب، والحياكة، والخياطة. كانت تستقبل الجيران بطيبةٍ، وتعبث مع أولاد القرية؛ تحيا في الإيمان. فيسوع يحاكي كلّ الأولاد؛ تحيا الحبّ وتواصل القلوب، فيسوع على جانبٍ كبيرٍ من الجمال والمحبّة! إنّها نموذجٌ لجميع الرجال والنساء الذين يسوقون حياةً عاديّةً، خفيّةً، في تواصلٍ مع يسوع.

٥ - زمن الانفصال

طيلة ثلاثين عامًا تذوّقت مريم فرح حضور ابنها، وتركته يصوغها، فكانت طليعة تلاميذه. ولكن في أثناء حجٍّ إلى أورشليم، اختفى يسوع مدّة ثلاثة أيّامٍ، فانتابها قلقٌ رهيبٌ. ثمّ كان الانفصال الذي أشار إليه يسوع، في عرس قانا، إذ قال لها: «ما لي ولك، يا امرأة!».

واستهلّ يسوع حياته العلنيّة، فعهدت مريم ضربًا من الفراغ أحدثه غياب يسوع. انفصاله الأخير، انفصال الموت، كانت قد سبقته شراكة ألمٍ كثيفةٌ.

كانت مريم واقفةً إلى جانب الصليب، في اتّحادٍ كاملٍ بيسوع، الذي كان مجرّدًا من كلّ شيءٍ خلا ذلك التواصل الكثيف مع أُمّه الذي كان يثلج صدره. كانت معه، تحمله في ثقتها وفي حبّها، مقدّمةً للآب ذاتها، معه. وهو قُبَيْل موته، وإتمامًا لرسالته حتّى النهاية، قال لأُمّه، وهو يرمق تلميذه الحبيب: «يا امرأة، هو ذا ابنك»، وقال ليوحنّا: «هذه أُمّك».

ثمّ مات يسوع، وكان الانفصال الأقصى. وسُجِّي جسده على ركبتَيْ أُمّه التي خبرت الفراغ والأسى، وعاشت لحظة ذلك الفراغ، مقدّمةً ذاتها للآب، تقدمة ثقةٍ كاملةٍ. لم تكن تقوى على الفهم، وخيّم عليها ليل إيمانٍ رهيبٌ. خبرت الانفصال الجسديّ عن يسوع، ولكن بقلبها وإيمانها، ظلّت معه، ومع دموعها.

وهي لنا القدوة، عندما تنتابنا الفواجع، ويبدو يسوع غائبًا.

٦ – زمن المجد

في يوم السبت المقدّس، كانت مريم تنتظر. كانت تتوقّع، بثقةٍ، أَن يفجّر اللّه الحياة ممّا عدّه البشر فشلاً. ولكنّها لا تعرف «كيف». وفي أَحد الفصح أَظهر يسوع ذاته لمريم المجدليّة، وظهر، أَيضًا، لتلاميذه، وقال لهم: «السلام لكم». ولكن لم يُذكر شيءٌ عن ظهوره لمريم، أُمّه الحبيبة. فيسوع قد تجلّى لها من الداخل، على نحوٍ خفيٍّ، فأُحيطت علمًا بالقيامة، بحضورٍ روحيٍّ، يحاكي الانخطاف: فلفّها صمت مجد اللّه.

المجد هو تجلّي اللّه، تجلّي جلاله، وقدرته، ونوره، وحبّه العذب المتواضع. وفي صباح الفصح، إِذ وهبها ابنها ذاته على نحوٍ قشيبٍ، امتلأت مريم بمجد اللّه.

في العنصرة تكلّم التلاميذ؛ ومريم رحّبت بالروح القدس، وبالبارقليط، في تأمّلٍ جديدٍ، أَكثر حبًّا وصمتًا. هي أَقامت في اللّه، واللّه أَقام فيها. إِنّها مسكن يسوع على الأَرض، في قلب الكنيسة. وسحابة تلك السنوات التي تنتظر فيها يوم المجد، رأَت الكنيسة تتّسع، ورأَتها تنازع. رأَت الإِفخارستيّا، ورأَت حضور يسوع في يوحنّا التلميذ الحبيب، وفي الصغار والفقراء. ورأَت حضور يسوع في الكنيسة.

موتها كان رقادًا عذبًا استيقظت منه على المجد. فجسدها انطلق كي يتّحد، إِلى الأَبد، بجسد ابنها الناهض من الموت، بجسده الممجّد، في نور الثالوث وفي حبّه.

إِنّها مع يسوع، تحفة الخليقة، التي تُعلن مجد اللّه. وهي، مع يسوع، مجد اللّه.

٧ – مريم والكنيسة

يسوع هو الكرمة، ونحن الأَغصان، كي نؤتي ثمرًا. ومريم متّحدةٌ بيسوع، الكرمة، اتّحادًا فريدًا. إِنّها في الكرمة، ومعها. وإِن كان يسوع يستخدمنا كي يمنح الحياة للبعض، فهو، بمريم، يهب الحياة للجميع.

من خلالها تعبر كلّ حياةٍ، وكلّ نعمةٍ، ولكنّ يسوع هو الذي يهب الحياة، بواسطتها، مثلما يهبها بواسطتنا. فيسوع يهب الحياة عبر آخرين. هذا هو فرح اللّه، وهذا هو تواضعه.

مريم أُمٌّ. إِنّها أُمّ الكلمة المتجسّد، أُمّ جسده المادّيّ، وأُمّ جسده السرّيّ، وأُمّ الكنيسة. وهي تحبّ أَبناء الآب أَجمعين. فهم، أَيضًا، أَبناؤها، إِخوة ابنها وأَخواته. إِنّها قريبةٌ من جميع مصلوبي الأَرض، كي تحملهم، وتعزّيهم، وتحبّهم، وتهبهم القوّة.

إِنّها تحبّ حبّ أُمٍّ، وأُختٍ، وصديقةٍ، وزوجةٍ، وابنةٍ.

إِنّها، تسهر علينا مع يسوع الذي وهبها للتلميذ الحبيب، ولكلٍّ منّا، قائلاً: «هذه هي أُمّك».

كيارا لوبيك

Chiara LUBICH

وُلدت في إِيطاليا عام ١٩٤٠. مؤسِّسة حركة «فوكولاري» ورئيستها. لها مؤلّفاتٌ عديدةٌ تتناول حوار الأَديان والحضارات، وقد استحقّت جائزة الأُونسكو عام١٩٩٦، والجائزة الأوروبّيّة لحقوق الإِنسان عام ١٩٩٨، توفّيت عام ٢٠٠٨.

مريم، شفافيّة الله

بين كلّ الأَقوال التي تلفّظ بها الآب، في خليقته،
ثمّة كلمةٌ واحدةٌ تتميّز تميّزًا فريدًا.
كلمةٌ لا يُلمّ بها الفهم بقدر ما يُلمّ بها الحدْس.
ليست سطوع الشمس الإِلهيّة،
بل هي غمامةٌ رقيقةٌ عذبةٌ،
غمامةٌ بيضاء خفيفةٌ،
تلطّف، في مسيرتها، نور الشمس
الذي لا تقوى على وهجه عيوننا.
كان في مخطّط العناية الإِلهيّة

أَن يتجسّد الكلمة.
كان على كلمةٍ، على الكلمة
أَن تدوَّن، على هذه الأَرض في لحمٍ ودمٍ،
وكان لا بدّ لهذه الكلمة من لوحةٍ.
وكانت الأَنغام السماويّة
راغبةً، رغبةً حارّةً،
في ترديد موسيقاها بين خيامنا،
حبًّا بنا، وكانت
في حاجةٍ إلى صمتٍ تدوّي في ثناياه.
من كان سيقود البشريّة
ويضفي على القرون السالفة معنًى،
ويضيء القرون القادمة ويجرّها في إِثره،
كان في حاجةٍ إلى شاشةٍ كلّيّةٍ
يتأَلّق عليها.
أَعظم المشاريع التي بوسع الله الحبّ تخيُّلها
لم يكن بدٌّ لأعظم المشاريع، من أَن تُرسم في خطوطٍ جليلةٍ، إِلهيّةٍ.
وكان لا بدّ لمجموعة أَلوان الفضائل من أَن تتجمّع في قلبٍ بشريٍّ
متأَهّبٍ لخدمته.
هذه الغمامة الرائعة، التي تحمل في ذاتها الشمس
تحلّها محلّها، وتجد ذاتها فيها،
هذه اللوحة النقيّة،
هذه الهوّة التي لا يُسبر لها غورٌ،
التي تحتوي الكلمة، المسيح،

وفيه تذوب،
نورًا في صميم النور،
صمتًا ساميًا لن يعرف بعد إلى الصمت سبيلاً،
إذ إنّ أَنغام الكلمة الإلهيّة
تنشد فيه،
وفيه تصبح،
النغمة بين الأَنغام،
النغمة الرئيسة في النشيد الخالق المتصاعد نحو الفردوس،
والزينة الجليلة الرائعة،
كالطبيعة،
حيث يتركّز الجمال المنثور، بسخاءٍ،
في عالم اللّه،
هذا العالم الموقوف على ابن اللّه،
الذي يذهل عن نفسه،
والذي لا نصيب له ولا مصلحة إلاّ في من كان سيأتي ومن أَتى،
من كان عليه أَن ينفّذ مهمّته، ومَن نفّذها فعلاً.
إنّ قوس قزح الفضائل هذا
الذي يبشّر العالم كلّه بالسلام
والذي أَعطى العالم السلام حقًّا،
هذا المخلوق الذي ابتدعه الثالوث،
في سرّه الذي لا يُسبر له غورٌ،
ومنحنا إيّاه،
هو مريم.

حميميّة حياة الناصرة

إِثر محنة غياب يسوع في الهيكل، عهدت مريم فترة حميميّةٍ أَليفةً وطويلةً مع يسوع، لن يكون بمكنة أَحدٍ في العالم، يومًا، تبيُّن عذوبتها الإِلهيّة وعمق غورها. ولن يكون بمكنة أَحدٍ إِدراك مدى ما انطوت عليه من عزاءٍ فائق الطبيعة. فقد بلغت العلاقة بينهما أَوج ما يمكن تصوُّره من سموٍّ وأُلوهةٍ، بعد العلاقة القائمة بين أَقانيم الثالوث المقدّس. ولا بدع في ذلك، فقد كانت علاقةً معقودةً بين الله، والعذراء المُصانة من كلّ دنسٍ.

المنحدرة من السماء

حبّ البشر لمريم حبٌّ كونيٌّ، لسببٍ بسيطٍ: مريم هي أُمٌّ.

الأَبناء، ولاسيّما الصغار منهم، لا يفهمون أُمّهم، ولكنّهم يحبّونها.

الأُمّ هي موضع حدْسٍ، أَكثر ممّا هي موضع تحليلٍ عقليٍّ. إِنّها شعرٌ أَكثر ممّا هي فلسفةٌ، لأَنّها راسخةٌ في الواقع، وقريبةٌ من القلب...

مريم ساجيةٌ كالطبيعة، طاهرةٌ، ساكنةٌ، ناصعةٌ. إِنّها تنطوي على التوازن والجمال الكامنين في الطبيعة النائية عن المدن، وفي القمم التي لم تُنتَهَك، في الحقول الشاسعة، في المحيطات، في السماء الخالية من الغيوم والمتلأْلئة بالنجوم. إِنّها قوّةٌ ومنعةٌ، نظامٌ ووفاءٌ ومثابرةٌ. إِنّها زاخرةٌ بالرجاء، ففيها الحياة تتجدّد باطّرادٍ، وتجود بعطاءٍ دائمٍ، تزدان بسحر الزهور الرقيق، وتفيض بسخاء الثمار الوفير.

مريم ممعنةٌ في البساطة والقرب منّا، بحيث يتعذّر علينا تأمّلها.

القلوب الطاهرة المحبّة تنشد لها، وبذلك تعبّر عن خير ما فيها. إِنّ مريم تأْتي إِلى الأَرض بالإِلهيّ. إِنّها تحاكي منزلقًا ليّنًا ينحدر من أَعالي السماء الشامخة إِلى صِغَر الخلائق اللامحدود. إِنّها أُمّ الجميع، وأُمّ كلّ فردٍ، وهي وحدها تجيد محادثة ابنها محادثة أُمٍّ لطفلها. وهو، مع كلّ صغره، يجيد تذوّق مداعبتها، والردّ على حبّ أُمّه بحبّه لها.

إنّنا عاجزون عن فهم مريم بسبب قربها الوثيق منّا. هي التي أَعدّها الله الأَبديّ كي تبلّغ البشر النِعَم، مواهب ابنها الثمينة، تقف إلى جانبنا، منتظرةً، بلا انقطاعٍ، أَن نعي نظرتها إلينا، وأَن نتقبّل عطاياها النفيسة.

وإن ما توفّق أَحدٌ إلى فهمها، فهي تمضي به إلى ملكوت سلامها، حيث يسوع يملك، وحيث الروح القدس هو تنفّس السماء.

وهناك، بعد أَن نتطهّر من شوائبنا، ونتحرّر من ظلماتنا، سنتأمّلها، وسنتذوّقها، وفضلاً عن ذلك ننعم بالفردوس.

فلنجهد، ونحن على الأَرض، كي نستأهل دعوتها إلى اتّباع نهجها. وهكذا ننعتق من ضيق الفكر، ومن حبٍّ هو مجرّد توسّلٍ، والتماسٍ، وطلباتٍ، ومصلحةٍ. وعندما نفلح في الإِحاطة بها قليلاً، سنتمكّن من تمجيدها.

عندما حان ملء الزمان، وأَوان الإِزهار، تحققّت الوحدة بين السماء والأَرض واقترن الروح القدس بمريم.

لدينا إِذن، زهرةٌ وحيدةٌ هي مريم، وثمرةٌ وحيدةٌ هي يسوع. غير أَنّ مريم، مع فرادتها، تجمع، في ذاتها، شمل الخليقة جمعاء في أَوج جمالها، بصفتها قرينة خالقها.

اليوم أَدركتُ أَنّ البشريّة تزهر في مريم. مريم هي زهرة البشريّة. إِنّها البريئة من الدنس، وزهرة البشريّة المدنّسة.

البشريّة الخاطئة أَزهرت في مريم، الكلّيّة البهاء.

ومثلما تدين الزهرة الحمراء للنبتة الخضراء، ولجذورها، وللسماء التي تسهم جميعها في إِزهارها، كذلك مريم تدين لنا نحن الخطأة، لأَنّنا أَجبرنا الله على تخيّل مريم.

نحن ندين لها بالخلاص، وهي مدينةٌ لنا بحياتها.

ما أَجملها مريم! إِنّها الخليقة التي تجعل من ذاتها زهرةً، الخليقة التي تتجلّى جمالاً. الخليقة المزهرة بأَجمعها هي مريم، مثل شجرةٍ مزهرةٍ. ومن عليائه كَلِف الله

بحبّ زهرة الأَزاهير هذه، ولقّحها بالروح القدس، وحينئذٍ وهبت مريم السماء والأَرض ثمرة الثمار يسوع.

لكي يهبط اللّه من السماء كان عليه أَن يتخيّل مريم. ما كان ليهبط في صلب الخطيئة. ولذلك ابتدع، مريم، التي اختزلتْ في ذاتها كلّ جمال الخليقة، ففتنت اللّه، واجتذبته إلى الأَرض.

غير أَنّها زهرة البشريّة، وبعد أَن استدعت اللّه إلى ذاتها، استقدمته إلى البشريّة، فهي مدينةٌ لها بحياتها.

حينئذٍ رفعتُ عينيّ، وشاهدت تمثالاً رائع الجمال لأُمّي. وأَدركت أَنّها ليست سوى كلمة اللّه. ورأيت أَنّ جمالها رائعٌ يستعصي على الوصف. فهي متّشحةٌ كلّيّةً بكلمة اللّه التي هي سنى الآب، وهي الحارسة الكتوم للروح القدس القاطن فيها.

وحالما شرعتُ أُحبّها، أَحبّتني، وأَظهرت لي، في وضوحٍ سماويٍّ، جمال كونها أُمّ اللّه اللامحدود. في الخارج كانت السماء تصطبغ بزرقةٍ لم أَشهد لها نظيرًا، قطّ. وحينئذٍ أَدركت أَنّ السماء تحتوي الشمس. ومريم تحتوي اللّه، واللّه أَحبّها بحيث جعل منها أُمّه، وتنازل حبّه أَمامها.

لقد كانت أَمامنا كاملةً، غير أَنّها قابلةٌ لاكتمالٍ مطّردٍ، لأَنّ الروح القدس فيها لا يني ينمو.

لم يكن بمكنة يسوع إلاّ تنفيذ مشيئة أبيه، وما كان بوسعه تنفيذ مشيئة أُمّه لو لم تكن متطابقةً مع مشيئة الآب.

باب السماء

مريم، أَيضًا، في فجيعتها، تحمل جرحًا أَشرعه في قلبها تخلّي يسوع: «يا امرأة هو ذا ابنك!»...

من خلال هذا الجرح ولج يوحنّا، ومعه البشريّة كلّها. ودخل البشر إِلى أَحشاء مريم الفائقة الطهر، التي ولدت ابن اللّه، لكي يتأَلّهوا في مريم.

إنّها باب السماء. ولا يسع المرء أن يكون مسيحيًّا ما لم يكن مريميًّا. وليس بمكنته أن يكون مؤلَّهًا ما لم يكن معصومًا من الدنس.

لا يمكن المضيّ إلى يسوع إلاّ عبر مريم. ولا يمكن امتلاك يسوع، في معاناته التخلّي، إلاّ مرورًا بمريم المفجوعة.

هنري كافريل

Henri CAFFAREL

هنري كافاريل كاهنٌ فرنسيٌّ، من مواليد ١٩٠٣، انصرف، منذ سيامته إلى خدمة الأُسَر. وقد أسّس،في هذا السبيل، مجلّة «الخاتم الذهبيّ»، وفِرَق السيّدة العذراء. وصفه الكردينال لوستيجيه بأنّه «نبيّ القرن العشرين».

هذا الطفل القادم من مكانٍ آخر

«يرمق يوسف ومريم الطفل الغافي، فيدركان أنّ نظام الأَشياء قد انقلب. فوفق نظام الأشياء، يرغب الوالدان في الطفل، ويقرّران مجيئه. ولكنّه، هو، اختار أباه وأُمّه.

منذ الأَزل، فكّر الأَب السماويّ بهذا الطفل: من أَجله أُبدعت العوالم، من أَجله تكلّم الأَنبياء، من أَجله اجتُذب أبواه نحو البتوليّة والزواج. نورٌ عظيمٌ يغمرهما كليهما، ولا حدود لآيات شكرهما. فهل من شأن شعورٍ أَو يقينٍ أَن يؤتي سعادةً أَعظم، وأَن يجعل الصلاة أَعمق عبادةً، من الشعور واليقين باختيار اللّه؟ وهل ثمّة، مبعث دهشةٍ للأَبوين أَكبر من أَن يختارهما طفلهما؟ وفي حين أَنّ على الولد، لدى سائر البشر، أَن يدين بحياته لوالديه، ها إِنّ مريم ويوسف يؤدّيان واجبات الشكر لطفلهما، وللّه أَبيه.

بل ثمّة ما هو أَعظم: فهذا الطفل القادم من مكانٍ آخرٍ، قد أُوكل إِليهما، وها إِنّ نظام الكون يستعيد سياقه، ولكن على نحوٍ فريدٍ، من جرّاء منشإ يسوع الفائق الطبيعة. فلو شاء اللّه لما احتاج المسيح إِلى حمايةٍ بشريّةٍ: إِذ كان بوسعه أَن يظهر

وهو إنسانٌ ناضجٌ، أو أن يمتلك دفعةً واحدةً، معارف معجزةً، أو أن يُحاط بمواكبةٍ ملائكيّةٍ. ولكن لم يكن ليسوع أيّةٌ من تلك الامتيازات، بل اعتمد على والديه لتلقّي المعرفة البشريّة، ولوقاية طفولته ودعم شبابه، وللظفر بتربيةٍ تجعل منه إنسان زمنٍ، وبيئةٍ، وجنسٍ، ودينٍ. ولكأنّ الله تنازل، لصالح يوسف ومريم، عن حقوقه على الطفل، واثقًا بهما. لقد خلقهما، وألهمهما، واقتادهما، وقدّسهما من أجل هذه المهمّة، وأوكل إليهما مهامّ أُبوّته.

لقد كان يسوع لهما «عطيّةً» حقّةً، عطيّةً لزواجهما، ولحبّهما. وكانت تلك فرصةً ليوسف ومريم كي يزدادا إيمانًا بزواجهما، فاكتسب اتّحادهما تضامنًا قشيبًا، وفيما كانا يرنوان إلى الوليد، ويُنصتان إلى تنفّسه الهادئ، كانا، تلقائيًّا، يمعنان التصاقًا أحدهما بالآخر، شاهدَيْن على ما يجمع نفسَيْهما من تقاربٍ جديدٍ. وإن كان يسوع، بحضوره بين كائنَيْن، يُكْسِب اتّحادهما وثوقًا، فكم هو، بالحريّ، وثّق، في ذلك المساء، الأواصر بين ذلك الرجل وتلك المرأة اللّذين يحبّانه، ويحبّ أحدهما الآخر، فيه!

الكردينال شارل جورنيه (+ ١٩٦٥)

Cardinal Charles JOURNET

فلنرَ بعيني مريم

«إنّني لعلى قناعةٍ مطلقةٍ بأنّ الرعاة، لمّا وافوا إلى المغارة، لم يمضوا مباشرةً لرؤية الطفل يسوع، بل بدأوا بالتحديق إلى مريم العذراء، وإلى عينيها، ثمّ أرتهم ابنها، فرنوا إليه بعينيها.

«فاجهدوا في تأمّل أسرار الإنجيل بعيني العذراء.

قد تُعمِلون الفكر في موت المسيح على الصليب، ويُخيّل إليكم أنّكم نفذتم إلى أعماق هذا السرّ. حينئذٍ تساءلوا: بأيّة عينين شاهدت العذراء ابنها مصلوبًا؟ وتضرّعوا إليها: «هبيني أن أفهم مثلما أنتِ فهمتِ».

... إنّ العذراء تلفّكم بمعطفها لكي تساعدكم على تأمّل كلّ الأسرار بأنظارها».

صلوات إِلى أُمّ اللّه

١ – للقدّيس أفرام

أَيّتها العذراء المنزّهة من الدنس، والكلّيّة الطهر، يا مريم، أُمّ اللّه، ومليكة الكون، يا سيّدتنا الفائقة الرأفة، لقد سموتِ فوق جميع القدّيسين، وكنتِ رجاء الآباء الوحيد، وفرح الأَبرار. بكِ تصالحنا مع اللّه. أَنتِ محامية الخطأة الوحيدة، ومرفأ الغرقى الآمن. أَنتِ عزاء العالم، وفدية الأَسرى، وفرح المرضى، وسلوى المفجوعين، وخلاص العالم أَجمع.

أَيّتها الأَميرة العظيمة، يا أَمّ العليّ، لفّينا بأَجنحة رحمتك، وارأفي بنا. أَيّتها العذراء الكلّيّة الطهر، ليس من نستطيع الثقة به سواكِ. نحن خاصّتك، ومكرّسون لتكريمك، ومدعوّون خدّامًا لكِ، فلا تسمحي بأن يزجّ بنا إِبليس في جهنّم.

أَيّتها العذراء المعصومة من الدنس، نحن تحت حمايتك؛ ولذلك لا نلوذ إِلاّ بكِ، متوسّلين أَلاّ تدعي ابنك الإِلهيّ، وقد أَغضبته آثامنا، يسلمنا إِلى سلطة إِبليس.

ويا ممتلئة نعمةً، أَنيري ذهني، وأَطلقي لساني، للإِشادة بمدائحكِ، خاصّة لكي أُردّد، مع الملاك، هذا النشيد اللائق بكِ: أُحيّيكِ، يا سلام العالم كلّه، وفرحه، وعزاءه. أُحيّيكِ، يا أَعظم معجزةٍ ظهرت في العالم، يا فردوس النعيم، أَيّها الملجأ الآمن لكلّ من يواجه خطرًا، يا منبع النِعَم، والوسيطة بين اللّه والبشر.

٢ – للقدّيس برنار

إِنّنا نرفع أَبصارنا نحوكِ، يا ملكة العالم! فعلينا أَن نمثل أَمام الديّان مثقلين بالخطايا. ومن عساه يهدّئ غضبه! لا يقوى أَحدٌ على ذلك سواكِ، أَيّتها العذراء القدّوسة، فقد أَحببتِه حبًّا جمًّا، وهو أَحبّكِ حبًّا رقيقًا. فافتحي آذان قلبك، يا أُمّ الرحمة، لتنهّداتنا ولصلواتنا. إِنّنا نلتجئ إِلى حمايتكِ، فهدّئي سخط ابنكِ،

واظفري لنا بصفحه ورضاه. فأنتِ لا تشمئزّين من خاطئٍ، مهما كان مريعًا، ولا تزدرين التأوّهات التي يصعّدها نحوكِ، عندما يتوب توبةً صادقةً، ويلتمس شفاعتكِ. يدكِ الحنون تنقذه من القنوط، وتنعش فيه الثقة، وتشدّده، فلا تتخلّي عنه حتّى يتصالح مع ديّانه.

أنت المرأة الوحيدة التي استكان إليها المخلّص، وأودعها كنوزه كلّها، بلا تحفّظٍ. ولذلك، يا مليكتي القدّيسة، يكرّم الكون كلّه حشاكِ الطاهر بصفته هيكل الله، والمعبد الذي انطلق منه خلاص العالم: فيه تحقّقت المصالحة بين الله والإنسان.

أنتِ، يا أُمّ الله الجليلة، البستان الموصد الذي لم تمتدّ إليه، قطّ، يد الخاطئ كي تقتطف زهرته. أنتِ الحديقة الجميلة حيث غرس الله كلّ الأزاهير التي تزيّن الكنيسة، حيث نتأمّل، في ما نتأمّل، بنفسج تواضعكِ، وزنبق طهركِ، وورد محبّتكِ. بأيّ شيءٍ جديرٍ بكِ نشبّهكِ، يا أُمّ النعمة والبهاء؟ أنتِ فردوس الله. منكِ انبثق نبع الماء الحيّ الذي يروي الأرض كلّها. آه! كم أحسنتِ إلى العالم، عندما استأهلتِ أن تصبحي القناة التي تفيض خلاصًا.

عنكِ كُتِب: «من هي هذه التي تشرق كالفجر، بهيّةً كالقمر، متألّقةً كالشمس؟» أَنتِ، إذن، يا مريم، مثل فجر رائعٍ، جئت العالم، كي تعلني، بتألّق قداستكِ، شروق شمس العدل. اليوم الذي ظهرتِ فيه على الأرض، يُمكن أن يُدعى يوم خلاصٍ، ويوم نعمةٍ. أَنتِ بهيّةٌ كالقمر: فليس، بين الكواكب، ما يشبه الشمس مثله. وبين الخلائق كلّها، ليس من يشبه الله أكثر منكِ. بفضل ما يتلقّاه من نور الشمس، يتجلّى القمر مصباحًا للّيالي. وأَنتِ إذ تشعّين بكلّ سنى فضائلكِ، تبدّدين الظلمات التي تلفّنا. غير أَنّكِ أجمل من القمر، إذ ليس فيكِ لوثةٌ ولا ظلٌّ... «أَنتِ مختارةٌ كالشمس»، أَعني بالشمس ذاك الذي خلق شمسنا، فهو يتألّق بين الرجال أجمعين، وأَنتِ تتألّقين بين النساء قاطبةً.

أَيّتها الرقيقة، أَيّتها العظيمة، يا مريم الجديرة بكلّ حبّ، كلّ قلبٍ يتلفّظ باسمكِ، لا بدّ له من أن يضطرم حبًّا لكِ. والذين يحبّونكِ، كلّما أجالوا الفكر فيكِ، يشعرون أَنّهم يزدادون لكِ حبًّا. فيا أَيّتها الملكة القدّيسة، اعضدي ضعفنا. فمن يستطيع أن يكلّم ربّنا يسوع المسيح خيرًا منكِ؟ فأَنتِ تتيحين تذوّق عذوبة محادثته الحميمة. فتكلّمي، تكلّمي يا سيّدتنا، إنّ ابنكِ يصغي إليك، وأَنتِ تنالين منه كلّ ما تطلبين.

٣ – للقدّيس جرمانُس القسطنطينيّ

يا مليكتي، أَنتِ العزاء الوحيد الذي أَتلقّاه من اللّٰه، والندى السماويّ الوحيد الكفيل بتلطيف مضايقي؛ أَنت نور نفسي، عندما تحيق بها الظلمات؛ أَنت دليل أَسفاري، وقوّة ضعفي، وكنز فقري، ومرهم جراحي، وعزاء آلامي. أَنتِ ملجإِي في المحن، ورجاء خلاصي. فاستجيبي لصلواتي، وارأفي بي، كما يليق بأُمّ إِلهٍ يحبّ البشر حبًّا جمًّا.

هبيني كلّ ما أَطلبه منك، أَيّتها الذائدة عن حياضنا، ويا فرحنا. واجعليني أَهلاً للتمتّع بالسعادة الكبرى التي تنعمين بها في السماء. أَجل، يا ملكتي، وملجإِي، وحياتي، وعوني، وحمايتي، وقوّتي، وبهجتي، ورجائي، اقبليني إِلى جانبك في السماء. إِنّني أَعلم أَنّك، بصفتك أُمّ اللّٰه، بوسعك أَن تظفري لي بهذه السعادة إِن شئتِ.

يا مريم، أَنتِ كلّيّة القدرة على خلاص الخطأة. ولا تحتاج صلاتك إِلى أَيّ دعمٍ، بما أَنّكِ أُمّ الحياة الحقّة.

٤ – كاهن سِلّ، الملقّب بالأَحمق (L'Abbé de CELLES, surnommé l'IDIOT)

أَيّتها العذراء مريم، اجتذبيني في إِثركِ، وليجعلني شذا عطرك أَسعى في خطاكِ. اجتذبيني، فإِنّي أَشعر أَنّني مقيّدٌ بوقر خطاياي، وبخبث أَعدائي. ومثلما لا يأتي أَحدٌ إِلى ابنك، إِن لم يجتذبه الآب، أَتجرّأ على القول، أَيضًا، إِنّ لا أَحد يأتي إِليه، ما لم تجتذبه صلواتكِ. فأَنتِ تلقّنين الحكمة الحقيقيّة، وأَنتِ من ينال للخطأة النعمة، إِذ إِنّكِ محاميتهم، وأَنتِ تعدين بالمجد من يكرّمونكِ، إِذ إِنّكِ كنز اللّٰه؛ والقيّمة على النِعَم.

أَيّتها العذراء المفعمة عذوبةً، لقد وجدتِ حظوةً لدى اللّٰه الذي صانكِ من اللوثة الأَصليّة، وملأَكِ بالروح القدس، وجعلكِ تحملين ابنه. وهذه النِعَم جميعها لم تناليها من أَجلكِ فقط، بل من أَجلنا، أَيضًا، لكي تعينينا في كلّ احتياجاتنا. وهذا ما تقومين به فعلاً، إِذ إِنّكِ تعينين الصالحين بحفظهم في حال النعمة، وتعينين الأَشرار، بإِعادتهم إِلى عرش الرحمة الإِلهيّة. وتعينين المحتضرين، بوقايتهم من شباك إِبليس،

وتساعدينهم، بعد موتهم، أيضًا، فترحّبين بنفوسهم، وتقتادينها إلى مسكن القدّيسين.

٥ – للقدّيس ميتوديُس

اسمكِ، يا أُمّ اللّه، مليءٌ بكلّ النعم والبركات الإلهيّة. لقد حويتِ، في ذاتكِ، من لا يحتويه أيّ مدًى، وغذّيتِ من يغذّي جميع الكائنات. إنّ مالئ السماء والأرض، وسيّد الكون، قد ارتضى أن يحتاج إليكِ، فأنتِ ألبسته ثوب الجسد الذي لم يكن يمتلكه من قبل. ابتهجي، يا أُمّ اللّه وأَمَته. وانتصري، فالذي يمنح كلّ الخلائق الكيان مدينٌ لكِ. نحن مدينون للّه، وأنتِ، وحدكِ، يدين لها اللّه. إنّكِ تفوقين جميع القدّيسين عطفًا ومحبّةً، وفوق كلّ شيءٍ، بلوغ الربّ في السماء متاحٌ لكِ، بما أنّكِ أُمُّه.

فيا أُمّ اللّه الفائقة القداسة، نتوسّل إليكِ، نحن المشيدين بأمجادكِ، والمقرّين بمدى عطفكِ، تنازلي فاذكرينا، ولا تذهلي عن بؤسنا.

٦ – للقدّيس يوحنّا الدمشقيّ

أُحيّيكِ، يا مريم، يا رجاء المسيحيّين. تقبّلي توسُّل خاطئٍ يكرّمكِ تكريمًا فريدًا، ويبني عليكِ رجاء خلاصه. إنّني، منكِ، أستمدّ الحياة، وبقدرتكِ أن تستعيدي لي نعمة ابنكِ. أنتِ عربون خلاصي الأكيد. فأتوسّل إليكِ أن تعتقيني من عبء خطاياي. بدّدي ظلمات فكري، وادرأي هجمات أعدائي. وتولّي إدارة حياتي بحيث أتمكّن، بعونكِ، وتحت قيادتكِ، من بلوغ سعادة السماء.

٧ – للقدّيس إيلديفونس

إنّي آتي إليكِ، يا أُمّ اللّه، متوسّلاً أن تنالي لي غفران خطاياي، والتطهّر من كلّ زلاّت حياتي. وأطلب منكِ نعمة الاتّحاد، قلبيًّا، بابنكِ وبكِ: بابنكِ، بصفته إلهي، وبكِ، بصفتكِ أُمّ إلهي.

٨ – للقدّيس أندراوس الكريتيّ

«السلام عليكِ يا ممتلئة نعمةً، الربّ معك». السلام عليك، يا أَداة بهجتنا، فبكِ حُكم دينونتنا نُقِض، واستُعيض عنه بحكم بركةٍ. السلام عليكِ، يا هيكل مجد الله، ويا مقرًّا مقدّسًا لملك السماوات. أَنتِ مصالحة الله مع البشر... السلام عليكِ يا أُمّ فرحنا. إِنّك، حقًّا مباركةٌ، إذ إِنّكِ، وحدكِ بين النساء، وُجدتِ جديرةً بأَن تكوني أُمّ الخالق. وجميع الأُمم تغبطكِ.

يا مريم، إِن وضعتُ ثقتي فيكِ، خلصتُ؛ وإِن كنت تحت حمايتكِ، لما خشيت شيئًا؛ فكلّ من يكرّس ذاته لتكريمكِ، يمتلك بذلك سلاحًا يضمن خلاصه، لا يهبه الله إِلاّ لمن يبتغي تتويجهم.

يا أُمّ الرحمة، لطّفي غضب ابنكِ الإِلهيّ. عندما كنتِ على الأَرض، ما كنتِ تحتلّين منها سوى جزءٍ يسيرٍ؛ أَمّا الآن، وقد ارتقيتِ إلى أَعالي السماوات، فالجميع يعدّونكِ كفّارةً شاملةً لجميع الأُمم. فنتوسّل إِليكِ، أَيّتها العذراء القدّيسة، أَن تمنحينا عون صلواتكِ لدى الله، فهذه الصلوات هي أَغلى وأَثمن من كلّ كنوز الأَرض، لأَنّها تكسبنا رضى الربّ، وغفران خطايانا، وفيضًا من النعَم التي تؤهّلنا لممارسة الفضائل، ولأَنّها تصدّ أَعداءنا، وتُفشل مخطّطاتهم، وتتغلّب على محاولاتهم.

٩ – للقدّيس أنسيلم

أَيّتها الملكة الفائقة القداسة، بحقّ الحظوة التي رقّاك بها الله إلى العلى، وجعل لكِ كلّ شيءٍ ممكنًا بمنحكِ قدرته، نتوسّل إِليكِ أَن تستخدمي ملء النعمة التي استحققتِها لإِشراكنا في مجدكِ. أَيّتها الملكة الفائقة الرحمة، اعملي على تمتّعنا بالسعادة التي، في سبيلها، شاء الله أَن يتأَنّس في أَحشائكِ الطاهرة. وأَعيري أُذنًا عطوفًا لتضرّعاتنا.

إِن تنازلتِ ودعوتِ ابنكِ من أَجلنا، فهو سيلبّيكِ في الحال. حسبُكِ أَن تريدي خلاصنا، كي يصبح هلاكنا مستحيلاً. وهل من يقوى على حبْس أَحشاء رحمتكِ! وإِن لم ترأَفي بنا، يا أُمّ الرحمة، فما عسى يحلّ بنا، عندما نمثل أَمام محكمة ابنكِ؟

أَغيثينا، إِذن، أَيّتها العذراء الممتلئة رحمةً، أَغيثينا، وأَغضي عن كثرة خطايانا. واذكري أَنّ خالقنا اتّخذ منكِ جسدًا بشريًّا، لا لكي يدين الخطأة، بل لكي يخلّصهم. لو كانت مصلحتكِ الشخصيّة هي غاية ترقيتك إلى الأُمومة الإلهيّة، لحقّ لكِ أَلاّ تبالي بخلاصنا أَو بهلاكنا. وما جدوى ما أوتيت من سلطانٍ ومن مجدٍ، إِن لم تشركينا في سعادتكِ؟

اعضدينا، إذن، واحمينا. وانظري إلى حاجتنا إلى عونكِ. إِنّنا نودع ذواتنا بين يديكِ، فاحرصي على وقايتنا من الهلاك الأَبديّ، وساعدينا كي نخدم ونحبّ، أَبديًّا، ابنكِ الإِلهيّ، يسوع.

١٠ – للقدّيس پيير داميان

أَيّتها العذراء القدّيسة، يا أُمّ الله! أَغيثي من يلتمسون عونكِ، والتفتي نحونا. أَيُعقَل أَن تنسي البشر، بعد أَن أوتيتِ شيئًا من الأُلوهة؟ كلاّ، بالتأكيد. أَنتِ لا تجهلين المخاطر التي ما زلنا نواجهها، ولا بؤس عبوديّاتنا. ولا يليق برحمةٍ في مثل عظمة رحمتكِ أَن تذهل عن بؤسٍ في مثل عمق بؤسنا.

التفتي، إذن إِلينا، بما أُوتيتِ من سلطانٍ، بما أَنّ القدير قد حباكِ قدرةً كلّيّةً في السماء وعلى الأَرض. لا شيء يستحيل على قدرتكِ، بحيث يسعكِ أَن تعيدي إلى اليائسين رجاء خلاصهم. وبقدر ما أَنتِ قديرةٌ يتحتّم عليكِ أَن تكوني رحيمةً.

وليدفعكِ، أَيضًا، حنانكِ، إلى الالتفات نحونا. إِنّني أَعلم، يا سيّدتي، أَنّكِ ممتلئةٌ عطفًا، وأَنّ الحبّ الذي تحيطيننا به لا يمكن أَن يتفوّق عليه حبٌّ آخر. فلكم أَطفأتِ غضب الديّان، عندما كان يهمّ بإيقاع ضرباته! إِنّ جميع كنوز رحمة الله هي بين يديكِ، فلا تحبسي فيض إِحسانكِ. أَنتِ لا تلتمسين سوى فرصة خلاص البائسين، ودفق ندى رحمتكِ عليهم. فمجدُكِ يتعاظم كلّما ظفر التائبون بالغفران أَوّلاً، بواسطتكِ، ثمّ بدخول الفردوس.

فحدّقي إِلينا بأَنظار عطفكِ، علّنا نشخص إلى السماء كي ننعم بحضوركِ، فإِنّ أَعظم مجدٍ نتطلّع إِليه هو أَن نراكِ، ونحبّكِ. ونحيا في ظلّ حمايتكِ!

فاستجيبي لنا، إِذ إِنّ ابنكِ، الحريص على تكريمكِ، لا يردّ لكِ طلبًا.

١١ – للقدّيس أَلفونس دي ليغوري

ليت لي قلبًا يقوى على حبّكِ عن جميع البائسين الذين لا يحبّونكِ! وليت لي لسانًا قادرًا على مديحكِ بقدر أَلف لسانٍ، لكي أُحيط الجميع علمًا بعظمتكِ، وقداستكِ، ورحمتكِ، ومدى حبّكِ لمن يحبّونكِ!

صلاة

يا مريم، يا أُمّي الكلّيّة القداسة، كيف يمكن أَن أَكون على هذا المقدار من الفساد، وأَنا لي أُمٌّ فائقة القداسة؛ وأَن أَكون ممعنًا في تعلّقي بالخلائق، ولي أُمٌّ ملتهبةٌ حبًّا للّه؛ وأَن أَكون مجرّدًا من الفضائل، ولي أُمٌّ غنيّةٌ بها، مثلكِ.

أَوّاه، يا أُمّي المحبوبة، من المحقّق أَنّني لا أَستحقّ أَن أُدعى لك ابنًا، فضلال حياتي جعلني غير جديرٍ بذلك. وكم سأَسعد إِن تنازلتِ وقبلتِني في عداد خدّامك. سأَتخلّى، طوعًا، عن كلّ ممالك الأَرض كي أُعَدّ واحدًا من أَصغر خدّامك. أَجل، كم سأَسعد إِن منحتني هذه النعمة! ولكن لا تحرميني نعمة تسميتكِ أُمّي. فهذا الاسم يعزّيني، ويثلج صدري، ويذكّرني بواجب حبّك، ويلهمني ثقةً كبرى بكِ. فعندما تملأني ذكرى خطاياي والعدالة الإِلهيّة جزعًا، يعيد إِليّ يقين أَنّكِ أُمّي العزيمة والطمأنينة. اسمحي لي، إِذن، أَن أَقول لكِ: يا أُمّي، يا أُمّي الجديرة بكلّ حبّ! هكذا أَدعوكِ وأَودّ أَن أَدعوكِ أَبدًا. فبعد اللّه، أَنتِ وحدكِ، في كلّ وقتٍ، وفي وادي الدموع هذا، رجائي، وملجإِي، وحبّي. وأَرجو أَن أَموت، تحدوني هذه العواطف، وأَن أُودع نفسي بين يديكِ المباركتين، لافظًا أَنفاسي الأَخيرة، مردّدًا: يا مريم أُمّي، يا مريم أُمّي! أَغيثيني، وارأَفي بي. آمين.

١٢ – ليون ويوّم

صلاة لعذراء الفقراء

يا عذراء الفقراء،
منذ القديم وافيتِ
إِلى هذه البقعة الموحشة المنعزلة،

ومنذئذٍ ما فتئتِ توافين.
تُنفِذين إِشاراتٍ لكلٍّ منّا،
وترشدينا إِلى السراط القويم.
تبتسمين لنا، ولا تتفوّهين بكلمةٍ،
تسيرين أَمامنا،
وتقودينا إِلى الأَجمات،
التي تصفر فيها الريح،
وينفخ فيها الروح،
وحيث الماء يتفجّر من بحيراتٍ خفيّةٍ.
يا عذراء الفقراء، نحن نقول لكِ شكرًا،
لأَنّكِ جئت، وما برحتِ تأتين،
لكي تخفّفي وطأة وحدتنا،
وتعيدينا إلى السبيل،
وتبدّدي رَيبنا وهواجسنا،
وتفتحي لنا أَبواب التطويبات.
يا عذراء الفقراء،
علّمينا الاستغراق في الصلاة،
والإِيمان بلا تحفّظ،
والتوسّل من أَعماق حمأتنا،
نحن الخطأة المساكين،
نحن أَسرى رفاهنا،
علّنا نفتح أَبوابنا،
ونفتح حدودنا،
ونفتح قلوبنا،
لدعوات الآب،
ولاحتياجات إِخوتنا.

١٣ - القدّيس توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤)

يلتمس الروح القدس من مريم العذراء

يا مريم، الحبّ الجميل، والخشية، والمعرفة، والرجاء المقدّس، أنتِ التي آتت شفاعتها أَبناءً كُثُرًا لها أن يحقّقوا تقدّمًا رائعًا في مضمار العلم والقداسة، مع أَنّهم كانوا، بذواتهم، زهيدي المواهب في ميادين الفكر والروح، إِنّني أَختارك دليلاً وشفيعةً في دروسي.

بما أَنّكِ كُرِّمتِ أَكثر من جميع القدّيسين بسطوع النور السماويّ، أَرجوك بتواضعٍ، بحقّ أَحشاء عطفكِ الأُموميّ، وخاصّةً بالحكمة التي تجسّدت فيكِ، هبيني، بشفاعتكِ، نعمة الروح القدس، لكي يقوى ذهني على الفهم، وتقوى ذاكرتي على الحفظ، وتقوى أَقوالي على التعبير عن كلّ ما من شأنه أَن يكون مفيدًا لي وللآخرين، إِكرامًا للكنيسة المقدّسة، ولاسم ابنك، ومن أَجل مجد الله، ومن أَجل خلاصي. آمين.

مراجع

P. PIE REGAMEY : **LES PLUS BEAUX TEXTES SUR LA VIERGE MARIE.**
Ed. La Colombe, Paris, 1942

RENÉ LAURENTIN : **MARIE , MÈRE DU SEIGNEUR.**
Desclée, Paris, 1999

HENRI CHANDAVOINE: **ANTHOLOGIE DE LE POÉSIE MARIALE.**
Cerf, Paris, 1993

JEAN VANIER : **VISAGES DE MARIE.**
Mame, Paris, 2001

ظهر للمؤلّف

- **قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب** (سلسلة دراسات كرمليّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ١٩٩٠

- **السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٢

- **فرنسيس ... أَصلحْ كنيستي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٤، (طبعة ثانية ٢٠٠٨)

- **صوتُ مَن لا صوت لهم: الأب بيير** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٧

- **حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ١٩٩٨

- **أنا، الأخت إيمّانويل، أشهد...** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٩

- **بولس، رسول يسوع، وقلبه، ولسانه** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٣

- **جان فانييه وسفينته** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ٢٠٠٣

- **أبانا** (سلسلة صفحات روحيّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٥

- **يسوع في إنجيله**، منشورات المكتبة البوليسّة، جونيه، ٢٠٠٦

- **يسوع في حياته**، (جزآن)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٦

- **أمّ الله أُمّنا**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٩

كتب مترجمة للمؤلّف

- **على درب الحياة مع ألكسي كاريل**، دمشق، ١٩٨٤، (طبعة ثانية ٢٠٠٠)
- **يد الله** (سلسلة الشهود)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٨٨**
- **ثلاث عشرة قصّة** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٠**
- **أيدٍ ملطّخةٍ بالدم** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٥**
- **اذكروا الله: تأمُّلات من وحي رسائل الصوفانيَّة**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٥**
- **سيرة المسيح** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه **٢٠٠٣**
- **حدّثني عن الحبّ** (سلسلة الشباب مستقبل الغد)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، (طبعة ثالثة **٢٠٠٥**)
- **كتاب الحكمة، والفضائل المستعادة: خمسون فضيلة لبناء الإنسان**، (سلسلة صفحات روحيّة ٣٥)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٧
- **العذراء في حياتنا** (سلسلة صفحات روحيّة ٣٦) – منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ٢٠٠٧

الفهرس

تمهيد ٥

العذراء في العهد القديم ٩

مريم في العهد الجديد ١٣

مريم في الأناجيل المنحولة ٢٣

الأدب المريميّ حتّى القرن العاشر ٢٥

القدّيس أَغناطيُس الأَنطاكيّ (استشهد عام ١٠٧) ٢٦

القدّيس يوستينُس (١٠٠– ١٦٥) ٢٦

القدّيس إيريناوُس (المتوفّى حوالي العام ٢٠٢) ٢٦

أوريجنُس (١٨٥– ٢٥٣) ٢٧

القدّيس أفرام (السريانيّ) (٣٠٦– ٣٧٣) ٢٧

صورة مريم كما رسمها القدّيس أثناسيُس الإسكندريّ (٢٩٥– ٣٧٣) ٣٤

القدّيس أميروسيُس، أسقف ميلانو (٣٣٩–٣٩٧) ٣٥

القدّيس جيروم (٣٣١– ٤٢٠) أحد آباء الكنيسة ٣٧

ملجأ الرحمة ٣٨

غريغوريُس النيصيّ (٣٣٥–٣٩٤) ٣٨

يوحنّا الذهبيّ الفم (٣٤٧– ٤٠٧) ٣٩

القدّيس كيرلّس الإسكندريّ (بطريرك الإِسكندريّة بين ٤١٢ و٤٤٤) ٤٢

القدّيس أوغسطينُس ٤٦

مريم في الكنيسة اليونانيّة ٤٩
باسيليُس، أسقف سيلوقيا (٤٥٩ +) ٥٠
فينانس فورتونا (٥٣٠– ٦٠٩) ٥٢
ثيوتكنُس، أسقف ليڤياس (+٦٥٠) ٥٣
القدّيس سفرونيُس الأورشليميّ (٥٥٠– ٦٣٩) ٥٣
رومانُس المنشد (٥٥٦ +) ٥٥
القدّيس إيلديفونس الطليطليّ ٨٣
القدّيس جرمانُس القسطنطينيّ (٦٣٥– ٧٣٣) ٨٤
القدّيس أندراوس الكريتيّ ٨٧
القدّيس يوحنّا الدمشقيّ (٦٧٥– ٧٤٩) ٨٧
القدّيس ثيودورُس الستوديّ (٧٥٩– ٨٢٦) ٩٥
أمبروسيُس أوتبيرت (قُبَيْل ٧٧٧+) ٩٦
باسشاز رادبير (٧٩٠– ٨٦٥) ٩٧
القدّيس ثيوفانس المنشد (من القرن التاسع) ٩٨
ميلون سانت أَمان (٨٧٢+) ٩٩
الأَدب المريميّ بين القرن الحادي عشر والقرن السادس عشر ١٠١
القدّيس پيير داميان ١٠١
القدّيس أنسيلم (١٠٣٣– ١١٠٩) ١٠٢
القدّيس برنار دي كليرڤو (١٠٩٠– ١١٥٣) ١٠٦
سلامٌ، يا أمّ الرحمة (نشيدٌ من القرن الثاني عشر) ١١٦
آدم دي سان ڤيكتور (١١٧٧+) ١١٦
پيير دي بلوا (١١٣٥– ١٢٠٤) ١١٨
عذوبة مريم ١١٩
أفراح مريم السبعة ١٢١
القدّيسة ميكتيلد (١٢٤١– ١٢٨٤) ١٢٣
القدّيس بوناڤانتورا (١٢٢١ – ١٢٧٤) ١٢٣
القدّيس توما الأكوينيّ (١٢٢٥– ١٢٧٤) ١٢٥
نيكولاس كابا سيلاس ١٢٦

الشاعر الإيطاليّ «دانتي» (١٢٦٥– ١٣٢١) ١٣٠
الشاعر الإيطاليّ پترارك (١٣٠٤– ١٣٧٤) ١٣٢
نوح العذراء (مؤلِّفٌ مُغفَلٌ من القرن الرابع عشر) ١٣٣
جان دومينيتشي (١٣٥٧– ١٤١٩) ١٣٤
برناردينو السييناّويّ (٨ أيلول ١٣٨٠– أيّار ١٤٤٤) ١٣٦
مارتن لوثير (١٤٨٣– ١٥٤٦) ١٣٨
القدّيس توما دي ڤيلّنيف (١٤٨٨– ١٥٤٣) ١٤٠
جان برتو (١٥٥٢– ١٦١١) ١٤٤
جاكّ داڤي دو بيرّون (١٥٥٦– ١٦١٨) ١٤٥

الأدب المريميّ منذ القرن السابع عشر حتّى اليوم ١٤٧

القدّيس فرنسيس الساليزيّ (١٥٦٧ – ١٦٢٢) ١٤٨
جان جاك أولييه (١٦٠٨– ١٦٥٦) ١٤٩
پيير كورنيي (١٦٠٦– ١٦٨٤) ١٥٠
الكردينال پيير دي بيرولّ (١٥٧٥–١٦٢٩) ١٥٣
بوسويه (١٦٢٧ – ١٧٠٤) ١٥٥
ماري القدّيسة تيريزا (١٦٢٣– ١٦٧٧) ١٦٣
غرينيون دي مونفور (١٦٧٣– ١٧١٦) ١٦٣
من أقوال القدّيس لويس ماري غرينيون دي مونفور (من كتابه «سرّ مريم») ١٦٨
القدّيس أَلفونس دي ليغوري (١٦٩٦ – ١٧٨٧) ١٧٤
الأب غرو (١٧٣١– ١٨٠٣) ١٧٧
هنري دومينيك لاكوردير (١٨٠٢– ١٨٦١) ١٧٩
ڤيكتور هوغو (١٨٠٢ – ١٨٨٥) ١٧٩
نوڤاليس (١٧٧٢– ١٨٠١) ١٨٠
الكردينال جون هنري نيومن (١٨٠١– ١٨٩٠) ١٨١
الأَب فريدريك وليم فابر (١٨١٤ – ١٩٦٣) ١٨٢
أرتور رنبو (١٨٥٤– ١٨٩١) ١٨٤
پول ڤرلين (١٨٤٤– ١٨٩٦) ١٨٦
الأب ليونس دي غرانميزون (١٨٦٨– ١٩٢٧) ١٩٠
البابا بيّوس العاشر (١٨٣٥– ١٩١٤) ١٩١

تيوفيل غوتييه (١٨١١–١٨٧٢)	١٩١
ليكونت دي لِيل (١٨١٨–١٨٩٤)	١٩٢
ألفونس دوديه (١٨٤٠–١٨٩٧)	١٩٣
القدّيسة تيريز الطفل يسوع (١٨٧٣–١٨٩٧)	١٩٤
البابا القدّيس لاون الثالث عشر (١٨١٠–١٩٠٣)	٢٠٢
شارل بودلير (١٨٢١–١٨٦٧)	٢٠٣
شارل پيغي (١٨٧٣–١٩١٤)	٢٠٤
فرانسوا كوپيه (١٨٤٢–١٩٠٨)	٢١١
الأخت إليزابيت الثالوث (١٨٨٠–١٩٠١)	٢١٢
ليون بلوا (١٨٤٦–١٩١٧)	٢١٤
پيير تيّار دي شاردان (١٨٨١–١٩٥٥)	٢١٥
فرنسيس جيمس (١٨٦٨–١٩٣٨)	٢١٦
غيّوم أَپولّينير (١٨٨١–١٩١٨)	٢١٩
الأب سيرتيلانج (١٨٦٣–١٩٤٨)	٢٢١
پول كلوديل (١٨٨٥–١٩٥٥)	٢٢٢
فرانسوا مورياك (١٨٨٥–١٩٧٠)	٢٢٩
لويس مرسييه (١٨٧٠–١٩٥١)	٢٣٠
ماري روجيه، المعروفة بـ ماري نويل (١٨٨٣–١٩٦٧)	٢٣٢
كارل بارث (١٨٨٦–١٩٦٨)	٢٣٣
جورج برنانوس (١٨٨٨–١٩٤٨)	٢٣٤
موريس زوندِل (١٨٩٧–١٩٧٥)	٢٣٦
جوزيف ماليغ (١٨٧٦–١٩٤٠)	٢٣٧
القدّيس مكسيمليان كولبي (١٨٩٤–١٩٤١)	٢٤١
جان پول سارتر (١٩٠٥–١٩٨٠)	٢٤١
الكردينال ستيفان ڤيزنسكي (١٩٠١–١٩٨١)	٢٤٢
جان كلود رينار (١٩٢٢–٢٠٠٢)	٢٤٤
هنري هولستين (١٩٠٦–١٩٨٠)	٢٤٦
يورغن مولتمن (من مواليد ١٩٢٦)	٢٤٧
البابا بولس السادس (١٨٩٧–١٩٧٨)	٢٤٧
صلوات	٢٥٢

القسّ البروتستانتيّ «شوان سينغ سونغ» من تايوان ٢٦٤
مارت روبان (١٩٠٥–١٩٨١) ٢٦٥
فرَنس كيري ٢٦٧
تاتيانا غورتشيفا ٢٦٨
جيلبير سيسبرون ٢٧٢
البابا يوحنّا بولس الثاني (١٩٢٠–٢٠٠٤) ٢٧٢
جيرترود فون ليفور (١٨٧٦–١٩٧١) ٢٧٧
ميشيل كواست (١٩٢١–١٩٩٨) ٢٧٧
بيتي أودو ٢٨١
آلان ليربريه (من مواليد ١٩٣٧) ٢٨٢
الكردينال إتشيغاراي ٢٨٣
جان پيير لومير (من مواليد ١٩٤٨) ٢٨٤
جان ڤانييه ٢٨٥
كيارا لوبيك ٢٩٢
هنري كافريل ٢٩٨
الكردينال شارل جورنيه (+ ١٩٦٥) ٢٩٩
صلوات إلى أُمّ الله ٣٠١
مراجع ٣١١
ظهر للمؤلّف ٣١٣
كتب مترجمة للمؤلّف ٣١٤
الفهرس ٣١٥

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر حزيران سنة **٢٠٠٩**